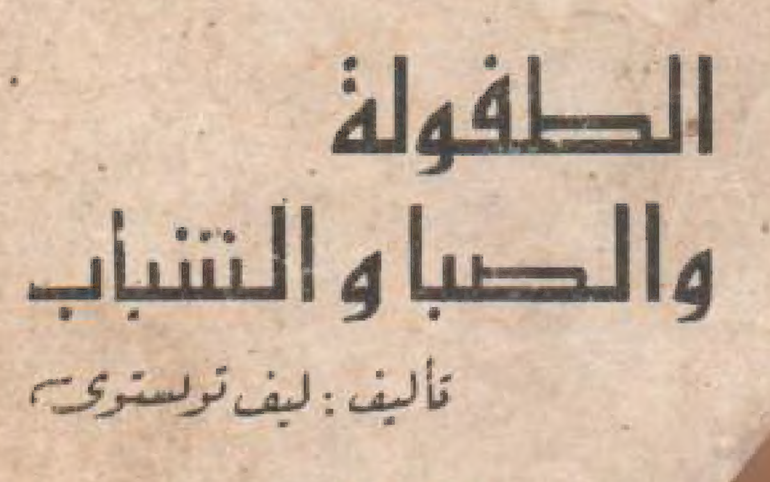


ترجمة : رمزي يسي

مراجعة : أحمد خاكي

الطفولة والصبا والشباب

تأليف : ليف تولستوى
ترجمة : رمزى يسى
راجعه : أحمد خاكى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٣

هذه ترجمة كتاب

Childhood, Boyhood, Youth

By : LEV TOLSTOI

ترجمة رمزى يسى   مراجعة الأستاذ احمد خاكى

Foreign Languages
Publishing House

الناشر

MOSCOW

الطفولة

(١)

« المعلم الخاص ، كارل ايفانتش »

•• فى اليوم الثانى عشر من أغسطس سنة ـ ١٨ (١) ، وهو اليوم الثالث بعد تاريخ ميلادى العاشر ، وكنت قد تسلمت هدايا رائعة للغاية ، أيقظنى كارل ايفانتش فى الساعة السابعة صباحاً وهو يضرب ذبابة بمذبة من ورقة مسكرة مثبتة الى عصا ، وقد فعل هذا بطريقة خرقاء حتى انه قلقل صورة ملاكى المعلقة على رأس سريرى المصنوع من خشب السنديان ، وسقطت الذبابة الميتة على رأسى مباشرة • واختلست النظر من تحت الغطاء وثبت الصورة التى كانت لاتزال تهتز ، ونفضت الذبابة الميتة الى الأرض ، ونظرت الى كارل ايفانتش بعينين حانقتين يساورهما النعاس ، ولكنه تابع طريقه بحذاء الجدران ، يصوب ويذب وهو فى عباءته القضفاضة منطقا بحزام من القماش ، لابسا على رأسه غطاء أحمر ذا عذبة محبوكة •

(١) ولد تولستوى فى سنة ١٨٢٨ بقرية ياسنايا بوليانا ، من اصل المانى • واستوطنت اسرته روسيا فى عهد بطرس الاكبر (المترجم) •

وقلت فى نفسى : « بفرض أننى صغير ، لماذا يقلقنى ؟ لماذا لا يقتل الذباب الذى يحوم حول فراش فولوديا ؟ ان هناك اكداسا منه • ولكن لا ، فان فولوديا أكبر منى سنا ، وأنا أصغر الجميع ، وهـذا هو السبب فى أنه يعذبنى •• ولا يفكر فى شىء آخر فى الحياة » وهمست قائلا : « اللهم الا عمل أشياء تكدرنى ، فهو يعلم تمام العلم أنه أيقظنى وأفزعنى ولكن ـ الرجل البغيض ـ يتظاهر بأنه لا يعرف هذا !! أما عباءته وغطاء رأسه ، وعذبته ـ فيالها من أشياء تثير الاشمئزاز » •

••وبينما كنت أعبر عقليا على هذا الوجه عن ضيقى بكارل ايفانتش ، اقترب من فراشه وتطلع الى الساعة المعلقة فوقه • وكان ينتعل خفا مطرزاً بخرز من الزجاج ، فعلق مذبته على مسمار ، ثم التفت نحونا ، وهو يبدو على أحسن حالاته العقلية • وصاح بصوته الألمانى اللطيف (١) : « انهض أيها الطفل ، انهض •• لقد حان الوقت •• ان أمك فى القاعة » •

ثم قصد الى ، وجلس عند قدمى ، فأخرج من جيبه علبة السعوط ! وتظاهرت أنا بالنوم ؟ وتناول كارل ايفانتش قبضة من السعوط ، ومسح أنفه ، وطقطق أصابعه ، ثم وجه انتباهه الى ، وأخذ يدغدغ قدمى ، ويضحك أثناء ذلك ، ثم قال « هيا ، هيا ياكسول » •

(١) كان كارل ايفانتش يتحدث بالالمانية عادة •

٠٠وعلى كثرة ماكنت أفزع من الدغدغة ، فانني لم أقفز من فراشي ، أو أجب بأية اجابة ، بل دفنت رأسي تحت الوسادة ، ورفست بكل ما استطعت من قوة ، واستخدمت كل جهد لتحاشي الضحك .

« ما أطيبه ، وما أشد حبه لنا ، ومع ذلك كنت أسيء به الظن كثيرا !! » .

٠٠ لقد كنت ساخطا على نفسي وعلى كارل ايفانتش ، وكنت أريد أن أضحك وأصرخ : لقد كانت اعصابي مضطربة .

٠٠ فصحت والدموع تترقرق في عيني : « آه ، أرجو أن تتركني ياسيدي ، » ودفعت برأسي من تحت الوسادة ، فكف كارل ايفانتش عن دغدغتي مندهشا ، وأخذ يستفسر باهتمام عن أمري : هل كنت أحلم حلما مزعجا ؟ وكان وجهه الألماني الحنون ، والعطف الذي حاول به جاهدا التكهن بسبب بكائي، كل ذلك أدى الى انهمار دموعي . واعتراني الخجل ، ولم أستطع ان أعرف كيف تمكنت منذ هنيهة أن أكره كارل ايفانتش ، وفكرت في أن عباءته وغطاء رأسه والعذبة كانت جميعا على العكس ، تبدو شيئا يبعث على السرور الى أبعد حد ، بل ان العذبة كانت تبدو برهانا واضحا على طيبته . وقلت له انني كنت أبكي لأنني رأيت حلما مزعجا ـ لقد رأيت أمي ميتة ، يحملونها الى الدفن . لقد اخترعت كل هذا ، لأنني في الحقيقة لم أعرف ماذا رأيت في حلمي تلك الليلة ، ولكن حين أخذ كارل

ايفانتش يهدئ، ثائرتي ويلاطفني ، متأثرا بقصتي ، خيل الى أنني رأيت بالفعل هذا الحلم المخيف ، ففاضت دموعي لسبب آخر .

٠٠ وعندما تركني كارل ايفانتش جالسا في فراشي أضع جوربي في رجلي الصغيرتين كفكفت دموعي الى حد ما ، ولكن الأفكار المقبضة ، أفكار الحلم الوهمي لم تفارقني . ودخل نيكولاى الخادم الخاص ـ وكان رجلا أنيقا صغيرا جادا على الدوام ، مدققا ومحترما، وصديقا حميما لكارل ايفانتش..أحضر ملابسنا وأحذيتنا وكان لدى فولوديا حذاء طويل ولكنني كنت لا أزال أستخدم ذلك النوع ذا الأشرطة غير المحتمل . ولقد خجلت من البكاء أمامه ، بالاضافة الى أن شمس الصباح كانت تشرق من النافذة بابتهاج، وكان فولوديا يقلد ماريا ايفانوفنا (مربية أختي) ويضحك بصوت مرتفع وطرب بالغ وهو واقف عند حوض الغسيل ، حتى ان نيكولاى الوقور ـ وكان يضع المنشفة على كتفه ، وقطعة الصابون في احدى يديه ، وحوضا يدويا في اليد الأخرى ـ ابتسم وهو يقول : « كفى يا فلاديمير بتروفتش ، اغتسل من فضلك » .

٠٠ وابتهجت أيما ابتهاج .

٠٠ وناداني كارل ايفانتش من حجرة الدرس قائلا : « هل أنت على وشك الاستعداد ؟ » .

٠٠ وكان صوته جافا ، لم يعد يتسم بتلك النغمة الحانية التي

هزتني حتى انهمرت دموعي • وكان كارل ايفانتش وهو في حجرة الدرس رجلا مختلفا كل الاختلاف ، كان المعلم الخاص • ارتديت ملابسي بسرعة ، واغتسلت ، ودخلت حجرة الدرس وأنا لا أزال أفرش شعري المبلل •

•• كان كارل ايفانتش ، وقد وضع نظارته على أنفه ، والكتاب في يده ، يجلس في مكانه المعتاد بين الباب والنافذة ، والى يسار الباب رفان للكتب : أحدهما خاص بنا – أي بالأطفال ، والآخر لأشياء كارل ايفانتش الخاصة ، وتكدست على رفنا كل صنوف الكتب – كتب مدرسية وغيرها : بعضها قائما والبعض الآخر في وضع أفقي ، ولم يكن هناك غير مجلدين كبيرين في « تاريخ الرحلات » بغلافين أحمرين في وضعهما الملائم مستندين الى الحائط، يليهما خليط من الكتب الطويلة والسميكة ، الكبيرة والصغيرة – أغلفة عاطلة من الكتب ، وكتب عاطلة من الأغلفة • وقد تعودنا حشر كل شيء وأسنا على عقب عندما كان يأمرنا بترتيب « المكتبة » – وهو الاسم الذي أطلقه كارل ايفانتش على الرف – أما مجموعة الكتب التي على رفه الخاص ، وان لم تكن كبيرة كمجموعتنا ، فانها كانت أكثر تنوعا وأتذكر ثلاثة منها – كتب ألماني في « تسميد حديقة الكرنب » وهو بدون غلاف ، ومجلد في « تاريخ حرب السنوات السبع » بغلاف من الجلد الرقيق ، احدى زواياه محترقة ، وسلسلة محاضرات في الاستاتيكا المائية • وكان كارل ايفانتش يقضي الشطر

الأكبر من وقته في القراءة حتى أضر ببصره نتيجة لذلك ولكنه لم يقرأ قط شيئا سوى هذه الكتب ومجلة « النحلة الشمالية » •

•• وكان بين الأشياء الموضوعة على رف كارل ايفانتش شيء يذكرني به أكثر من أي شيء آخر •• هو كمة مصباح مستديرة من الورق المقوى ، على قائم خشبي يمكن تحريكها الى أعلى والى أسفل بواسطة أوتاد من الخشب ، ملصق عليها صورة كاريكاتورية لسيدة وحلاق ، ولقد كان كارل ايفانتش يحذق كثيرا صنع أشياء كهذه، واخترع هو نفسه هذه الكلمة وصنعها لحماية عينيه الكليلتين من الضوء الساطع •

•• وأستطيع في خيالي الآن أن أرى قامته الطويلة في عباءته القطنية ، وغطاء رأسه الأحمر يظهر من تحته شعره الأشيب •• أراه جالسا الى منضدة صغيرة ، وكمة مصباحه وعليها صورة الحلاق، تلقي ظلا على وجهه ، يمسك باحدى يديه كتابا ، وتستند الأخرى الى مسند مقعده ، ووضع أمامه ساعته المرسوم على وجهها صورة صياد ، ومنديله ذا الخطوط المتقاطعة ، وعلبة سعوطه المستديرة السوداء ، وقراب نظارته الأخضر ، ومقص الفتائل موضوعا على الطبق • أما الترتيب الدقيق للغاية الذي يوضع به كل شيء في مكانه المحدد ، فيدعو المرء الى الجزم بأن طوية كارل ايفانتش صافية وعقله هادئ •

•• وكنت أحيانا بعد أن أجري في القاعة حتى ينالني التعب،

أتسلل صاعداً على أطراف قدمي الى حجرة الدرس ، فأجد كارل
ايفانتش جالسا وحده على مقعده ذي المسندين يقرأ بعض كتبه
المحبوبة وعلى وجهه طابع الهدوء والوقار • وكنت أقصد اليه
أحيانا أخرى في لحظة لم يكن يقرأ فيها ، بل يجلس هنالك
وحسب ، وقد تدلت نظارته فوق انفه ، يتطلع أمامه بعينيه الزرقاوين
نصف المغمضتين وعلى وجهه تعبير غريب ، وعلى شفتيه ابتسامة
مكتئبة • والحجرة يسودها الصمت الا من صوت تنفسه الهادىء ،
ودقات ساعة الصياد الخافقة •

•• ولم يكن ينتبه الى وجودي في كثير من الأحيان ، فأقف
عند باب الحجرة وأقول لنفسي : مسكين ، مسكين هذا الرجل
العجوز ! اننا كثيرون ، ونستطيع أن نلعب معا ونستمتع ـ ولكنه
وحيد ، ليس لديه من يشفق عليه •• انه يتيم • لقد قال لنا هذا
بنفسه ، وقصة حياته مؤسفة للغاية !! اني أذكره وهو يقصها على
نيكولاي : انه لمن المزعج أن يكون المرء في مثل هذا الموقف !!

كنت أشعر نحوه بأشد الأسف حتى أنني كنت أذهب اليه ،
وأتناول يده ، وأقول له : « عزيزي كارل ايفانتش ! » ولا بد أنه
كان يحب أن أقول له ذلك ، لأنه كان يدللني ، وكان تأثره
واضحا •

•• وعلقت على جدار آخر خرائط كلها كانت قد تمزقت
لولا أن يد كارل ايفانتش قد أصلحتها بمهارة • وعلى الجدار

الثالث ، الذي يتوسطه الباب المؤدي الى السلم ، علقت مسطرتان :
أحداهما متشققة كلها ـ وهذه مسطرتنا ـ أما الأخرى ـ الجديدة ـ
فهي مسطرته الخاصة ، وكانت تستخدم في « حكمنا » أكثر من
استخدامها في كراساتنا • وكان على الجانب الآخر من الباب سبورة
يبين عليها أخطاءنا الجسيمة بواسطة دوائر ، والأخطاء الأقل خطراً
بواسطة صلبان ، وكان على يسار السبورة الركن الذي نركع فيه
عندما نعاقب •

•• ما أقوى تذكري لهذا الركن !! انني أذكر صمام تنظيم
هواء المدخنة ، والثقب الذي يسمح بدخول الهواء الساخن ،
والضوضاء التي يحدثها هذا الصمام حين يدار • وكنت أقف في
ذلك الركن حتى تؤلمني ركبتاي ، وظهري ، وكنت أظن أن كارل
ايفانتش قد نسي كل شيء عني • « ان كل شيء يجري على مايرام ،
لأنه يجلس مستريحا على مقعده ذي المسندين ، ويقرأ الهيدروليكا
المائية ولكن ، ما هو موقفي ؟ » ولذلك ، فلكي أذكره بوجودي ،
كنت أفتح الصمام وأقفله برفق أو أقشر بعض الملاط من على
الجدار ، ولكن اذا سقطت أيضا قطعة كبيرة على الأرض فجأة
وأحدثت صوتا ، فالخوف وحده كان أسوأ من العقوبة كلها ، وكنت
أسترق النظر الى كارل ايفانتش ، فاذا هو جالس ، والكتاب في
يده ، كأنه لا يلاحظ شيئا •

• •وتقوم بوسط الحجرة مائدة عليها غطاء من المشمع ممزق

أسود تنفذ منه حواف المائدة ، ويمكن رؤية القطوع التى أحدثتها مبراة الأقلام فى عدة مواضع ، وحول المائدة عدة مقاعد عاطلة من الطلاء ، صقلها طول الاستعمال • أما الجدار الأخير فكانت تشغله ثلاث نوافذ تطل على الطريق ، وكانت كل ثغرة وحصاة وثلمة مألوفة لدى عزيزة عندى منذ أمد طويل • وكان على الجانب الآخر من الطريق شارع على جانبيه أشجار الزيزفون المتشابكة ، ويلوح على امتداده سياج من الأغصان الملتفة ، وفيما وراء الشارع يستطيع المرء رؤية مرجة على أحد جانبيها مخزن غلال ، وعلى الجانب الآخر غابة ، ويبدو على مسافة كوخ الحارس الصغير ، وتشرف النافذة الى اليمين على جانب من الشرفة المكشوفة حيث كان يجلس الكبار عادة قبل الغداء ، فاذا تطلعت الى هذه الناحية حيث كان يصحح كارل ايفانتش صفحة املائك فانك تستطيع أن تلمح رأس أمى الأسود ، وظهر شخص ما ، وأن تسمع أصوات أحاديث وضحكات خافتة ، ويضايقك عدم وجودك هناك ، وتقول لنفسك : « متى أصبح كبيرا وأنقطع عن الدروس حتى أستطيع الجلوس على الدوام مع أولئك الذين أحبهم بدلا من هذه المحاورات ؟ » ان المضايقات قد تتحول الى حزن ، وتملأ رأسك جميع ضروب الأفكار الغريبة حتى انك لاتكاد تسمع حتى كارل ايفانتش وهو ينهرك بسبب أخطائك ••

•• وأخيرا خلع كارل ايفانتش عباءته وارتدى معطفه الأزرق

ذا الذيل المشطور ، والحدبات والثنيات على الكتفين ، ونظم ربطة رقبته أمام المرآة ، ثم قادنا الى الطابق السفلى لتحيى والدتنا تحية الصباح •

(٢)

أمى

•• كانت أمى جالسة فى الردهة تصب الشاى : تحمل باحدى يديها ابريق الشاى وتمسك اليد الأخرى بصنبور الغلاية التى كان يتدفق منها الماء على سطح الابريق وينسكب على الصفحة وبالرغم من أنها لم تحول عنه ، الا أنها لم تشعر به ، بل لم تشعر بأننا قد دخلنا • ان كثيرا من ذكريات الماضى تقفز الى الذهن حين يحاول المرء تذكر معالم كائن محبوب ، حتى ليراها الانسان غائمة من خلال هذه الذكريات ، كأنه يراها من خلال دموع ، وهذه هى دموع الخيال • وحين أحاول تذكر أمى كما كانت فى ذلك الوقت ، لا يبدو لى منها شىء غير عينيها الداكنتين ، اللتين كانتا تعبران دواما عن الحب والحنان ، والخال الذى على عنقها تحت منبت خصلات الشعر الصغيرة مباشرة ، وشيقتها البيضاء المطرزة ويدها الرطبة الناعمة التى طالما كانت تدللنى ، والتى طالما قبلتها : ولكن صورتها الكاملة تغيب عن ذهنى •

•• والى يســار الأريكة يقوم « البيان » الانجليزى العتيق الضخم ، تجلس اليه أختى « ليوبا » ذات البشرة السمراء ، تعزف فى جهد واضـح مقطوعات « كلمنتى » التدريبية ، وقد تورد لون أصابعها اذ كانت قد غسلتها لتوها بالماء البارد • كانت فى الحادية عشرة من عمرها ، ترتدى ثوبا من الكتان ، مع سروال أبيض محكم ذى شريط مخرم ، واستطاعت أن تتدرب فقط على ثمانية سريعة التتابع ، وجلست بجوارها ماريا ايفانوفنا وهى تكاد تنصرف عنها ، وعلى رأسها غطاء ذو أشرطة وردية وسترة زرقاء • وازداد وجهها الأحمر الغاضب صرامة حين دخل كارل ايفانتش ورمقتـه بنظرة مخيفة دون أن تستجيب لانحناءته ، وراحت تعد ، وتدق بقدمها وفقاً للنغمات الموسيقية •• واحد ، اثنان ، ثلاثة ــ واحد اثنان ، ثلاثة ، وارتفع صوتها وتزايد احكاماً عن ذى قبل •

•• ولم يعر كارل ايفانتش هذا أى التفات ، وتقدم من أمى وحياها بالألمانية كالمعتاد • وراحت هى تهز رأســها كما لو كانت تطارد أفكارها المؤلمة ، وناولت يدها لكارل ايفانتش وقبلته فى صدغه عندما انحنى ليقبل يدها • وقالت « انى أشكر العزيز كارل ايفانتش » واستمرت فى التحدث بالألمانية ، فسألته قائلة :

« هل نام الأولاد نوما هادئا ؟ » •

•• كانت احدى أذنى كارل ايفانتش صماء فلم يسـمع آنئذ شيئا قط بسبب صوت « البيان » فزاد من انحناءته مقتربا من الأريكة

معتمداً بإحدى يديه على الأثاث ، واقفـاً على قدم واحـ[illegible]ة ، وفى ابتسامة خيل الى آنئذ أنها أسمى درجات التهذيب رفع قبعته وقال :

« أتسمحين لى يا ناتاليا نيكوليفنا ؟ » •

•• لم يحدث أن خلع كارل ايفانتش قبعتـه الحمراء مطلقا خوفا من اصـــابته بالبرد ، ولكنه كان فى كل مرة يدخل حجرة الاستقبال يطلب السماح له بلبسها •

•• وقالت أمى وهى تقترب منه وترفع صوتها : « دعها على رأسك يا كارل ايفانتش •• لقد ســألتك عما اذا كان الأطفال قد ناموا نوما هادئا ؟ » •

•• ولكنه للمرة الثانية لم يسمع شيئا ، ووقف بقبعته الحمراء على رأسه الأصلع ، وابتسم ابتسامة ودية لم يبتسمها من قبل •

•• وقالت أمى لماريا ايفانوفنا مبتسمة : « توقفى لحظة ، فانا لا نستطيع سماع شىء » •

كان وجه أمى جميلا ، لكنه أصبح أكثر بهاء بما لا يضـــارع عندما ابتسمت • ولو استطعت فى لحظات الحياة الشاقة أن أخطف ومضة وحسب من تلك الابتسامة لما عرفت للحزن معنى • ويخيل الى أن ما يسمونه جمالا ، انما يكون فى الابتسامة وحدها : فان حسنت الابتسامة بسحر الوجه ، فان ذلك الوجه يكون جميلا ، فان

لم تغيره الابتســامة ، فان الوجه يكون عاطلا من الجمال ، وان مسحته الابتسامة فان الوجه يكون قبيحا .

•• وعندما جيئنى أمى أخذت رأسى بين يديها ، وأحته الى الوراء ، وتفرست فى بامعان قائلة :

« هل كنت تبكى هذا الصباح ؟ » .

ولم أجب ، فقبلت عينى وسألتنى بالألمانية :

« لماذا كنت تبكى ؟ » .

•• عندما كانت تتحدث الينــا حديثا سارا ، كانت تخاطبنا بالألمانية التى أجادت معرفتها الى حد الاتقان .

وقلت : « لقد بكيت أثنــاء النوم يا أماه » وقد تذكرت حلمى الوهمى بكل تفاصيله واقشعر بدنى برغمى لدى التفكير فيه .

وأيد كارل ايفانتش كلامى ، ولكنه لم يذكر شيئا عن حلمى، وبعد حديث قصير عن الطقس اشتركت فيه ميمى أيضا ، وضعت أمى ست قطع من السكر على الصحفة لبعض الخدم ذوى الحظوة ، وذهبت الى نول التطريز القائم عند النافذة .

والآن ، اذهبا أيها الطفلان الى والدكما ، وأخبراه ، بضرورة حضوره الى دون تأخير قبل ذهابه الى البيدر » .

وتوقفت الموسيقى والعد والنظرات المخيفة ، وذهبنا الى بابا مجتازين الحجرة التى عرفت منذ أيام جدى « بحجرة أمين المخزن» ثم دلفنا الى حجرة المكتب .

(٣)

أبى

•• كان واقفا بقرب المكتب يشير الى بعض الأغلفة والأوراق وحزم الأوراق المالية ، ويتحـدث بحدة مع « الخولى » ياكوف ميخايلوف « الذى كان واقفاً فى مكانه المعتاد ، بين الباب والبارومتر، ويداه وراء ظهره ، يلف أصابعه ويلويها فى توتر عصبى .

•• وكلما زاد غضب بابا أسرعت حركة الأصـابع ، وعلى العكس كلما كف عن الكلام توقفت أيضا حركة الأصابع ، ولكن حين أخذ ياكوف نفسه يتكلم ، نمت أصابعه عن أشد الاضطراب . فكان يقفز بوحشية . وقد خيل اليه أنه من المستطاع التكهن بأفكار ياكوف الخافية من حركاته ، وكان وجهه من ناحية أخرى هادئا دائما ، معبرا عن الشعور بالكرامة ، وعن الخضوع فى نفس الوقت كأن لسان حاله يقول : « اننى على حق ، ولك أن تفعل ماتشاء !! »

وعنـدما رآنا بابا اقتصر على قوله : « انتظرا دقيقة » وأومأ الينا أن نغلق الباب .

وتابع حديثه مخاطبــا « الخولى » وهو يهز كتفيه ، وكانت هذه عادته » :

« يا الهى الرحيم ! ماذا دهاك اليوم يا ياكوف ، ان هـذا الغلاف بالسبعمائة روبل التى فيه ... » .

وهنا حرك لوحته الحاسبة ، وأحصى ثمانمائة روبل ، وأخذ يتفرس فى نقطة ما غير محددة ، وانتظر سماع ما سيأتى بعد .

« ... فللصرف على فلاحة الأرض أثناء غيبتى ، أفاهم أنت ؟ انك ستحصل من الطاحون على ألف روبل : حسنا ؟ وستحصل على ثمانية آلاف قيمة القروض من الخزينة فى مقابل « الدريس » الذى تستطيع أن تبيع منه وفقا لتقديرك الخاص بسبعة آلاف « بود » (١) — ثمنها خمسة وأربعون « كوبك » ، ولنفترض أنك ستحصل على ثلاثة آلاف ، والآن ، كم جملة ما ستحصل عليه ؟ اثنى عشر ألفا : هل ذلك صحيح ؟ » .

وقال ياكوف : « صحيح تماماً يا سيدى » .

.. ولكنى رأيت من حركة أصابعه السريعة أنه كان على وشك المعارضة فى نفس اللحظة حين قاطعه بابا .

وتابع بابا حديثه قائلا : « والآن ، ستُرسل عشرة آلاف روبل اذن الى المجلس ، الى بتروفسكوى ، أما المال الذى بالادارة (وهنا نحى ياكوف الاثنى عشر ألفا جانبا وأحصى واحدا وعشرين ألفا) ، فانك ستحضرها لى وتقيدها للمصروفات ابتداء من تاريخ

(١) بود : الواحد يساوى اربعين رطلا تقريبا .

اليوم » (ورفع ياكوف لوحته الحاسبة مرة أخرى ، ثم قلبها رأسا على عقب ، لعله يشير بذلك الى ان الواحد والعشرين ألفا قد اختفت بنفس الطريقة) ، أما هذا الغلاف الذى ينطوى على المال ، فأرسله لى بالعنوان المذكور » .

.. كنت واقفاً بالقرب من المائدة ، وألقيت نظرة على الكتابة. كان نصها « كارل ايفانتش موير » .

ولابد أن يكون بابا قد لاحظ أننى اطلعت على عمل لايعنينى، لأنه وضع يده على كتفى ، وبحركة ضئيلة أشار الى أننى يجب أن أبتعد عن المائدة ، ولم أدر ما اذا كان ذلك تدليلا أم تعنيفا ، ولكن مهما كان معناه ، فقد قبلت اليد الكبيرة القوية التى استقرت على كتفى .

.. وقال ياكوف : « حسنا يا سيدى ، وما هى أوامرك فيما يتصل بأموال خاباروفكا ؟ » .

وكانت خاباروفكا قرية تابعة لأمى .

«اتركها بالادارة ، واستغلها مهما يكن الأمر دون اذن منى» .

.. وظل ياكوف صامتا لحظات قصيرة ، ثم أخذت أصابعه تتحرك فجأة بسرعة زائدة ، وزايلته نظرة الغباء الذليلة التى كان يتسم بها عند اصغائه لأوامر سيده ، وتحولت الى نظرة ماكرة حادة وهى نظرته الطبيعية ، وجذب اليه لوحته الحاسبة ، وبدأ يتكلم :

« اسمح لى ياسيدى » بيتر الكساندروفتش أن أقرر ، ان من المحال أن ندفع للمجلس فى الموعد المحدد ، ولقد قلت ... » ثم تابع حديثه عامدا « لابد لنا ان نتسلم مالا من القروض ، ومن الطاحون ومن الدريس » وكان أثناء ذكره لهذه البنود يقلبها من اللوحة الحاسبة ، ثم أضاف قائلا بعد توقف ، وهو يحدج والدى بشدة : « وأخشى أن نكون قد تجاوزنا حسابنا قليلا » .

« لماذا ؟ »

« اسمح لى ياسيدى أن أوضح : أما عن الطاحون ـ فإن الطحان ، زارنى مرتين يطلب التأجيل ، ويقسم أنه لا يملك أى مال ، وهو هنا الآن ، فهل تتفضل بالتحدث اليه بنفسك ؟ » .

وسأله بابا وهو يشير بحركة من رأسه الى أنه لا يرغب فى التحدث الى الطحان : « وماذا يقول ؟ » .

« نفس القصة القديمة .. يقول ان ليس هناك عمل ، وان المال القليل الذى كان عنده قد صرفه على اقامة الجزان ، فاذا طردناه فأية فائدة تعود علينا ؟ والآن ، فيما يتصل بالقروض ، كما يروق لك أن تصفها ، فأظننى أبلغتك توا ان أموالنا غارقة هناك ، ولن نتمكن من الحصول عليها بسرعة . لقد أرسلت حملا من الدقيق الى المدينة منذ أيام قلائل ، الى ايفان أفاناستش ، مع مذكرة عن الموضوع فأجاب بأنه يكون سعيدا لو قدم خدمة لبيتر الكسندروفتش ، ولكن

الأمر ليس بيده ومن المتعذر أن تحصل على مخالصتك فى أقل من شهرين . وقد يسرك أن تتحدث عن الدريس : فلنفرض أننا بعناه بثلاثة آلاف .... »

.. وأشار الى الثلاثة الآلاف على لوحة آلته الحاسبة ، وظل صامتا برهة ، ينظر أولا الى اللوحة ثم الى عينى أبى كأنه يريد أن يقول :

« انك ترى بنفسك مقدار ضآلته ، هذا بالاضافة الى أننا سنبيعه بخسارة اذا بعناه الآن ، كما تعرف أنت بنفسك ... » .

.. من الواضح أنه كان يملك حصيلة وافرة وجاهزة من الحديث ، ولابد أن يكون قد قاطعه لهذا السبب .

فقال : « لن أغير من ترتيباتى ، ولكن اذا حدث تأخير بالفعل فى تسليم هذا المال ، فلن يكون هناك اذن شىء يعمل ، فلنأخذ ما هو ضرورى من موارد خاباروفكا .

وكان واضحا من تعبير وجه ياكوف ومن أصابعه أن ذلك الأمر الأخير قد منحه أكبر قدر من الرضا .

كان ياكوف عبداً رقيقاً ورجلا شديد التحمس والغيرة . وهو كجميع « الخولية » الأمناء ، شديد التقتير لصالح سيده ، ويرحب بأغرب الأفكار الممكنة فيما يتعلق بصالح سيده . وكان دائم التبرم بكل زيادة تضاف الى أملاك سيده على حساب أملاك سيدته ، وحاول

أن يشير الى ضرورة استثمار كل دخل أملاكها فى بتروفسكى (القرية التى كنا نعيش فيها) . وفى هذه اللحظة كان مظفراً لأنه حقق هدفه .

.. وحيانا بابا ، وقال لنا ان الوقت قد حان لوضع حد لبطالتنا : فلم نعد بعد أطفالا ، ويجب أن تبدأ الدراسة بجد .

وقال : لعلكما تعرفان أننى ذاهب الليلة الى موسكو ، وسأصحبكما معى ، وستعيشان مع جدتكما ، وستبقى أمكما هنا مع الفتيات ، وأنتما تعرفان أن عزاءها الوحيد هو أن تسمع أنكما تحسنان الدراسة وأن معلميكما الخصوصيين راضون عنكم » .

وبالرغم من أننا كنا نتوقع شيئا غير عادى نتيجة للاستعداد الذى ظل قائما لعدة أيام ، فان هذا الخبر سبب لنا ما يشبه الصدمة ، فاحمر وجه فولوديا ، وأعاد قراءة رسالة أمى فى صوت متهدج .

وقلت لنفسى : « هذا ما تنبأ به حلمى ، فلا تسمح اللهم بما هو أسوأ ! » .

لقد أسفت كثيرا جدا لأمى ، ولكنى سررت فى نفس الوقت عندما ساورتنى فكرة أننا أصبحنا كبيرين .

وقلت لنفسى : « اذا كنا سنرحل الليلة فلن نتلقى دروسا بالتأكيد ، وهذا رائع ، ولكنى حزين من أجل كارل ايفانتش ، انه سيفصل دون شك ، ولهذا أعد له ذلك الغلاف ، .. لا ، خير

لنا أن نظل فى دراستنا الى الأبد ، وألا نرحل ونفترق عن امنا ، لا نجرح شعور كارل ايفانتش المسكين .. انه لتعيس جداً !! » .

.. وعندما ومضت هذه الأفكار فى ذهنى وقفت دون حراك أتأمل الشرائط السوداء فى خفى .

وبعد أن قلت لكارل ايفانتش كلمات قليلة عن هبوط البارومتر وأمرت ياكوف ألا يطعم الكلاب لأنه قد يذهب بعد الغداء للقيام بتدريب الوداع لكلاب الصيد الصغيرة ، أعادنا بابا على عكس ماكنا نتوقع الى دروسنا ، وان كان قد طمأننا بأن وعد باصطحابنا الى الصيد .

.. وفى طريقنا الى الطابق العلوى جريت فى الشرفة المكشوفة ، وكانت الكلبة المطوقة « ملكا » الأثيرة عند بابا قابعة تطرف بعينيها فى ضوء الشمس عند الباب وقلت لها وأنا أربت عليها وأقبل أنفها : « ميلوتشكا ، سنرحل اليوم ، وداعاً ! سوف لايرى أحدنا الآخر » ، وغلبتنى العاطفة ، فانفجرت باكيا .

(٤)
الدروس

.. كان كارل ايفانتش متحرق المزاج كثيراً ، وكان هذا واضحاً من عبوس حاجبيه ، ومن الطريقة التى قذف بها سترته

الى صوان الملابس ، وأسلوبه الحاذق فى معالجة حزامه ، والعلامة الفائزة التى وضعها على كراسة المحادثة مشيرا الى القطعة التى يجب استذكارها • واستذكر فولوديا بجد ، أما أنا فقد كنت فى حالة من الاضطراب بحيث لم أفعل شيئا ايجابيا ، وتأملت فى بلادة كتاب المحادثة مدة طويلة ، ولكنى لم أستطع القراءة لأن الدموع تجمعت فى عينى عند التفكير فى الرحيل الذى ينتظرنا • وعندما حل دورى لأعيد القاء القطعة على مسمع من كارل ايفانتش الذى أغمض بعينين نصف مغلقتين (وهى علامة سيئة) ، ووصلت الى الموضع الذى يقول فيه المرء « من أين أتيت ؟ » ويجيبه الآخر بقوله : لقد أتيت من المقهى » ، لم أستطع كفكفة دموعى ومنعنى نشيجى من قولى : « ألم تترك الجريدة ؟ » •

ولما جاء وقت الكتابة ، بلغت البقع التى أحدثتها دموعى المتساقطة على الورقة حداً خيل الى عنده أننى أكتب بالماء على ورقة تغليف •

•• واستشاط كارل ايفانتش غضبا ، ودفع بى الى الركن وصرح بأن هذا العمل عناد ، ومهزلة صغيرة (وكان هذا تعبيره المفضل) ، وهددنى بالمسطرة ، وأمرنى أن أطلب منه الصفح ، وان كنت لم أستطع أن أفوه بكلمة بسبب بكائى ، ولابد انه شعر آخر الأمر أنه كان غير منصف ، لأنه دخل الى حجرة نيكولاى وصفق الباب خلفه •

•• وكان الحديث فى حجرة نيكولاى مسموعا فى حجرة الدراسة •

قال كارل ايفانتش وهو يدخل الحجرة : « أسمعت يانيكولاى ، ان الطفلين سيذهبان الى موسكو ؟ » •

وأجاب نيكولاى بلهجة تتسم بالوقار : « نعم ، لقد سمعت ذلك حقيقة » •

•• لابد أن تكون قد بدت منه حركة للنهوض ، لأن كارل ايفانتش قال : « لا ، لاتنهض يانيكولاى ! » ثم أغلق الباب ، وطلعت أنا من الركن وزحفت الى الباب لأصيخ السمع •

•• وقال كارل ايفانتش بتأثر : « مهما عملت خيرا للناس ، ومهما كان مدى اتصالك بهم ، فينبغى فيما يخيل الى يا نيكولاى ألا تنتظر منهم عرفانا بالجميل » •

وأومأ نيكولاى برأسه بالايجاب ، وكان يجلس بالقرب من النافذة يعمل فى صنع حذائه •

وتابع كارل ايفانتش حديثه ، رافعا عينيه وعلبة سعوطه نحو السقف : « لقد عشت فى هذا البيت اثنى عشر عاماً ، وأستطيع أن أقول أمام الله أننى أحببتهما ، وكان ميلى اليهما أكثر منه لو كانا طفلى بعينهما ، وانك لتذكر يا نيكولاى حين أصيب فولوديا بالحمى ،

كيف جلست بجانب فراشه ، ولم تغمض عيناى طوال تسعة أيام .. حقا !! لقد كنت آنئذ كارل ايفانتش الطيب العزيز ، وكنت لازما لهما فى ذلك الحين ولكن الآن .. » ثم أضاف بابتسامة مريرة : « الآن كبر الطفلان ، ويجب أن يدرسا بجد ، كأنهما لم يكونا ألبتة هنا يا نيكولاى » .

.. وقال نيكولاى وهو يضع مخرازه ويسحب خيطه بكلتا يديه : « لو سألتنى ، لقررت أنهما يدرسان كما يجب أن تكون الدراسة » .

.. فقال وهو يضع يده على صدره : « نعم ، لم تعد بهم حاجة الى بعد الآن ، يجب أن أبعد ، ولكن أين وعودهم ، وأين عرفانهم بالجميل ؟ اننى أحب ناتاليا نيكوليفنا واحترمها يانيكولاى ، ولكنها ماذا تكون ؟ ان رغبتها لم تعد ذات أهمية فى هذا البيت !! » وألقى بقطعة من الجلد على الأرض بحركة معبرة ثم قال فى زهو : « انى أعرف سبب ذلك ، وأعرف لماذا لم أعد ضروريا .. لأننى لا أتملق أو أستعطف كما يفعل بعض الناس .. لقد تعودت أن قول الحق دائما لكل شخص .. فليذنهم الله ! ان ابعادهم اياى لن يغنيهم فى شىء ، وسأعمل بمشيئة الله على كسب عيشى ... ألا أستطيع ذلك يا نيكولاى ؟ » .

.. ورفع نيكولاى رأسه ونظر الى كارل ايفانتش كأنه يريد

أن يؤكد له هو نفسه ، أنه يستطيع حقيقة كسب معاشه ، ولكنه لم يقل شيئا .

.. وتحدث كارل ايفانتش كثيرا على هذا الوجه ولج فى الحديث ، فقال ان خدماته قدرت أحسن من هذا بكثير فى بيت الجنرال فلان ، والجنرال فلان ، حيث كان يعيش من قبل (وتألمت كثيرا لدى سماعى هذا) ، وتحدث طويلا عن سكسونيا وعن والديه وعن صديقه شونهيت الخياط ، وما الى ذلك .

.. وعطفت على حزنه ، وآلمنى ، أن بابا وكارل ايفانتش اللذين كنت أحبهما حبا يكاد أن يكون متساويا ، لم يفهم أحدهما الآخر وعدت ثانية الى ركنى ، وجلست القرفصاء أتدبر طريقة لايجاد تفاهم بينهما .

.. ورجع كارل ايفانتش فى التو الى حجرة الدراسة وأمرنى أن أنهض وأعد كراستى لكتابة الاملاء . وعندما أعد كل شىء ، جلس فى تعاظم على مقعده ذى المسندين ، وفى صوت كأنه صادر من عمق بعيد بدأ يملى على بالألمانية :

« نكران الجميل من أدعى الشهوات الى الاشمئزاز » ثم سألنى : « هل كتبت هذا ؟ » . وهنا تريث قليلا ثم تناول فى بطء قبضة من السعوط ، ثم تابع املاءه فى نشاط مجدد ـ « نكران الجميل أدعى الشهوات الى الاشمئزاز » .. النون حرف كبير » .

وتطلعت اليه بعد كتابة آخر كلمة متوقعا ما هو أكثر .

•• وقال بابتسامة مكشوفة محسوسة : « نقطة وقف » وأومأ الى لأسلمه كراستى . وقرأ هـذا القول المأثور المعبر عن أعمق مشاعره عدة مرات ، ويشتى أنواع التنغيم ويمنتهى الرضا ، ثم قرر لنا درسـا في التاريخ ، وجلس بقرب النافذة ، ولم يكن وجهه مكتئبا كما كان من قبل ، بل عبر عن ابتهاج رجل ثأر لنفسه الثأر المناسب لأذى أحاق به .

•• كانت الساعة الواحدة الا الربع ، ولكن كارل ايفانتش لم يكن في نيته فيما يبدو أن يصرفنا ، بل استمر - على العكس - في توزيع دروس جديدة .

•• وتزايد الضجر والجوع بدرجة متسـاوية ، ولاحظت بأعظم قدر من نفاد الصبر جميع الدلائل التى تشير الى قرب الغداء ، فهنالك قدمت امرأة بمشقتها لغسل الأطباق ، واستطعت ان أسمع آنئذ قعقعة الصحون على السكرداك (البوفيه) وسمعتهم يحركون المائدة ويضعون المقاعد ، ثم دخلت ميمى من الحديقة مع ليوتشكا وكاتنكا (كاتنكا هى ابنة ميمى الكبرى وتبلغ من العمر اثنى عشر عاما) ، ولكن لم تقع العين على فوكا ، رئيس الخدم ، الذى كان يأتى دائما فيعلن عن اعداد الغداء ، وحينئذ فقط كنا نستطيع ان نلقى بكتبنا جانبا دون أن نعير كارل ايفانتش أى التفات ونسرع بهبوط الدرج .

•• وسمع آنئذ صوت وقع أقدام على السلم ، ولكنه لم يكن فوكا ! فأنا أعرف وقع أقدامه عن ظهر قلب ، وأستطيع ان أعرف دائما ضغط حذائه •• وفتح الباب وظهر شخص مجهول تماما .

(٥)

الحاج

•• دخل الحجرة رجل في نحو الخمسين ، ذو وجه مستطيل شاحب به آثار بثور ، وشعر رمادى ولحية متباعدة الشعر ضاربة الى الحمرة ، وكان من الطول بحيث لم يقتصر عند دخوله من الباب أن يحنى رأسه وحسب ، بل اضطر الى الانحناء بكل جسمه وكان يرتدى لباسا مهلهلا يشبه كلا من « القفطان » وقباء الكاهن ، وبيده عكاز غليظ يدق به الأرض بكل قوته أثناء دخوله الى الحجرة فاغر الفم ، مقطب الحاجبين ، وكان يضحك بطريقة بشعة غير طبيعية ، وكان أعور ، لا يكف انسان عينه الأبيض عن القفز ، ليضيف الى هيئته ، مع قبح قسماته ، بشاعة تشمئز منها النفس .

•• وصاح : « آ ، ها ! لقد وجدتك ! » ثم جرى نحو فولوديا في خطوات قصار ، وأمسك بيده ، وبدأ يفحص قمة رأسه فحصا دقيقا ، ثم تركه وقد ارتسم على وجهه تعبير جاد كل الجد ، وسار نحو المائدة ، وأخذ يدق مشمع المائدة ويرسم فوقه علامة الصليب ،

وقال فى صوت يتهدج بالعبرات وهو يتفرس فى فولوديا متأثرا : « آه ، يالقلعاو ! أوه ، يا للأسف ! انهما سيرحلان » ثم أخذ يمسح بكمه دموعه التى كانت تهطل بالفعل .

•• وكان صوته خشنا جافا ، وحركاته متعجلة مرتبكة ، وحديثه خاليا من المعنى وغير متصل ، ولكن نبراته كانت شديدة التأثير ووجهه القبيح الأصفر يتخذ أحيانا تعبيرا قويا فيه من الاخلاص والأسى ما يتعذر معه على السامع أن يكبح شعوره بالاشفاق الممتزج بالخوف والحزن .

•• كان هذا هو الحاج جريشا .

•• من أين أتى ؟ ومن هما والداه ؟ وما الذى أغراه باختيار حياة الحج ؟ لم يعرف ذلك أحد . ولكنى عرفت فقط أنه يتظاهر منذ أن كان فى الخامسة عشرة من عمره بأنه أبله ، يسير عارى القدمين شتاء وصيفا ، يزور الأديرة ، ويقدم صورا صغيرة لأولئك الذين يحظرون بخياله ، وينطق بكلمات غامضة ، يعتبرها بعض الناس نبوءة ، وان أحدا لا يعرف عنه طابعا آخر غير هذا ، وانه كان يزور جدتى اتفاقا ، وان البعض يقولون انه كان ابنا تعسا لأبوين ثريين ، وان روحه نقية قدسية ، بينما يعتقد آخرون أنه مجرد فلاح لا يصلح لشئ .

•• وأخيرا وصل فوكا المواظب على موعده والذى افتقدناه طويلا ، وهبط الدرج وتبعنا جريشا وهو يتشح ويتحدث لغوا ،

ويدق كل درجة من السلم بعكازه ، ودخل بابا وأمى حجيرة الاستقبال متشابكى الذراعين يتحدثان فى صوت خفيض ، وجلست ماريا ايفانوفا أولا على أحد المقاعد ذات المسندين المرصوصة فى تناسق على شكل زوايا قوائم بالنسبة للأريكة ، وهى تحذر الفتيات اللائى جلسن بجوارها فى صوت خفيض متجهم ، ثم رفعت بصرها حين دخل كارل ايفانتش الحجرة ، ولكنها لم تلبث أن أدارت وجهها بسرعة ، واتخذ وجهها مسحة يمكن ان تفسر ما تعنيه « انك تحت ملاحظتى يا كارل ايفانتش » . وكان واضحا فى أعين الفتيات أنهن كن شديدات الرغبة فى ابلاغنا بعض أخبار بالغة الأهمية بأسرع ما فى الطاقة ، ولكن هذا قد يكون مما يخالف قواعد « ميمى » أن يقفزن ويأتين الينا ، اذ لابد لنا أولا أن نذهب اليها ونقول لها « صباح الخير يا ميمى » مع حك القدم بالأرض .

•• كم كانت تلك « الميمى » مخلوقة متزمتة !! فقد كان من العسير التحدث عن أى شئ فى حضورها : كانت تعتبر كل شئ غير لائق ، وتحضنا فوق ذلك باستمرار على التحدث بالفرنسية وكان يحدث هذا كأنه نكاية بنا عندما نريد ان نثرثر بالروسية ، أو فى أثناء الغداء ـ حين تأخذ فى الاستمتاع بأكلتك ، وترغب فى أن تترك وحدك فيكون من المحقق ان تقول : « كلوا اذن الخبز » أو « كيف تمسكون بالشوكة ؟! » وقد تقول فى نفسك : « وماذا

يكون عملها معهن » دعهـــا تعلم فتياتها ـ فان لدينا كاوول ايفانتشى يهتم بنا » . لقد كنت أشاركه بغضه لبعض الناس كل المشاركة .

•• وهمست كاتنكا ، وهى تمسك بى عن سترتى عندما دخل الكبار الى حجرة الطعام : « اطلبوا من أمى اصطحابنا الى الصيد » . « حسن ، سنحاول » . وأكل جريشا أيضا فى حجرة الطعام ، ولكن على مائدة صغيرة منفصلة ولم يرفع عينيه عن صحنه ، وقد تجهم تجهما مخيفا ، وكان يتنهد مرارا ويتمتم لنفسه قائلا : « واحسرتاه لقد طارت .. ستطير الحمامة الى السماء .. آه ، هناك حجر على القبر ! » وما الى هذه العبارات .

•• وكانت أمى فى حالة انزعاج عقلى منذ الصباح ، وقد ضاعف وجود جريشا ، وكلماته وتصرفه على مايظهر من انزعاجها .

وقالت أمى وهى تناول بابا طبقا من الحساء : « آه ، نعم لقد أوشكت أن أنسى ان أطلب منك شيئا واحدا » .

« وما هو ؟ » .

« أرجوك أن تحبس كلابك المخيفة ، فقد كانت على وشك ان تعقر جريشـــا المسكين وهو يجتاز الفناء ، وربمـــا هاجمت الأطفال » .

•• ولدى سماع جريشا لاسمه التفت الى ناحية المائدة وأخذ يكشف عن أطراف ثوبه الممزقة ويتحدث وهو ممتلىء الفم .

« لقد أرادت أن تعقرنى حتى الموت .. ولكن الله لم يدعها تفعل .. انه لمن الاثم تحريض الكلاب ! لا تضرب ، يابولشاك(١) . لماذا تضرب ؟ ان الله سيغفر ، لقد تغيرت الأيام الآن » .

وسأل بابا وهو يتفرس فيه بجفاء وترو : « ماذا يقول ؟ انتى لا أفهم كلمة واحدة » . وأجابت أمى : « حسن ـ انا فهمت ، فهو يقول ان أحد الصيادين حرض كلابه عليه قاصدا فيما يقول ، أن تعضـــه حتى الموت وهو يتوســـل اليك ألا تعاقب الرجل على فعلته » .

وقال بابا : « آه ، عرفت ، ولكن كيف يعرف أنني أقصـــد معاقبة الصياد ؟ انك تعلمين أنني لست شديد الولع بهؤلاء السادة ، ثم أضاف بالفرنسية ، وهذا الشخص بنوع خاص لا يروق لى ، وينبغى أن ... » .

وقاطعته أمى ، كما لو كانت مذعورة : « آه ، لا تقل ذلك ، فماذا تعرف عنه ؟ » .

•• أظن ان الفرصة كانت كافية لدى لمعرفة وسائل هؤلاء الناس عن ظهر قلب ؛ ويأتى الى منهم عدد كاف ... وهم جميعا على غرار واحد ، والقصة نفسها تتكرر المرة بعد المرة » .

•• كان من الواضح ان رأى أمى مختلف كل الاختلاف فى هذه النقطة ولكنها لم تناقش .

(١) البولشاك هو كبير القرية أو العائلة أو الجماعة .

وقالت : « ناولنى فطيرة من فضلك ، أهى اليوم لذيذة ؟ » .

واستمر بابا فى حديثه وهو يتناول بيده فطيرة ، ولكنه يمسك بها على مسافة بعيدة عن متناول يد أمى قائلا : « انه ليضايقنى أن أرى أناساً عقلاء مثقفين يقعون فى الفخ » .

ثم ضرب المائدة بشوكته .

وأعادت أمى عبارتها وهى تمد يدها : « لقد طلبت ان تناولنى فطيرة » .

واستمر بابا فى حديثه وهو يبعد يده عن ذى قبل : « وهم يحسنون صنعاً حين .. يقبضون على أمثال هؤلاء الناس » ثم أضاف مبتسماً اذ أدرك أن حديثه قد ضايق أمى كثيراً ، وناولها الفطيرة وهو يقول : « والخير الوحيد الذى يفعلونه هو افساد الأعصاب الضعيفة عند أفراد معينين » .

عندى شىء واحد فقط أقوله فى هذا الموضوع : « انه لمن العسير أن أصدق أن رجلاً – بالرغم من بلوغه سن الستين – يسير عارى القدمين صيفاً وشتاء ، ويعلق سلاسل تزن «بودين» لا يخلعها مطلقاً من تحت ثيابه ، ويرفض أكثر من مرة عرضاً يهيىء له حياة ميسرة – من العسير أن أصدق ان مثل هذا الرجل يفعل كل هذا لمجرد الكسل » .

وأضافت أمى وهى تتنهد بعد تريث : « أما عن التنبؤ ، فقد تقاضيت ثمن ايمانى به ، وأظننى ذكرت لك كيف تنبأ كريوشا بنفس اليوم ونفس الساعة التى توفى فيها والدى » .

وقال بابا مصطنعاً الفزع وهو يضحك ويضع يده على فمه ، من الناحية التى تجلس فيها ميمى : « آه ، يا عزيزتى ، ماذا فعلت بى ! » (وعندما كان يفعل هذا كنت أصغى بانتباه شديد متوقعاً سماع شىء مسل) . : لماذا ذكرتنى بقدميه ؟ لقد نظرت اليهما ، ولن استطيع الآن أكل أى شىء .

.. كان طعام الغداء قد أوشك على النهاية ، وكانت ليوبوتشكا وكاتنكا تغمزان لنا دون توقف وهما تتململان على مقعديهما وأظهرتا قلقاً كبيراً ، وكانت غمزاتهما تشيران بطبيعة الحال الى السؤال : « لماذا لم تطلبوا منهم اصطحابنا الى الصيد ؟ » . ووكزت فولوديا بكوعى ، ووكزنى فولوديا وأخيراً استجمع شجاعته : فأوضح أول الأمر فى صوت هياب ، ثم فى صوت واضح ومرتفع كل الارتفاع بعد ذلك ، قائلا : انه لما كان لا بد لنا أن نرحل فى ذلك اليوم ، فانا نحب ان تصحب الفتيات فى العربة الى الصيد ، وبعد مشاورات قصيرة جرت بين الكبار ، تقرر الأمر لصالحنا ، وكان أكثر ما يدعو الى البهجة قول أمى انها ستأتى معنا هى الأخرى .

(٦)

الاعداد للصيد

وفي أثناء تناول الحلوى بعد الطعام استدعى ياكوفا فتلقى الأوامر الخاصة بالعربة والكلاب وخيل الركوب ـ فنسق كل شيء بأعظم جانب من التفصيل ، وعين كل حصان باسمه . وكانت مطية فولوديا عرجاء : فأمر بابا بأن يسرج له حصان صيد ، وكانت عبارة « حصان صيد » غريبة الوقع دائماً على أذنى أمى : كان يبدو لها أن « حصان الصيد » لابد أن يكون ذا طبيعة كطبيعة الحيوان المفترس ، ومن المحقق انه سيجرى بفولوديا ويقتله ، وبالرغم من تأكيدات بابا وفولوديا كلها ـ وتصريح فولوديا بشدة انه ملائم كل الملاءمة ، وأنه يحب الحصان حين يسرع ـ فان أمى المسكينة أصرت على انها ستكون منزعجة طوال الرحلة .

•• وانتهى الغداء ، وذهب الكبار الى المكتبة ليشربوا القهوة ، بينما جرينا نحن الى الحديقة لنحك أقدامنا على الممرات المغطاة بأوراق الأشجار اليابسة الصفراء ، ولنتحدث عن ركوب فولوديا حصان الصيد ، ومدى ما لحق ليوبوتشكا من خجل لأنها لم تستطع ان تضارع كاتنكا في السرعة وما كان من مزاحنا حين رؤية سلاسل جريشا ، وما الى ذلك . ولم تصدر كلمة واحدة عن افتراقنا ، وقطع حديثنا وصول العربة ، وكان يجثم على كل « باى » منها

خادم ، وجاء الصيادون بكلابهم وراء العربة يتبعهم الحوذى اجنات راكباً الحصان الذى عقد العزم على ان يركبه فولوديا ، يقود حصانى الصغير من جانبه . واندفعنا الى السياج لكى نشهد كل هذه الأشياء المسلية ، ثم صعدنا المدرج طائرين نتصايح ونضرب بأقدامنا الأرض لكى نرتدى ملابس أقرب ما تكون الى ملابس الصيادين ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وكانت احدى الوسائل لتحقيق هذه الرغبة هى أن نحشو سراويلنا فى أحذيتنا الطويلة ولم نضع وقتاً فى هذا العمل ، واندفعنا الى الخارج قاصدين الى عتبة الباب لامتاع أعيننا بالكلاب والجياد ، والثرثرة مع الصيادين .

•• كان اليوم حاراً ، وكانت السحب البيضاء ذات الأشكال الخيالية تحوم فوق الأفق منذ الصباح ، وبعد قليل بدأ يدفعها نسيم خفيف فتقترب شيئاً فشيئاً حتى كانت تخفى قرص الشمس فى الفينة بعد الفينة . وبالرغم من حلكة هذه السحب وتكاثرها ، فقد كان واضحاً انها لا تنذر بالتجمع لاحداث عاصفة مرعدة تعكر علينا صفونا فى آخر يوم لنا ، وأخذت تتفرق ثانية قرابة المساء : فتشحب لون بعضها ، واستطالت ثم أسرعت الى الأفق وتحول بعضها ، المسامت لنا مباشرة ، الى حلقات شفافة ، ولم تبق غير سحابة كبيرة داكنة تتسكع نحو الشرق ، وكان كارل ايفانتش يعرف دائما المكان الذى يتجه اليه كل نوع من أنواع السحب ، فأعلن أن هذه السحابة

ستتجه الى ماسلوفكا ، وأن المطر لن يهطل ، وأن الطقس سيكون لطيفاً .

.. وجرى فوكا بالرغم من تقدم سنه ، فهبط الدرج على جانب عظيم من الرشاقة وصاح قائلا : « انطلق ! » ومكن لقدميه المنفرجتين ، واتخذ لنفسه موقفاً وسط المدخل بين النقطة التى ينبغى ان تقف فيها العربة ، وبين عتبة الباب ، فكان فى وضع الرجل الذى لا يحتاج الى من يذكره بواجبه . وتبعته السيدات ، وبعد نقاش قصير حول من سيجلس على الجانبين ، ومن سيمسك به (مع ماكان يبدو لى من عدم وجود أية ضرورة للتشبث بأحد قط) ، وجلسن ثم فتحن مظلاتهن ، وسارت بهن العربة ، وأشارت أمى عندما بدأت العربة (١) سيرها الى حصان الصيد وسألت الحوذى فى صوت متهدج قائلة :

« هل ذلك هو الجواد الذى أعد لفلاديمير بتروفتش ؟ » .

وعندما أجاب الحوذى بالايجاب ، أشارت بحركة يسيرة من يدها وأشاحت بوجهها وكنت نافد الصبر : امتطيت جوادى ، ونظرت مباشرة فيما بين أذنيه ، وأخذت فى عمل مناورات مختلفة فى الفناء .

---

(١) نوع خاص من العربات القليلة الارتفاع المستعملة فى روسيا وهى ذات اربعة مقاعد ويطلق عليها « لينيكا Lineika » .

.. وقال لى أحد الصيادين : « احذر من فضلك أن تدوس أحد الكلاب » . فأجبته فى تعال : « لا تقلق لقد ركبت الجياد من قبل » .

وامتطى فولوديا حصان الصيد ، ولكن اعترته رجفة خفيفة بالرغم من طبعه العنيد ، وسأل عدة أسئلة بينما كان يربت عليه .

« أهو سلس القياد ؟ » .

وكان يبدو جميلا على صهوة الحصان ــ كأنه أحد الكبار ــ وكانت فخذاه على السرج فى جلسة بالغة الاتقان حتى لقد غبطته عليها ــ وخاصة لأننى حكمت بقدر ما استطعت أن أميز من ظلى ، اننى أبعد ما أكون عن تمثيل رشاقة المظهر .

.. ثم سمعنا وقع أقدام بابا على السلم : فساق ملاحظ الكلاب الصغيرة ، كلاب الصيد المتفرقة ، وجمع الصيادون كلابهم السلوقية وبدءوا يمتطون جيادهم ، وقاد « السايس » الحصان الى السلم ، واندفعت كلاب بابا التى كانت راقدة هنا وهنالك فى أوضاع مختلفة وجرت نحوه ، وجاءت بعدهم « ملكا » فى طوقها المزين بالخرز ، تجلجل بلجامها الحديدى فى مرح ، وكانت تحيى الكلاب الأخرى على الدوام حين تخرج ، فتلعب مع البعض ، وتتشمم أو تزمجر للبعض وتصيد البراغيث من الأخرى .

وامتطى بابا حصانه ومضى .

(٧)

الصيد

•• كان كبير الصيادين ويدعى توركا يركب حصانا رماديا داكناً في المقدمة ، ويلبس قبعة شعثاء ، ويضع على كتفه بوقاً ضخماً ، وفي حزامه سكيناً ، فسرعان مايخيل للمرء اذا حكم على مظهر الرجل انه ذاهب الى نزال منبت ، لا الى رحلة صيد ، وتجرى خلف حصانه كلاب الصيد ، متزاحمة كأنها حزمة متعددة الألوان متماوجة

•• وكان من المؤلم ان ترى ما حدث للكلب التعيس ، الذى أصر على السير متمهلا في الخلف ، وكان لا بد له ان يجر مقوده معه ، ولذلك فما ان فعل هذا حتى سارع واحد من ملاحظى الكلاب الراكبين بالمؤخرة فلسعه بسوطه قائلا : « هيا الى الجماعة » .

•• وعندما برزنا من الأبواب، أصدر بابا أمره الى والى الخدم أن نسير قدماً في الطريق ، بينما عرج هو الى حقل جاودار (١) .

•• كان محصول الحبوب فى كامل نموه ، والحقل الأصفر المشرق الممتد الى ما وراء البصر يحيط به من جانب واحد فقط غابة سامقة زرقاء ، كان يخيل الى في ذلك الحين انها في مكان شديد البعد والغموض تنتهى فيما وراء الدنيا ، أو يبدأ عنده اقليم غير

(١) نبات يشبه الشعير .

مأهول ، وكان الحقل مرقطا بأكداس من الحزم ومن الناس ، وكنت ترى هنا وهنالك على امتداد الماشى ظهر امرأة حصادة محنية بين سنابل القمح وهى تتداولها بين أصابعها ، أو امرأة أخرى مكبة فوق مهد وضع فى مكان ظليل ، أو حزما متفرقة فوق أعقاب الحنطة التى تشيع فيها أزهار العنبر ، والفلاحين على مبعدة يرتدون القمصان الطويلة ، ويقفون على عربات يوثقونها بالحزم ، ويثيرون سحباً من الغبار على الحقول الجافة التى لفحتها الشمس . وما أن لمح باباً من مسافة بعيدة النبيل صاحب الأرض بحذائه الطويل ، وقد أمسك فوق كتفيه الأرسال (١) وأمسك بقوائم الحصان ، حتى خلع قبعته المصنوعة من صوف الخراف ، ومسح بمنشفة شعر رأسه ولحيته الضارب الى الحمرة ، ونادى النساء . وركض الجواد الأشقر الذى يمتطيه بابا خببا فى خطوة نشيطة لعوب ، يحنى رأسه ويشد شكيمته الفينة بعد الفينة ، ويهش بذيله الغزير ، البعوض والذباب الذى التصق به متعطشاً اليه ، وكان كلبا صيد بذيلهما الملتويين كالمنجل يقفزان فى أذيال الجواد برشاقة فوق بقايا أعواد الحنطة ، وجرت « ملكا » فى المقدمة ، وقد أدارت رأسها الى الخلف مترقبة ، ان طنين الأصوات وضوضاء الخيل والعربات وزقزقة السمان، وأزيز الحشرات المعلقة أسراباً فى الهواء ، ورائحة الشيح والدريس وعرق الخيل ، وآلاف الألوان والظلال المتباينة التى تعكسها الشمس

(١) سترة طويلة فضفاضة يرتديها الفلاحون .

الحارقة فوق بقايا أعواد الحنطة اللامعة ، والغابة الزرقاء النائية ، والسحب البنفسجية الشاحبة ، وخيوط العناكب البيضاء الطافية في الهواء أو المستقرة على بقايا أعواد الحنطة ... كل ذلك رأيته وسمعته وأحسسته .

.. وعندما بلغنا غابات كاليوقو وجدنا العربة هنالك، ووجدنا على غير أي توقع منا ، المركبة التي جلس فيها خادم المائدة ، وقد برز من تحت القش ابريق الشاي وقصعة ملآى بالمثلجات ، وغير ذلك من مختلف الأسفطة والسلال الأخرى ، التي يشحذ منظرها الشهية ، وهذه دلائل لا تخطىء على اننا سنتناول الشاي والقشدة المثلجة والفاكهة في الهواء الطلق . وهتفنا بهجة لدى رؤية المركبة اذ كان شرب الشاي في الغابات على الحشائش ، وبخاصة في مكان لم يشربه فيه انسان من قبل يعد وليمة كبرى .

.. وحضر توركا الى هذه القرية الصغيرة ، ووقف مصغياً بانتباه الى توجيهات بابا الدقيقة كطريقة وقوفهم ومكان هجومهم (بالرغم من انه لم يتبع مطلقاً هذه التوجيهات وكان يعمل بالضبط ما يروقه) ، ففك الكلاب ورتب الأربطة على مهل ، وامتطى جواده واختفى وراء أشجار البتولا الصغيرة ، وبصبصت كلاب الصيد بأذنابها من فرحتها لفك اسارها ، فهزت أجسامها وتشممت الأرض ثم ولت الادبار في شتى الاتجاهات وهي لا تزال تبصبص بأذنابها.

وسألني بابا : « أالديك منديل ؟ » .

فأخرجت منديلا من جيبي وأريته اياه .

« حسن ، اربطه في هذا الكلب الرمادي » .

فتساءلت بلهجة العارف قائلا : « زيران ؟ » .

نعم ، اركض معه في الطريق ، فاذا ما وصلت الى مرجة صغيرة ، قف وتلفت حولك ولا ترجع الى بدون أرنب برى .

.. لففت المنديل حول رقبة «زيران» المنعثة الشعر وانطلقت بسرعة فائقة الى المكان المعين ، فضحك بابا وصاح بي قائلا :

« أسرع ، أسرع ، والا تأخرت كثيراً » .

.. وظل «زيران» واقفاً ، يرهف أذنيه ، يتسمع الى أصوات المطاردة فجذبته بكل قوتي ، ولكني لم أستطع حمله على الحركة حتى صحت به أستحثه « هيا ، هيا » ، فانفلت مسرعاً بحيث لم أملك معه الا بشق النفس ، وسقطت غير مرة قبل أن أصل الى مكاني ، وتخيرت مكاناً مستوياً ظليلا عند أصل شجرة سنديان حيث استلقيت على الحشائش وجعلت زيران يرقد الى جانبي ، وانتظرت. لقد سبق خيالي الواقع بكثير كما يحدث دائماً في مثل هذه الأحوال ، فكنت في تصوري كأنني أطارد بالفعل حين سمعت عواء أول صيد وجلجل صوت توركا عالياً واضحاً داخل الغابة ، وارتفع صوت صيد باك ، وتكرر الصوت مرة ومرة ، ثم لحق به صوت آخر أشد عمقاً ، ثم ثالث ورابع ، ولكن هذه الأصوات كانت تنخفض ثم ترتفع مرة

أخرى ، كلٌ منها يطغى على الآخر • ثم تعالت الأصوات شيئاً فشيئاً حتى ضاعت كلها فى جلبة مستمرة ، واستعادت الغابة لغتها كما يقول الصيادون ، فلقد انطلقت حيوانات الصيد فى أسرع عدو •

•• وتسمرت فى مكانى ، وثبت عينى على حافة الغابة ، وابتسمت فى بلاهة ، وكنت أتقطر عرقاً ، ومع ان القطرات كانت تدغدغنى وهى تسيل على ذقنى فاننى لم أمسحها فكانت هذه اللحظة كما بدا لى أكثر الأشياء حسماً ، وكان موقف الترقب هذا أقسى من أن يستمر طويلاً ، وكانت تصدر صيحة حيوانات الصيد آناً من حافة الغابة ثم تتراجع آناً ، ولكن لم يظهر هناك أى أرنب برى ، وتطلعت فيما حولى ، وكان زيران فى نفس الحالة ، يشد فى عنف ويشنج فى أول الأمر ، ثم رقد بجانبى واضعاً أنفه على ركبتى ولاذ بالهدوء •

وتجمعت أسراب النمل حول جذور شجرة السنديان العاتية التى جلست تحتها ، بأعداد لا حصر لها فوق الأرض الرمادية الجافة ، بين أوراق أشجار السنديان الذابلة وبذور البلوط وأعواد الطحلب النامية ، والطحلب الأخضر الضارب الى الصفرة ، وأوراق الحشيش الأخضر الرفيعة ، تسرع الواحدة اثر الأخرى على امتداد دروب صنعته هى لنفسها ، بعضها مثقل بحمله ، والبعض الآخر لا يحمل شيئاً البتة ، والتقطت غصناً ، اعترضت به طريقها ، وكان من العجيب أن أرى بعضها وقد تسلق الغصن مستخفاً بكل خطر ،

بينما ارتبك بعضها الآخر فيما يظهر ، وبخاصة من لم يكن يحمل شيئاً ، فلم يعرف ماذا يفعل فتوقف وبحث عن طريق آخر يدور حوله ، أو عاد أدراجه أو زحف فوق الغصن حتى بلغ يدى ، بقصد الدخول فى كم سترتى على ما بدا لى • وقد صرفتنى عن هذه اللاحظات السلبية فراشة ذات أجنحة صفراء كانت ترفرف أمامى بصورة مغرية ، فما أن وجهت اليها انتباهى حتى طارت مبتعدة على مسافة خطوتين تحوم حول برعم طرى من البرسيم البرى الأبيض الموشك على الذبول فاستقرت عليه ، ولا أدرى ما اذا كانت تريد أن تدفىء نفسها فى الشمس أم لتمتص من هذا العشب عصارته ، ولكن كان من الواضح أنها تستمتع • وكانت بين آونة وأخرى ترفرف بجناحيها وتقترب من الزهرة ، ثم توقفت فى النهاية عن الحركة ، فأسندت رأسى بكلتا يدى وأخذت أتطلع اليها بسرور •

•• أخذ « زيران » على حين غرة يعوى ، وجذبنى جذبة كدت أسقط من جرائها ، وتطلعت ، فاذا أرنب برى يقفز عند حافة الغابة ، متدلية احدى أذنيه والأخرى مرفوعة ، واندفع الدم الى رأسى ، ونسيت لساعتى كل شىء آخر ، وأطلقت صيحة طائشة ، وأفلت الكلب يعدو وراءه ، ولكنى أسفت بعد برهة أنى فعلت هذا ـ اذ أقعى الأرنب ثم وثب ، ولم أر شيئاً أكثر من ذلك •

•• ولكن كم كانت مذلتى حين تبعت حيوانات الصيد التى خرجت الى حافة الغابة تعوى ، وظهر توركا من وراء الأيكة !!

فرأى غلطتى (وهى عدم انتظارى) وتفرس فى باحتقار قائلا : « يا سيدى !! » ، ولم يقل غير ذلك ، ولكن لهجته جعلتنى أتمنى لو علقت فى سرجه مثل الأرنب .

ووقفت برهة طويلة فى نفس البقعة ، يائساً أعمق اليأس ، فلم أناد على الكلب ولم أستطع عمل شىء الا أن أضرب فخذى ، وأكرر هذا مراراً قائلا : « آه ، يا عزيزى ، ماذا فعلت !! » .

•• وسمعت أصوات عدو حيوانات الصيد عن بعد ، سمعتها تعدو بأسرع ما تطيق على الجانب الآخر من الغابة ، وتقتل الأرنب البرى ، وتوركا يستدعى الكلاب بسوطه الطويل : « ولكنى ظللت جامداً لا أتحرك من مكانى » .

(٨)

الالعاب

•• انتهى الصيد ، وفرش بساط فى ظل أشجار البتولا الصغيرة واجتمعت الزمرة كلها حوله ، وداس جافريلو خادم المائدة الحشيش الريان الأخضر تحت قدميه ، وجفف الأطباق ، وأفرغ سلال البرقوق والخوخ الملفوفة بالورق ، وكانت الشمس تضىء من خلال أغصان البتولا الصغيرة الخضراء ، وتلقى من حولنا أشعة مرتجفة ، على رسوم البسط ، وعلى قدمى ، بل على رأس جافريلو

الأصلع الندى بالعرق ، وكان يهب نسيم هادىء منعش من بين الأوراق يداعب شعرى ، ووجهى ينضح بالبخار .

•• وعندما أتينا على المثلجات والفاكهة لم يعد هناك شىء يربطنا بالبساط ، وبالرغم من ميل الشمس التى كانت أشعتها لا تزال حامية نهضنا وانصرفنا الى اللعب .

•• وقالت ليوبتشكا وهى تحجب عينيها عن الشمس وتثب فوق الخضرة : « وماذا نفعل الآن ؟ فلنلعب روبنصن ! » .

وقال فولوديا وهو يتمرغ متكاسلاً فوق الخضرة ويمضغ ورقة : « لا ، انها لعبة متعبة ، ونحن نلعب روبنصن دائماً !! فان كان لابد من لعب شىء ما ، فلنبن تعريشة » .

•• وكان من الواضح ان فولوديا كان يتصنع : لا بد انه كان فخوراً لأنه ركب حصان الصيد فادعى انه متعب للغاية ، أو أنه يمتاز بقسط كبير من حسن الادراك ، وقسط ضئيل جداً من الخيال لا يجعله يستمتع الى أقصى حد بلعبة روبنصن ، وتتضمن هذه اللعبة تمثيل مناظر مختلفة من روبنصن السويسرى (١) التى كنا قد قرأناه منذ وقت ليس ببعيد .

وألحت الفتيات ، فقالت كاتنكا وهى تحاول جذبه من على

---

(١) أسرة روبنصن السويسرية .

الأرض من كبى سترته : « آه ، يرجوك ••• لمجرد ادخال السرور الى قلوبنا ! » •

« انك ستقوم بدور تشارلز ، أو أرنست ، أو الأب ، أو أى دور تريد » •

فقال فولوديا وهو يتمدد مبتسماً راضياً عن نفسه : « انني لا أريد اللعب فى الحقيقة ، انه يبعث على الضجر » •

•• وقالت ليوبتشكا من خلال دموعها : « كان من الأفضل ان نبقى فى البيت اذا كان لا يريد أحد منا أن يلعب » •

وبكت وكان بكاؤها مزعجاً كما يكون بكاء الطفل •

تعالى اذن ، وحسبك أن تكفى عن البكاء ، فأنا لا أستطيع احتماله » •

•• ولم يمنحنا تساؤل فولوديا : الا قدراً قليلا جداً من الارتياح • بل على العكس ، أفسدت نفته الثقيلة المتكاسلة كل ما فى اللعب من فتنة، وحين جلسنا على الأرض متخيلين اننا سنخرج فى رحلة لصيد السمك وأخذنا نجدف بكل قوتنا ، أصر فولوديا على الجلوس ، وقد طوى ذراعيه فى وضع مصطنع يصلح لأى شىء آخر غير وضع صياد السمك • وقد قلت له ذلك ، ولكنه أجاب بأننا سوف لا نكسب مع ذلك شيئاً من التلويح بأذرعنا ، واننا لن

نسير بالتأكيد الى أبعد من ذلك ، وقد وافقته كارهاً ، وعندما تظاهرت بأننا سنذهب للقنص وخرجنا الى الغابات ، ووضعت العصا على كتفى ، انطرح فولوديا وظهره على الأرض ، واضعاً يديه تحت رأسه ، وطلب منى أن أتظاهر بذهابه هو الآخر • وأدت مثل هذه الأحاديث والتصرفات الى فتور اهتمامنا بالصيد ، وأصبحت بغيضة الى أقصى حد ، وبخاصة أنه لم تكن لنا حيلة فى شعورنا بأن فولوديا كان على حق •

•• كنت أعرف ، أنا نفسى ، أن اطلاق النار على طائر بواسطة عصا ، فضلا عن قتله ، أمر مستحيل ، ولكن هذا لم يكن غير لعب ، فان عللت الأمر تعليلا عقلياً على هذه الصورة ، فانك بالمثل لا تستطيع أن تجعل من المقاعد مطية تركبها • ولكنى ظننت أن فولوديا نفسه لا بد قد تذكر كيف كنا فى أمسيات الشتاء الطويلة نغطى مقعداً ذا مسندين بالقماش ونجعل منه عربة ذات عجلات صغيرة • وبينما كان أحدنا يركب فى مكان السائق كان الآخر يقوم بدور السايس، وتجلس الفتيات فى الوسط ، بالاضافة الى ثلاثة مقاعد تمثل جياد العربة (ترويكا) (١) الثلاثة ، ثم نخرج الى رحلة ، وكم من مغامرات مثيرة كانت تقابلنا فى الطريق ! فان التزمت الحقائق لما كانت هناك ألعاب ، واذا ذهبت الألعاب فماذا يبقى بعدها ؟•

---

(١) ترويكا اسم لنوع خاص من العربات المعروفة فى روسيا ، وتجرها ثلاثة جياد جنبا لجنب •

(٩)

شيء كالحب الأول

** تظاهرت ليوبتشكا بأنها تقطف بعض الفاكهة الأمريكية من شجرة ، فنزعت ورقة عليها دودة كبيرة ، فألقتها على الأرض في فزع ، ورفعت يديها واندفعت الى الخلف كما لو كانت تخشى أن تقذفها ببعض السم • وتوقف اللعب ، وانحنينا جميعاً لفحص هذا الشيء الغريب فتقاربت رؤوسنا بعضها الى بعض •

** ونظرت من فوق كتف كاتنكا وهي تحاول التقاط الدودة على ورقة وضعتها في طريقها •

لقد لاحظت ان فتيات كثيرات لهن طريقة انتفاضة خاصة بأكتافهن لسحب ثيابهن ذوات الفتحات الواسعة عند نحورهن لردها الى مكانها عندما تنزلق ، وأذكر ان هذه الحركة كانت دائماً تغضب «ميمي» فتقول : « هذه حركة تليق بخادمة حجرة النوم » • وقد أتت كاتنكا هذه الحركة وهي تنحني فوق الدودة ، وفي نفس اللحظة أطاحت الريح بالمنديل الأبيض من على عنقها فأصبح كتفها الصغير على مسافة قيراطين من شفتي ولم أعد بعد أنظر الى الدودة : تفرست وتفرست في كتف كاتنكا ، ثم قبلته بكل قوتي ، ولم تلتفت وراءها ، ولكني لاحظت ان عنقها بل وأذنيها استحالا الى اللون الأحمر ،

وقال فولوديا باحتقار دون أن يرفع رأسه : « يا لها من رقة ! » •

ولكن عيني امتلأتا بالدموع •

لم أستطع أن أحول عيني عن كاتنكا ، لقد ألفت منذ مدة طويلة وجهها الصغير الغض وأحببته دائماً ، ولكني بدأت الآن ملاحظته بانتباه أكثر ، ولا أزال أحبه بدرجة أعظم •

وعندما لحقنا بالكبار ، كان أشد ما أبهجنا ان أعلن أبي بناء على رجاء أمي ، تأجيل رحيلنا الى اليوم التالي •

وركبنا العربة الى البيت وعدونا راكبين ، فولوديا وأنا ، الى جانب العربة ، نتنافس معاً في استعراضنا للفروسية والجسارة • كان ظلي أطول من ذي قبل ، وتخيلت قياساً على ذلك انني أبدو كفارس لطيف جداً ، ولكن هذا الشعور بالرضاء عن الذات سرعان ما تحطم نتيجة للحادث التالي : فلرغبتي في أن أفتن جميع الراكبين في العربة ، تخلفت الى الوراء قليلاً ، وبضربة سوط وغمزة مهماز حينذاك أطلقت حصاني الى الركض ، وتظاهرت برشاقة غير متكلفة بقصد الانقضاض مارا بهم كالاعصار ، من الجانب الذي كانت تجلس فيه كاتنكا • ولكن في الوقت الذي كنت أحاول فيه بالضبط أن أقرر ما اذا كان الأفضل أن أركض صامتاً أم أصيح وأنا أمر بهم ، وقف الحصان القذر على غير توقع مطلقاً عندما وصل الى جياد العربة ، حتى أنني طرت من على السرج الى عنقه وكدت أقع بعيداً عن ظهره •

(١٠)

اى نوع من الرجال كان ابى

كان رجلا ينتمى الى القرن الماضى ، وأخلاقه مزيج لا يمكن تفسيره من الفروسية والاقدام والثقة بالنفس والمروءة والدعارة الشائعة فى شباب ذلك العهد ، وكان ينظر باحتقار الى الجيل الحاضر ، وقد نشأت نظرته هذه الى هذا الحد من الكبرياء الفطرية ، وكذلك من غيظ باطن لعدم قدرته على حسن استخدام الانتصارات عصرنا أو الاستمتاع بها كما استمتع فى أيامه السالفة . وكانت الشهوات المسيطرة على حياته هى لعب الورق والنساء . ولقد كسب فى مجرى حياته الملايين من لعب الورق ، وكانت له علاقات مع نساء لا يحصيهن الحصر من جميع الطبقات .

كان طويلا ذا منظر جليل ، ومشية متأنقة غريبة ، فيه لازمة هز الكتفين ، ذا عينين صغيرتين ضاحكتين أبدا ، وأنف كبير أعقف ، وشفتين غير عاديتين بل غريبتين ، وان كانتا مضمومتين بلطف ، ألثغ اللسان أصلع الرأس — كان هذا مظهر بابا منذ الوقت الذى فطنت له ، وهو مظهر لم يكسب به شهرته كرجل واسع الثراء ، وحسب — كما كان فى الواقع — بل ليجعل نفسه محبوبا عند كل الناس دون استثناء — أناس من جميع الطبقات والمراكز ، وبخاصة أولئك الذين كان يحب ارضاءهم .

وكان يعرف كيف يكون صاحب اليد العليا على الجميع ، وبالرغم من انه لم يكن ينتمى الى طبقة راقية جداً ، فانه كان يتحرك دائماً فى تلك المجالات ، ويدير الأمر بحيث يكون موضع احترام الجميع ، وكان يعرف بالضبط الدرجة التى تصل اليها كبرياؤه وثقته بنفسه وهما اللذان رفعا من قدره فى نظر العالم دون أن يغض من قدر الآخرين . وكان مبدعاً ، وان لم يكن هكذا على الدوام ، واستخدم ابداعه احياناً ، بديلا للسلالة أو الثروة ، ولم يكن فى الحياة شىء يمكن أن يثير شعوره بالدهشة : فبرغم تبعة مركزه ، كان يبدو أنه ولد له ، ولا يملك المرء الا أن يحسد قدرته على الاختفاء عن الآخرين ، وابعاد الجانب المظلم من الحياة ، بكل مضايقاته ومنغصاته الصغيرة .

وكان خبيراً بجميع الأشياء التى تهيىء الراحة أو السرور ، ويعرف كيف يستمد منها أكبر فائدة ، ويزهو بعلاقاته الممتازة التى كونها عن طريق زواجه بأمى من ناحية ، وعن طريق أصدقاء شبابه من ناحية أخرى . وكان يحمل لهؤلاء حقداً دفيناً لأنهم ارتقوا جميعاً فى وظائفهم ، بينما ظل هو نقيباً متقاعداً من قوة الحرس . ولم يكن يعرف كبقية الضباط القدماء كيف يرتدى الملابس على الطراز الحديث ، ومع ذلك فان رداءه كان مبتكراً وأنيقاً ، وثيابه دائماً فضفاضة خفيفة ، وملابسه الداخلية البيضاء من أفخر الأنواع ، وأكمامه وياقاته الواسعة مثنية الى الخلف ، فكان كل شىء يرتديه

يلائم فى الحقيقة طوله ومظهره القوى ، ورأسه الأصلع ، وحركاته الهادئة الواثقة ، وكان رقيق الشعور بل سريع الانفعال لدرجة البكاء فاذا ما بلغ أثناء قراءته بصوت مرتفع فقرة مثيرة للشجن ، فان صوته يأخذ فى التهدج ويسقط منه الكتاب فى معظم الأحيان ، وكان يحب الموسيقى ويغنى بمصاحبة « البيان » ويهوى القصص التى كتبها صديقه وأغانى الغجر ، وقليلا من نغمات الأوبرا ، ولكنه لا يأبه بالموسيقى الجادة ، ويقول صراحة ، مزدريا الرأى العام ، ان سوناتا بتهوفن تسلمه الى النوم ، وانه لم يعرف ما هو أروع من « لا توقظ الصبية » كما تغنيها مدام سيمنوفا ، و « لا أحد الا أنت » كما تغنيها المرأة الغجرية تانيوشا . وكانت طبيعته من تلك الطبائع التى لا غنى للشعب عن مآثرها . ولم يكن يقدر أو يحترم الا تلك التى تواضع العالم كله على تقديرها أو احترامها . وسواء أكان يدان أخلاقيا أم لا ، فهذا من العسير القول به ، فلقد كانت حياته مليئة للغاية بالدوافع من كل صنف حتى ان وقته لم يتسع للتفكير فيها ، وكان هائما فى حياته فلم يجد ضرورة للتفكير .

وعندما تقدمت به السن اكتسب وجهة معينة فى الحياة ، وقانونا جامدا للسلوك كان برغم ذلك عمليا خالصا ؛ فهذه الأعمال وهذه الطريقة فى الحياة التى نال بها السعادة والسرور ، اعتبرها خيرا ، واعتقد أن كل امرىء ملزم باتباعها . كان يتكلم بطلاقة ، فرفعت

هذه الصفة فيما يبدو لى من مرونة مبادئه : لقد كان قادرا على تصوير نفس العمل على أنه مرح فاتن أو أنه دعارة صريحة .

(١١)

فى المكتب وحجرة الاستقبال

كانت الدنيا قد أظلمت عندما وصلنا الى البيت ، وكانت أمى تجلس الى « البيان » وذهبنا نحن الأطفال فأحضرنا أوراقنا وأقلامنا وألواننا ، وجلسنا حول المائدة المستديرة لكى نرسم . ومع انه لم يكن لدى غير لون أزرق ، الا أننى قمت بتصوير القنص ، ورسمت بسرعة صبيا باللون الأزرق ، يمتطى حصانا أزرق ، وبعض كلاب زرقاء ، ولكنى لم أكن واثقا اذا كنت أستطيع رسم أرنب برى باللون الأزرق ، فجريت الى المكتبة أستشير بابا . وكان بابا يقرأ وأجاب على سؤالى دون أن يرفع رأسه : « أتوجد أرانب زرقاء » ، فأجبت : « نعم يا بابا العزيز ، هناك أرانب زرقاء » . ورجعت الى المائدة المستديرة ورسمت أرنبا أزرق ، ثم وجدت لزاما ان أحول الأرنب الأزرق الى شجيرة ، ولكن الشجيرة لم تعجبنى كذلك ، فحولتها الى دوحة ، والدوحة الى بيدر من الدريس ، ثم حول هذا الى سحابة ، وأخيرا رسمت مثل هذا الخليط على ورقتى كلها باللون الأزرق حتى اننى مزقتها ، وقد ضاقت نفسى بها ، وذهبت الى مقعد كبير ذى مسندين لأهجع قليلا .

كانت أمي تعزف قطعة « كنسرتو » فيلد « الثانية » ، الذى كان مدرساً لها ، ـ فأخذت أحلم ، وقفزت الى خيالى أضغاث أحلام براقة واهمة ، ثم عزفت « سوناتا بتهوفن الشجية » ، فاستحالت ذكرياتى مقبضة محزنة ، ولما كانت أمي تعزف هاتين المقطوعتين فى كثير من الأحيان ، فانني لأذكر جيداً الشعور الذى كانتا تثيرانه فى نفسى .. لقد كان شيئاً شبيهاً بالذكرى ـ ولكن ذكرى ماذا ؟ يبدو لى فى أغلب الظن ، اننى تذكرت شيئاً لم يحدث قط .

كان باب حجرة المكتب فى الجانب الآخر ، ورأيت ياكوف وبعض الرجال ذوى اللحى والقفاطين يدخلون ، وأغلق الباب وراءهم بعد دخولهم مباشرة . وقلت فى نفسى : « والآن قد بدأ العمل . وتراءى لى ان شيئاً فى العالم لا يمكن أن يكون أكثر أهمية من العمل الذى يقضى فى حجرة المكتب تلك ، ومما ثبت فكرتى هذه أن جميع من دخلوا من باب حجرة المكتب ، انما دخلوا على أطراف أصابعهم وتحدثوا همساً . ونفذ من خلال الباب صوت بابا المرتفع ورائحة السيجار التى كانت تثيرنى دائماً ، ولا أعرف لذلك سبباً . ودهشت أثناء اغفاءتى على المقعد لدى سماعى صرير حذاء مألوف لدى فى مخزن رئيس الخدم ، وظهر كارل ايفانتش وعلى وجهه مسحة من التصميم العابس ، يحمل فى يده بعض الأوراق ، ويسير على أطراف أصابعه الى الباب ، وطرقه بخفة ، وسمح له بالدخول وصفق الباب ثانية .

وقلت لنفسى : « آمل ألا يحدث شيء سيئ ، ان كارل ايفانتش غاضب ، وهو على استعداد لعمل أى شيء » .

ثم رحت ثانية فى اغفاءة .

ولكن لم تحدث كارثة . ولم تمض ساعة حتى أيقظنى نفس صرير الحذاء ، وخرج كارل ايفانتش من المكتب وهو يجفف عينيه ـ اللتين رأيتهما ممتلئتين بالدموع ـ بمنديله ، وصعد الدرج وهو يهمهم فى سره ، وخرج بابا فى اثره ودخل غرفة الاستقبال .

وقال مبتهجاً وهو يضع يده على كاهل أمي : « أتعرفين ماذا قررت ؟ » .

« وماذا قررت يا عزيزى ؟ » .

« سأصحب كارل ايفانتش مع الطفلين اذ يوجد له مكان بالعربة ، لأنهما ألفاه ، ويبدو ان علاقته بهما وثيقة جداً ، ثم ان سبعمائة روبل فى العام ليست بالمبلغ الكبير ، ثم انه فى الواقع عفريت لطيف جداً !! » .

.. ولم أستطع أن أعرف لماذا تحدث بابا عن كارل ايفانتش بهذا القدر من قلة الاعتبار .

وقالت أمي : « اننى لسعيدة جداً ، لصالح الطفلين ولصالحه .. انه عجوز طيب » .

« ليتك رأيت مقدار تأثره حين قلت له ان يتحفظ بالخمسمائة روبل كمنحة !! ولكن الذي يبعث على التسلية أكثر من أي شيء آخر ، هو هذه القائمة التي سلمها لي على التو ، فهي جديرة بالنظر » ثم أضاف بابا بابتسامة وهو يناولها قائمة مكتوبة بخط يد كارل ايفانتش « انها لتدعو الى الانبساط !! » .

وهذا ما كانت تضمه القائمة :

« صنارتان لصيد السمك للطفلين ، سبعون كوبك .

« ورق ملون ، حاشية مذهبة ، مكبس وغراء لصنع علب للهدايا ، ستة روبلات وخمسة وخمسون كوبك .

« كتاب وقوس ، هدية للطفلين ، ثمانية روبلات وستون كوبك .

« سروال لنيكولاي ، أربعة روبلات .

« ساعة ذهبية ، وعدني بيتر الكسندرتش باحضارها من موسكو سنة ١٨..... ، مائة وأربعون روبل .

« مجموع ما يستحقه كارل موير ، بالاضافة الى مرتبه ، مائة وتسعة وخمسون من الروبلات وتسعة وسبعون كوبك » .

.. ان من يقرأ هذه القائمة التي يطالب كارل ايفانتش بدفعها له ، لا بالنسبة للنقود التي صرفها على الهدايا وحسب ، بل بالنسبة

للهدية التي وعد بها لشخصه ، يظن ان كارل ايفانتش لم يكن أكثر من أناني شحيح قاسي القلب ـ وانه مخطيء جداً .

وعندما دخل المكتب بهذا البيان في يده ، والحديث معداً جاهزاً في رأسه ، كان يقصد ان يضع في طلاقة أمام بابا كل ما كابده في بيتنا ، ولكنه حين بدأ الكلام بذلك الصوت المؤثر ، وبتلك التنغيمات العاطفية التي اعتاد استخدامها عندما كان يملي علينا ، بلغ تأثره بفصاحته مبلغاً كبيراً ، حتى انه عندما وصل الى الموضع الذي يجب أن يقول فيه : « وبقدر ما يؤلمني انفصالي عن الطفلين » انهار وتهدج صوته واضطر الى جذب منديله ذي المربعات من جيبه .

وقال من خلال دموعه (ولم تكن هذه الفقرة موجودة في حديثه المعد) : « نعم ، يا بيتر الكسندرتش ، لقد ألفت الطفلين الى الحد الذي أصبحت معه لا أدري كيف أعيش بدونهما ... فدعني أبق معهما بدون مرتب » ثم أخذ يجفف دموعه باحدى يديه ، ويقدم القائمة بيده الأخرى .

ولمعرفتي بشفقة قلب كارل ايفانتش أستطيع الجزم باخلاصه . أما كيف وفق بين هذا البيان وبين كلماته فهذا لا يزال سرا غامضا علي .

وقال بابا وهو يربت كتفه : « اذا كان من المؤلم لك ان تفترق لهو أكثر ايلاما لنا . لقد غيرت رأيي » .

دخل جريشا الحجرة قبل طعام العشاء بوقت قصير ، ولم يكن منذ أن دخل المنزل قد انقطع عن التنهد والعويل ، وكان هذا فى نظر أولئك الذين اعتقدوا فى قدرته على التنبؤ علامة مؤكدة على أن شرا ما سيلحق بنا • وانصرف أخيراً وهو يقول انه انتوى الرحيل فى الصباح التالى ، فغمزت بعينى لفولوديا وغادرت الحجرة •

« ماذا هناك ؟ » •

« اذا كنت تريد رؤية سلاسل جريشا ، فلتصعد الى الطابق العلوى ، اذ ان جريشا ينام فى الغرفة الثانية ، وتستطيع رؤية كل شئ من حجرة المهملات » •

« هذا رائع ! انتظر هنا ، سأدعو الفتيات » •

وخرجت الفتيات مسرعات ، وصعدنا السلم ، وبعد نقاش قليل حول من يذهب أولا دخلنا حجرة السطح المظلمة وقبعنا هناك ننتظر •

(١٢)

جريشا

•• ثقلت وطأة الظلام علينا جميعاً ، تكدسنا معاً ولم نتكلم ، ودخل جريشا غرفته مباشرة بخطواته الساكنة ، يحمل عكازه

باحدى يديه ، وبيده الأخرى شمعة مثبتة فى شمعدان نحاسى فحبسنا أنفاسنا •

أخذ يصلى : « سيدى يسوع المسيح ! يا أم الله المتلئة بالنعمة! أيها الأب والابن والروح القدس ! » وكرر هذه الترنيمات والتلخيصات المختلفة الخاصة بأولئك الذين كثيراً ما اعتادوا تكرار هذه الكلمات •

وظل يصلى وهو يضع عكازه فى الزاوية ، وفحص فراشه ، وأخذ يخلع ملابسه وفك حزامه الأسود ، وخلع قميصه الممزق ، الأصفر القاتم ، وطواه بعناية وعلقه فى ظهر مقعد ، ولم يعد وجهه يتسم بطابع العجلة والبلاهة المألوفين ، بل على العكس ، كان رزيناً مكتئباً ، بل مهيباً ، وكانت حركاته متأنية مليئة بالتأمل •

وغاص فى قراته برفق بعد أن ارتدى ملابسه الداخلية ، ورمز بإشارة الصليب على جميع الجوانب وأحكم وضع سلاسله تحت قميصه بجهد واضح (لأنه تجهم) وبعد أن جلس هناك برهة وفحص بعناية عدة تمزقات فى ملابسه التيلية البيضاء ، نهض فرفع الشمعدان الى مستوى الهيكل الصغير القائم فى ركن الغرفة ، وكان يضم صوراً عدة ، ثم تلا صلاة وأشار بعلامة الصليب أمامها ، وقلب الشمعة رأساً على عقب فخبت ثم انطفأت •

ونفذ ضوء القمر الذى كان فى تمامه تقريباً من النافذة المطلة

على الغابة ، وسقطت أشعته الواهنة الفضية على جانب واحد من وجه المهرج الأبيض الطويل ، بينما كان الجانب الآخر في ظل قاتم ، غارقاً مع الأطياف التي يعكسها اطار النافذة على الأرض والجدران ، وتصل الى السقف من كل ناحية ، وكانت قعقعة الحارس تسمع في القناء السفلى •

وشبك جريشا ذراعيه الضخمتين فوق صدره ، وأحنى رأسه ووقف صامتاً امام الصور يتنهد ببطء ودون أن يقف ، ثم ركع في شيء من العناد وأخذ يصلي •

وتلا أول الأمر الصلوات المألوفة في رفق ، لا يضغط الا على كلمات معينة وحسب ، وكرر الصلوات ولكن بصوت مرتفع وانفعال أقوى ، ثم أخذ في استعمال كلماته الخاصة محاولا في جهد ظاهر التعبير عن ذاته بلغة سلافية • كانت كلماته متقطعة ولكنها مؤثرة ، صلى من أجل المحسنين اليه جميعاً (اذ انه ذكر أولئك الذين منحوه مأوى) ومن بينهم أبي ونحن ، وصلى لنفسه ، والتمس من الله أن يغفر له ذنوبه الفظيعة وقال : « يا الهي ، اغفر لأعدائي ! » • ونهض وهو يتأوه ويكرر نفس الكلمات من جديد ، ويهبط الى الأرض مرة ثم ينهض أخرى بالرغم من ثقل السلاسل التي كانت تحدث قعقعة كلما ارتطمت بالأرض •

وضغط فولوديا على قدمي بشدة ، ولكني لم ألتفت حولي مجرد التفاتة ، بل اكتفيت بدعك الموضع بيد واحدة ورحت أتابع

كل كلمة يفوه بها جريشا أو حركة يأتيها ، بشعور الدهشة والاشفاق والاحترام الذي يميز الطفولة •

وبدلا من المزاح والضحك اللذين كنت أتوقعهما عند دخولي غرفة السطح ، شعرت برجفة وهبوط في قلبي •

وظل جريشا وقتا طويلا على هذه الحال من التمجيد الديني والصلوات المرتجلة ، وكرر عبارة : « ارحمني يا ربي » عدة مرات متوالية ، ولكنه كان يكررها في كل مرة بقوة متجددة وتعبير جديد • أو ، « اللهم اغفر لي ، علمني يا الهي ماذا أفعل ، علمني يا الهي ماذا أفعل » في تعبير كما لو كان يتوقع استجابة سريعة لكلماته ، وفي بعض الأوقات كان يسمع فقط رثاء محزناً •• ونهض على التو راكعاً وشبك ذراعيه فوق صدره والتزم الصمت •

•• ودفعت برأسي الى الباب دون حراك وحبست انفاسي •• لم يتحرك جريشا ، وكانت تنهدات ثقيلة تمزق صدره ، وجمدت دمعة في عينه العوراء تلمع في ضوء القمر على حدقته المعتمة •

وصاح فجأة بتعبير يصعب وصفه قائلا : « فلتكن مشيئتك ! » ثم سجد بمقدم رأسه على الأرض وانتحب كالطفل •

ومضى زمن طويل منذ ذلك الحين ، وفقدت ذكريات كثيرة عن الماضي كل ما تعنيه بالنسبة لي ، وأصبحت مطموسة غير محددة المعالم كأنها الأحلام ، حتى الحاج جريشا قد انقضى وقت طويل منذ

أن انتهى من آخر حجة له ، ولكن الأثر الذى تركه فى والشعور الذى أيقظه فى نفسه لا يمكن أن يمحى من ذاكرتى .

.. آه يا جريشا ، المسيحى العظيم !! ان ايمانك كان من القوة بحيث جعلك تشعر بقربك من الله ، وكان من عمق حبك ان تدفقت الكلمات من بين شفتيك فيضا من نفسك ولم تحبسها فى نطاق عقلك ، وكم استطعت تمجيد عظمته ، حين لم تجد كلمات ، فارتميت على الأرض وانتحبت !!.

ولم يستطع التأثر الذى استمتعت به من جريشا البقاء طويلا ، اولا لأن فضولى كان قد أشبع ، وثانيا لأن ساقى كانا قد تصلبا لجلوسى فى موضع واحد ، ولأننى أردت المشاركة فى الهمس والحركة المسموعين من خلفى فى الظلام ، وأمسكت شخص بيدى وقال : « يد من هذه ؟ » لقد كانت الظلمة حالكة ، ولكنى عرفت باللمس والهمس بجانبى ، انها يد كاتنكا .

وأمسكت بذراعها من كمه ، وبطريقة خارجة عن وعيى ، ووصلت الى مرفقها فحسب ورفعته الى شفتى . ولا بد ان تكون كاتنكا قد دهشت ، لأنها جذبت يدها بعيداً فاصطدمت وهى تفعل هذا بمقعد مكسور كان بالحجرة ، ورفع جريشا رأسه وتطلع حوله وهو يتلو صلاة ، وأخذ يشير بعلامة الصليب فى جميع أركان الحجرة ، وجرينا نحن دون جلبة الى غرفة السطح هامسين بصوت مرتفع فيما بيننا .

(١٣)

ناتاشكا سافيشنا

.. فى نحو منتصف القرن الماضى كانت هناك فتاة تدعى ناتاشكا ، مهلهلة الثياب عارية القدمين ، ولكنها ممتلئة الجسم ، ذات وجنتين متوردتين ، دائمة المرح ، اعتادت التجول مسرعة فى الأفنية بقرية خاباروفكا وكان جدى قد أخذها الى الطابق العلوى ، أى انه جعلها احدى خادمات جدتى اعترافا بخدمات والدها ، سافا ، وهو رقيق عازف بوق ، وكان قد اختار هذا العمل لنفسه . وكانت ناتاشكا بوصفها خادمة تمتاز برقة طبعها وحماستها ، وعندما ولدت أمى احتاج الأمر الى مربية فعهد بهذا العمل الى ناتاشكا ، فظفرت فى هذا العمل الجديد بالمديح والمكافآت معا جزاء على عملها وأمانتها وتعلقها بسيدتها الصغيرة .

ولكن فوكا ، رئيس الخدم الشاب القوى ، برأسه المزين بالمساحيق ، وجواربه الطويلة ، ظفر بقلب ناتاليا الساذج الودود لكثرة اتصاله بها بحكم وظيفته ، وقد شجعها حبها فذهبت بنفسها الى جدى وطلبت اليه ان يأذن لها بالزواج من فوكا واذ رأى جدى فى طلب الفتاة نكرانا للجميل ، طرد المسكينة وعاقبها بابعادها الى قرية يملكها فى السهوب لتعمل راعية بقر . ومضت ستة أشهر ، ولم يستطع أحد ملء مكانها ، أعيدت ناتاليا للقيام بمهامها السابقة.

ولدى عودتها ذهبت الى جدى وارتمت على قدميه وتوسلت اليه أن يعيد لها حظوتها عنده وحنوه عليها ، وان ينسى رعونتها ، التى أقسمت ألا تتكرر ، وقد حافظت على قسمها .

وأصبحت تاتاشكا منذ ذلك اليوم تعرف باسم تاتاليا سافيشنا ، ولبست قبعة . ان جميع كنوز الحب التى ينطوى عليها قلبها ، قد منحتها لسيدتها الصغيرة فى سخاء .

وعندما حلت محلها فيما بعد مربية أخرى ، أسند اليها ادارة المنزل ، وعهد اليها بجميع الياضات والمؤن ، فقامت بهذه الواجبات الجديدة بنفس الحب والحماس ، وعاشت للحفاظ على متاع سيدها ، ورأت ان الاتلاف والتخريب والسرقة تقترفها كل يد ، فاعتبرت ان واجبها الملزم هو مقاومتها .

وعندما تزوجت أمي ، وأرادت مكافأة تاتاليا سافيشنا على خدمتها والتصاقها بالأسرة مدى عشرين عاما ، استدعتها وعبرت عن حبها لها والعرفات بجميلها ، بعبارات بالغة الاطراء ، وسلمتها وثيقة رسمية تعترف فيها بان تاتاليا سافيشنا امرأة حرة (١) وأضافت ان لها ان تتقاضى معاشاً سنوياً قدره ثلاثمائة روبل ، سواء استمرت فى خدمة المنزل أو لم تستمر ، وأصغت تاتاليا سافيشنا الى كل هذا فى صمت ، ثم تناولت الوثيقة بين يديها ، وفحصتها غاضبة ، وهمست

---

(١) يجب أن نذكر ان هذا كان فى عهد الاسترقاق .

بشيء من بين شفتيها ثم انفلتت الى خارج الحجرة ، وصفقت الباب خلفها ، فذهبت أمي الى حجرة تاتاليا مندهشة لتصرفها الغريب ، فوجدتها جالسة على صندوقها ، تفيض عيناها بالدموع ، تلوى منديلها بين أصابعها ، وتنظر عامدة الى قطع ورقة تحريرها المتناثرة على الأرض أمامها .

وسألتها أمي وهى تتناول يدها : « ماذا دهاك يا تاتاليا سافيشنا العزيزة؟ » ، فأجابتها : « لا شىء يا سيدتي العزيزة ، لا بد أن أكون منفرة لك بوجه من الوجوه ، ما دمت ترغبين فى طردي من البيت ... حسن ، سأنصرف » .

وجذبت يدها ، وكانت على وشك مغادرة الحجرة وهى تحبس دموعها بمشقة ، ولكن أمي منعتها وقبلتها ، ثم بكتا سوياً .

.. ومنذ ذلك الحين أستطيع أن أتذكر كل شيء ، فأنا أذكر تاتاليا سافيشنا ، وحبها ورقتها ، ولكني الآن فقط استطيع تقديرهما ـ اما فى ذلك الوقت فلم يدر فى ذهنى مطلقاً ، كم كانت هذه المرأة العجوز مخلوقة نادرة ، مدهشة . انها لم تقتصر على عدم التحدث عن نفسها وحسب ، بل يبدو انها لم تفكر فى نفسها قط : كانت حياتها كلها حباً وانكاراً للذات ، ولقد بلغ من اعتيادى حبها الرقيق لنا المبنى على انكار الذات ، انى حتى لم أتخيل شيئاً غير هذا ، ولم أعبر لها عن امتنانى على الأقل ، ولم أتوقف لأسأل نفسى عما اذا كانت سعيدة أم قانعة .

•• كنت أهرب من دروسي الى غرفتها متعللا ، وأروح أنسج أوهاماً بصوت مرتفع فلا أرتبك أقل ارتباك لوجودها ، وكانت دائماً تشغل نفسها بشيء ما : فاما أن ترفو الجوارب أو ترتب الصناديق التي تمتلىء بها غرفتها ، أو تحصى البياضات وتصغى في أثناء عملها الى جميع اللغو الذي أفوه به ، مثل « عندما أصبح قائداً سأتزوج بفتاة رائعة الجمال ، وأبتاع لنفسي جواداً أشقر ، وأبني بيتاً من البللور ، واستدعى جميع أقارب كارل ايفانتش من سكسونيا » ، وما الى ذلك ، فتقول : « نعم ، يا عزيزي ، نعم » وكانت عندما أنهض وأتأهب للرحيل ، تفتح صندوقاً أزرق بداخل غطائه ، فيما أذكر الآن ، صورة ملصقة لجندي راكب ، وصورة منزوعة من علبة مرهم ، ورسم بيد فولوديا ــ فتأخذ منه عوداً من البخور وتشعله ، وتقول لي وهي تلوح به : « هذا يا عزيزي بخور أوتشاكوف فعندما ذهب المرحوم جدك ــ أراح الله روحه ! الى الحرب ضد الأتراك ، أحضره معه من هناك » ثم تضيف قائلة وهي تتنهد :

« وهذه هي القطعة الأخيرة » •

وكانت الصناديق التي تملأ غرفة ناتاليا سافيشنا تحتوي على كل شيء على الاطلاق فاذا ما احتاج الأمر الى شيء ، تقول : « يجب أن تسأل عنه ناتاليا سافيشنا » والواقع أنها كانت بعد قليل من النبش تعثر دائماً على الشيء المطلوب • وتقول : « لقد كان من الخير أن

خبأتها في مكان بعيد » • وكانت في هذه الصناديق آلاف الأشياء التي لا يعرفها في البيت أو يهتم بها أحد سواها •

ولقد أغضبتني مرة غضباً شديداً ، واليك ما حدث : أسقطت الدورق بينما كنت أصب لنفسي شيئاً من جعة الخاودار فلطخت غطاء المائدة •

فقالت لي أمي : « استدع ناتاليا سافيشنا ودعها ترى ماذا فعل محبوبها » •

وجاءت ناتاليا سافيشنا ، فما ان رأت البقعة التي أحدثتها حتى هزت رأسها ، وحينئذ همست أمي بشيء في أذنها ، فخرجت وهي تشير الي بأصبعها •

•• كنت بعد الغداء في طريقي الى الردهة أقفز وأنا على أحسن حال من الابتهاج فاذا ناتاليا سافيشنا تندفع فجأة من وراء الباب ، وبيدها غطاء المائدة وأمسكت بي ، وأخذت بالرغم من مقاومتي اليائسة ، تدعك وجهي بالجزء المبتل من الغطاء وهي تصرخ: « لا توسخ غطاء المائدة أبداً ، لا توسخ غطاء المائدة أبداً ! » وبلغ من استيائي أن أخذت أهدر غضباً •

وقلت في نفسي وأنا أقطع الغرفة جيئة وذهاباً ، وأبتلع دموعي : « كيف تجرؤ على ضرب وجهي بغطاء مائدة مبلل كما لو كنت خادماً ! ، انه لشيء فظيع » •

وحلما رأتني أبكي انعمدت وتركتني أسير جيئة وذهاباً ، وأدبر الأحد شاذي من تلك « الناتاليا » الوقحة للاهانة التي ألحقتها بي » •

وعادت ناتاليا سافيشنا بعد دقائق قليلة ، فاقتربت مني على استحياء ، وحاولت تهدئتي •

والآن ياعزيزي ، لا تبك ، اغفر لي ، انني عجوز غبية ، وهذه غلطتي ، ستغفر لي يا عزيزي ، أليس كذلك ؟ خذ ، هذه لك » •

وأخرجت من تحت منديلها حزمة حمراء من الورق كان بها قطعتان من الحلوى وثمرة تين وناولتني اياها بيد مضطربة • ولم أستطع أن أتفرس في وجه المرأة العجوز الحنون ، بل درت ناحية وتناولت هديتها وفاضت دموعي من جديد ، لا غضباً في هذه الحالة ، ولكن حباً وخجلاً •

(١٤)

الرحيل

•• في الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي للحوادث التي ذكرتها ، وقفت كل من المركبة الصغيرة والبرتشكا بالباب ، وكان نيكولاي يرتدي ملابس السفر ، أي انه حشر سرواله في حذائه الطويل وكان معطفه القديم مشدود الحزام ووقف بجانب البرتشكا

يحزم المعاطف والوسائد تحت المقعد ، وعندما وجد أن الكومة أكبر مما يجب جلس فوق الوسائد وأخذ يثب فوقها ليضغطها •

وقال خادم أبي الخاص وقد انحنى فوق العربة الصغيرة مبهور الأنفاس : « ألا تستطيع يا نيكولاي ديمترتش ، بحق السماء أن تضع صندوق السيد بداخلها ؟ انه لا يستغرق مكاناً كبيراً » •

فأجابه نيكولاي بسرعة وغضب وهو يطرح حزمة على أرض البرتشكا : « كان ينبغي ان تقول ذلك من قبل » • ثم أضاف وهو يخلع قبعته ويمسح قطرات العرق الكبيرة من على حاجبه الذي لوحته الشمس : « يا الهي ، ان رأسي يدور • وهانت تأتي بصندوقك ! » •

وقف الخدم الرجال بمعاطفهم وقفاطينهم وقمصانهم حاسري الرءوس ، والنساء بثيابهن المخططة ، بأطفال على أذرعتهن وأطفال حفاة بالقرب من سقيفة الباب يراقبون المهمات ويتحدثون فيما بينهم ، وأمسك أحد الحوذية ــ وهو رجل عجوز محني الظهر يرتدي قبعة شتوية وقميصاً طويلاً أبيض ــ بعمود العربة الصغيرة وفحصه بدقة ، وعاين عمله باهتمام ، والآخر شاب حسن المظهر يرتدي قميصاً أبيض ذا مثلثين على الكتفين من قماش وبري أحمر ، وقبعة من صوف الخراف الأسود ، غطى بها أول الأمر احدى أذنيه ، ثم غطى بها الأخرى وهو يحك خصلات شعره الأشقر ، ووضع قميصه الأبيض على الصندوق ، وهناك ألقى الأعنة كذلك ، ويطرقع

بسوطه القشفور ، ويتأمل حذاءه حيناً ، والسائقين الذين يعملون فى تشحيم البرتشكا ، وكان أحدهم يبذل جهده فى رفع العجلة ، وآخر محنياً فوقها يشحم المحور ، بل ويدهن الحافة من أسفل لكى لا يذهب سدى شىء آخر من الشحم الذى على قطعة القماش . ووقفت عند السياج جياد البريد المرهقة من مختلف الألوان ، تهش الذباب بذيولها — بعضها رسخت أرجلها المشعثة المتفحة متباعدة وأغمضت عينيها فى اغفاءة ، وأخرى أتعبها طول الوقوف جامدة فأخذت تحتك مع بعضها البعض ، أو تقطف أوراق السرخس وسيقانه الخضراء القائمة المزروعة بالقرب من السقيفة ، ورقدت عدة كلاب سلوقية تلهث فى الشمس ، ويتسكع بعضها فى الظل تحت العربات ، وتلعق الشحم من حول محاور العجلات .

وكان الجو كله محملا بنوع من ضباب الغبار ، وكان لون الأفق بنفسجياً ضارباً الى الرمادى ، ولكن لم تكن هناك أية سحابة صغيرة فى الجو . ورفعت الرياح الغربية القوية أعمدة التراب من الطرقات والحقول ، وأمالت نواصى أشجار الزيزفون والبتولا السامقة فى الحديقة ، وحملت الى مسافة بعيدة الأوراق الذابلة الصفراء . وجلست بقرب النافذة أنتظر بفارغ الصبر انجاز جميع هذه الترتيبات .

.. وعندما التأم الجميع حول المائدة الكبرى بغرفة الطعام لقضاء دقائق قليلة معاً لآخر مرة ، لم يخطر ببالى ان هذه لحظة مؤلمة

فى انتظارنا ، وكانت أكثر الأفكار تفاهة هى التى تجول بذهنى ، حاولت أن أخمن أى حوذى هو الذى سيقود العربة الصغيرة وأيهم سيقود البرتشكا ، من سيسافر مع أبى ، ومن مع كارل ايفانتش ، ولماذا يجب ان ألتف بوشاح ومعطف فضفاض طويل .

« هل أنا رقيق البنية الى هذا الحد ؟ اننى لن أتجمد ، وأرغب فى الانتهاء من هذا بأسرع ما يمكن !! أريد ركوب العربة والابتعاد » .

ودخلت ناتاليا سافيشنا بعينين متورمتين باكيتين وبيدها القائمة وسألت أمى : « لمن أعطى قائمة بياضات الطفلين ؟ » .

« أعطيها لنيكولاى ، وتعالى لتوديع الطفلين » .

حاولت المرأة العجوز ان تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة ، وغطت وجهها بمنديلها وغادرت الغرفة وهى تلوح بيدها .

وضاق قلبى بالألم عندما رأيت هذه الحركة ، ولكن تعجل الرحيل كان أقوى من ذلك الشعور ، فأخذت أصغى الى حديث أبى مع أمى دون اهتمام ، كانا يتحدثان عن أشياء من الواضح انها لا تهم أحدهما : ماذا كان يهم الحديث عن ابتياع منزل ، وماذا يجب أن يقال للأميرة صوفى والسيدة جولى ، وهل سيكون السفر مريحاً ..

ودخل فوكا ، ووقف على عتبة الباب وأعلن : « ان العربات

جاهزة » بنفس اللهجة التي قال بها « ان الغداء معد » ولاحظت ان أمي ارتعدت وشحب لونها عند هذا الاعلان كأنها لم تكن تتوقعه.

وصدر الأمر الى فوكا بإغلاق جميع أبواب الحجرات (١) ، وأظن أن هذا الأمر مضحك جداً ، كأننا جميعاً كنا مختبئين من شخص ما ؛ .

وعندما جلسنا جميعاً ، جلس فوكا أيضاً على حافة مقعد ، ولكن ما ان فعل هذا حتى انفتح الباب فالتفت نحوه الجميع ، ودخلت ناتاليا سافيشنا على عجل ، وجلست دون أن ترفع عينيها على نفس المقعد مع فوكا . ويبدو لي حتى الساعة انني أرى رأس فوكا الأصلع المغضن ، ووجهه الجامد ، وشكل انحناءة قبعته التي يظهر من تحتها الشعر الأشيب ... لقد كانا محشورين في مقعد واحد ، وشعر كل منهما بالحرج .

وظللت غير مهتم ، نافد الصبر ، وخيل الى ان الثواني العشر التي جلسناها هناك والأبواب مغلقة كأنها ساعة كاملة . وأخيراً نهضنا جميعاً ورسمنا اشارة الصليب وأخذنا نتصرف ، واحتضن أبي والدتي وقبلها عدة مرات .

وقال والدي : « كفى يا عزيزتي ، انا لن نفترق الى الأبد » .

(١) عادة روسية قديمة : وهي اغلاق جميع الأبواب والجلوس برهة قبل بدء رحلة طويلة .

وقالت أمي بصوت يرتجف بالبكاء : « ولكنه مؤلم مع ذلك » .

وعندما سمعت ذلك الصوت ، وشاهدت شفتيها الراجفتين وعينيها الفيروزتين نسيت كل شيء ، وشعرت بأشد الحزن والتعاسة ، وارتعدت الى الحد الذي قتلت معه القرار على قولي لهما وداعاً ، وأدركت في تلك الآونة حين احتضنت والدتي ، انها ستودعنا على التو .

وقبلت فولوديا ورسمت عليه اشارة الصليب مرات عدة ، وظننت أنها ستتحول الى آتية ، خطوت الى الأمام ، ولكنها استمرت في مباركته وضمه الى صدرها ، وأخيراً احتضنتها وتشبثت بها ، وبكيت دون أي تفكير فيما وراء حزني .

وعندما خرجنا لركوب العربة تقدم الخدم المتعبون بالغرفة الملاصقة لتوديعنا ، فكانت عبارة : « اعطني يدك ياسيدي من فضلك » وتقبيلهم الصاخب لأكتافنا ، ورائحة الشحم على رؤوسهم أثارت في نفسي شعوراً شبيهاً بشعور الاشمئزاز ، وتحت تأثير هذا الشعور قبلت ناتاليا سافيشنا بفتور شديد على قبعتها ، وحيتني تحية الوداع وهي غارقة في دموعها .

.. ومن العجيب أنني حتى الآن أستطيع رؤية وجوه هؤلاء الخدم ، وأستطيع تصويرهم مع كل التفاصيل الدقيقة ، ولكن وجه امي وهيئتها قد غابت عن ذهني تماما ، ولعل السبب هو أنني طوال

ذلك الوقت لم أستطع مرة استجماع شجاعتي للتفرس فيها ، اذ كان يخيل الى انني اذا فعلت فلا بد أن يزيد حزنها وحزني الى حد لا يحتمل .

واندفعت الى العربة الصغيرة في مقدمة الآخرين ، وجلست على المقعد الخلفي ولما كان ظهر المقعد مرتفعاً ، فانني لم أستطع رؤية شيء ، ولكن دافعاً فطرياً قال لي ان أمي لا تزال هناك .

وقلت لنفسي : « هل أنظر اليها ثانية ، أم لا ؟ حسن ، فلتكن اذن آخر مرة ! » ثم انحنيت الى خارج العربة نحو سقيفة الباب ، وفي هذه اللحظة كانت أمي قد انتقلت الى الجانب الآخر من العربة لنفس الغرض ونادتني بالاسم ، وحين سمعت صوتها من خلفي التفت ورائي ، ولكني فعلت هذا فجأة حتى أن رأسينا ارتطما معا فابتسمت بأسى وقبلتني طويلا وبحرارة لآخر مرة .

ولم أتجاسر على النظر اليها الا بعد أن سارت العربة بضع خطوات ، ورفع النسيم المنديل الأزرق الذي كانت تربطه حول رأسها ، وصعدت الدرج في بطء مطأطئة الرأس وقد غطت وجهها بيديها ، وكان فوكا يسندها .

.. وجلس أبي بجانبي صامتاً ، وخنقتني العبرات ، وكان هناك ما يشبه السد في حلقي حتى انني خفت أن أختنق . وعندما بلغنا الطريق العام رأينا منديلا أبيض كان يلوح به من الشرفة

شخص ما ، فأخذت ألوح أنا أيضاً بمنديلي فهدأت نفسي لهذه الحركة بعض الشيء ، واستمر بكائي ، ومنحني اعتقادي بأن دموعي برهنت على رقة قلبي ، سروراً وسلواناً .

وبعد أن قطعنا من سفرتنا فرسخاً أو نحوه هدأت قليلا ، وأخذت أركز انتباهي في أقرب الأشياء الى عيني - عجز الحصان الأبلق الذي يركض الى جانب العربة من ناحيتي ، ولاحظت كيف يلوح الحيوان بذيله ، وكيف يضع قدماً واحدة على الأرض بعد الأخرى ، وكيف يلاحقه سوط صبي البريد المضفور فتبدأ قدماه في الوثب معاً ، ولاحظت كيف يقفز سرجه من على ظهره ، والحلقات من فوق السرج . وظللت أراقبه حتى غطى الزبد الأحزمة في مواضع قريبة من الذيل . ثم بدأت أتأمل فيما حولي - في حقول الجاودار الناضجة المتموجة ، والأرض الراقدة الدكناء التي نرى عليها هنا وهنالك فلاحاً بمحراثه ، أو فرساً بجانبها مهر ، بل كنت أنظر عند شواخص المسافات الى مقعد الحوذي لأعرف من ذا الذي يقودنا . ولم تكن دموعي قد جفت من على وجهي عندما انصرفت أفكاري عن أمي التي ربما أكون قد تركتها الى الأبد ، ومع ذلك فان كل تذكر كان يؤدي الى التفكير فيها . وحينئذ تذكرت على حين فجأة الفطر الذي وجدته في اليوم السابق في ممشى أشجار البتولاء وتذكرت ان ليوبتشكا وكاتنكا قد تنازعتا حول من يقتلعه ، وتذكرت كيف بكتا عندما افترقنا عنا .

.. كم كان شعوري بالحزن عندما فارقتهم ، وفارقت ناتاليا سافيشنا ، ومشى البتولا وفوكا ، حتى ميمى الخبيثة . كل هؤلاء سأفتقدهم . وأمي الحبيبة المسكينة ؟ وملأت الدموع عيني مرة أخرى ، ولكن لفترة غير طويلة .

(١٥)

الطفولة

.. يا للطفولة السعيدة ، سعيدة ، تلك المرحلة الهائلة التي لا يمكن استرجاعها مطلقاً !! فما حيلتي في حبها والحفاظ على ذكرياتها المشرقة ؟ تلك الذكريات تنعش روحي وتسمو بها ، انها مصدر فرحي الذي لا ينضب .

كنت حين أتعب من الجري أجلس الى مائدة الشاي على مقعدي المرتفع ، لقد شربت قدحي من اللبن والشاي والسكر منذ وقت طويل ، ومع ذلك فان النوم يلصق عيني فلا أتحرك من مكاني ، .. أجلس وأصغي ... ان أمي تتحدث مع شخص ما وجرس صوتها عذب ، ان هذا الجرس وحده يقول لقلبي أشياء كثيرة جداً !! وما ان يغبش عيني النعاس وأتفرس في وجهها حتى تبدو فجأة صغيرة — صغيرة للغاية — لا يزيد وجهها على حجم زر صغير — ولكنني لا أزال أراه واضحاً .. أراها تنظر الى وتبتسم . انني

أحب أن أراها صغيرة جداً ... وأجذب جفني اللذين لا يزالان متقاربين ، وهي لا تزيد على حجم الأولاد الصغار الذين يراهم المرء في حدقات العيون ، ولكنني أتحرك ويتحطم الوهم ، وأحكم اغلاق عيني ، وأدور محاولا استرجاعه بكل وسيلة ، ولكن دون جدوى .

وأنهض وأصعد الى مقعد مريح حيث أستريح .

وتقول أمي : « انك ستنام مرة أخرى يا نيكولنكا ، خير لك أن تصعد » .

فأجيب والأحلام الحلوة المبهمة تملأ ذهني ... ان نوم الطفولة السليم يغمض جفني وفي لحظة أغيب عن الشعور وأنام حتى يوقظوني ، وأشعر في أحلامي ان يد شخص ما ناعمة تلمسني ، فأعرفها بهذه اللمسة وحدها ، وأظل نائما ، وأمسك بها وأضغط عليها بحرارة ، بحرارة شديدة ، على شفتي .

لقد سافر الجميع على التو : شمعة واحدة فقط موقدة في حجرة الاستقبال . لقد قالت أمي انها ستوقظني : انها هي التي جلست على المقعد الذي أنام عليه ، وتمسح على شعري بيدها العجيبة الناعمة ، ويتردد في أذني الصوت الحبيب المألوف .

« انهض ، يا حبيبي ، لقد حان وقت نومك » .

ليست هناك نظرات جامدة ترتبكها ، ولا تخاف ان تصب على كل حنانها وحبها .. انني لا أتحرك ولكني أقبل يدها بشغف .

« استيقظ ، يا ملاكي » .

وتلف يدها الأخرى حول عنقي ، وتدغدغني بأصابعها الدقيقة .. الحجرة هادئة وتكاد أن تكون مظلمة .. الدغدغة وايقاظي من النوم يستفزان اعصابي .. وتجلس أمي بالقرب مني ، تلمسني ، وأنا أعرفها بعطرها وبصوتها ، فأقفز ، وألقي بذراعي حول عنقها ، وأضغط رأسي على صدرها ، وأتنهد قائلا : « آه يا حبيبتي ، يا أمي العزيزة ، لكم أحبك ! » .

وتبتسم ابتسامتها المحزونة الساحرة ، وتتناول رأسي بكلتا يديها ، ثم تقبلني في جبيني ، وتضعني على ركبتيها ، وتتحدث الى قائلة : « واذن فأنت تحبني حباً جما ، ولن تنساني أبداً ؟ وعندما ينتهي أجل أمك ، فسوف لا تنساني ؟ سوف لا تنساها يانكولنكا ؟ »

وتظل تقبلني بحنان أوفر .

فأصيح وأنا أقبل ركبتيها ، وتفيض الدموع من عيني - دموع الحب وفرط السرور : « لا ، أرجوك ، لا تقولى ذلك يا أعز أم !! »

.. وبعد ذلك حين أصعد الى غرفتي بالطابق العلوي ، وأقف أمام الصور في قميص نومي الفضفاض ، كم كنت أكرر في حماسة : « اللهم بارك أبي وأمي ! وعند تكراري للصلوات التي تعلمت أول شفاه طفولتي ترديدها متلعثماً وراء أمي المحبوبة ، كان حبي لهما وحبي لله يتحدان معاً في شعور واحد وبصورة عجيبة .

فاذا ما انتهيت من صلاتي ، لففت نفسي في غطائي الصغير ، بروح نشيطة مبتهجة ، فأرى حلما يعقب حلما ، ولكن عما تدور هذه الاحلام جميعا ؟ انها احلام غير حسية ، ولكنها مليئة بالحب الطاهر ، والآمال في السعادة . ثم افكر بعدئذ في كارل ايفانتش ونصيبه المحزن من الحياة - وهو الرجل الوحيد التعس الذي أعرفه - فأشعر نحوه بأسى شديد . انى أحبه الى الحد الذي يفعم عيني بالدموع ، وأقول لنفسي : « اللهم امنحه السعادة ، وامنحني القوة لكي أساعده وأخفف أساه .. انى مستعد للتضحية بكل شيء في سبيله » . ثم أدس لعبى المحبوبة - كلب أو أرنب من الخزف الصيني - في زاوية الوسادة الناعمة ويسعدني تفكيري في مدى دفئها وراحتها وهي في هذا المكان ، وأصلي مرة ثانية لله عسى ان يمنح السعادة للجميع ، وان يكون كل انسان راضياً ، وان يكون الطقس في الغد لطيفاً يسمح بالسير . وأدور الى الجنب الآخر ، وتختلط أحلامي بصورة مشوشة ، ثم أروح في السبات بهدوء وسكينة ، ووجهي لا يزال مبللا بالدموع .

.. هل يمكن لتلك العذوبة ، وتلك الروح الخفيفة ، وتلك الحاجة الى الحب ، وتلك القوة في الايمان التي يملكها الانسان في الطفولة ، ان تعود أبداً ؟ وأي وقت يمكن أن يكون خيراً من الوقت الذي تكون فيه أعظم فضيلتين ، السرور البريء ، والتعطش غير المحدود الى الحب ، هما الدافع الوحيد في الحياة ؟ .

•• أين تلك الصلوات الملتهبة ؟ وأين تلك الهبة التى تفضل الهبات جميعاً ، تلك الدموع النقية ، دموع الانفعال ؟ لقد اعتاد ملاك السلوان أن يأتى ويمسح تلك العبرات بابتسامة ، ويبث الرؤى الحلوة فى خيال الطفولة النقى .

•• هل ألقت الحياة على كاهل قلبى مثل هذا العبء الثقيل بحيث هجرتنى تلك الدموع وتلك المسرات المفرطة الى الأبد ؟ وهل بقيت لى الذكريات فحسب ؟.

(١٦)

الأشعار

•• بعد شهر تقريباً من وصولنا الى موسكو ، كنت جالساً مع جدتى أكتب فى الطابق العلوى من بيت جدتى ، وكان يجلس الى الجانب الآخر من المائدة الكبيرة معلم الرسم يقوم بالتصحيحات النهائية لرسم تخطيطى لرأس شخص تركى ، وكان فولوديا واقفاً وراء المعلم مشرئباً بعنقه ليرى من فوق كتفه . وكانت هذه الرأس أول رسم بالقلم الرصاص يقوم به فولوديا ، وكان يجب أن يهدى الى جدتى فى ذلك اليوم وهو عيد قديسها .

وقال فولوديا وهو ينهض على أطراف أصابعه ويشير الى عنق

التركى : « أفتضع هنا ظلاً أكثر قليلاً ؟ » فقال المعلم وهو يضع يراعه وقلم الرسم فى القراب : « انه على ما يرام الآن ، ولست بحاجة الى عمل أى شئ آخر فيه أكثر من ذلك » وأضاف وهو ينهض ، ويداوم النظر الى التركى من زاوية عينيه : « حسن ، وأنت يا نيكولنكا ، ألا تكشف لنا عن سرك ؟ ما عسى أن تقدم لجدتك ؟ أظن ان رأساً ثانياً كهذا تماماً سيكون أجمل هدية » . وتناول قبعته وسجله وانصرف قائلاً : « أستودعكم الله يا سادة » .

•• لقد كنت أنا نفسى أفكر فى نفس اللحظة أن رأساً قد تكون أفضل مما كنت أعمل فيه . وعندما أعلن لنا ان عيد قديس(١) الجدة أصبح قريباً جداً ، وأننا يجب أن نعد الهدايا لهذه المناسبة ، فقد خطرت لى فكرة الشعر ، وأنشأت على التو بيتين من الشعر على أمل أن البقية سرعان ما ترد الى ذهنى ، ولم أعرف فى الحقيقة كيف وردت الفكرة الى عقلى — وهى فكرة غريبة جداً بالنسبة لطفل — ولكننى أذكر انها راقتنى كثيراً ، وأننى أجبت على جميع الأسئلة الخاصة بالموضوع بأننى سأقدم هدية لجدتى دون شك ، ولكننى لم أذكر لأحد قط ما هى الهدية .

•• وعلى عكس جميع ما توقعته ، وبالرغم من كل جهودى لم أستطع تكوين أكثر من زوجين من الشعر فكرت فيهما عفو

(١) جرت عادة المسيحيين على تسمية أبنائهم عند التعميد باسم أحد القديسين ، ويحتفل كل شخص بعيد القديس الذى سمى له باسمه .

اللحظة ، وأخذت أقرأ بعض القصائد فى كتبنا ، ولكن لم يستطع ديمتريف ولا دوزاقين مساعدتى ، بل على العكس ، أقنعانى بعجزى الكامل ، ولعلمى أن كارل ايفانتش كان مغرماً بكتابة الشعر ، فقد نقبت بين أوراقه خلسة فوجدت بالاضافة الى القصائد الألمانية ، قصيدة روسية كذلك ، لا بد انها من انتاج قلمه شخصياً :

الى السيدة ل.

تذكرينى عن قرب ،

تذكرينى عن بعد ،

تذكرينى دائماً أبداً ،

نعم ، وتذكرى أيضاً فيما وراء القبر ،

أننى أحببتك كل الحب .

بتروفسكوى ، فى ٣ من يونيه سنة ١٨٢٨ ، كارل موير .

وأعجبت بهذه القصيدة بعد أن نسخت على ورقة رقيقة من أوراق المذكرات بخط متحرر مستدير الحروف ، نظراً للشعور المؤثر الذى استوحيته فيها . ثم حفظتها فوراً عن ظهر قلب ، وصممت على اتخاذها نموذجا ، ثم أصبح التقدم بعد ذلك سريعاً .

وفى يوم عيد القديس كانت تهنئتى المكونة من اثنى عشر بيتاً من الشعر جاهزة ، وجلست فى حجرة الدراسة لنسخها على ورقة نصف شفافة .

وما لبث أن أتلفت ورقتين ، لا لأننى أردت تغير أى شىء من أشعارى ـ فقد بدت لى كلها رقيقة جداً ـ ولكن لأن نهايات السطور ابتداء من السطر الثالث كانت تتجه الى أعلى شيئاً فشيئاً ، ولذلك كانت تبدو ، حتى من مسافة بعيدة ، انها كتبت كلها كتابة معوجة لا تصلح لشىء .

وكانت الورقة الثالثة منحرفة أيضاً كالأخريين ، ولكنى صممت على عدم نسخها مرة أخرى ، وهنأت جدتى فى قصيدة وتمنيت لها أعواماً كثيرة فى صحتها ، وختمتها كما يلى :

لكى نسعدك فسنحاول جهدنا ،

أن نحبك مثل حبنا للعزيزة أمنا .

وبدت لى غاية فى الجودة ، ومع ذلك فقد كان السطر الأخير سيىء الوقع على أذنى بدرجة غريبة . وظللت أكرر وأعيد فى سرى : « ان نحبك حبنا للعزيزة .. أم .. ؟ أية قافية يمكننى استخدامها بدلا من « أمنا » ؟ ... سرورنا ؟ آملنا ؟ ... حسن لا بأس فى ذلك انها أفضل على أى حال من أشعار كارل ايفانتش ..

وهكذا نسخت السطر الأخير ، ثم قرأت كل عملى بصوت مرتفع فى حجرة النوم بتأثر واشارات ، وكانت أبيات الشعر عاطلة

كل السطر من القافية والوزن ، ولكننى لم أتوقف عندهما ، ومع ذلك فان السطر الأخير كان لا يزال يصدمنى بقوة ويبعث فى نفسى الكدر ، فجلست فى فراشى وأخذت أفكر على هذا الوجه :

« لماذا كتبت عبارة « مثل حبا للعزيزة أمنا » ، انها ليست هنا ، ولم يكن من الضرورى ذكرها .. حقيقة أنى أحب جدتى ، وأحترمها ، ولكنها مع ذلك ليست مثلها ، فلماذا كتبت ذلك ؟ لماذا كتبت كذباً ؟ فما كان ينبغى أن أجعل حبهما واحداً حتى اذا كان فى الشعر » .

.. ودخل الخياط فى هذه اللحظة ومعه سترتى الجديدة .

وقلت فى ضيق شديد وانا أدس اشعارى تحت الوسادة وأجرى لقياس ملابسى الجديدة : « حسن ، فليكن » .

لقد كانت ملابسى لطيفة حقاً ، فالمعطف القصير ذو اللون البنى الخفيف بأزراره النحاسية ، صنع بتأنق لا كما يصنع فى الريف ، وكذلك كانت السراويل السوداء محكمة ، وكان ابرازها للعضلات واخفاؤها للحذاء شيئاً رائعاً .

.. وقلت فى نفسى وأنا أكاد أطير من الفرح ، بينما كنت استعرض سروالى من كل جانب : « وأخيراً حصلت على سروال ذى أحزمة حقيقية » . وبالرغم من أن الملابس الجديدة كانت ضيقة جداً ، وكانت الحركة بها صعبة ، فقد أخفيت ذلك عن

الجميع ، بل أعلنت ، على العكس ، اننى مستريح فيها الى أقصى حد ، وانه ان كان فى الملابس أى خطأ ، وان كان هناك شئ فهو اتساعها قليلاً . ووقفت بعد ذلك وقتاً طويلاً أمام المرآة ، أصفف شعرى الغزير المدهون : ولكن بالرغم مما بذلت من جهد لم أستطع أن أجعل خصلة الشعر فى قمة رأسى ترقد منبسطة ، فكلما توقفت عن ضغطها بالفرشاة لأرى اذا كانت قد أذعنت لى ، ترتفع وتبرز فى جميع الاتجاهات وتجعل وجهى يبدو مضحكاً .

.. كان كارل ايفانتش يرتدى ملابسه فى حجرة أخرى ، وقد حمل اليه عبر حجيرة الدراسة معطف السهرة الأزرق ، وملابسه الداخلية البيضاء ، وسمعت صوت احدى خادمات جدتى عند الباب الذى يؤدى الى الطابق السفلى ، فخرجت لأعرف ماذا تريد . كانت تمسك بيدها قميصاً ذا صدر مقوى ، ذكرت لى انها أحضرته لكارل ايفانتش ، وأقسمت انها لم تنم طوال الليلة السابقة لكى تجهزه له ، وأخذت على نفسى تسليمه له ، وسألتها عما اذا كانت جدتى قد استيقظت .

« آه ، نعم يا سيدى ! لقد تناولت قهوتها على التو ، ووصل الكاهن » ... ثم أضافت وهى تتأمل مبتسمة حلتى الجديدة : « يا لك من شاب لطيف ! » .

أخجلتنى ملاحظتها ، فدرت سريعاً على قدم واحدة ، وطقطقت

أصابعي ، ووثبت . كنت أرغب في أن تعرف أنها لم تقدر فخامتي حق قدرها .

وعندما أحضرت القميص ذا الصدر المقوى الى كارل ايفانتش وجدت أنه لم يعد بحاجة اليه ، فقد ارتدى قميصا آخــر ، انحنى أمام مرآة صغيرة موضوعة فوق المائدة ، ممسكا بكلتا يديه ـ عقدة ربطة عنقه الفاخرة ، يحرك فيها ذقنه الحليقة الى أعلى وأسفل للتأكد من ملاءمتها . وبعد تسوية ملابسنا من كل جانب ، والتماسنا من نيكولاي ان يفعل مثلنا ، تقدمنا الى جدتنــا . وانني لأضحك الآن حين أتذكر مدى نفاذ المرهم العطرى الذى شممناه نحن الثلاثة ونحن نهبط الدرج .

.. حمل كارل ايفانتش علبة صغيرة هدية من صنع يديه ، وكان مع فولوديا رسمه ، ومعى أشعارى ، وكان على لسان كل منا التحيات التي ينوى أن يقدم بها هديته وفى نفس الوقت الذى فتح فيه كارل ايفانتش باب حجرة الاستقبال كان الكاهن يرتدى ثيابه ، ويتردد الكلمات الأولى من الصلاة .

وكانت جدتي موجودة فعلا بحجرة الاستقبال : كانت واقفة قرب الحائط ، مسندة ذراعيها على ظهر مقعــد ، تصلى بورع وهي محنية الرأس ، ووقف والدى بجانبها ، فالتفت نحونا وابتسم حين رآنا نخفي هدايانا بسرعة وراء ظهورنا ، ونقف داخل الباب محاولين تحاشي رؤيتنا ، وتحطم كل الأثر الذى اعتمدنا عليه للمفاجأة .

.. وعندما حان الوقت للصعود وتقبيل الصليب شملتني فجأة نوبة قاهرة من الخجل ، والشعور بأن الشجاعة لن تواتيني مطلقاً لتقديم هديتي ، فاختبأت وراء كارل ايفانتش الذى ما أن هنأ جدتي في لغة منتقاة حتى نقل علبته من يده اليمنى الى اليسرى ثم ناولها اياها وتراجع خطوات قليلة ليفســح طريقــاً لفولوديا . وبدا فرح جدتي بالعلبة المزينة بأشرطة ذهبية ملصقة على حوافهــا ، وابتسمت معبرة عن امتنانها بأحر الابتسامات . ومع ذلك فقد كان من الواضح انها لم تعرف أين تضع العلبة ، ولعل هذا كان السبب في أنها أعطتها لأبي وطلبت اليه ان يلاحظ مدى دقة صنعها .

.. وبعد أن أشبع حب استطلاعه أعطاها الكاهن الذى سر أيما سرور بهذا الشيء الزهيد ، فهز رأسه ، وأخذ يتفرس مرة في العلبة وأخرى في الفنان الذى استطاع أن يصنع مثل هذا الشيء الجميل . لقد أنتج فولوديا صورة التركى . وتلقى أعظم الاطراء من كل ناحية .

والآن جاء دورى : فالتفت الى جدتي بابتسامة تشجيع .

ان الذين يقاسون من الخجل يعرفون انه شعور يتزايد تزايدا مطرداً بينما يقل التصميم بنفس الدرجة : أى انه كلما بقي الشعور مدة أطول تزداد قابليته للتدهور وتقل البقية الباقية من التصميم .

.. ان بقايا الشجاعة والتصميم خذلتني عندما قدم كارل ايفانتش وفولوديا هديتهما وبلغ خجلي الذروة ، وشعرت ان الدم

يندفع دون توقف من قلبي الى رأسي ، وانتابني الشحوب والاحمرار على التعاقب ، وانتشرت قطرات العـــرق الكبير على أنفي وجبيني ؛ والتهبت أذناي وشعرى بقشعريرة وعرق بارد شمل كل جسمي ، وأخذت أبدل قدماً بقدم دون أن أتحرك من موضعي .

وقال أبي : «تعال يانيكولنكاه أرنا ماعمك ـ علبة أم رسماه ..

لم تكن هناك حيلة ، قدمت بيد مرتعشـــة القرطاس المطوى المغضن المشئوم ، ولكن صوتي خذلني كل الخذلان فوقفت امام جدتي صامتاً ولم أســـتطع أن اتحمـــل التفكير في أنه بدلا من الرسم الذي كان متوقعاً ستقرأ أشعارى التافهة أمام أى شخص بما في ذلك عبارة (أن نحبك مثل حبنا للعزيزة أمنا) التي ستبرهن بوضوح على انى لم أحب أمي قط وأنني نسيتها . كيف أستطيع وصف عذابي عندما أخذت جدتي في قراءة قصيدتي بصوت مرتفع ، وعندما عجزت عن حل طلاســمها ... توقفت عند منتصف ســطر وتطلعت الى أبي بابتسامة خيل الى أنها إبتســامة سخرية ، وعندما لم تنطق بكلمــة ملائمة لي ، وعندما ناولت الورقة لأبي ، نظراً لضعف بصرها ، قبل ان تتم قراءتها ، ورجته أن يقرأها كلها من أولها مرة أخرى ؟ لقد خيل الى أنها فعلت هذا لأنها لم تعبأ بقراءة مثل هذا الشعر الأخرق الردىء الكتابة ، ومع ذلك فقد أرادت ان يقــرأ أبي لنفســه ذلك السطر الأخير ، الذي يثبت بجلاء افتقارى الى الشعور .

لقد توقعت أنه سيلطمني على أنفي بهذه الأشعار قائلا : « يالك

من صبي خبيث نسي أمه ـ تنــاول هذا ، ولكن شيــئاً من ذلك لم يحدث ، بل حدث العكس ، فحين قرئت الأشعار كلها قالت جدتي : « رائعة !! » وقبلتني على جبيني . وعرضت العلبة والرسم والأشعار في صف بجانب منديلين من التيل الرفيع وعلبة سعوط مع صورة لأمي ، على منضدة متحركة ملاصقة للمقعد الذي كانت تجلس عليه جدتي دائماً .

وأعلن أحد الخادمين الضخمين اللذين رافقــا عــربة جــدتي قائلا : « الأميرة فارفارا اليتشــا » .

.. وتأملت جدتي باهتمام الصورة الموضوعة على غلاف علبة السعوط المصنوع من صدف السلحفاة ولم تجب .

وأعاد الخادم يقول : « أتسمحين سموك باستقبالها ؟ » .

(١٧)
الأميرة كورناكوفا

.. وقالت جدتي وهي تســتقر على مقعدها ذي المسـندين : « دعها تدخل » . كانت الأميرة امرأة في نحو الخامســة والأربعين ، صغيرة الجســم واهنة ، تافهة وصــارمة ، ذات عينين خضراوين ضاربتين الى اللون الرمادي تبعثان على النفــور ، يبدو في وضوح أنهمــا تتعارضــان مع التعبير الودى غير الطبيعي الذي يســتقر على

شفتيها ، ومن تحت قبعتها المخملية التي يبنها ريشـة نعام يظهـر شعرها الأشقر ذو الصباغ الضارب الى الحمرة ، وحاجباها ورمشاها تبدو جميعاً أكثر شقرة واحمراراً بعكس وجهها الشاحب الدال على السقم ، ولكن مع ذلك كله فان سلوكها الطليق ، ويديها الدقيقتين، والصلابة الغريبة في ملامحها لتنم على شيء ما أرسـتقراطي ومؤثر في مظهرها العام .

« تحدثت الأميرة طويلا جدا ، ومع ذلاقة لسانها التي تختص بها هذه الطبقة من الناس الذين يتحدثون دائماً كما لو كان هناك من يعارضهم ، بالرغم من أن أحداً لم ينطق بكلمة واحدة : كانت ترفع صوتها وتخفضه شيئاً فشيئاً على التعاقب ، ثم تأخذ لتوها في الحديث بحيوية جديدة وهي تتطلع الى جميع الحاضرين حتى وان لم يشتركوا في النقاش كما لو كانت تحاول الحصول على مؤازرتهم.

وبالرغم من أن الأميرة قبلت يد جدتي ، وكانت تناديها دائماً بعمتي الطيبة ، فقد لاحظت ان جدتي لم تكن مسرورة منها ، كان ينتفض حاجباها بطريقة غريبة وهي تصغي الى اعتذاراتها عن عدم زيارة الأمير ميخايلو شخصياً لتهنئة جدتي بالرغم من رغبته الحارة في ذلك وتجيب بالروسية على حديث الأميرة بالفرنسية .

قالت ببطء غريب : « انني لسـعيدة الامتنان يا عـزيزتي لاهتمامك ، اما عن تخلف الأمير ميخايلو عن الحضور فأرجو عدم التنويه به ، فهو مشغول دائمـا ، وفوق ذلك فأية مسرة يمكن أن

يجدها في زيارة سيدة عجوز مثلي ؟ » وسألتها دون أن تفسح للأميرة وقتاً لمعارضتها قائلة : « وكيف حال أطفالك يا عزيزتي ؟ » .

« أحمد الله يا عمتي ، انهم يتقدمون تقدماً حسناً ، ويدرسون ويلهون ، وبخاصة اتين ، وهو أكبرهم ، ويتجه الى طيش لا تعرف كيف نعامله ، ولكنه مجتهد ــ صبي واعد... تخيل يا ابن عمي... » وواصلت حديثها وهي ملتفتة الى أبي لأن جدتي التي لم تكن تهتم بأطفال الأميرة ، وأرادت أن تفاخر بالأحرى بأحفادها هي ؛ فتناولت أشعاري من الصندوق بعناية كبرى وأخذت تنشرها ، « تخيل يا ابن عمي ماذا فعل منذ أيام قليلة ، ثم مالت الأميرة نحو أبي وأخذت تقص عليه شيئاً في كثير من الانتعـاش ، وعندما أتمت حكايتها التي لم أسـمعها ، ضحكت ، ونظرت الى بابا مستفسرة ؟ وقالت :

« مارأيك في ذلك يابن عمي ؟ انه كان بحـاجة الى الجلد ولكن لهوه كان حاذقاً ومدعـاة الى التسلية يابن عمي ، بحيث غفرت له » .

وثبتت الأميرة نظراتها على جدتي ثم راحت تبتسم ولكنها لم تقل شيئاً .

واستفسرت جدتي وهي ترفع حاجبيها باهتمام ، « هل تضربين أطفالك يا عزيزتي ؟ » ، وشددت النطق عند كلمة « تضربين » .

وأجابت الأميرة بلهجة هادئة ، ونظرة سريعة ألقتها على بابا :

« بالأسف يا عمتي الطيبة ، فأنا أعـرف رأيك في هذه الناحية ، انني آسـفة ، ولكن لا بد أن أخالفك الرأي في هـذا الموضـوع الخاص : فبالرغم من كل تفكيري وقراءتي في الموضوع ، وبالرغم من كل نصيحة انتصحت بها ، فان التجربة أرشدتني الى الاقتناع بان الأطفال يجب أن يحكموا بالخوف ، ان الخـوف ضروري لكي تصنع من الطفل شيئاً . أليس كذلك يا ابن عمي ؟ والآن أسألكم قليلا ... هل يخاف الأطفال شيئاً أكثر من العصا ؟ » . وعند هذا رمقتنا بنظرة متسائلة ، واعترف انني شعرت في تلك اللحظة بالضيق نوعاً ما ، ومهما قلتم ، فان صبيا في الثانية عشرة أو حتى في الرابعة عشرة لا يزال طفلا ، والفتـاة بطبيعة الحال شيء مختلف كل الاختلاف » .

وقلت في نفسي : « ما أسعدني انني لست ابنها !! » .

وقالت جدتي وهي تطوي أشعاري وتضعها تحت العلبة كأنها اعتبرت الأميرة بعد ذلك غير جديرة بسـماع مثل هذا الانتاج : « كل هذا جميل جيداً ، ولكن أرجو ان تخبريني كيف تتوقعين بعد ذلك أي رقة في شعور الأطفال ؟ » .

وأضافت جدتي وقد اعتبرت النقاش لا يحتمل الاجابة، ولكي تضع حدا للحديث : « ومع ذلك ، فلكل شخص الحق في ابداء رأيه الخاص في ذلك الموضوع » .

ولم تجب الأميرة ، ولكنها ابتسمت متلطفة ، وبذلك هيأت لنا

ان تدرك أنها صفحت عن هذه الآراء المبتسرة التي أدلى بها شخص تحترمه جد الاحترام .

وقالت وهي تتفرس فينا وتبتسم متلطفة : « أرجو أن تقدموني لصغاركم » .

فنهضنا وثبتنا أعيننا على وجه الأميرة ، ولكن لم نعرف مطلقاً ماذا ينبغي أن نفعل لكي نبين ان التعارف قد تم .

وقال أبي : « قبل يد الأميرة » .

فقالت وهي تقبل فولوديا في رأسه : « ستحب عمتك العجوز، أليس كذلك » . ثم أضافت وهي توجه ملاحظاتها الى جدتي بنوع خاص : « ولكني أقدر علاقات الصداقة أكثر من علاقة الدم » . ولكن جدتي ظلت غير راضية عنها وأجابت :

« آه يا عزيزتي ، وهل تسـوي هذه العلاقة شيئاً في هذه الأيام ؟ » .

وقال أبي مشيرا الى فولوديا : « ان هذا سيكون فتى الدنيا » ثم أضاف قائلا : « وهذا هو الشاعر » في اللحظة التي كنت أقبل فيها يد الأميرة العجفاء الصغيرة وأتخيل بأجلى وضـوح أن باليد قضيبا ، وأن تحت القضيب كرسيا ، وما الى ذلك .

وسألته الأميرة وهي تحتجزني بيدها قائلة : « من ؟ » .

وأجاب أبي وهو يبتسم مبتهجاً : « هذا الشخص الصغير الذي تعلو ناصيته خصلة الشعر » .

وقلت في نفسي وأنا انسحب الى الركن : « وماذا تعنيه خصلة شعرى ؟ ألا يوجد شيء عداها يتحدث عنه ؟ » •

•• لقد كنت أحمل أغرب الأفكار عن الجمال ، بل كنت أعتبر كارل ايفانتش أجمل رجل في العالم ، ولكنى كنت أعرف جيداً أننى لم أكن مليح المنظر ، ولم أكن مخطئاً في هذه الناحية : ومن ثمة فان أى تلميح الى مظهرى الشخصى كان يسيء الى اساءة عميقة •

•• اننى لأذكر جيدا كيف حدث مرة ــ وكنت في السادسة من سنى في ذلك الوقت ــ انهم كانوا يتناقشون على مائدة الغداء عن شكلى ، وأن أمى كانت تحاول الكشف عن شيء جميل في وجهى فقالت : « ان لى عينين ذكيتين ، وابتسامة محبوبة وأخيراً ، فاذعانا لحديث والدى وللحقيقة الملموسة اضطررت الى الاعتراف بأننى عاطل من الجمال ، وعندما شكرتها آنئذ على الغداء ، ربتت على خدى مدللة وقالت :

« تذكر يا حبيبى ، ان أحداً لن يحبك لجمال وجهك ، ولذا يجب أن تحاول أن تكون طيبا وذكيا ، أستكون كذلك ؟ » •

•• ولم تقتصر هذه الكلمات على اقناعى وحسب اننى لم أكن جميلا ، ولكنى مضطر أيضاً أن أكون طيباً وذكياً •

ومع ذلك فكثيرا ما كانت تنتابنى لحظات من اليأس : كنت

أتخيل عدم وجود سعادة لانسان على وجه الأرض له مثل هذا الأنف الواسع والشفتين الغليظتين ، ومثل هاتين العينين الرماديتين ، وكنت أتوسل الى الله أن يصنع معجزة ليحيلنى جميلا ، على أن أقدم كل ما أملكه في حاضرى ، وما يمكن أن أملكه في المستقبل في مقابل وجه جميل •

(١٨)
الأمير ايفان ايفانتش

•• وعندما سمعت الأميرة الأشعار ، وأغدقت على المؤلف المديح ، أخذت جدتى تخاطبها بالفرنسية مترفقة ، وتوقفت عن مناداتها بـ « انت » و « يا عزيزتى » (١) ودعتها الى زيارتها مرة أخرى في المساء بصحبة أطفالها وقد وافقت الأميرة على ذلك ، وبعد ان مكثت قليلا غادرت المكان •

لقد حضر زائرون كثيرون في ذلك اليوم يحملون تهانيهم حتى ان العربات كانت تقف في الفناء بالقرب من المدخل طوال الصباح •

---

(١) أى انها كانت تخاطبها بضمير المفرد (أنت) •

وقال أحد الشيوخ وهو يدخل الحجرة ويقبل يد جدتي :
« صباح الخير يا ابنة عمي العزيزة » .

كان رجلا يناهز السبعين من عمره طويل القامة ، يرتدي الزي العسكري المطرز الكتفين بشريط القصب ، من تحت الياقة التي يظهر من تحتها صليب كبير أبيض ويرتسم على تقاسيم وجهه الهدوء والصراحة . وقد أدهشتني بساطته وتصرفاته . وكان وجهه جميلا بدرجة ملحوظة ، بالرغم من أن كل مابقي له من الشعر ، هو نصف دائرة رقيقة على قفاه ، وأن شفته العليا الغائرة تكشف عن فم ليس فيه أسنان .

قام الأمير ايفان ايفانتش قرب نهاية القرن الماضي بعمل باهر وهو شاب صغير جداً ، وذلك بفضل خلقه النبيل وشخصه اللطيف وشجاعته البارزة وعائلته الشهيرة القوية ، ثم بفضل حظه السعيد بنوع خاص . وظل في الخدمة ، وأشبع طموحه كل الاشباع بسرعة كبرى حتى لم يعد أمامه شيء يتمناه في هذا الجانب من الحياة . وساس نفسه منذ شبابه الباكر كأنه يستعد لشغل تلك المكانة — المجيدة في العالم — التي وضعه فيها الحظ أخيرا ، ومن ثمة ، فبالرغم من مواجهته لبعض ضروب الاخفاق واليأس في حياته اللامعة ، المنطوية على شيء من الخيلاء ، كالتي يكابدها كل الناس ، فان مزاجه الهادئ

وطريقته الراقية في التفكير ، ومبادئه القائمة على أساس قوي من الدين والأخلاق ، كل ذلك لم يخذله قط ، فظفر بالاحترام الشامل نتيجة لقوة عزمه وثباته أكثر منه نتيجة لمركزه الممتاز . وهو لم يكن ذا عقلية ممتازة ، ولكن بفضل المركز الذي سمح له بازدراء كل عبث الحياة وضجيجها ارتقت نظرته الفكرية . وكان بطبيعته شفوقاً حساساً ، ولكنه في تصرفه كان يبدو فاتراً ومتعالياً الى حد ما. وقد نشأ هذا من وضعه في مركز يستطيع معه أن يكون مفيداً لكثير من الناس ، وحاول بتصرفه الفاتر حماية نفسه من الالتماسات التي لا تنقطع وطلبات الأشخاص الذين يرغبون في استغلال نفوذه وحسب . ولكن هذا الفتور صقله الأدب المتلطف الذي يتسم به رجل « مجتمع بالغ الرقي » .

وكان مثقفاً يحسن القراءة ، ولكن ثقافته توقفت عند حصيلة شبابه — أي عند نهاية القرن الماضي ، قرأ كل شيء مشهور كتب في فرنسا في موضوع الفلسفة وعلم البلاغة ابان القرن الثامن عشر ، وكان ملما الماماً تاماً بجميع آثار الأدب الفرنسي ، ولذلك كان قادراً على اقتباس فقرات من « راسين » و « كورنيي » و « بوالو » و « موليير » و « مونتاني » و « فنلون » ، وأغرم بهذا العمل ، وحصل على معلومات ممتازة من الأساطير ، ودرس الروائع القديمة من الشعر القصصي في ترجماته الفرنسية وأفاد منه وحصل على قدر

طيب من المعرفة فى التاريخ من كتابات « سيجير » (١) ، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً البتة عن العلوم الرياضية فضلا عن الحساب ، ولا عن العلوم الطبيعية ولا الأدب المعاصر ، وكان يتسم بالصمت المهذب أو يفوه بعبارات عادية قليلة عن جوته وشيلر وبيرون ولكنه لم يقرأ لهم شيئاً . وبالرغم من هذا التعليم الفرنسى التقليدى التى لا يزال باقياً منه أمثلة قليلة جداً ، فإن حديثه كان بسيطاً ، وهذه البساطة فى ذاتها كانت تخفى جهله بأشياء مختلفة ، وكانت تضفى على حديثه فى نفس الوقت لونا من السماحة والذوق المصقول ، وكان يكره الشذوذ من كل نوع ، ويعلن أنه من اختراع الدهماء ، ويرى المجتمع ضرورة بالنسبة اليه ، وحيثما كان يعيش سواء فى موسكو أم فى الخارج ، كان يعيش فى سخاء ، ويستقبل فى أيام معينة كل سكان المدينة . وكانت منزلته فى المجتمع كأنها دعوة منه تستخدم كجواز مرور الى كل حجرات الاستقبال ، وكانت كثيرات من النساء الصغيرات الجميلات يقدمن له وجناتهن الوردية التى كان يقبلها فى ظاهر الأمر بشعور أبوى ؟ وبقدر ما أدى من ظاهر الأمر ، كان كثير من الناس ذوى المكانة والاحترام الكبيرين يسرهم أن يسمح لهم بالحضور الى ولائم الأمير .

---

(١) الكونتس دى سيجير (١٧٩٩ — ١٨٧٤) ، واسمها الأصلى روستوبشين وهى كاتبة فرنسية ولدت فى روسيا ولها آثار أدبية قيمة قصدت بها توجيه النشء والأطفال ، ومن أهم مؤلفاتها « مذكرات حمار » و « الملاك الحارس » ويمتاز أسلوبها بالسهولة . (المترجم)

لم يبق آنئذ غير عدد قليل جدا من الناس على شاكلة جدتى ، ممن كانوا أعضاء فى نفس الحلقة ، ومن نفس السن ، ونفس التعليم ووجهات النظر ، ومن أجل هذا كان يمتدح بنوع خاص صداقته لها ، ويظهر لها على الدوام أعظم الاحترام .

لم أستطع التفرس طويلا فى الأمير . فالاحترام الذى أولاه اياه كل شخص ، والزخرف القصبى الضخم على كتفيه ، والابتهاج الخاص الذى أظهرته جدتى عند رؤيته ، وكونه الشخص الوحيد الذى لم يكن يخشاها ويعاملها بغاية اليسر ، بل انه ليتجاسر فيخاطبها « بابنة عمى » ، كل ذلك أوحى الى باحترامه الذى تساوى مع احترامى الذى كنت أشعر به نحو جدتى ان لم يزد عليه . وحين أطلعته على أشعارى استدعانى اليه وقال لجدتى :

« من يدرى يا ابنة عمى ، فقد يكون « درزافين » آخر ؟ » .

وعندئذ قرص وجنتى بشدة بالغة ، وان كنت لم أصرخ ، فلأننى قدرت ان المقصود بها التدليل .

وانصرف الضيوف ، وخرج أبى وفولوديا ؛ وبقى الأمير وجدتى وأنا بحجرة الاستقبال .

وسأل الأمير بعد لحظات قصيرة من الصمت : « لماذا لم تحضر عزيزتنا ناتاليا نيكولايفنا ؟ » •

وأجابت جدتي وهي تميل برأسها وتضع يدها على كم ثوبه الرسمي : « آه ياعزيزي ، كان لابد أن تأتي لو كانت حرة تفعل ما تشاء ، انها تكتب لي بأن بيير قد اقترح ان تحضر ، ولكنها رفضت ، اذ لم يكن لديهم دخل البتة في هذا العام ، وهي تكتب قائلة : « وفوق ذلك فليس هناك سبب لانتقالي الى موسكو في هذا العام مع جميع أهل المنزل ، وان ليوبتشكا لا تزال صغيرة جداً ، أما عن الولدين اللذين يعيشان معك ، فأنا أكثر اطمئناناً عليهما مما لو كانا يعيشان معي •• » وتابعت جدتي حديثها قائلة بلهجة تكشف بوضوح تام انها لم تعتبر ذلك شيئاً ملائماً البتة : « كل هذا جميل ! كان ينبغي أن يرسل الولدان الى هنا منذ وقت طويل لكي يتعلما شيئاً ، ويعتادا حياة المجتمع ، فأي نوع من التعليم يمكن ان يقدم لهما في الريف ؟ » • ان أكبرهما سيبلغ الثالثة عشرة قريباً جداً ، والآخر في الحادية عشرة ، ولعلك لاحظت يا ابن عمي ، انهما غير مصقولين مطلقاً هنا ، فهما لا يعرفان كيف يدخلان الغرفة » •

وأجاب الأمير : « ولكنني لا أفهم سبب هذه الشكاوى المستمرة من ظروف هذا الضيق ؟ ان لديه أملاكاً حسنة جداً ، وأنا أعرف خاباروفكا ، قرية ناتاليا ــ حيث كنت أمثل معك المسرحيات في وقت من الأوقات ــ معرفتي لراحة يدي ، انها أملاك طيبة ، وينبغي أن تغل دخلاً حسناً •

وقاطعته جدتي قائلة والأسف باد عليها : « لا يهمني ان أخبرك ، كصديق مخلص ، اذ يبدو لي ان كل هذه الأعذار انما اخترعت فقط بقصد السماح له بأن يعيش هنا وحده ، ولكي يتلكأ في النوادي في أوقات الغداء ، والله يعلم ماذا يفعل غير هذا ! ولكنها لا تشك في شيء قط ، فأنت تعرف أي ملاك هي ، انها تثق به تمام الثقة وهو يؤكد لها ما كان من ضرورة احضار الطفلين الى موسكو وتركها وحيدة في الريف مع تلك القهرمانة الغبية • وقد صدقته، وان قال انه من الضروري ضرب الطفلين بالسياط ، كما قالت الأميرة فارفارا اليتشنا ، فمن المحتمل أيضا ان تصدقها » وقالت جدتي وهي تدور في مقعدها وقد ارتسمت عليها علامات الاحتقار التام : « نعم يا صديقي » • وتابعت جدتي حديثها بعد توقف لحظة وهي تتناول أحد منديليها لتمسح دمعة طفرت من عينيها : « كثيراً ما أفكر في أنه لا يستطيع تقديرها ولا يستطيع فهمها ، وذلك بالرغم من طيبتها وحبها له ، وجهودها التي تبذلها لاخفاء حزنها ــ انني أعرفها حق المعرفة ، فهي لا تستطيع أن تسعد معه ، واصغ الى كلماتي ، فاذا لم ــ » •

وغطت جدتي وجهها بمنديلها •

وقال الأمير عاتباً : « آه ، يا صديقتي الطيبة ، أرى انك

جافيت كل تعقل ، فأنت تغتمين لحزن وهمى ، تعالى ، ألست خجلانة من نفسك ؟ لقد عرفته منذ أمد طويل ، وأعرف انه رجل طيب ، يقظ ، وزوج ممتاز ، فما هو الشيء الأساسى ؟ ان يكون رجلا أميناً كل الأمانة » •

ولما كنت قد سمعت عن غير قصد محادثة ما كان ينبغى لى سماعها ، فقد انسحبت من الحجرة على أطراف قدمى فى حالة من الاضطراب العنيف •

(١٩)

ابناء ايفن

•• صحت قائلا : « فولوديا ! فولوديا ! أبناء ايفن ! » وذلك حين وقع نظرى من النافذة على ثلاثة أولاد يرتدون معاطف زرقاء ذات ياقات من جلد القندس ، كانوا يعبرون الممشاة الجانبية المواجهة لمنزلنا ، وعلى رأسهم معلمهم الخاص ، الشاب المتأنق •

ان أبناء ايفن يمتون لنا بالقرابة ، وفى نحو عمرنا ، وقد تعرفوا بنا حال وصولنا الى موسكو وأصبحنا أشد أصدقاء مخلصين•

وكان سريوزا ، الابن الثانى أسمر البشرة مجعد الشعر ، ذا أنف صغير أشم ، وشفتين حمراوين غضتين قلما تنطبقان فوق

أسنانه البيضاء ، بل على أسنانه العليا النابتة ، وعينين قاتمتى الزرقة ، وتعبير يقظ بشكل غريب ، لم يبتسم مرة • فهو اما أن يبدو جادا تمام الجد ، أو يضحك من أعماق قلبه ضحكة رنانة شديدة العدوى ، وقد لفت نظرى جماله غير العادى لأول نظرة ، وشعرت نحوه بجاذبية لا تقاوم ، وكانت تكفينى رؤيته لأكون سعيداً كل السعادة• وفى ذلك الحين كانت كل روحى مركزة فى هذه الرغبة الوحيدة ، فاذا تصادف أن مرت ثلاثة أو أربعة أيام دون أن أراه ، فانى أشعر بالانقباض والحزن ، بل كان يصل بى الحال الى حد البكاء • وكانت كل أحلامى فى صحوى ونومى تدور حوله : وعندما أرقد لأنام ، أتمنى أن أحلم به ، وحين أغمض عينى أراه أمامى ، وأعتز بالرؤيا كأنها أعظم متعة • كان هذا الشعور من التعاسة بحيث لم أستودع سره أحدا ، وكان من الواضح انه يفضل ان يلعب ويتحدث مع فولوديا على ان يلعب أو يتحدث معى ، وربما كان يضايقه شعوره بعينى القلقتين اللتين تفرسان فيه باستمرار ، أو ربما كان السبب هو عدم شعوره وحسب بالمشاركة الوجدانية ، ولكن مهما كان الأمر فقد كنت قانعا • لم أرغب فى شيء ، ولم أطلب شيئا ، وكنت مستعداً للتضحية بكل شيء فى سبيله ! وبالاضافة الى العلاقة العاطفية التى بعثها فى ، فان وجوده كان يثير فى شعوراً آخر بدرجة لا تقل قوة ـ الخوف من ايلامه أو الاساءة اليه ، أو تكديره • كان شعورى بالخوف عليه كالشعور بالحب ، ولعل ذلك كان راجعا الى أن وجهه كان يتسم

بطابع الكبرياء ، أو لازدرائي لمظهري الخاص ، فأنا أقدر جمال الآخرين تقديراً عالياً جداً ، أو على أصح الاحتمالات جميعاً ، انها علامة الحب التي لا تخطىء •

عندما تحدث الى سريوزا لأول مرة ، فقدت كل فطنتي أمام هذه الفيطة غير المتوقعة ، الى درجة أنني أصبت بالشحوب والخجل ولم أحر جواباً • كانت فيه عادة سيئة حين كان يفكر وذلك انه يثبت نظره في شيء ما ، وتطرف عينه دون توقف ، ويختلج أنفه وحاجباه في نفس الوقت ، وقد اتفق الجميع على انها عادة قبيحة ، ولكني كنت أرى فيها من قوة الفتنة ما جعلني انا نفسي أعتادها طواعية • وبعد أيام قليلة من تعارفنا لأول مرة ، تساءلت جدتي عما اذا كانت عيناي تؤلماني ، وذلك لأنني كنت أطرف بهما كالبومة • لم نتبادل فيما بيننا كلمة حب واحدة ، ولكنه كان يشعر بسيطرته علي ، وتفذ هذه السيطرة عن غير قصد ، ولكن في طغيان أثناء اختلاطنا الصبياني • أما فيما يتعلق بي ، فلئن كنت أصبو الى سكب قلبي كله من أجله ، الا أنني كنت أخاف كثيرا التحدث اليه في صراحة ، وكنت أحاول اظهار عدم الاهتمام وأخضع له دون تذمر • وكان نفوذه في بعض الاحيان يبدو جائرا غير محتمل ، ولكن لم يكن في طاقتي الهرب منه •

انه ليحزنني التفكير في ذلك الشعور العذب الجميل ، الشعور

بالحب الخالي من الاثرة والقيود ، الذي مات دون أن يجد متنفسا أو يلقى تجاوبا •

لماذا كافحت عندما كنت طفلا لكي أبدو شخصاً مكتملا ، فلما انتهت مرحلة الطفولة تاقت نفسي الى أن أكون كالطفل ؟ •

لطالما حالت رغبتي في ألا أبدو كالطفل في علاقاتي مع سريوزا ، دون الشعور الذي كان على استعداد للتدفق ، مما حدا بي الى النفاق !! ، ولم أتجاسر على مجرد تقبيله وهو ما كانت تشتد بي الرغبة فيه أحيانا ، وفي أن أمسك بيده ، وأقول له انني سعيد برؤيته ، بل انني لم أتجاسر أن أدعوه سريوزا وظللت محافظا بدقة على مناداته باسمه الرسمي ، سيرجي ، لقد كان كل تعبير عن الشعور يعد طفولة ، والانغماس في اظهار مثل هذا الشعور انما كان مجرد دلالة على أن الشخص لم يزل صبيا صغيرا • ودون أن نجتاز بعد هذه التجارب المريرة التي أدت بالكبار الى الحذر والفتور في علاقاتهم مع بعضهم البعض ، حرمنا أنفسنا من المتعة النقية ، متعة انعطاف الطفولة اللين ، وذلك بسبب الرغبة العجيبة في تقليد الكبار دون غيرها •

قابلت أبناء ايفن في غرفة الانتظار ، وتبادلنا التحيات ، ثم طرنا مباشرة الى جدتي وأنبأناها بحضورهم في كثير من الابتهاج كما لو كانت هذه الأخبار لا بد أن تجعلها سعيدة كل السعادة ؛ ثم تبعت سريوزا الى غرفة الاستقبال دون أن أبعد عنه نظري ، وأراقب

كل حركاته • وبينما كانت جدتي تخبره انه كبر الى حد بعيد ، وترمقه بعينيها المتفحصتين ، داخلني ذلك الشعور بالخوف والأمل الذي لا بد أن يجربه الرسام عندما ينتظر الحكم على عمله من قاض يحترمه •

وذهب معنا هر فروست ، معلم أبناء ايفن الشاب بعد استئذان جدتي الى الحديقة الأمامية ، وجلس على مقعد أخضر ، يضع ساقاً على ساق في جلسة جديرة بالتصوير ، ووضع بينهما عصا ذات رأس من البرونز ، وأخذ يدخن سيجارة وهو راض كل الرضا عن تصرفه •

كان هرفورست ألمانيا ، ولكنه من نوع مختلف جداً عن صاحبنا كارل ايفانتش الطيب ، فقد كان قبل كل شيء يتحدث اللغة الروسية السليمة ، ويتحدث الفرنسية في لهجة رديئة ، ويشتهر بوجه عام وخاصة بين النساء ، بأنه رجل علم ضليع جداً • ثم ان شاربه كان أحمر ، ويضع دبوساً كبيراً من الياقوت في ربطة عنقه السوداء المصنوعة من الأطلس ، تحشر أطرافها في حمالته ، ويرتدي سروالا خفيفاً أزرق ذا طرفين ناتئين وأربطة• وثالث الأمور أنه كان شاباً ذا مظهر جميل ، ويتسم بالرضا الذاتي ، له ساقان لطيفتان قويتان بصورة ملحوظة ، وواضح انه كان فخوراً بنوع خاص بهاتين الساقين ويعتبر أن الجنس الآخر لايستطيع مقاومتهما ، ولعل هذا كان السبب في محاولته عرضهما ماوسعه ذلك • فقد

كان يحرك ساقيه على الدوام سواء كان واقفاً أم جالساً • كان طرازاً من الشاب الروسي الألماني الطامح في أن يكون شخصاً مرحاً ، زير نساء •

كنا غاية في المرح بالحديقة ، ولم تكن لعبتنا « الحرامية » يوماً أنجح منها في هذه المرة ، ولكن حادثاً طرأ فأفسد كل شيء ••• لقد كان سريوزا يقوم بدور « الحرامي » وبينما هو يسرع في تعقب المسافرين ، سقط وارتطمت ركبته بشجرة ارتطاماً بلغ من شدته انني ظننتها قد كسرت • وبالرغم من قيامي بدور رجل الشرطة ، ومن واجبي القبض عليه ، فقد اقتربت منه وسألته في عطف عما اذا كان قد أوذي • وغضب مني سريوزا ، وضم قبضته ، وضرب على قدمه وصاح بصوت يدل بوضوح على انه قد أصيب اصابة بالغة :

« حسن ، وماذا يهم ؟ انك تفسد اللعبة كلها ! تقدم واقبض علي !! لماذا لا تقبض علي ؟ » وظل يكرر هذه العبارة مرات عدة وهو يرمق من جنب عينيه فولوديا وايفن الكبير اللذين كانا بوصفهما من المسافرين ، يركضان في الممر ، ثم صرخ على حين فجأة ، واندفع وراءهم وهو يطلق ضحكة عالية •

لا أستطيع أن أصف كيف تأثرت بهذا التصرف البطولي ، فبالرغم من شدة الألم لم يقتصر على عدم البكاء ، بل لم يظهر حتى انه أصيب ، ولم ينس اللعب لحظة واحدة قط •

وبعد ذلك بقليل عندما لحق بجماعتنا أيضاً « الكا جراب » صعدنا الى الطابق العلوى لكى نلعب حتى يحين وقت الغداء ، ادهشني سربوزا مرة أخرى وأبهجني بشجاعته الغريبة وثبات جأشه .

كان الكا جراب ابن رجل اجنبي فقير عاش فى وقت ما عند جدى ؟ وكان مديناً له بصورة ما ، فرأى آنئذ ان واجبه الحتمى يقتضيه ارسال ابنه الينا فى كثير من الأحيان ـ فلو كان يفترض ان معرفتنا ستضفى عليه أى شرف أو تعويضا ، فهو مخطىء كل الخطأ ، لأننا لم نرفض ان نجعل منه صديقا وحسب ، بل اننا لم نعره أى اهتمام الا حين كنا نريد السخرية منه . وكان الكا جراب ولدا طويلا نحيلا فى نحو الثالثة عشرة ، ذا وجه شاحب يشبه وجه الطائر ، عليه سمات الخضوع الفطرى . وكانت ملابسه رثة للغاية ، ولكن شعره كان دائما كثير الدهان حتى لقد جاهرنا فى يوم مشمس بان دهان جراب سوف يذوب ويسيل تحت سترته . وأرى حين أتذكره الآن انه كان كسيرا لطيفا ، وشفوقا جدا ، ولكنه كان يبدو لى فى ذلك الوقت مخلوقاً محتقراً الى حد بعيد ، لم يكن من الضرورى العطف عليه أو حتى التفكير فيه .

وعندما بلغت لعبة « الجرامية » نهايتها ، وصعدنا الى الطابق العلوى وأخذنا نثب ونستعرض مختلف الالعاب الرياضية امام بعضنا البعض ، وكان الكا يشاهدنا وعلى شفتيه ابتسامة اعجاب

غبية ، وعندما اقترحنا عليه ان يحاول بدوره ، رفض قائلا انه ليس قويا كما ينبغى . كان سربوزا يبدو ساحرا بصورة مدهشة ، فقد خلع معطفه ، وكانت وجنتاه وعيناه متأججة ، ويضحك دون توقف ، وابتدع كل ضروب الألعاب الجديدة ، كان يقفز من فوق ثلاثة مقاعد موضوعة فى صف واحد ، وأنجز عمل عجلات العربة ، ووقف برأسه على قاموس تاتيشيف الذى وضعه فى وسط الحجرة وجعل منه ركيزة ، وفى نفس الوقت قام بقفزات مضحكة بالقدمين حتى اننا لم نستطع مقاومة الضحك ، وبعد هذه اللعبة الأخيرة تدبر الأمر قليلا ـ وهو يرمش بعينيه كالمعتاد ـ وتقدم من الكا بوجه جاد تماما وقال له : « والآن ستفعل أنت ذلك ، انه شىء صعب فى الحقيقة » واذ أدرك جراب ان الانتباه العام موجه اليه ، احمر وجهه وأعلن فى صوت خافت انه لا يستطيع القيام به .

« ما أمر هذا الشخص ؟ لماذا لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ لعلكم تلتمسون قدرا ! ، انه سيقف على رأسه » .

وأمسك به سربوزا .

وصحنا جميعاً : « نعم ، نعم ، قف على رأسك فوراً » وأحطنا بالكا الذى ظهر عليه الخوف فى تلك اللحظة وشحب لونه ، فقبضنا على ذراعيه وسحبناه الى القاموس وصاحت الضحية التعسة : « أتركونى ، سأفعل ذلك وحدى ، انكم ستمزقون سترتى » ولكن كل هذه الصيحات البائسة لم تجد شيئاً غير حفزنا الى المزيد . وكنا

تضج بالضحك وتمزق المعطف الأخضر أيما تمزق •

وثنى فولوديا وايفن الكبير رأسه الى أسفل ووضعوه فوق القاموس ، وأمسكنا ، سريوزا وانا ، بساقى الصبى المسكين النحيلتين اللتين كانتا تتأرجحان فى كل اتجاه وطوينا سرواله حتى الركبة ورفعنا ساقيه عالياً فى الهواء ونحن نهدر بالضحك ، بينما حاول ايفن الصغير المحافظة على توازن بقية جسمه •

وهدأت ضجة ضحكنا على حين فجأة وران علينا الصمت، وبلغ من سكون الحجرة ان أصبح تنفس جراب هو الصوت الوحيد المسموع ، ولم أكن متأكداً بحال فى تلك اللحظة ان كل هذا الذى حدث كان مدعاة للضحك والتسلية الى هذا الحد •

وقال سريوزا وهو يصفعه : « اليكم الآن زميل لطيف » •

وظل النكا صامتا • وفى اثناء محاولته تخليص نفسه كان يطوح بساقيه فى جميع الاتجاهات ، وفى حركة من هذه الحركات اليائسة ، صدم سريوزا فى عينه بمؤخرة قدمه صدمة مؤلمة للغاية ترك على أثرها سريوزا الساق وشد على عينه التى أخذت تسيل منها الدموع دون انقطاع ، ودفع النكا بكل قوته • ولما لم يكن أحد منا يسند النكا ، فقد سقط على الأرض بكل ثقله ، وكان كل ما استطاع ان ينطق به بسبب انهمار دموعه هو :

« لماذا تعذبوننى هكذا ؟ » •

ان منظر النكا المسكين المكتئب ، بوجهه الذى لطخته الدموع ، وشعره المشعث وسرواله المطوى الى أعلى ، الذى تظهر من تحته ساقاه القذرتان المتسلختان ، أعادت الينا وعينا فوقفنا صامتين نغتصب الابتسام اغتصاباً •

كان سريوزا هو أول من أفاق •

وقال وهو يدفعه بقدمه بتهور : « أيها الوالد الغبى ، المخاط ، البكاء كالطفل ، ألا تعرف المزاح ! يكفيك هذا الآن ، انهض » •

وقال النكا غاضبا وهو منصرف ينتحب بصوت مرتفع : « انك لولد قذر خبيث » ••• وصاح سريوزا : « لماذا ترفسنى أولا ، ثم تشتمنى ! » •

وأمسك بالقاموس وطوح به الى رأس الولد البائس الذى لم يفكر قط فى الدفاع عن نفسه ، واقتصر على تغطية رأسه بيديه •

وقال سريوزا وهو يضحك ضحكة مغتصبة : « خذ تلك الضربة ! وتلك ! ولنتركه وحيداً اذا كان لا يفهم المزاح ، ولنهبط الى الطابق السفلى » •

وتطلعت فى عطف الى الزميل المسكين الذى رقد على الأرض مخفيا وجهه بالقاموس يبكى بكاء حاراً حتى لقد خيل الى انه سيموت من الرجفة التى تهز كل بدنه •

وقلت : « آه ، يا سرجى ! لماذا فعلت ذلك ؟ » •

« تلك علقة طيبة » ! انني لم أبك ، هل بكيت عندما جرحت ركبتي اليوم وكاد الجرح يبلغ العظم ؟ » .

وقلت في نفسي : « نعم ، هـذا صحيح ، ان البكا ليس الا طفلا كثير البكاء ، لديك الآن ياسريوزا زميل شجاع ! » .

•• لم تساورني أية فكرة في أن بكاء الولد المسكين لم يكن من الألم البدني بقدر ما كان من ان خمسة أولاد ، من المرجح انه كان يحبهم ، قد اجتمعوا دون أي سبب على بغضه واضطهاده .

انني في الواقع لا أستطيع أن أفسر لنفسي قسوة سلوكي ، فلماذا لم أذهب اليه وأدافع عنه وأواسيه ؟ وماذا حدث للمشاعر الرقيقة التي دفعتني الى البكاء بمرارة لدى رؤية غراب صغير كان قد سقط من عشه ، أو لرؤية الجرو الذي كان على وشك أن يلقى به في الطريق ، أو الدجاجة التي كان الطباخ يحملها ليصنع منها حساء ؟ .

هل كان حبي لسريوزا ورغبتي في الظهور أمامه بمظهر الرجولة التي كان هو نفسه يمتاز بها ، يخفيان ذلك الشعور الجميل؟ لو كانت الحالة هذه ، لكان ذلك الحب ، وتلك الرغبة في الظهور بمظهر الرجولة صفتين لا أحسد عليهما بل انهما البقعتان السوداوان الوحيدتان في صفحات ذكريات طفولتي .

(٢٠)

كان لدينا زائرون

كان من المتوقع حضور عدد كبير من الضيوف في تلك الليلة اذا أدخلنا في حسابنا النشاط غير العادي بمخزن المؤن ، والأضواء الساطعة التي أضفت طابعاً احتفالياً جديداً على الأشياء في قاعة الاستقبال و « الصالون » التي ألفتها منذ زمن طويل ، وبخاصة ان الأمير ايفان ايفانتش كان قد أرسل الى منزلنا عازفي موسيقاه .

•• كنت أجري الى النافذة عند سماع كل عربة سائرة ، فأضغط أنفي على الزجاج وأتفرس في الشارع بفضول نافد الصبر ، ومن خلال الظلام الذي كان يخفي عن النافذة في أول الأمر كل المعالم ، كان يظهر بالتدريج على الجانب الآخر من الطريق الدكان المألوف ، والى جانبه المصباح ، والبيت الكبير بنافذتيه المضيئتين بالطابق السفلي على مسافة قصيرة ، وفي منتصف الشارع حوذي فقير مع اثنين من المسافرين ، أو عربة صغيرة خاوية تسير متمهلة . ولكن تتقدم الآن عربة الى سقيفة الباب ، فهي دون شك عربة آل ايفن الذين وعدوا بالحضور في ساعة مبكرة ، فأسرعت بالهبوط لمقابلتهم في غرفة الانتظار ، ولكن بدلا من آل ايفن ظهرت سيدتان وراء الخادم ذي الكسوة الخاصة ، الذي فتح الباب : وكانت احداهن طويلة ترتدي معطفاً أزرق ذا ياقة من فراء السمور ، أما الأخرى القصيرة فكانت متشحة كلها بشال لا يظهر من تحته غير قدميها

الصغيرتين في نعلين من الفراء . وتقدمت الصغيرة من الأخرى الكبيرة فوقفت أمامهـا دون أن تلقي بالا الى وجـودي ـ بالرغم من أن واجبي كان يقتضيني ان أحييهما بالانحناء . ونزعت الكبرى المنديل الذي يغطي رأسها الصغير وفكت أزرار معطفها . وعندما عهد الى الخادم ذي الكسوة الخاصة بهذه الأشياء ، ونزع من قدميهـا نعليهـا الصغيرين المصنوعين من الفـراء ، ظهر من تحت هذه الدثارات جميعا فتاة صغيرة في نحو الثانية عشرة ترتدي جلباباً واسع فتحة النحر من الموسلين ، وسروالا قصيراً أبيض ، وخفين صغيرين اسودين ، وعلى عنقها الأبيض شريط أسـود من القطيفة . وكان رأسها كتلة من الشعر المجعد ذي اللون الكستنائي القاتم تلائم كل الملاءمة وجهها البديع ويتسدل على كتفيها في وضع بلغ من الفتنة مبلغاً لم أكن أصدق معه كارل ايفانتش نفسه لو قال لي ان تجعيد الشعر على هذا الوجه جاء نتيجة للفه على قطع من ورق جريدة « موسكو جازيت » منذ الصباح وكيه بمكواة الشعر الحامية . انها لتبدو كأنها ولدت بذلك الرأس المجعد الشعر .

كان أوضح معالمها عيناها الواسعتان بصورة غير عادية ، البارزتان نصف المغمضتين اللتان تشكلان مع فمها الصغير تناقضاً غريباً وان كان مستحباً ، وكانت شفتاها مضمومتين باحكام ، وفي عينيها نظرة جادة جداً ، وتعبير وجهها بوجه عام لا يدعك تتوقع ابتسامة ترتسم عليه ، مما جعل ابتسامتها أقوى ما تكون فتنة .

وتسللت الى القاعة محاولا ألا تقع علي عين ، ورحت أسير جيئة ورواحا متظاهرا بالتفكير العميق متغافلا عن وصول الضيوف . وعندما بلغتا الى منتصف الحجرة أخذت في الانحناء لهما ، وأخبرتهما ان جدتي بحجرة الاستقبال .

وأومأت الى السيدة فالاخينا التي راق لي وجهها الى أبعد حد ايماءة رشيقة وبخاصة لأنني أدركت فيها شبها قويا لابنتها سونتشكا .

وظهر على جدتي الابتهاج الشديد لدى رؤيتها سونتشكا ؛ واستدعتها اليها ، وصففت لها خصلة مجعدة من الشعر كانت متدلية على جبينها ، وقالت وهي تتفرس باهتمام في وجهها : « يا لك من طفلة فاتنة ! » وابتسمت سونتشكا ، واعتراها خجل طريف للغاية ، حتى انني خجلت أنا أيضا عندما وقع نظري عليها .

وقالت جدتي وهي تمسك بذقنها وترفع وجهها الصغير : « أمل ألا يثقل عليك المكان هنا يا طفلتي ، وأرجو ان ترقصي بملء قلبك » . ثم أضافت قائلة وهي تلتفت الى السيدة فالاخينا ، وتلمسني بيدها : « ها قد أصبح لدينا الآن سيدة وسيدان » .

وقد سرني كثيراً هذا الجمع بيننا حتى عراني الخجل مرة أخرى .

وانسحبت عند شعوري بتزايد خجلي وسماعي صوت عجلات العربة ، فوجدت في غرفة الانتظار الأميرة كورناكوفا وابنها وعددا

لا يصدق من بناتها ـ وكانت جميع الفتيات متشابهات كل التشابه ـ فهن يشبهن الأميرة ، قبيحات ليس بينهن واحدة تستحق النظر اليها . وبينما كن يخلعن اعطافهن ، ويزحن طرحهن ، رحن جميعا يتحدثن بأصوات جادة ، ويحدثن ضجة ، فيضحكن لشيء ما ـ من المرجح أن يكون عددهن الكبير ـ كان اتين فتى طويل القامة ممتلىء الجسم يناهز الخامسة عشرة ، ذا وجه لا دم فيه ، وعينين غائرتين تحف بأسفلهما دوائر زرقاء ، ويدين وقدمين لا يتناسب كبر حجمها مع سنه : كان ثقيل الحركة ذا صوت خشن منفر ، ولكنه يبدو راضياً عن نفسه كل الرضا ، فهو على التحديد من وجهة نظرى صبى من ذلك النوع الذى يجلد بالسوط .

وقفنا برهة سويا ، وجها لوجه دون ان تنطق بكلمة ، يتفحص كل منا الآخر بعناية ، ثم تقاربنا قليلا ، حتى ليبدو كأننا قصدنا ان يقبل كل واحد منا أخاه ، ولكنا غيرنا قصدنا لسبب ما بعد أن نظر كل منا فى عينى صاحبه ، وعندما خشخشت ملابس اخوته جميعاً اثناء مرورهن بنا ، سألته لكى أبدأ الحديث عما اذا كانت العربة لم تكتظ بهم .

وأجاب فى فتور : « لا أعرف ، لأننى لا أركب أبدا فى داخل العربة ، فهى تسبب لى دواراً ، وأمى تعرف ذلك ، وعندما تذهب الى أى مكان فى المساء أجلس دائماً على مقعد الحوذى ، فهو أدعى الى الابتهاج ، وأنت تعرف كل شيء ، ويتركنى فيليب أقود العربة ،

وأحياناً أمسك السوط أيضاً ، وأحيانا أخرى ، كما لا يخفاك .. يمسك المارة كذلك بالسوط . ثم أضاف قائلا بحركة معبرة : « انه لمزاح ممتع ! » .

وقال السايس وهو يدخل غرفة الانتظار : « ان فيليب يريد أن يعرف يا صاحب السمو أى مكان أعجبك فوضعت فيه السوط ؟ » .

« لقد أعطيته اياه بطبيعة الحال » .

« يقول انك لم تعطه اياه » .

« حسن اذن ، لقد علقته على الفانوس » .

واستمر السايس فى حديثه قائلا وقد استشاط غضبا : « يقول فيليب انه ليس على الفانوس ، وانه كان من الخير لك القبول انك أخذته وأضعته ، والا فان على فيليب ان يدفع ثمن مزاحك من ماله الخاص » .

وظهر أن السايس وكان يبدو شخصاً محترماً ، قد انحاز الى جانب فيليب ، وصمم على توضيح المسألة بأى ثمن . وانتحيت جانباً بحركة لبقة غير ارادية كأننى لم ألاحظ شيئاً . ولكن الخدم الذين كانوا حاضرين تصرفوا تصرفاً مختلفاً كل الاختلاف . فقد اقتربوا ونظروا الى الخادم العجوز نظرة استحسان .

وقال اتين متحاشيا الفضول فى تفصيلات أبعد مدى : « حسن جداً ، لقد فقدته اذن ، وماذا يهم ؟ ثم أضاف قائلا وهو يقترب منى ويقودنى الى قاعة الاستقبال : « سأدفع له ثمن هذا السوط ، انه شيء مسل » .

« معذرة يا سيدى كيف تدفع ؟ اعرف انك منذ ثمانية أيام تدفع عشرين كوبك لداريا فاسيليفنا ، والحالة بعينها بالنسبة لى ، وقد مضت سنتان على بتروشكا منذ أن » وصاح الأمير الصغير وقد استحال وجهه الى الشحوب من الغضب : « امسك لسانك سأروى أنا » .

وقال السايس ساخراً : « أنت تروى !! أنت تروى !! » .

ثم أضاف بانفعال عندما دخلنا قاعة الانتظار ، وذهب نحو بالأعطفة نحو خزانة الملابس ، « عار عليك يا صاحب السمو » .

وقال صوت استحسان من ورائنا بغرفة الانتظار : « حقاً ، حقاً ! » .

امتازت جدتى بموهبة فى التعبير عن رأيها فى الناس عندما ترغب فى ذلك ، وذلك باستخدامها ضمائر المفرد والجمع فى صيغة المخاطب بتشديد معين ، فهى تستخدم كلا من أنتم وأنت بعكس المعنى تماماً ، الذى تواضع عليه كافة الناس ، وكانت الكلمات عندما تتضمن تعبيراً مختلفاً كل الاختلاف . فلما اقترب منها الأمير الصغير ، وجهت اليه كلمات قليلة ، وخاطبته بـ«أنتم» ونظرت اليه وقد ارتسم على وجهها

تعبير من الاحتقار ، لو كنت فى مكانه لارتبكت ارتباكاً تاماً . ولكن من الواضح ان اتين لم يكن ولدا من ذلك الطراز : فهو لم يقتصر على عدم اعارة استقبال جدتى أى اهتمام ، بل فعل ذلك بالنسبة لشخصها أيضاً ، وحيا المجموعة كلها بتحية ، ان لم تكن لطيفة فقد كانت على الأقل خالية من التحفظ .

واحتلت سونتشكا كل التفاتى ، وأذكر أننا حين كنا نتحدث معاً ، فولوديا واتين وأنا ، فى ناحية من الغرفة كنا نستطيع منها رؤية سونتشكا ، وتستطيع هى رؤيتنا وسماعنا ، كنت أتحدث بسرور . فكنت اتحدث بصوت مرتفع وأتطلع الى باب حجرة الاستقبال عندما تلوح الفرصة لقول شيء ما ، يبدو لى انه سار أو ابداء ملاحظة تنطوى على شهامة ، ولكنا حين تحولنا الى مكان آخر يستحيل معه رؤيتنا أو سماع صوتنا من حجرة الاستقبال كنت الوذ بالصمت ولا أجد بعد متعة فى الحديث .

وامتلأت حجرة الاستقبال و «الصالون» شيئاً فشيئاً بالضيوف ، وكان هناك عدد كبير من الأطفال الكبار بين عدد الحاضرين كالمعتاد فى حفلات الأطفال ، ممن لا يرغبون فى اضاعة فرصة المرقص والمرح ، بل كانوا يتظاهرون بذلك لمجرد ادخال السرور الى قلب المضيفة .

وعندما وصل آل ايفن ، شعرت بدلا من السرور الذى كنت

أتذوقه عادة لدى مقابلتى سريوزا ، بإحساس غريب من الضيق حين فكرت فى أنه سيرى سونتشكا ، وأنها ستراه .

(٢١)
قبل رقصة المازوركا

قال سريوزا وهو قادم من حجرة الاستقبال وكان يجذب من جيبه قفازاً جديداً من جلد الماعز : « أرى أنكم سوف ترقصون فيجب أن ألبس قفازى » .

وقلت فى نفسى : « وماذا نفعل ـ ليس لدينا قفازات ، ويجب أن أصعد للبحث عن بعض منها » .

ولكن بالرغم من انى نبشت جميع الأدراج كان كل ماعثرت عليه قفازاتنا الخضراء الخالية من الأصابع ، وقفازا واحدا من جلد الماعز ليس لى فيه أى نفع ـ أولا لأنه كان قديماً كثير البقع ، وثانياً لأنه كان واسعا جدا بالنسبة الى ، وبخاصة لأنه كان خاليا من الأصبع الوسطى ، اذ كانت قد قطعت منذ مدة طويلة ، ومن المرجح ان يكون كارل ايفانتش هو الذى قطعها لقرح أصاب يده . ومع ذلك فقد ألبست يدى هذه الفضلة من القفاز ، وتفرست فى مكان الأصبع الوسطى الذى كان ملطخا دائما بالحبر .

وقلت فى نفسى : « لو كانت ناتاليا سافتشنا هنا لوجدت لى

بالتأكيد بعض القفازات ، اذ كان من المحال أن أهبط الى الطابق الأسفل بدونهما ، لأنهم لو سألونى لماذا لم ارقص ، فبماذا أجيب ؟ كما ان بقائى هنا مستحيل أيضاً ، لأننى كنت على ثقة من انهم سيفتقدوننى ، فما العمل ؟

وسألنى فولوديا وهو يدخل مسرعا : « ماذا تفعل هنا ؟ اذهب واحجز فتاتك لأن الرقص سيبدأ فورا » .

وقلت فى يأس وانا أريه يدى وقد برز أصبعان من القفاز القذر : « فولوديا ، لقد نسيت هذا يا فولوديا » .

فقال وقد نفد صبره : « ماذا ؟ آه ! القفازات » ثم أضاف بغير اهتمام : « حقاً ، ليس لدينا منها شىء ، فيجب ان نسأل جدتى رأيها فى هذا » وهبط مسرعاً الى الطابق السفلى دون تمهل للتفكير .

وكان فتوره مبعث طمأنينتى فى ناحية كانت تبدو لى ذات أهمية بالغة ، فأسرعت الى حجرة الاستقبال وقد نسيت تماما اننى لا أزال لابساً القفاز الممزق فى يدى اليسرى .

واقتربت فى حذر الى مقعد جدتى ذى المسندين ولمست وشاحها بلطف ، وقلت هامساً : « ماذا نفعل يا جدتى ؟ ليس لدينا قفازات !! » .

« ماذا يا عزيزى ؟ »

« فأعدت قولى وانا اقترب منها وأقترب ، وأضع يدى على مسند مقعدها :

« ليس لدينا قفازات » .

فقالت على الفور وهى تنظر الى يدى اليسرى : « وما هذا ؟ ثم أضافت وهى تلتفت الى السيدة فالاخينا : « انظرى يا عزيزتى ، لقد جعل هذا الرجل الصغير من نفسه شخصاً أنيقاً لكى يراقص ابنتك » .

وأمسكتنى جدتى من يدى باحكام ، ونظرت الى ضيوفها فى وقار وتساؤل ، الى أن أشبع فضول المجموعة كلها وشاع الضحك بينها .

كان لا بد أن أنزعج انزعاجاً كبيراً لو ان سريوزا رآنى فى اللحظة التى تجهم فيها وجهى خجلا ، وحاولت عبثا اطلاق حرية يدى ، ولكن لم يسبب لى وجود سونتشكا أى احباط ، اذ انها ضحكت حتى امتلأت عيناها بالدموع ، وتشوشت جميع خصلات شعرها على وجهها المتورد ، ووجدت ان ضحكها الصادر من أعماق قلبها ، على السجية ، لا يمكن ان يكون سخرية ، بل على العكس ضحكنا سويا ، ويبدو ان ذلك قد قارب بيننا . ولئن كان حادث القفاز قد انتهى نهاية سيئة ، فقد أكسبنى ميزة وضعنى فى يسر فى الحلقة التى كانت تبدو لى دائماً على أكبر جانب من الفظاعة ، وهى

دائرة حجرة الاستقبال ، فلم أعد بعد أشعر بأقل خجل وأنا أدخل قاعة الرقص .

ان ما يعانيه الناس الذين يشعرون بالخجل ناجم عن عدم الثقة فى الفكرة التى كونها الناس عنهم ، وحالما تتضح هذه الفكرة بجلاء ـ سواء أكانت طيبة أم سيئة ـ تتوقف هذه المعاناة .

كم كانت سونتشكا فالاخينا ساحرة وهى ترقص قبالتى رقصة الكدريل الفرنسية (١) مع الأمير الصغير الأخرق ! وكم كانت ابتسامتها حلوة عندما ناولتنى يدها الصغيرة فى التابع ! وما أجمل خصلاتها الذهبية وهى تموج بانتظام ، وما أشد بساطتها وهى تقارب الى الجانب الآخر ، وانتظرت النقرة استعداداً لرقصتى المفردة ، ما بين قدميها ! وعند الخطوة الخامسة ، حين تركتنى زميلتى وذهبت ، ضمت سونتشكا شفتيها فى جد ونظرت الى الجانب الآخر . ولكن لم يكن هناك ضرورة لخوفها على ، فقد قمت بخطوتى الى الأمام ، وخطوتى الى الخلف ، ثم بالانزلاق ، وعندما اقتربت منها أريتها مداعباً قفازى الذى يبرز منه اصبعاى ، فانفجرت مقهقهة ، وخطت قدماها الصغيرتان فوق الأرض المدهونة بالشمع خطوات أشد سحرا من أى وقت مضى ، ولا أزال أذكر كيف انها حين كونا حلقة رقص وتشابكت أيدينا جميعاً ، طأطأت رأسها الصغير ، ودون أن

---

(١) رقصة رباعية يقوم بها اربعة ازواج من الراقصين وتتكون من خمس حركات ولها موسيقى خاصة بها . (المترجم)

تنسحب يدها من يدى حكت أنفها الدقيق بقفازها ، وأستطيع رؤية هذا كله كأنه يحدث أمام عينى مباشرة ، ولا أزال أسمع معزوفة الكدريل من « عذراء الدانوب » التى يرجع الى موسيقاها كل ما حدث .

ورقصت الكدريل الثانية مع سونتشكا نفسها ، ومع ذلك فحين ذهبنا للجلوس سوياً فى فترة الاستراحة شعرت بالارتباك على أشده، ولم أعرف على الأقل ماذا أقول لها .. ولما طال صمتى أكثر مما ينبغى ، بدأت أخاف ان تظننى غبيا ، فصممت من جانبى انقاذها من أى خطأ كهذا بأى ثمن ، فقلت لها بالفرنسية : « انك من سكان موسكو ؟ » .

وبعد أن تلقيت جوابها بالايجاب تابعت حديثى قائلا : « وانا لم أتردد قط حتى الآن على العاصمة » تقديرا منى بنوع خاص للتأثير الذى ستحدثه كلمة «أتردد» وبالرغم من اننى شعرت بأنها بداية رائعة جدا ، برهنت تماما على معرفتى باللغة الفرنسية ، فاننى لم أستطع الاستمرار فى هذا الأسلوب من الحديث . ولم يكن دورنا فى الرقص سيحل وشيكا ، وران علينا الصمت مرة أخرى، ونظرت اليها فى غير ارتياح تواقاً الى معرفة الأثر الذى أحدثته فيها منتظراً أن تساعدنى . وكم كان سرورى وراحة نفسى عظيمين حين استفسرت منى فجأة : « أين عثرت على هذا القفاز المضحك ؟ » فأوضحت لها انه قفاز كارل ايفانتش ، بل وتهكمت على كارل

ايفانتش نفسه ، وحدثتها عن منظره المضحك حين يخلع قبعته الحمراء ، وكيف انه ارتدى مرة معطفاً أخضر ، وانه سقط من على صهوة جواده مباشرة فى بركة موحلة ، وما الى ذلك . وانتهت رقصة الكدريل دون ان تشعر بها ، وكان كل شىء يبعث على السرور . ولكن لماذا سخرت من كارل ايفانتش ؟ هل كنت أفقد حسن ظن سونتشكا بى لو كنت وصفته بالحب والاحترام اللذين اكنهما له !.

وعندما بلغت رقصت الكدريل نهايتها ، قالت سونتشكا : « أشكرك » فى لفظ بالغ العذوبة ، كأننى استحق امتنانها حقيقة كدت أطير من الفرح ، ولم أعرف نفسى منذ أن ظفرت بالجسارة والثقة بل والشجاعة . وقلت فى نفسى وأنا أسير فى قاعة الرقص جيئة وذهاباً دون اكتراث : « لن يستطيع شىء أن يخجلنى ، اننى مستعد لكل شىء » .

وسألتنى سريوزا ان أكون مواجها له ، فقلت : « حسن جدا ، ليس لى زميلة ، ولكننى سأعثر على واحدة » وألقيت نظرة أخيرة حول الحجرة فوجدت ان جميع السيدات مرتبطات فيما عدا واحدة ـ سيدة شابة واقفة عند باب الردهة ، وكان يقترب منها شاب يقصد دعوتها الى الرقص ـ فيما ظننت ، وكان منها على مسافة خطوتين ، بينما كنت فى آخر القاعة ، وفى غمضة عين طرت اليها مجتازاً المسافة الفاصلة ، أتزلق فى رشاقة على الأرض المدهونة ، وبصريف من

قدمي ، وبصوت حازم دعوتها الى الرقص ، فابتسمت السيدة الشابة معضدة وناولتني يدها ، وبقي الشاب دون زميلة •

كنت شديد الشعور بقوتي حتى أنني لم أعر امتعاض هذا الشاب أي التفات ، وان كنت قد عرفت فيما بعد انه استفسر عن ذلك الولد الأشعث الذي قفز من امامه ثم خطف زميلته •

(٢٢)

المازوركا

رقص الشاب الذي سلبته فتاته ، رقصة المازوركة في الثاني الأول ، فقد قفز واقفاً وأمسك يد فتاته ، وبدلا من أن يخطو خطوات الباسك كما علمتنا ميمي ، جرى الى الأمام وحسب ، وعندما وصل الى الركن توقف ، وضرب بكعبيه ، ثم استدار ، وراح ينط بعد ذلك •

ولما لم تكن لي زميلة في رقصة المازوركة ، فقد جلست وراء مقعد جدتي المرتفع وأخذت أشاهد •

« لماذا يفعل ذلك ؟ انها ليست البتة الطريقة التي علمتنا ميمي اياها ، لقد كانت تقول دائما ان كل الناس يرقصون المازوركا على أطراف أقدامهم ، ويحركون أقدامهم في حركة انزلاق دائرية ،

ولكنها تتغير حتى انهم لا يرقصونها بتلك الطريقة مطلقاً ، وهناك آل ايفن واتيين كلهم يرقصون ، ولكن واحداً منهم لا يرقصها بخطوات الباسك ، حتى فولوديا اختار الطريقة الجديدة ! انها ليست سيئة !! وما أجمل سونتشكا ! انها ذاهبة الى هناك ! » •

لقد كنت مرحاً للغاية •

قاربت رقصة المازوركا نهايتها ، وقدم عدد كبير من السيدات والسادة الكبار ليودعوا جدتي ثم انصرفوا ، وكان الخدم يتحاشون بمهارة طريق الراقصين ويدخلون بالأطباق الى الغرفة الخلفية ، ومن الواضح ان جدتي كانت متعبة ، يبدو عليها انها تتحدث كارهة وفي بطء شديد • وأخذ الموسيقيون يعزفون متراخين نفس النغمة للمرة الثلاثين • ورأتني السيدة الشابة التي رقصت معها ، بينما كانت تمشي مزهوة بنفسها وتبتسم ابتسامة خداعة ـ ولا بد أنها كانت تريد ارضاء جدتي ـ •• فقدمت لي سونتشكا واحدى الأميرات العديدات وقالت : « أتريد وردة أم حشيشة شائكة ؟ » •

وقالت جدتي وهي تستدير في مقعدها : « آه ، هأنت ذا هنا ! اذهب وارقص يا عزيزي » •

وكنت أفضل كثيراً في تلك اللحظة اخفاء رأسي تحت مقعد جدتي على الظهور من ورائه ، ولكن كيف أستطيع الرفض ؟ فوقفت وقلت : « وردة » بينما كنت أتطلع خجلا الى سونتشكا • وقبل أن

أستعيد شعورى استقرت فى يدى يد شخص عليها قفاز أبيض من جلد الماعز ، وبدأت الأميرة على الفور وعلى فمها ابتسامة ، دون أن تشك فى أننى لا أعرف على الأقل ماذا أفعل بقدمى .

كنت أعرف أن خطوات الباسك غير ملائمة وغير لائقة ، بل انها ستسبب لى المهانة ، ولكن أصوات المازوركا المشهورة تؤثر فى أذنى وتوصلها الى الأعصاب السمعية التى توصلها بدورها الى قدمى ، وهذه الأخيرة لا ارادية على الاطلاق . ولشد ما أدهش كل المشاهدين ان بدأ الرقص بخطوة الانزلاق الدائرية المشئومة على أطراف القدمين . وقد اتبعنا الأسلوب مادمنا قد تحركنا قدما ، ولكن حين درنا لاحظت أننى لا بد أن أسبق اذا لم أتخذ بعض الحيطة . ولكى أتحاشى مثل هذه النكبة ، وقفت جامداً بقصد القيام بنفس الدورة السريعة التى قام بها الشاب فى الثنائى الأول برشاقة كبرى . ولكن فى نفس اللحظة ، وعندما باعدت بين قدمى استعداداً للقفز ، دارت الأميرة بسرعة حولى، ورمقت قدمى بنظرة فيها سمات الذهول والفضول والحيرة ، فقضت على هذه النظرة ، وفقدت السيطرة على نفسى الى الحد الذى جعلنى أضرب الأرض بقدمى رفعا وخفضا فى نقطة واحدة وبأسلوب غاية فى الغرابة ، بدلا من الرقص ، وأخيراً توقفت دون حراك . وتطلع الى الجميع ، البعض فى دهشة ، وآخرون بفضول أو حيرة أو عطف ، وكانت جدتى هى الوحيدة التى تطلعت الى دون أى اكتراث .

وهمس بابا فى أذنى بصوت غاضب : « ينبغى ألا ترقص اذا لم تكن تعرف كيف ترقص » ودفعنى جانباً دفعة خفيفة ، وتناول يد زميلتى ، ورقص معها دورة من الطراز القديم مما أثار ابتهاجا عظيما بين الحاضرين ، وقادها الى مقعدها . وانتهت رقصة المازوركا على التو .

.. لقد احتقرنى كل الناس ، وسيحتقروننى على الدوام.. ان الطرق المؤدية الى كل شىء - الى الحب والصداقة والشرف - قد سدت فى وجهى .. ضاع كل شىء ! لماذا أومأ فولوديا الى باشارات رآها كل انسان ، ولم تكن لها أية فائدة لى ؟ ولماذا نظرت الأميرة البغيضة الى قدمى على هذا الوجه ؟ ولكن لماذا ابتسمت سونتشكا فى نفس الوقت - وكانت جميلة ؟ ولماذا احمر وجه أبى وأمسك بيدى ؟ حتى هو اعتراه الخجل من أجلى ؟ آه ، انه لفظيع ! لو كانت أمى هنالك لما خجلت من ابنها نيكولنكا . وحملنى خيالى بعيدا الى تلك الرؤية العذبة .. تذكرت المرجة التى أمام المنزل ، وأشجار الزيزفون السامقة فى الحديقة ، والبركة الصافية التى ترفرف فوقها عصافير السنونو ، والسماء الزرقاء المعلقة بها السحب البيضاء الشفافة ، وأكداس الدريس الطرية العطرة ، وأشياء أخرى كثيرة مفرحة ، وذكريات تبعث الى الهدوء كانت تؤثر فى خيالى الشارد .

(٢٣)

ما بعد المازوركا

•• جلس الشاب الذي رقص في الثنائي الأول الى مائدة الأطفال معنا ، وأولاني اهتماما خاصا وهو شيء كان لابد أن يشبع زهوي الى حد ليس بالقليل لو كنت قادراً على الشعور بأي شيء بعد المحنة التي حلت بي • ولكن يبدو أن الشاب كان مصرا على أن يطيب خاطري ، فكان يمازحني ويدعوني بالزميل اللطيف ، ويساعدني على تناول النبيذ من مختلف الزجاجات اذا لم يكن يراها أحد من الكبار ويحملني على الشرب • وفي نهاية العشاء ، عندما صب لي الساقي من زجاجة « الشمبانيا » الملفوفة « بالفوطة » ليملأ ربع كوبي وحسب ، وأصر الشاب على أن يملأه كله ، واضطرني الى ابتلاعه في جرعة واحدة ، فشعرت بدفء عجيب يسري في جميع بدني ، وبشعور من الانتشاء نحو ظهيري الفكه وضحكت طربا •

ترددت من قاعة الرقص على حين فجأة أصوات رقصة ماجنة وأخذ الضيوف ينهضون تاركين المائدة ، وانتهت صداقتي على الفور بالشاب ، فقد ذهب الى الكبار ولما لم أتجاسر على ملاحقته ، اقتربت في فضول لأستمع الى ما كانت تقوله السيدة فالاخينا لابنتها •

قالت سونتشكا متوسلة : « أرجوك مجرد نصف ساعة أخرى » •

« هذا محال يا ملاكي » •

فقالت ملاطفة : « آه ، من فضلك ، من أجل مرضاتي » •

وقالت السيدة فالاخينا ، وكانت من الفطنة بحيث ابتسمت ، « هل يسرك اذا ما أصبحت في الغد مريضة ؟ » •

وصاحت سونتشكا وهي ترقص فرحاً : « واذن يمكننا أن نبقى ؟ نعم ؟ » •

فقالت وهي تشير الي : « ماذا أفعل ؟ حسن جدا ، اذهبي وارقصي واليك زميلك » •

وناولتني سونتشكا يدها وأسرعنا الى قاعة الرقص •

ان النبيذ الذي شربته ، ووجود سونتشكا ، والانشراح ، كل ذلك جعلني أنسى تماماً زلتي التعسة في المازوركا ، وقمت بقفزات مسلية بقدمي مقلدا الحصان ، ورحت أسير خببا في رفق أرفع ساقي في كبرياء ، ثم أضرب بقدمي واحدة مثل كبش أثاره كلب ، وأضحك ملء قلبي دون أي اهتمام بما يتركه ذلك من أثر على المشاهدين • ولم تتوقف سونتشكا أيضا عن الضحك : ضحكت حين استدرنا في حلقة متماسكي الأيدي ، وضحكت حين وقع

نظرها على سيد عجوز كان يرفع قدميه بحــذر ويخطو من فوق منديل ، متظاهراً بأن أداء ذلك يصعب عليه ، وضحكت حتى كادت تستلقى عندما قفزت الى السقف تقريبا لكى أستعرض خفة حركتى .

وبينما كنت أجتاز مكتب جدتى تأملت نفسى فى المرآة : كان وجهى يستحم فى العرق ، وشعرى مشعثاً ، وخصلة الشعر فى قمة رأسى منتصبة على أسوأ ماتكون ، ولكن ملامحى العامة كانت بالغة المرح واللطف والصحة بحيث كنت راضيا عن نفسى .

•• وقلت فى نفسى : « لو كنت كذلك دائما ، لاستطعت أن أسر الآخرين » ، ولكن حــين تأملت ثانية وجــه زميلتى الجميل الصغير ، رأيت فيه المرح والصحة وخلو البــال من الهموم وهى أشياء استرحت اليها فى سرى ، كما رأيت الكثير من الجمال الوديع الكيس ممــا جعلنى أثور على نفسى وأدركت مدى غفلتى اذ أؤمل فى جذب انتباه مثل هذا الكائن الرائع الى شخصى .

•• لم أكن أؤمل أن يقابلنى حبــا بحب ، ولم أفكر حقيقة فى هذا : كانت روحى تفيض بالسعادة ، ولم أستطع أن أتصــور مقابلا للحب الذى غمر نفسى ببهجة لا يطلب المرء ازاءها أية سعادة تفضلها ، أو أية رغبة أكثر من أن يبقى هذا الشــعور الى الأبد . كنت سعيدا ، قلبى يخفق كجناحى حمامة ، والدم يتدفق فيه دون توقف ، ورغبت فى البكاء .

وعندما كنا نجتــاز الدهليز مارين بمخــزن المؤن المظلم تحت

السلم ، نظرت اليه وقلت فى نفسى : « كم تكون الهناءة لو استطعت العيش معها الى الأبد فى ذلك المخزن المظــلم ، ولو جهــل الناس جميعاً أننا نعيش هنالك » .

وقلت فى صوت هادىء متهدج : « أليست هذه ليلة مبهجة ؟ » ثم أسرعت الخطى ، ولم يكن خوفى مما قلت ، بقدر خوفى ممــا كنت أعتزم بقوله .

فأجابت وهى تدير رأســها الصــغير نحــوى وعليهــا سيماء صريحة حانية أزالت عنى مخاوفى : « نعم ، مبهجة جداً » .

« وبخاصــة بعد العشــاء ، ولكن لو عرفت كم كنت آســفاً (وكنت أريد أن أقول تعساً ولكننى لم أجرؤ) لأنك ستبرحلين بهذه السرعة فلن يرى أحدنا الآخر بعد ذلك !! » .

فقالت وهى تتأمل عــامدة طرفى خفيها وتجــرى أصابعها على الستار الشبكى الذى كنا نمر به : « لماذا لن يرى أحدنا الآخر ؟ ان أمى وأنا ، نذهب الى تفرسكوى بوليفار كل ثلاثاء وجمعة ، ألا تذهب للنزهة هنالك أبداً ؟ » .

« سأطلب الاذن بالذهاب الى هناك يوم الثلاثاء القادم ، فاذا لم يأذنوا لى ، •• فسأهرب وحدى ، حتى دون أن آخذ قبعتى ••• اننى أعرف الطريق » .

وقالت سونتشكا على حين فجأة : « هل تعرف ما كنت أفكر

فيه الآن ؟ انني أقول دائما « انت » ، للأولاد الذين يزوروون بيتنا ، فليخاطب كل منا الآخر « بأنت » • ثم تابعت حديثها وهي تدفع برأسها الصغير الى الخلف وتحدق في عيني مباشرة : « ألا توافق « أنت » على ذلك ؟ » •

ودخلنا في هذه اللحظة قاعة الرقص ، في بدء الشطر الثاني من رقصة « الجد » النشيطة فقلت : « انني متفق ••• معكم » وذلك ظناً منى أن صوت الموسيقى سوف يطغى على كلماتي •

فقالت سونتشكا تصحح الكلمة وهي تضحك : « قل معك »•

وانتهت رقصة « الجد » ، ولم أكن قد تدربت على النطق بعبارة واحدة فيها كلمة « أنت » بالرغم من أنني لم أتوقف قط عن ابتداء ما يسمح بتكرار ذلك الضمير مرات عدة ، ولم تكن لدى الشجاعة الكافية • وطنت في أذني كلمة « أتوافق ؟ » وسببت لى نوعاً من الخدر فلم أر شيئاً ولا أحداً الا سونتشكا ••• رأيت خصلات شعرها مزمومة خلف أذنيها ، تكشف عن أجزاء من حاجبيها وصدغيها لم أرها من قبل ، لقد رأيتها متشحة كلها بشال أخضر يغطيها بحيث لا يظهر منها غير طرف أنفها الصغير ، والواقع أنها لو لم تفتح ثغرة ضيقة من فمها ، بأصابعها الوردية الصغيرة لاختنقت دون شك ••• ورأيت كيف استدارت نحونا بسرعة وهي تهبط الدرج مع أمها وأومأت برأسها ، ثم مرت من الباب واختفت•

ان فولوديا ، وآل ايفن ، والأمير الشاب ، وأنا ؛ كلنا أحببنا سونتشكا ، وتبعناها بعيوننا ونحن وقوف على السلم ، ولست أعرف من الذى خصته بايماءة رأسها الصغير ، ولكنى في تلك اللحظة كنت مقتنعا كل الاقتناع أن الايماءة كانت موجهة الى •

وعندما ودعت أبناء ايفن تحدثت اليهم وصافحتهم غير مكره ، بل في شيء من الفتور بالنسبة لسريوزا ، ولو عرف انه فقد في ذلك اليوم كلا من حبي له وسلطانه على ، لأسف لذلك بالتأكيد ، بالرغم من أنه حاول أن يبدو غير مكترث أي اكتراث •

•• لأول مرة في حياتي لم أكن أمينا على حبي ، ولأول مرة أجرب لذة هذا الشعور ، لقد سرني أن أستبدل بعاطفة الود البالية المألوفة ، شعوراً جديداً بالحب المليء بالغموض والشك ، وفوق ذلك ، فان الوقوع بعيداً عن الحب ، وفي الحب في نفس الوقت ، يعنى الحب بحماسة مضاعفة عن ذى قبل

(٢٤)

فى الفراش

•• أخذت أتأمل وأنا راقد في فراشي : « كيف أحببت سريوزا بكل هذه العاطفة وطوال هذه المدة ؟ » لا ، انه لم يفهمني قط ، ولم يستطع تقدير حبي له ، ولم يكن في وقت ما جديراً به ،

وسونتشكا ؟ يا لها من محبوبة ! أموافقة ؟ ، لقد حل دورك لكى تبدلى » .

وقفزت فى فراشى حين تصورت بجلاء وجهها الصغير ، وغطيت رأسى بالغطاء وحشرته تحتى من جميع النواحى ، ولما لم تعد هناك أية فتحة فى أية ناحية ، رقدت وقد ساورنى شعور لذيذ بالدفء ، واستغرقت فى رؤى وذكريات حلوة ، وعندما ركزت نظرتى دون حراك فى بطانة اللحاف المحشو ، رأيتها واضحة فى مثل الوضوح الذى رأيتها عليه منذ ساعة مضت ، وتبادلت معها الحديث عن طريق العقل وبالرغم من أن هذه المحادثة عاطلة كل العطل من الحس فقد أمدتنى بمسرة يعجز عنها الوصف ، اذ وجدت فيها الضمائر « انت » وانك ومعك ولك ، على الدوام .

وكانت هذه الرؤى من الوضوح بحيث لم أستطع النوم فأضيع به الاحساس الجميل ، وأردت أن يشاركنى شخص ما هذه الغبطة الفائقة .

وقلت فى صوت يكاد أن يكون مرتفعاً وأنا أدور فجأة الى الجنب الآخر :

« الحبيبة ! هل أنت مستيقظ يا فولوديا ؟ » .

وأجاب فى صوت يغالبه النعاس : « لا ، ماذا بك ؟ » .

« لقد وقعت فى الحب يا فولوديا ، اننى لا شك وقعت فى حب سونتشكا » .

وقال وهو يتمطى : « حسن وماذا يضيرك من هذا » .

« آه يافولوديا ، لا يمكنك أن تتخيل ما يدور فى دخيلة نفسى : لقد كنت راقداً هنا الآن ، ملفوفاً فى الغطاء ، فرأيتها بوضوح ، بوضوح تام ، وتحدثت اليها ، كان شيئاً رائعاً وحسب ! وهل تعرف أننى حين أرقد فأفكر فيها أشعر بحزن شديد حتى لأستطيع البكاء » .

وتحرك فولوديا .

وتابعت حديثى قائلا : اننى أريد شيئاً واحداً ، وهو أن أظل معها دائماً ، وأراها دائما ، ولا شىء غير هذا ! وأنت هل تحب ؟ أصدقنى القول يا فولوديا ! » .

انه لشىء شاذ ، ولكنى أريد أن يقع جميع الناس فى حب سونتشكا ، وأريدهم أن يتحدثوا جميعا عن هذا الحب .

وقال فولوديا وهو يدير وجهه نحوى : « وماذا يفيدك هذا ؟ ربما » .

وأدركت من عينيه اللامعتين أنه لا يفكر فى النوم أقل تفكير ، فأزحت الغطاء ناحية وصحت قائلا : « انك غير راغب فى النوم ، ولكنك تتظاهر به فحسب ، فلنتحدث عنها .. انها لمحبوبة ، أليست كذلك ؟ » ثم قلت : وهى من الرقة بحيث اذا قالت لى اقفز يا نيكولنكا من النافذة ، أو ارتم فى النار ، فأقسم اننى أفعل ذلك على

الثو ، وبسرور ٠ آه ، ما أشد سحرها ! ، ، وبينما كنت أستحضر صورتها الى خيالى ؛ ولكى أستمتع على هذا الوجه أعظم استمتاع ، درت فجأة الى الجنب الآخر ، وحشرت رأسى تحت الوسادة وأضفت قائلا : « آه ، أريد أن أبكى بكاء فظيعاً يا فولوديا ! » ٠

فابتسم قائلا : « يا لك من أبله » ، وساد الصمت برهة ، ثم تابع حديثه قائلا : « اننى لا أشعر بشىء مما تشعر ، وأظن من الأفضل ، اذا كان ممكناً ، أن أجلس بجانبها وأتحدث اليها » ٠

فاعترضته قائلا : « آه ، وأنت أيضاً وقعت فى حبها ؟ » ٠

وتابع فولوديا حديثه وهو يبتسم فى رقة : وحينئذ ، حينئذ أقبل أصابعها الصغيرة وعينيها وشفتيها وأنفها ، وقدميها الدقيقة ـ أقبل كل شىء فيها » ٠

فصحت به من تحت الوسادة : « هذا هراء ! » ٠

وقال فولوديا متعالياً : « نعم ، اننى أعرف بالتأكيد ، ولكنك أنت لا تعرف ، وتقول لغواً » ٠

« حسن ، ليس هناك شىء تبكى من أجله ، يا لك من طفل كثير البكاء !! » ٠

« ٢٥ »

الرسالة

٠٠ فى السادس عشر من أبريل ، أى بعد ستة أشهر تقريبا من اليوم الذى وصلته ، صعد الينا بابا أثناء ساعة الدرس وأخبرنا أننا سنسافر معه الى الريف فى تلك الليلة ، فانقبض صدرى لهذا الخبر ، وتحولت أفكارى فور ذلك الى أمى ٠

وكانت الرسالة التالية هى السبب فى رحلتنا غير المتوقع :

بتروفسكوى فى الثانى عشر من أبريل :

« لقد تسلمت تواً رسالتك المؤرخة فى الثالث من أبريل ، فى الساعة العاشرة مساء ، وهأنا أرد عليها كالمعتاد مباشرة ٠٠ ولقد أحضرها فيودور من المدينة الليلة الماضية ، ولما كانت الساعة متأخرة ، فقد سلمها الى ميمى ، واذ كنت مريضة وعصبية المزاج ، فقد حجبتها ميمى عنى طوال النهار ، والحقيقة اننى محمومة قليلا وأصدقك القول أن هذا هو اليوم الرابع لملازمتى الفراش ٠

« أرجو ياعزيزى ألا تنزعج ، فأنا أشعر أننى فى صحة تامة ، واذا سمح لى ايفان فاسيلتش ، فسأفكر فى مغادرة الفراش غدا ٠٠

« أخذت الأطفال يوم الجمعة الى نزهة راكبين ، ولكن الجياد

غرزت في الوحل بالقرب من مدخل الطريق العام بجانب تلك القنطرة نفسها التي كانت تخيفني دائما ، وكان اليوم صافياً جدا ، وظلتني منطيعة السير راجلة حتى الطريق العام ، بينما كانوا يسحبون العربة ، وعندما وصلت الى الكنيسة الصغيرة كان لا بد من الجلوس اذ كنت متعبة جداً ، وانقضت على هذه الحال ساعة ونصف ساعة ، بينما كانوا يستدعون الناس لسحب العربة . وشعرت ببرودة ، وبخاصة في قدمي اذ كنت أنتعل حذاء ذا نعل رقيق فنفذ منه الماء . وشعرت بالحمى بعد الغداء ، ولكني لم أذهب الى الفراش . وجلست كعادتي بعد تناول الشاي أعزف ثنائية مع ليوبتشكا (انك لا تعرف بها .. لقد تقدمت تقدما كبيرا !!) ، ولكن تخيل دهشتي حين وجدت أنني لا أستطيع أن أحصي الوقت ، وأخذت أحصيه عدة مرات ، ولكن رأسي أصيب بدوار شديد ، وشعرت بضجة غريبة في أذني ، وأحصيت ، واحدا ، اثنين ، ثلاثة ، ثم انتقلت دفعة واحدة الى ثمانية ثم الى خمس عشرة ، وأعجب ما عجبت له أنني كنت أقول هراء دون أن تكون لي في ذلك حيلة ، وأخيراً جاءت ميمي لمعاونتي ، فوضعتني في الفراش بالقوة تقريبا . فاليك يا عزيزي بيانا مفصلا عن سبب مرضي ، وكيف أنني أستحق اللوم . وفي اليوم التالي كانت درجة حرارتي مرتفعة كل الارتفاع ، وجاء صاحبنا الطبيب العجوز ايفان فاسيليتش ، ولم يفارقنا منذ ذلك الوقت ، ووعد بأنه سيجعلني أقف على قدمي ثانية ، وشيكا جداً ،

يا له من رجل عجوز مدهش !! عندما كنت محمومة أهذي ، جلس بجانبي طوال الليل ، وهو الآن اذ يعرف انني اكتب ، يجلس مع الفتيات ، وأستطيع أن أسمعه من حجرتي يقص عليهن حكايات ألمانية ، يكاد يقتلهن الضحك وهن يستمعن اليه .

ان « الفلمنكية الحسناء » كما تسميها انت ، مكثت معي طوال الأسبوعين الماضيين لأن أمها سافرت الى مكان ما ، وهي أشد ماتكون عناية بي وملازمة لي ، وهي تعهد الي بكل أسرار قلبها ، ولو تناولتها أيد طيبة لتحولت الى فتاة لطيفة جداً بوجهها الجميل وقلبها الحنون ونضارة شبابها ، ولكنها ستحطم تحطما تاما في المجتمع الذي تعيش فيه اذا حكمنا على ذلك من قصتها الخاصة ، ولقد خطر لي ، لو لم يكن لدي عدد كبير من الأطفال ، ان أقوم برعايتها كعمل من أعمال البر .

« أرادت ليوبتشكا الكتابة اليك بنفسها ، ولكنها مزقت حتى الآن ثالث صحيفة من الورق وهي تقول : « انني أعرف مقدار سخرية أبي ، فانت اذا ارتكبت غلطة واحدة أطلع عليها الجميع » ان كاتنكا لطيفة كما هي دائما ، وميمي كذلك تشق طريقها .

والآن سأحدثك عن شئون جدية . لقد كتبت لي أن أعمالك لا تسير سيراً حسناً هذا الشتاء ، وانك مضطر الى أخذ الدخل من خاباروفكا ، وانه ليدهشني أن تسألني الموافقة على ذلك . ان ما أملكه تملكه أنت كذلك دون شك .

« انك لين الجانب والطيبة بحيث تخفي عني الحالة الحقيقية لشئونك خوفاً من ايلامي ؛ ولكني أخمن أنك فقدت مبلغاً كبيراً في لعب الورق على الأرجح ، وأؤكد لك أنني لست غاضبة عليك ، ولذا ، فإن استطعت وحسب التغلب على هذه الضائقة ، فأتوسل اليك ألا تفكر فيها طويلا . لقد تعودت عدم التعويل على مكاسبك فيما يتصل بالأطفال ، ولا كل التعويل حتى (واغفر لي) على كل أملاكك . ان مكاسبك تسبب لي أقل سرور كما تسبب لي خسائرك أقل ألم ، والشيء الوحيد الذي يؤلمني حقاً هو غرامك التعس بالمقامرة ، الذي يسلبني جزءا من حنانك الرقيق ، ويضطرني الى مصارحتك بمثل هذه الحقائق المرة التي أذكرها لك الآن — ويعلم الله كم يؤلمني هذا !! ولن أكف عن الابتهال لله أن يمنحني شيئا واحدا ، هو أن ينقذنا سبحانه — لا من الفقر (فما هو الفقر ؟) — ولكن من ذلك الموقف المخيف ، وعندما تتعارض مصالح أطفالنا ، التي ألتزم بحمايتها ، مع مصالحنا نحن . ولقد استجاب الله من قبل الى دعائي : فأنت لم تتجاوز الحد الذي نضطر عنده اما الى التضحية بأملاكنا — التي لم نعد نملكها حتى الآن ، بل يملكها أطفالنا — واما — والتفكير في هذا مخيف — وان كان سوء الطالع الرهيب هذا ، يهددنا على الدوام . نعم انه لصليب ثقيل ذلك الذي أرسله الله لنا سويا .

« انك تكتب عن الطفلين وتعود الى نزاعنا القديم : تسألني الموافقة على ارسالهم الى أحد معاهد التعليم .

« انني لا أعرف ياصديقي العزيز ، ما اذا كنت توافقني ، ومع ذلك أرجوك أن تعد ، اكراما لي ، ألا تفعل ذلك ما دمت على قيد الحياة ، ولا بعد وفاتي ان أراد الله التفريق بيننا .

« كتبت لي أنك يجب أن تذهب الى سانت بطرسبورج لملاحقة أعمالك ، فليكن المسيح معك يا صديقي ، اذهب وعد بأسرع ما تستطيع . ان الحياة تشق علينا كثيراً بدون وجودك ! ان الربيع رائع الجمال ، وقد أزلنا باب الشرفة على التو ، والممرات المؤدية الى الصوبة جافة تماما منذ أربعة أيام ، وأشجار الخوخ في تمام ازدهارها ، والثلج يتلبث يقع قليلة فقط ، وجاءت طيور السنونو ، وأحضرت لي ليوبتشكا بواكير أزهار الربيع . ويقول لي الطبيب انني سأكون على خير حال في مدى ثلاثة أيام ، وسأستطيع تنفس النسيم النقي والاستدفاء في شمس ابريل ، .. والآن الى اللقاء ياصديقي العزيز : أرجوك ألا تقلق لمرضي ولا لخسائرك ، أنجز عملك بأسرع ما في طوقك وتعال الينا مع الطفلين لقضاء الصيف كله ، فأنا أضع مشروعات عظيمة للصيف ومجيئك وحده هو الذي ينقص اكمالها » .

أما السطر الباقي من الخطاب فقد كتب باللغة الفرنسية ، بخطه

يد متشنجة غير عادلة على قطعة أخرى من الورق • وهانا أترجمه كلمة بكلمة :

« لا تصدق ما كتبته لك بشأن مرضي ، ولا يشك أحد فى مقدار خطره ، وأنا وحدى الذى أعرف أننى لن أغادر الفراش مرة أخرى ، فلا تضيع لحظة : تعال واحضر الطفلين فقد أستطيع أن أقبلهما مرة أخرى وأباركهما : هذه هى رغبتي ، وأنا أعرف أية صدمة قوية أوجهها لك ، ولكنك ستلقاها ان عاجلا أم آجلا من الآخرين • فلتتحمل هذه المحنة بثبات ، وثق فى رحمة الله ، ولتخضع لمشيئته تعالى •

« لا تظن أن ما أكتبه هذيان خيال ، محموم ، بل ان أفكاري على العكس ، صافية فى هذه اللحظة صفاء عجيبا ، رابطة الجأش تماماً ولا تغر نفسك كذلك بآمال باطلة ، كأن هذه ليست الا هاجسات مبهمة كاذبة لنفس هيابة ، لا ، فأنا أشعر وأعرف حقيقة ، لأن الله رضى أن يكشف لى عن هذا — لأنه لم يعد أمامي طويل وقت فى الحياة •

« هل سينتهى حبي لك وللأطفال بانتهاء هذه الحياة ؟ أعرف أن هذا محال وفى هذه اللحظة التى يملؤني فيها الحب امتلاء يجعلني أفكر فى أن ذلك الحب ، الذى لا أستطيع بدونه فهم الوجود يمكن أن يفنى • ان روحى لا تستطيع أن توجد بدون حبها لك ، واعلم

انها ستبقى الى الأبد بهذا وحده ، وان حبا كحبى لم يكن ليوجد اذا لم يكن من المقدر له أن يحيا الى الأبد •

« سوف لا أكون معك ، ولكننى مقتنعة كل الاقتناع بأن حبى لن يفارقك البتة ، وفي هذه الفكرة من العزاء لقلبى مايجعلنى أنتظر الموت الذى يقترب وشيكا ، فى هدوء ودون فزع •

« اننى عادلة ، ويعلم الله أننى كنت دائماً أنظر الى الموت ، ولا أزال أنظر اليه ، بوصفه الطريق الى حياة أفضل ، ومع ذلك فلماذا لا أستطيع حبس دموعي ؟ ولماذا لا بد أن يحرم أطفالى من الأم التى يحبونها ؟ ولماذا لابد أن يكون نصيبك كل هذه الصدمة الشديدة غير المتوقعة ؟ لماذا يجب أن أموت فى الوقت الذى جعل حبك من حياتى سعادة لا حد لها ؟ » •

« فلتكن مشيئته المقدسة ! •

« لا أستطيع أن أكتب لك مزيداً بسبب دموعى ، وآخشى ألا أراك ••• أشكرك ياحبيبي لكل السعادة التى أعطيتنى بها فى هذه الحياة ، وسأبتهل الى الله أن يجزيك عنى ••• وداعا يا أعز عزيز ، وتذكر حين أصبح نسياً منسياً أن حبى لن يفارقك مطلقاً أينما كنت •• وداعا يا ملاكى فولوديا ، وداعا يا صغيرى بنيامين ، ويانيكولنكا •

« هل يمكن أن ينسونى ؟ » •

وكان هذا الخطاب يشتمل على ملاحظة بالفرنسية من ميمى ،

نصها كالآتى : ـ « ان الجوالج التى تتكلم عنهـا لبنت الاما أيدها الطبيب تأييداً تاماً ، وقد أمرتنى فى الليلة الماضية أن أحمـل هذه الرسـالة الى البريد توا . وظنا منى انهـا تهـذى فقد انتظرت الى الصباح ثم فكرت فى أن أفضها ، وما أن فعلت ذلك حتى سألتنى ناتاليا نيكوليفنا عما فعلته بالرسالة ، ثم أمرتنى بحرقها اذا لم أكن قد أوصلتها ، وهى دائمة التحدث عنها ، وصرحت بأنها ستقتلك ، فلا تؤخر حضورك ان كنت تريد رؤية ملاكنا قبل أن يفارقنا الى الأبد . معذرة لهذه الكتابة المشوشة لأننى لم أنم منذ ثلاث ليال ، فأنت تعلم مقدار حبى لها .

أخبرتنى ناتاليا سافشنا التى قضت طوال ليلة الحادى عشر من ابريل فى حجرة نوم أمى ، أنها بعد كتابة السطر الأول من الرسالة ، وضعتها على مائدة صغيرة بجانبها ثم ذهبت لتنام .

وقالت ناتاليا سافشنا : « أعترف أننى غفوت فى المقعـد ذى المسـندين ، وسـقط جوربى من يدى ؟ ولكن فى نحو السـاعة الواحدة سمعت فى أحلامى كأنها تتحدث الى شخص ما ، وفتحت عينى ، فوجدتها جالسـة فى الفـراش ، وجدت حمامتى الصغيرة ، بيديها الصـغيرتين مضمومتين هكذا ، والدموع تفيض من عينيها ، وقالت : « وهكذا ينتهى كل شىء ؟ » ثم دفنت وجهها بين يديها ، وقفزت واقفة على قدمى وسألتها : « ماذا بك ؟ » .

فقالت : « آه ياناتاليا سافشنا ، لو عرفت ماذا رأيت الآن ! » .

« ولكن لا يهم كيف توصلت اليها أن تجيبنى لأنها لم تزد على ذلك شيئاً . انما طلبت منى فقط احضار المائدة الصغيرة فأضافت الى الرسـالة شيئاً ما ، وجعلتنى أختمها لساعتى وأرسلها مباشرة . ثم أخذت حالتها بعد ذلك تتزايد سوءاً .

« ٢٦ »

ما كان ينتظرنا فى الريف

.. فى الثامن عشر من ابريل نزلنا من عربتنا عند سقيفة البيت فى بتروفسـكوى ، وكان بابا مستغرقاً فى التفكير حين غادرنا موسكو ، فلما سأله فولوديا عما اذا كانت أمه مريضة ، نظر اليه فى أسى وهز رأسه فى صمت ، ثم بدأ أهدأ حالا فى أثنـاء الرحلة . ولكن حين اقتربنا من البـيت اتخذ وجهه شيئاً فشيئاً طابع الحزن . وعند نزوله من العربة سأل فوكا الذى أسرع لاهثاً : « أين ناتاليا نيكولايفنا ؟ ولم يكن صـوته ثابتاً ، تندى عينـاه بالدموع . ونظر الينـا فوكا العجوز الطيب وغض من عينيه ، وفتح باب حجـرة الانتظار ، ثم التفت جانباً وأجاب : « انه اليوم السادس يا سيدى منذ أن لزمت غرفتها ولم تبارحها » .

أما « ملكا » (التى عرفت فيما بعد أنها لم تتوقف عن العواء المحزن منذ اليوم الذى حملت فيه أمى المريضة) فقد اندفعت منتبطة

نحو بابا وقفزت عليه ، وهي تعوى وتلعق يديه ، ولكنه دفعها عنه جانبا واجتاز حجرة الاستقبال الى المخدع حيث يوجد باب يؤدى مباشرة الى حجرة النوم . وعندما اقترب من الحجرة تزايد اضطرابه الذى كان ظاهراً فى كل حركة : دخل المخدع على طرف قدميه لا يكاد يجسر على التنفس ، ورسم اشارة الصليب قبل أن يمد يده الى مقبض الباب المغلق . وفى تلك اللحظة دخلت ميمى مسرعة من الممر مشعثة دامعة العينين ، وقالت هامسة وقد انطبع على وجهها خوف حقيقى : « آه ، بيوتر الكسندروفتش » وما أن لاحظت أن أبى يدير المقبض حتى أضافت بصوت لا يكاد يسمع : « ليس من هنا ، ان هذا الباب مغلق ، والدخول عن طريق حجرة الخادمات » .

آه ، كم أثر كل هذا على خيالى الصبيانى الذى جعله التشاؤم المفزع متوافقاً مع الحزن !! .

وذهبنا الى حجرة الخادمات ، فقابلنا فى الممر « آكيم » الأبله الصغير الذى كان يسلينا دائما بتقطيبات وجهه ، ولكن فى هذه اللحظة لم أشاهد فيه شيئاً يبعث على الضحك ، فلم يصدمنى فى الواقع شىء مؤلم الى هذا الحد بقدر ما صدمنى ذلك الوجه العاطل من الشعور والاكتراث . وكانت فى حجرة الخادمات اثنتان منهن عاكفات على شغل الابرة ، نهضن للانحناء لنا بالتحية ، عليهن من سمات الحزن ما أفزعنى . وبمرورنا بحجرة « ميمى » المجاورة ، فتح أبى باب حجرة النوم ودخلنا . كان الى يمين الباب نافذتان

يتدلى منهما ونشاحان . جلست على احداهما ناتاليا سافتشنا بنظارتها على أنفها تحيك جورباً ، ولم تقبلنا كما كانت تفعل عادة ، ولكنها نهضت وحدقت فينا من خلال نظارتها وحسب ، وهطلت الدموع على وجنتيها ، لقد أزعجنى أن أرى أناساً هادئين على الدوام يأخذون فى البكاء حالما يروننا .

والى يسار الباب يتسدل ستار ، خلفه فراش ومنضدة صغيرة وصوان صغير ملىء بالعقاقير ، والمقعد الكبير ذى المسندين الذى أغفى عليه الطبيب . ووقفت الى جنب الفراش فتاة شابة بالغة الجمال ذات شعر أشقر ، وقد شمرت عن كمى ردائها الصباحى الأبيض ، وهى تضع الثلج على رأس أمى ، أما أمى نفسها فلم أرها . وكانت هذه الفتاة هى « الفلمنكية الحسناء » التى كتبت عنها أمى من قبل ، والتى قامت بدور كبير الأهمية فى حياة الأسرة كلها . وحالما دلفنا الى الحجرة ، رفعت يدها من على رأس أمى ، وزينت ثنيات صدر قميصها ، ثم قالت بصوت خافت : « انها فاقدة الحس » .

.. كنت شديد التعاسة فى تلك اللحظة ، ولكن لاحظت كل هذه الأشياء التافهة قسرا . وكانت الحجرة مظلمة تقريبا ، والجو حاراً ، وقد اختلطت روائح النعناع وماء « الكولونيا » والبابونج ونقط هوفمان فتأثرت بهذه الرائحة حتى بلغت بى الحال حين أشمها أو حتى أتذكرها أن يحملنى خيالى على الفور الى الماضى ، الى

تلك الحجيرة الخانقة المظلمة ، وأستعيد كل تفاصيلها ، بل أدق ما وعته تلك اللحظة .

كانت عينا أمي مفتوحتين ، ولكنها لم تر شيئاً ، ولن أنسى مطلقاً تلك النظرة المرعبة . لقد كانت طافحة بالعذاب .

وأبعدونا .

عندما سألت ناتاليا سافيشنا فيما بعد عن لحظات أمي الأخيرة ، روت لي ما يلي :

« بعد إبعادكم ، ظلت سيدتي العزيزة وقتا طويلا تتململ ، كأن شيئاً ما يضايقها ، ثم مالت برأسها على وسادتها وأغفت في هدوء وسلام كاملين كأنها ملاك هبط من السماء ، وخرجت أرى لماذا لم يحضروا لها شراباً . وعندما عدت كانت حبيبتي قد استيقظت ثانية ، وأومأت الى والدك ليقترب منها ، فانحنى فوقها ، ولكن قواها خذلتها فلم تستطع النطق بما كانت ترغب في قوله ، واستطاعت أن تفتح شفتيها فقط وتتأوه قائلة : « آه يا الهي !! يا ربي ! الأطفال ، الأطفال ! » . وأردت أن أسرع فأستدعيكم ، ولكن ايفان فاسيليتش استوقفني وقال : « ان ذلك يزيد من تأثرها ، فمن الخير ألا تفعلى » وبعد ذلك رفعت يدها فقط ثم أنزلتها ثانية . فماذا كانت تعني بذلك الله وحده هو الذي يعلم . وأظنها كانت تباركم في غيبتكم ، ولكن الله لم يمنحها نعمة رؤية أبنائها الصغار قبل أن تلقى نهايتها . ثم

رفعت حمامتي الصغيرة جسمها ، وقامت بهذه الحركة متكئة على يديها ، وتكلمت بصوت لا أستطيع تحمل التفكير فيه قائلة : « يا أم الله لا تتخلى عنهم !! » ولابد أن يكون الألم آنئذ قد وصل الى لبها ، وقد عرفنا من عينيها مدى ما كانت تقاسيه هذه المخلوقة المسكينة ، ثم سقطت على الوسادة ، وأمسكت بأغطية الفراش بين أسنانها ، وأخذت دموعها تفيض وتنهمر » .

وسألتها : « ثم ماذا ؟ » .

ولكن ناتاليا سافيشنا لم تزد شيئاً ، وتحولت عني وأخذت تبكي بكاء مريرا .

لقد ماتت أمي بعد احتضار أليم .

« ٢٧ »
الحزن

في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي رغبت في رؤيتها مرة أخرى ، وتغلبت على شعور الخوف القسري ففتحت الباب بخفة ودخلت القاعة على أطراف قدمي .

وضع التابوت على مائدة في وسط الحجرة وأشعلت من حوله الشموع في شمعدانات طويلة من الفضة ، وفي الركن البعيد جلس المنشد يقرأ المزامير في صوت خفيض رتيب .

توقفت عند الباب وتطلعت ، ولكن عينى كانتا كلتاهما من البكاء ، وأعصابي شديدة الاضطراب حتى اننى لم أستطع رؤية شىء . كان كل شىء يجرى بطريقة غريبة ؟ الأضواء والنسيج الحريرى ، والمخمل ، والشمعدان الضخم ، والوسادة ذات اللون الوردى المخرمة الأطراف ، وغطاء الرأس ذو الأشرطة ، ثم شىء شفاف يشبه الشمع . وصعدت على كرسى لكى أرى وجهها ، ومع ذلك فحيث كان ينبغى ان توجد ، رأيت نفس الشىء الشفاف الشبيه بالشمع ، فلم أستطع تصديق أن هذا وجهها ، ومع ذلك فبينما عكفت على النظر اليه أخذت أميز شيئاً فشيئاً القسمات المألوفة المحبوبة ، وعرتنى رعدة حين تحققت من أنها هى . ولكن لماذا كانت العينان المغلقتان غائرتين الى هذا الحد ؟ ولماذا ذلك الشحوب المخيف والبقعة الضاربة الى السواد تحت الجلد على احدى الوجنتين؟ ولماذا كانت قسمات الوجه جميعاً عابسة باردة الى هذا الحد ؟ ولماذا كانت الشفتان بالغتى الشحوب ، وبلغ رسمهما من الجمال والجلال والتعبير عن الرصانة المخيفة حداً بعث فى قشعريرة باردة سرت الى أسفل ظهرى وشملت شعر رأسى عندما نظرت اليها ؟

وعندما تطلعت ، شعرت بقوة غامضة لا تقاوم تجتذب عينى الى ذلك الوجه العاطل من الحياة فلم أحول عنه عينى ، ورسم لى خيالى صوراً من الحياة المزدهرة والسعادة ، ونسيت أن الجسد الميت الممدود أمامى الذى كنت أتطلع اليه فى بلاهة كأننى أتطلع الى شىء

ضائع فى أحلامى ، كانت هى ، وتخيلتها مرة أخرى كما كنت أراها فى غالب الأحيان نشيطة مرحة مبتسمة ، ثم صدمتنى للحال قسمة من قسمات هذا الوجه الشاحب الذى استقرت عليه عينى ، وتذكرت الحقيقة المفزعة فاقشعر بدنى ولكنى لم أتوقف عن تطلعى .

وحلت الرؤى محل الحقيقة مرة أخرى ، ثم ألجأها الشعور بالحقيقة الى الهرب ثانية . وأخيرا تعب الخيال وتوقف عن خداعى ، واختفى كذلك الشعور بالحقيقة ، وفقدت حواسى ، فلا أعرف كم من الوقت بقيت على هذه الحال ، أو ماذا تضمنت ، ولا أعرف الا اننى فقدت كل الشعور بوجودى وقتا ما ، ومررت بتجربة قوية ، سارة ومحزنة ، تفوق كل وصف .

لعل روحها الجميل وهى تطير من هنا الى عالم أفضل تتطلع خلفها محزونة الى العالم الذى تركتنا فيه ، شعرت بحزنى وعطفت عليه وهبطت الى الأرض على أجنحة الحب ، وعلى شفتيها ابتسامة حزن سماوية لكى تعزينى وتباركنى ، وصفق الباب ودخل الحجرة منشد آخر ليزيح الأول ، فنبهتنى هذه الضوضاء ، وكانت الفكرة الأولى التى طرأت على ، هى اننى لم أكن أبكى ، واننى كنت أقف على كرسى فى موقف لا يتصل به فى شىء ، فلربما يحسبنى ولدا عديم الاحساس صعد على الكرسى بدافع العطف أو حب الاستطلاع ، فرسمت علامة الصليب وأحنيت رأسى وأخذت أبكى .

وعندما أتذكر انطباعاتي أجد أن لحظة نسياني لذاتي كانت هي لحظة الحزن الحقيقي . ولم أكف عن البكاء قط قبل الدفن وبعده ، وكنت حزيناً ، ومع ذلك فانه ليعتريني الخجل حين أتذكر ذلك الحزن ، لأن شعوراً بحب الذات كان يختلط به دائماً ، فمرة كان رغبة في اظهار أنني أشد غماً من أي شخص آخر ، ومرة أخرى كان اهتماماً بما أتركه من أثر في الآخرين ، وفي مرة ثالثة حب استطلاع بلا هدف ، كان يدفعني الى ابداء ملاحظات عن قبعة « ميمي » وعن وجوه أولئك الحاضرين ، وقد ازدريت نفسي لأن الشعور الذي ساورني لم يكن شعور حزن خالص ، وحاولت اخفاء جميع المشاعر الأخرى ، ومن أجل هذا كان حزني غير صادق وغير طبيعي . وفوق هذا فقد خبرت لونا من السرور بمعرفتي أنني لست سعيداً ، وحاولت اثارة شعوري بالسعادة ، وهذا الشعور الأناني أخمد في دخيلة نفسي الحزن الحقيقي أكثر من جميع المشاعر الأخرى .

وبعد أن قضيت الليلة في نوم عميق هادىء، كما هو الحال دائماً بعد الحزن الكبير ، استيقظت وقد جف دمعي وهدأت أعصابي . وفي الساعة العاشرة استدعينا لحضور القداس الذي أقيم لتكريم الميتة قبل مواراة الجثة التراب ، وامتلأت الحجرة بخدم المنزل والفلاحين الباكين ، الذين قدموا لتوديع سيدتهم . وفي أثناء اقامة الصلاة بكيت كثيراً جداً ، ورسمت علامة الصليب وسجدت على

الأرض ، ولكنني لم أبتهل بقوة ، بل كنت أبتهل بنفس هادئة . لقد كنت قلقا لأن المعطف القصير الذي ألبسوني اياه كان ضيقا من تحت الابطين ، وكنت أفكر كذلك في عدم تلويث ركبتي سروالي أكثر مما ينبغي ، ولاحظت خفية كل أولئك الحاضرين . ووقف بابا عند رأس التابوت وكان شاحب اللون كشحوب منديله ، يحبس دموعه بصعوبة واضحة ، وكان هيكله الفارع في معطفه الأسود ، ووجهه الشاحب المعبر ، وحركاته الرشيقة الثابتة ، كما كانت دائما ، وهو يرسم اشارة الصليب ، أو وهو ينحني حتى يلمس الأرض بيده ، أو يتناول الشمعة من يد الكاهن ، أو يقترب من التابوت ، كانت حركاته جميعها مؤثرة الى أقصى حد، ومع ذلك لا أعرف لماذا كانت هذه القدرة التي تبدو على هذا القدر من التأثير في لحظة كهذه ، لم ترقني تماما . ووقفت « ميمي » متكئة على الجدار كأنها لا تكاد تقوى على الوقوف ، وكان رداؤها مغضناً مرقطاً بالوبر ، وقبعتها مائلة الى أحد الجانبين ، وعيناها المنتفختان حمراوين ، ورأسها يهتز ، ولم تكف مطلقاً عن النشيج في صورة تمزق القلب ، تدفن وجهها باستمرار في يديها ومنديلها وقد خيل الى أنها انما تفعل ذلك لكي تخفي وجهها عن الناظرين ، ولكي تستريح برهة بعد نشيجها المتعالي . لقد تذكرتها وهي تخبر والدي في اليوم السابق أن وفاة أمي كانت صدمة فظيعة لها حتى انها لم تكن تأمل في الحياة لهذا السبب ، وانها حرمتها كل شيء ، وأن ذلك

الملاك (كما كانت تسمى أمي) لم تنسها قبل موتها ، فأبدت رغبتها في تأمين مستقبلها ومستقبل كاتنكا من الهم الى الأبد . وذرفت دموعاً حارة وهي تقول هذا ، ولربما كان حزنها حقيقياً ، ولكنه لم يكن خالصاً وشاملا . ووقفت ليوبتشكا بجلبابها الأسود الملائم للحداد ووجهها المبلل بالدموع ، منكسة الرأس ترنو الى التابوت الفينة بعد الفينة بتعبير ينم عن الفزع الصبياني . ووقفت كاتنكا بجانب أمها ، وبالرغم من طابع الحزن فقد كانت وردية اللون كما كانت دائما . وكانت طبيعة فولوديا الصريحة ، صريحة حتى في حزنه . كان يقف أحياناً بنظرته المفكرة الثابتة مركزة على شيء ما ، ثم يبدأ فمه يختلج على حين فجأة ، فرسم علامة الصليب بسرعة وانحنى باحترام ، وضقت باحتمال جميع الحاضرين في حفلة الدفن ، وكانت عبارات المواساة التي وجهوها الى أبي ، من أن أمي ستكون هنالك أسعد حالا ، تثير نوعاً من غضبي .

بأي حق كانوا يتحدثون عنها ويحزنون عليها ؟ كان بعضهم حين يتحدث عنا يطلق علينا « الأيتام » كأننا لم نكن نعرف بدون مساعدتهم أن الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم يطلق عليهم هذا الأسم !! واضح أنه كان يسعدهم أن يكونوا أول من يمنحنا هذه التسمية ، تماماً كاسراعهم عادة بتلقيب الفتاة الشابة عقب زواجها مباشرة بلقب « السيدة » لأول مرة .

وفي الركن البعيد من القاعة ، كانت هناك سيدة ذات شعر

رمادي يكاد باب مخزن المؤن المفتوح أن يخفيها عن الأنظار ، راكعة ساجدة ، متشابكة اليدين ، مرفوعة العينين الى السماء . لم تكن تبكي ولكنها كانت تبتهل ، تطلع روحها الى الله ، وتتوسل اليه تعالى أن يلحقها بتلك التي أحبتها أكثر مما أحبت جميع من على الأرض، وتمنت مخلصة أن يتحقق لها هذا سريعاً .

وقلت وقد اعتراني الخجل من نفسي : « هناك واحدة تحبها حباً صادقاً !! » .

انتهى القداس : وكشف عن وجه السيدة الميتة ، واقترب جميع الحاضرين من التابوت فيما عدانا نحن ، فقبلوه واحداً بعد واحد .

وكان ممن اقتربوا لوداعها أخيراً ، امرأة فلاحة تقود صبية جميلة في الخامسة من عمرها ، أحضرتها الى هناك ، لسبب يعلمه الله ، وفي تلك اللحظة سقط مني منديلي المبلل فجأة فانحنيت لالتقاطه ، فما ان انحنيت عليه حتى صدرت صرخة مخيفة حادة أفزعتني ، لقد كانت صرخة رعب لن أنساها مطلقاً حتى لو عشت مائة عام ، وعندما أتذكرها تسري في كل بدني قشعريرة باردة ، ورفعت رأسي : كانت نفس المرأة .. الفلاحة واقفة على كرسي بجوار التابوت تحمل في مشقة بين ذراعيها الصبية الصغيرة التي كانت تحدق مهتاجة في وجه أمي الجامد وتطلق صرخات مفزعة متتالية ، وهي تضرب الهواء بيديها الصغيرتين ، وتشيح بوجهها

المذعور ، وصرخت أنا أيضاً في صوت قد يكون أشد انزعاجاً من الصوت الذي أفزعني ، واندفعت الى خارج الحجرة .

وفي هذه اللحظة فقط عرفت من أين أتت تلك الرائحة الثقيلة المختلطة برائحة البخور التي ملأت الحجرة ، وحين فكرت في أن ذلك الوجه الذي كان قبل أيام قليلة مليئاً بالجمال والحنان ، ذلك الوجه الذي أحببته أكثر من أي شيء آخر في الحياة ، بدا لي لأول مرة أنه يكشف لي عن الحقيقة المرة ويملأ روحي باليأس .

(٢٨)

آخر الذكريات المحزنة

لم تعد أمي معنا بعد ، ولكن حياتنا جرت في مجراها الطبيعي ، فكنا ننام ونستيقظ في نفس الساعات وفي نفس الحجرات ، ونتناول شاي بعد الظهر ، والغداء والعشاء في الموعد المعتاد . الموائد والمقاعد قائمة في نفس أماكنها . لم يتغير شيء في البيت ولا في نمط حياتنا ، لم يتغير شيء الا — هي .

لقد خيل الي ، بعد تعاسة كهذه ، أن كل شيء لا بد أن يتغير — وبدا لي أن نمط حياتنا العادية اهانة لذكراها ، وتذكرت غيابها بوضوح بالغ .

وبعد طعام العشاء ، في الليلة السابقة على يوم الدفن ، أردت أن أنام ، فذهبت الى حجرة ناتاليا سافشنا ، بقصد الاستلقاء على فراشها المحشو بالريش الناعم ، وتحت الغطاء الدافيء القضفاض . وكانت ناتاليا سافشنا عند دخولي راقدة في فراشها ، نائمة على الأرجح : ولدى سماعها صوت أقدامي نهضت ، ونحت جانبا القماش الصوفي الذي يحمي رأسها من الذباب ، وأصلحت من وضع غطاء رأسها ، ثم جلست على طرف الفراش .

كنت قد اعتدت الحضور الى حجرتها في كثير من الأحيان لأغفو قليلا بعد الغداء وحالما دخلت الحجرة عرفت لساعتها لماذا حضرت .

وقالت : « ها قد أتيت لتستريح قليلا أليس كذلك ؟ أرقد اذن يا عزيزي » .

فقلت وقد تناولت يدها : « آه ، لا يا ناتاليا سافشنا ، ليس هذا مطلقاً ، لقد فكرت في الحضور وحسب ، انك أنت نفسك متعبة ، وخير لك أن ترقدي » .

فقالت : « لقد نمت يا عزيزي وقتا كافيا » (وكنت أعرف أنها لم تنم طوال ثلاثة أيام) ثم أضافت وهي تتأوه تأوها عميقـا : « وفوق ذلك ، فمن ذا الذي يستطيع التفكير الآن في النوم » .

كنت أرغب في التحدث مع ناتاليا سافشنا عن سوء طالعنا ، اذ كنت أعرف مدى حبها الخالص لأمي ، وقد يعزيني أن أبكي معها .

فقلت وأنا أجلس على الفراش بعد صمت قليل : « أكنت توقعين ذلك يا ناتاليا سافشنا ؟ » ، فتفرست في المرأة العجوز في ذهول وفضول ، ولعل من المرجح أن يكون السبب أنها لم تعرف لماذا سألتها عن ذلك .

فكررت عبارتي قائلا : « من كان يتوقع هذا ؟ » .

فقالت وهي تلقي على أرق نظرة من العطف : « آه ياعزيزي ، وحتى الآن لا أستطيع ان أصدق هذا .. انني امرأة عجوز ، كان ينبغي أن تكون عظامي الواهنة قد دفنت منذ وقت طويل ، ومع ذلك فان سيدي العجوز أي جدك الأمير نيكولاي ميخايلوفتش (أراح الله روحه) ، وأخوي الاثنين ، وأختي انوشكا ، كل هؤلاء قد دفنوا قبلي ، وان كانوا جميعاً أصغر مني سناً ، فمن الواضح الآن انه بسبب ذنوبي كان مصيري ان أعيش من بعدها . فلتكن مشيئته المقدسة ! لقد أخذها سبحانه وتعالى لأنها تستحق ذلك ، وهو يريد هناك الأرواح الصالحة » .

وقد أدخلت هذه الفكرة البسيطة العزاء الى نفسي ، فاقتربت من ناتاليا سافشنا وشبكت يديها على صدرها وتطلعت الى فوق ، وعبرت عيناها الغائرتان المغرورقتان عن ألم كبير ولكنه ألم صامت ، وتشبثت بأمل راسخ أن الله لن يفرق طويلا بينها وبين من ركزت فيها أعواماً عدة كل قوة حبها .

نعم يا عزيزي ، يخيل الى أنه لم يمض وقت طويل منذ كنت مربيتها ، ألبس ثيابها وكانت تدعوني « ناشا » .. كانت تسرع الى وتطوقني بذراعيها الصغيرتين وتأخذ في تقبيلي وتقول لي : « ياعزيزتي ناشا ، وجميلتي ، ومحبوبتي ! » وكنت أقول لها ممازحة : « لا يا عزيزتي انك لا تحبينني ، انتظري حتى تكبري وتتزوجي وتنسي عزيزتك ناشا ، فترد علي بعد أن تستغرق في التفكير : « أفضل ألا أتزوج اذا لم أصحب معي ناشا ، انني لا أتخلى عن ناشا ، والآن ها هي ذي قد فارقتني ، ولم تنتظرني فكيف أحبتني !! » حقاً ، فمن ذا الذي لم تكن تحبه ؟ يجب ألا تنس أمك مطلقاً يا عزيزي ، فانها لم تكن انساناً عادياً ، لقد كانت ملاكاً من السماء ، وحين تصل روحها الى مملكة السماء ، فستحبك هنالك وتبتهج من فوقك » .

وسألتها : « لماذا تقولين تصل الى مملكة السماء يا ناتاليا سافشنا ؟ انني أظنها هنالك الآن » .

وقالت ناتاليا سافشنا وهي تخفض من صوتها وتجلس على الفراش بالقرب مني : « لا يا عزيزي ، ان روحها هنا الآن » وأشارت الى فوق . وكانت تتحدث همساً تقريباً ، وفي كثير من الاقتناع حتى انني رفعت عيني قسراً وتطلعت الى الطنف بحثا عن شيء ما ، وقالت : « قبل أن تذهب روح البار الى الفردوس تعاني يا عزيزتي أربعين تغيرا ويمكن أن تبقى في بيتها أربعين يوماً » .

وتحدثت كثيراً فى هذا الصدد ، وفى كثير من البساطة والايمان كأنها كانت تقص احداثاً يومية شاهدتها بنفسها ، ولا يساور الشك فيها عقل أى انسان . وكنت أمسك أنفاسى وأنا أصغى اليها ، ومع أننى لم أفهم ما قالته فهما جيداً ، فقد صدقتها كل التصديق .

وقالت ناتاليا سافشنا فى خاتمة حديثها : « نعم يا عزيزى ، انها هنا الآن ، وهى تنظر الينا ، ولربما تسمع ما نقوله » .

وطأطأت رأسها ولاذت بالصمت ، ثم احتاجت الى منديل تمسح به دموعها المتساقطة ، فنهضت وتفرست فى وجهى ، وقالت بصوت يرتجف بالانفعال :

« لقد قربنى الله منه بذلك عدة خطوات ، فماذا بقى لى الآن، وأى شىء أعيش من أجله ؟ ومن لى أحبه ؟ » .

وقلت معاتباً وأنا أحبس دموعى بمشقة : « ألا تحبينا ؟ » .

« الله يعلم كم أحبكم يا أحبائى ، ولكننى لم أحب أحداً قط كما أحببتها ، ولن أستطيع أن أحب أحداً مطلقاً الى هذا الحد » .

ولم تستطع أن تزيد على هذا ، بل ابتعدت وأخذت تنشج بصوت مرتفع .

لم أعد أفكر فى النوم بعد ذلك ، فجلسنا متقابلين فى صمت وبكينا . ودلف فوكا الى الحجرة ، ولكنه ما أن رأى حالتنا ، ولعله لم يرد ازعاجنا ، ونظر الينا فى خجل وصمت ، وتوقف عند الباب.

وسألته ناتاليا سافشنا ، وهى تمسح عينيها : « ماذا تريد يا فوكا الطيب ؟ » .

« أريد رطلا من الزبيب ، وأربعة أرطال من السكر ، وثلاثة أرطال من الأرز لصنع الكوتيا » (١) .

وقالت ناتاليا سافشنا وهى تتناول متعجلة قبضة من السعوط : « نعم ، لحظة واحدة ، ثم ذهبت الى الصوان بخطوات نشيطة . واختفت آخر آثار الحزن التى أثارها حديثنا حين أخذت فى أداء واجبها الذى كانت تعتبره أمراً بالغ الأهمية .

وقالت فى تذمر وهى تخرج السكر وتزنه بالميزان : « ماذا تريد أن تعمل بأربعة أرطال ، يكفى ثلاثة أرطال ونصف رطل » ، وأخذت عدة قطع من الميزان ، وتابعت حديثها : « وكيف تحتاج الى مزيد من الأرز ؟ لقد أعطيتك بالأمس ثمانية أرطال ! لا ذنب لك يافوكا ديميدتش ، ولكنى لا أستطيع أن أعطيك مزيداً من الأرز . ان فانكا سعيد لأن البيت انتكس رأساً على عقب ، ويظن ان أحداً لن يلاحظ ... لا ، اننى لا أريد أى عبث بحاجيات سيدى .. ثمانية أرطال ! من سمع بمثل هذا !! » .

« وماذا تفعل ؟ يقول انه نفد كله » .

« حسن ، اليك هى ، خذها اذن ، فليأخذها ! » .

(١) طبق من الحلوى يتناوله أصحاب الحداد فى المآتم الروسية .

ودهشت لهذا الانتقال من الشعور المؤثر الذى كان يسود حديثها معى الى هذا التدبير والتقدير الزهيد • وعندما فكرت فيه فيما بعد ، وجدت انه بالرغم مما يجرى فى دخيلة نفسها ، تحتفظ بقدر كاف من حضور الذهن لتشغل نفسها بعملها ، وجرتها قوة العادة الى أداء واجباتها اليومية • وكان حزنها أقوى وأصدق من ان تحتاج الى تظاهر بعجزها عن الانشغال بالأمور التافهة ، ولا هى فهمت ان مثل هذه الفكرة يمكن أن تطرأ على ذهن أى شخص •

ان الزهو شعور يتعارض كل التعارض مع الحزن الحقيقى ، ومع ذلك يبلغ من قوة امتزاجه بطبيعة الكثيرين، ان تعجز عن طرده معظم الهموم الا فى النادر القليل • ويظهر الزهو فى الحزن عند الرغبة فى أظهار الأسى أو التعاسة أو الثبات ، وهذه الرغبات الهابطة التى لا نعلنها ، ويندر ان تفارقنا ، حتى فى أعمق حالات قلقنا ، انما تحرمه من القوة والكرامة والصدق ، ولكن ناتاليا سافشنا كان جرحها من تعاستها من العمق بحيث لم تبق فى روحها رغبة مطلقا ، فسارت فى حياتها بمحض العادة •

بعد أن أعطت فوكا المواد التى طلبها ، وذكرته بالفطيرة التى يجب اعدادها للاحتفاء برجال الدين ، صرفته وتناولت جوربها وجلست ثانية بالقرب منى •

وتحول الحديث مرة أخرى الى نفس الموضوع كما كان من قبل ، وعدنا الى البكاء سويا •

كانت هذه الأحاديث مع ناتاليا سافشنا تتكرر كل يوم ، وتحتنى دموعها الهادئة وكلماتها الرصينة الورعة الراحة والعزاء •

ولكن كان لا بد لنا أخيراً أن نفترق ، اذ انتقل كل أهل المنزل بعد ثلاثة أيام من الدفن الى موسكو ، وقدر لى ألا أراها مرة أخرى •

وتلقت جدتى وحدها الخبر المفزع لدى وصولنا ، وكان حزنها شديداً، فلم يسمح لنا برؤيتها لأنها ظلت أسبوعاً كاملا فاقدة الوعى، وخشى الطبيب على حياتها ، وبخاصة لأنها لم تقتصر على عدم تعاطى أى دواء ، بل لم تتحدث الى أحد ما أو تتناول أى غذاء ، وكانت أحياناً ، وهى جالسة وحيدة فى غرفتها ، على مقعدها ذى المسندين ، تنفجر بالضحك فجأة ثم تأخذ فى النشيج بلا دموع ، أو كانت ترتد الى تشنجاتها ، فتصرخ بكلمات مزعجة غير متصلة ، وكان هذا أول حزن عرفته فى حياتها ، فألقى بها فى مهاوى اليأس• وكانت تشعر بحاجة الى القاء اللوم على شخص ما تحسبه سبب تعاستها ، فكانت تنطق بأشياء مخيفة ، وتكلم شخصاً غير منظور بحماسة فائقة ، وتقفز من على مقعدها فى خطوات طويلة سريعة فاقدة الوعى •

دخلت حجرتها فى مناسبة ما ، وكانت جالسة كالمعتاد على مقعدها ذى المسندين، وكانت مظاهرها عادئة ولكن نظرتها أفزعتنى• كانت عيناها مفتوحتين شديدتى الاتساع ، ولكن نظرتها كانت قلقة

خاوية ، وتطلعت نحوى مباشرة دون أن تبصرنى ، وأخذت شفتاها تبتسمان ببطء ، وتحدثت بصوت فيه رقة مؤثرة قائلة : « تعالى هنا يا عزيزتى ، تعالى هنا يا ملاكى » . وظننتها تخاطبنى فاقتربت منها ، ولكنها لم تنظر الى ، وأضافت : « آه ، لو انك عرفت يا حبيبتى أى عذاب قاسيت ، وكم أنا سعيدة بحضورك ! » وحينئذ فهمت انها تخيلت رؤية أمى ، فتوقفت . ثم تابعت حديثها وقد تقطب وجهها : « يا للعبث ! أيمكن أن تموتى قبلى ؟ » ثم ضحكت ضحكة هستيرية مخيفة .

ان الناس الذين يستطيعون ان يحبوا حبا عميقاً ، هم وحدهم الذين يستطيعون معاناة الحزن العظيم ، ومع ذلك فان نفس هذه الحاجة الى الحب ، تساعد على مقاومة حزنهم وابرائهم . ولهذا السبب تكون طبيعة الانسان الأخلاقية أشد تماسكا من طبيعته الجثمانية ، والحزن لا يقتل أبداً .

وبعد انقضاء أسبوع استطاعت جدتى ان تبكى ، وتحسنت حالتها ، وكنا نحن أول من فكرت فيهم عند عودتها الى حواسها ، وازداد حبها لنا ، ولم تفارق مقعدها ذا المسندين قط ، وكانت تبكى بهدوء ، وتتحدث عن امنا ، وتدللنا بحنان .

لم يكن يدور بخلد أحد ينظر الى جدتى ، ان حزنها مبالغ فيه ، وكانت التعبيرات عن ذلك الحزن ذات تأثير عميق ، ومع ذلك

لا أعرف لماذا كنت أكثر تعاطفاً مع ناتاليا سافشنا ، ولا أزال حتى اليوم مقتنعاً بأن أحداً لم يحب والدتى ويحزن عليها بصفاء واخلاص كما فعلت هذه المخلوقة البسيطة الودود .

انتهت أيام طفولتى السعيدة بموت أمى ، وبدأ عهد جديد ـ عهد الصبا ـ ولكن لما كانت ذكرياتى عن ناتاليا سافشنا ، التى لم أرها قط بعد ذلك ، والتى تركت مثل هذا الأثر القوى الخير على سيرى فى الحياة ونمو مشاعرى ، انما تنتمى الى العهد الأول ، فسأقول عبارات أخرى قليلة عنها وعن موتها .

بعد رحيلنا ، كما قيل لنا فيما بعد ، بقيت هى فى الريف ، ووجدت ان الوقت يمضى متثاقلا بين يديها لعدم وجود ما يشغلها ، وبالرغم من أن خزانات الملابس كانت فى عهدتها ، وانها لم تنقطع عن تقليب محتوياتها ، تعلق أشياء ثم تعود فتحزمها فانها مع ذلك فقدت ضوضاء وجود سيدها بالمنزل وضجيجه لأنها كانت قد اعتادت ذلك منذ الطفولة ، فالحزن ، وتغير نمط حياتها وفقدانها مسئولياتها سرعان ما أظهرت علة قديمة طالما تاقت اليها نفسها ، فبعد مضى عام واحد على موت أمى ، أصيبت بمرض الاستسقاء وعكفت على فراشها .

لقد كان من الصعب على ناتاليا سافشنا فيما أظن ، ان تواصل العيش ـ وأصعب من ذلك ـ ان تموت وحيدة فى بيت خاو فى بتروفسكوى ، بدون أقارب أو أصدقاء . ان كل شخص فى البيت

قد أحب ناتاليا سافشنا واحترمها ، ولكنها لم تعقد صداقات وكانت فخورة بذلك ، اذ اعتبرت ان عقد صداقة مع أي شخص ، بالنسبة لمركزها كمديرة شئون البيت ، وتتمتع بثقة سيدها ، وفي عهدتها كثير جداً من الصناديق الملأى بجميع صنوف المتاع ، سيؤدي حتماً الى المحاباة والتلطف الخاطىء . ولهذا السبب وربما لأنه ليس لديها ما يربطها بالخدم الآخرين ، اعتزلت الجميع ، وقالت انها ليس لديها أقارب ولا خلان بالمنزل ، فلم تسمح بأي استثناء فيما يتصل بمتاع سيدها .

ولقد بحثت ووجدت العزاء في ان تسلم شعورها لله في صلاتها الحارة ، ومع ذلك ففي بعض الأحيان ، في لحظات الضعف تلك التي تعرض لها جميعاً ، حين يجد الانسان خير عزاء له في الدموع ، وفي العطف على كائن حي ، فكانت تضع كلبها الصغير في فراشها (كان يلعق يدها ، ويثبت عليها عينيه الصفراوين) وتتحدث اليه وتبكي في رقة وهي تدلله ، وعندما كان الكلب الصغير يأخذ في العواء حزيناً تحاول تهدئته وتقول له : « كفى ، كفى ! انني أعرف دون أن تخبرني ، ان نهايتي قد حانت » .

وقبل شهر من موتها ، أخرجت من صندوقها قماشاً أبيض « بفتة » وآخر من الموصلين ، وأشرطة وردية اللون ، وصنعت لنفسها بمساعدة خادمتها ثوباً أبيض ، وغطاء للرأس ، ورتبت كل شيء ضروري لدفنها حتى أقل التفاصيل الصغيرة . ونسقت كذلك

صناديق سيدها وكتبت قائمة بمحتوياتها وعهدت بها الى رئيس الخدم ، وكان كل ما احتفظت به ثوبان من الحرير ، و « شال » قديم كانت جدتي قد أعطتها اياه في وقت ما ، وحلة جدي العسكرية الرسمية التي كان قد أعطاها اياها أيضاً ، وبفضل عنايتها ظل تطريز الحلة وشريطها الذهبي ناضرين كل النضر ، ولم تمس « العثة » قماش الحلة .

وأعلنت قبل موتها عن رغبتها في أن أحد الثوبين ، ذا اللون الوردي ينبغي أن يعطى لفولوديا ليصنع منه عباءة لحجرة النوم أو سترة ، اما الرداء الآخر البني ذو المربعات فيعطى لي لنفس الغرض ، ويعطى الشال لليوبتشكا ، وأورثت الحلة لأي منا يصبح ضابطا قبل الآخر ، أما بقية متاعها ونقودها فقد تركتها لأخيها ، باستثناء أربعين روبل وضعتها جانباً لجنازتها وللقداس ، وكان أخوها الذي حصل على حريته قبل ذلك بوقت طويل ، يحيا حياة داعرة للغاية باقليم بعيد ، ومن ثمة لم يكن لها في أثناء حياتها أي اتصال به .

وعندما قدم أخو ناتاليا سافشنا للحصول على ميراثه ، وتبين أن كل ما تملكه المتوفاة يتكون من خمسة وعشرين روبل من الأوراق المالية لم يصدق ، وقال ان امرأة عجوزاً عاشت ستين عاماً في أسرة غنية ، وكان عليها وحدها حراسة المنزل ، وكانت تعيش دائما

عيشة التقتير ، وتغضب لكل كسرة ، لا يمكن أن تموت من غير أن تترك شيئاً ، ولكن هذه كانت حقيقة الحال .

قاست ناتاليا سافشنا من علتها طوال شهرين ، وتحملت الألم بصبر مسيحي حقيقي ، فلم تتذمر أو تشـكو ، ولكنها كانت تصلي دون انقطاع ، جريا على عادتها . وقبـل أن توافيها منيتها بسـاعة واحدة ، اعترفت ، وتقبلت السر الأخير والمسحة الأخيرة بابتهاج عادي .

والتمست من جميع خدم المنزل ان يغفروا لهـا أي أذى قد تكون ألحقته بهم ، وناشدت كاهنها الأب فاسيلي ان يخبرنا جميعا انها لم تعرف كيف تعبر عن شكرها لنا عن كل اشفاقنا عليها ، وتوسلت الينا ان نغفر لها ان كانت قد آلمتنا عن غفلة منها ، ولكن لم اسرق أبداً ، واستطيع القول بانني لم أخدع سـادتي مطلقاً مثقال ذرة ، وكانت هذه هي الصفة الوحيدة التي تقدرها في نفسها .

وألبست الدثار وغطاء الرأس اللذين كانت قد أعـدتهمـا ، وأسندت الى الوسائد ولم تكف عن الحديث مع الكاهن حتى لحظة موتها . وتذكرت انها لم تترك شيئاً للفقراء فأعطته عشرة روبلات طلبت اليه ان يوزعها في الأبرشية (١) ، ورسمت علامة الصليب، واضطجعت ثم تنهدت للمرة الأخيرة ، ونطقت باسم الله في نغمـة سارة .

(١) دائرة الكنيسة .

وفارقت الحياة غير آسفة ، ولم تخش الموت ، بل تقبلته بوصفه نعمة . ان هذا ليقال كثيراً ، ولكن قلما يكون قولا صادقا !! فناتاليا سافشنا لم تخش الموت لأنها ماتت ثابتة الايمـان منفـذة لقـانون الأناجيل ، وكانت حياتها برمتها طهرا وحبا غير أناني ، وتضحيـة بالذات .

وماذا يهم لو كان اعتقادها أسمى ، ولو كانت حياتها مكرسة لأغراض أرقى ؟ أيمكن ان تكون هذه الروح الطاهرة أقل استحقاقا للحب والاحترام على ذلك الاعتبار ؟

لقد انجزت أحسن عمل وأعظمه في هذه الحياة : ماتت دون أسف أو خوف . ودفنت وفقاً لرغبتها ، غير بعيد عن المصلى القائم فوق قبر أمي ، وتزايد نمو حشيشة القريض والأرقطيون (١) فوق الرابية التي ترقد تحتها ، ويحيط بها سياج من الحديد الأسود ، ولم أنس مطلقاً الذهاب من المصلى الى ذلك السـياج والانحناء في تبجيل على الأرض . وأحياناً أتريث في منتصف الطريق بين المصلى والسـور الحديدي وتقفز الى ذهني ذكريات مؤلمة ، والفكرة التي تساورني هي : هل ربطتني العناية الالهية بهاتين المخلوقتين لمجرد ان تجعلني أحزن عليهما الى الأبد ؟

(١) من النباتات الشائكة .

الغضب

(٢٩)

رحلة بلا محطات

•• وللمرة الثانية قدمت الى سقيفة بيت بترو فسكوى عربتان، احداهما كبيرة تجلس فيها ميمى وكاتكا وليوبتشكا والخادمة ، ومعهن كاتينا ياكوف ، على كرسى الحوذى ، والأخرى صغيرة (برتشكا) يسافر بها فولوديا وانا مع الخادم فاسيلى الذى كان قد أعيد أخيراً الى الخدمة بالأجر •

ويقف بابا الذى كان سيلحق بنا فى موسكو بعد أيام قلائل ، عارى الرأس تحت السقيفة يرسم علامة الصليب على نافذة العربة والبرتشكا •

« فليكن المسيح معكم ! سافروا على بركة الله ! » ويخلع ياكوف والحوذى قبعتهما (كنا مسافرين فى عربتنا الخاصة) ويرسمان شارة الصليب ويقولان : « فليكن الله معنا ! ويستحثان الخيل على المسير •• (شى •• شى ••) •

وتأخذ العربة والبرتشكا فى التأرجح على الطريق الوعر ، وتمر بنا أشجار البتولا مسرعة على طول طريق المركبات الكبير ،

الواحدة فى اثر الأخرى • لم أكن حزينا البتة • ولم أكن أرى بعين عقلى ما أنا تارك ، بل ما ينتظرنى • ولما كانت الأشياء المرتبطة بالذكريات المؤلمة التى ملأت رأسى حتى هذه اللحظة تتراجع بمضى الزمن ، فان هذه الذكريات تفقد قوتها وتخلى المكان للشعور اللذيذ بأن الحياة مليئة بالقوة والجدة والأمل •

قلما قضيت أياماً ـ لا أكاد أقول بالغة المرح ، لأننى كنت لا أزال محزون القلب نوعا ما بفكرة اننى استسلمت للمرح ـ ولكننى كنت كثير الرضا والسرور أثناء الأيام الأربعة التى استغرقتها الرحلة •

لن ترى عيناى بعد الآن باب غرفة أمى المغلق ، الذى لم أكن أمر به دون ان تنتابنى رعدة ، ولا « البيانو » المغلق الذى لم يجسر أحد ان يتطلع اليه ، فضلا عن فتحه ، دون ان ينتابه نوع من الخوف ، ولا ملابس الحداد (كنا جميعاً نرتدى ملابس السفر البسيطة) ، ولا أى شىء من هذا كله الذى يذكرنى بقوة بخسارتى التى لا تعوض ، والتى تدفعنى الى النكوص عن أى مظهر من مظاهر الحياة خشية أن أسىء الى ذكراها بوجه من الوجوه • وهنا من ناحية أخرى أماكن جديدة بهيجة المنظر ، وأشياء تجتذب انتباهى وتستوقفه ، وتوقظ فى نفسى طبيعة الربيع احساساً بالطرب والرضا بالحاضر ، والأمل المزدهر فى المستقبل •

وفى وقت مبكر من الصباح ، مبكر جداً ، يسحب فاسيلى الذى

لا يرحم الغطاء ، وكان شديد التحمس كما يفعل دائما أولئك الناس الذين يوضعون في مناصب جديدة ، ويعلن ان وقت السفر قد أزف وان كل شيء على أهبة الاستعداد . ويمكنك أن تستريح أو تثور أو تناضل كما تشاء لكي تؤجل هجمة الصباح اللذيذة حتى لمدة ربع ساعة ، ولكنك ترى في وجه فاسيلي المصمم انه لا يلين ، وانه مستعد لسحب الغطاء عشرين مرة ، ولذلك فانك تقفز وتجري الى الفناء لتغتسل .

•• ان الغلاية تغلي في حجـرة الانتظار ، ويقوم « ميتكا » خادم العربة بالنفخ فيها حتى أصبحت حمراء مثل جراد البحر . ان الجو رطب كثير الضباب في الخارج ، كأن البخار يتصاعد من كومة روث دخنة ، وتشع الشمس المبكرة ضوءاً لامعاً مفرحاً فوق الأفق الشرقي ، وفوق أسطح الزرائب الفسيحة المصنوعة من القش المحيطة بالساحة المتألقة بالندى ، يمكن ان ترى من تحتها جيادنا مربوطة الى مزاودها ، وتسمع صوت عضعضة لجامها المعتادة .

ويتمطى كلب أشعث اسود كان قد تكوم قبل الفجر فوق ربوة من السباخ الجافة متكاسلا ، ثم يجتاز الفناء ركضاً ، ويهز طوال الوقت ذيله ، وتفتح ربة البيت في ضجة ، الأبواب ذات الصرير ، وتسوق الأبقار الساهمة الى الشارع الذي تأتي منه الآن قطعان الماشية الجوابة بخوارها وثغائها ، ثم تتبادل كلمة أو كلمتين مع جارتها النائمة ، ويسحب فيليب وقد طوى كمي قميصه ، الدلو

الذي يرشش منها الماء اللامع ، من البئر العميقة فيسكبها في البرميل السنديانى الذي يكون البط في البركة من حوله يغطس غطسة الصباح .

وأتطلع في سرور الى وجه فيليب الجميل ، والى لحيته الكثة ، والى اوتار عضلاته السميكة التي تنفر على ذراعيه العاريتين القويتين كلما بذل أي جهد .

وتأتي أصوات الحركة من وراء الجدار الفاصل حيث تنام ميمي والفتيات ، والذي كنا نتجاذب عبره أطراف الحديث في المساء ، وتظل خادمتهن « ماشا » تدخل وتخرج بمختلف الأشياء التي تحاول اخفاءها بثوبها عن فضولنا . وأخيرا تفتح الباب وتدعونا لشرب الشاي .

ويأخذ فاسيلي في الجري بحماسته الفائقة الى داخل الحجرة يحمل شيئاً واحداً في أول الأمر ، ثم شيئاً آخر وهو يغمز لنا ، ويبذل قصارى جهده لاغراء ماريا ايفانوفنا بالرحيل مبكرين ماوسعنا ذلك ، فالخيول مسرجة ، وهي تعلن عن نفاد صبرها الفينة بعد الفينة ، وذلك بشخشخة أجراسها ، وتحزم الحقائب والصناديق وعلب الملابس مرة أخرى ، ونأخذ أماكننا . ولكننا نجد في كل مرة جبلا من أمتعتنا بدلا من المقاعد في داخل العربة (البريتشكا) بحيث يتعذر معرفة الطريقة التي رتبت بها في اليوم السابق ، ولا كيف سنجلس الآن . وقد أثار غضبي بخاصة وجود صندوق

شناى من خشب الجوز ذى غطاء مثلث الزوايا وضـع تحتى فى البرتشكاء ولكن فاسيلى يقول انها ستستقر ، فأصدقه كرهاً •

وأشرقت الشمس لتوها فوق السحب البيضاء المتراكبة التى تغشى الشرق ـ وأضاءت جميع جنبات الريف من حولنا بنور هادىء مبهج • كل شىء حولى جميل ، وأنا هادىء خلى البال • وكان الطريق يتعرج من أمامنا فسيحا غير محدود بين حقول أعقاب الحنطة الجافة ، والحشيش الأخضر المتلألىء بالندى • وكنا نمر ، هنا وهنالك ، على جانب الطريق بأشجار الصفصاف المقبضة أو احدى اشجار البتولا الصغيرة ذات الأوراق الفضة تنشر ظلها الطويل الساكن على الأخاديد الصلصالية الجافة ، وحشائش الطريق العام القصيرة الخضراء ، ولا تطغى أصوات العجلات والأجراس الرتيبة على شدو القنابر المحومة بالقرب من الطريق • وتضيع رائحة القماش المنثوث ، والتراب ، ورائحة حريفة معينة علقت بعربتنا ، ازاء أريج الصباح وأشعر بضيق مفرح فى نفسى ، رغبة فى عمل شىء ما ، وهو دلالة على الاستمتاع الحقيقى •

لم أستطع تلاوة صلواتى فى محطة البريد ، ولكن لما كنت قد لاحظت أكثر من مرة ان المصائب تحل بى فى اليوم الذى انسى فيه أداء هذه الشعيرة الدينية لسبب أو لآخر ، فانى أحاول اصلاح هذا الاهمال ، فأخلع قبعتى وأتحول الى ركن من البرتشكا فأتلو صلاتى وأرسم علامة الصليب من تحت سترتى حتى لا يرانى أحد

ومع ذلك آلاف الأشياء تصرف انتباهى فأعيد نفس عبارات الصلاة عدة مرات وأنا شارد الذهن •

وعلى ممر المشاة الذى يتعرج بجانب الطريق يتحرك على مدى البصر فى بطء بعض الأشخاص : انهم حجاج ، رءوسهم مغطاة بمناديل مغبرة ، وعلى ظهورهم أكياس من لحاء شجر البتولا ، وأقدامهم بلفافات من أسمال بالية ، وينتعلون أحذية ثقيلة من ألياف النبات ، ويلوحون بعصيهم فى حركة متوافقة ، وقلما ينظرون الينا ، يسيرون مكدودين فى بطء صفا مفردا • وتساءلت مندهشاً عن المكان الذى يقصدونه ولماذا ؟ وهل ستستغرق رحلتهم وقتاً طويلا ؟ وهل ستتحد وشيكاً ظلالهم النحيلة التى يلقونها على الطريق مع ظل شجرة الصفصاف الملقى على طريقهم ؟ وهنا عربة بريد ذات أربعة جياد تأتى مسرعة فتقابلنا ، وبعد ثانيتين أخريين كانت الوجوه التى تتطلع الينا بابتسامة الفضول على مدى ذراع واحدة قد مرقت مارة بنا كالبرق ، ويبدو من المستبعد ان تكون هذه الوجوه ، وجوه أناس غرباء تماماً وانه من المحتمل الا تقع عليهم عيناى البتة مرة أخرى •

ثم يأتى بعد ذلك جوادان مشعثان يتقطران عرقاً يعدوان على جانب الطريق فى شكيمتهما ، وقد ربط الخطامان بالطوق الخلفى ، بينما يركب فى المؤخرة صبى البريد ينشد ببطء أغنية مقبضة ، وقد أمال قبعته المصنوعة من صوف الغنم على أحد الجانبين ، ويتدلى

سائقه في حذائه الضخم على جانبي حصان ذي قوس (دوجا) (١) وأجراس تصلصل بصوت خافت بين حين وآخر ، يعبر وجهه وهيئته عن الكثير من الكسل والاهمال والقناعة ، حتى ليبدو لي أن غاية السعادة ان يكون المرء صبي بريد يركب الجياد ويعود الى بيته وهو يغني أغنيات حزينة . وهنالك فيما وراء الوادي الضيق بمسافات طويلة ، توجد كنيسة قروية بسقفها الأخضر متميزة من السماء المشرقة الزرقاء ، وهنالك مزرعة ، وبيت سيد ذو سقف أحمر وحديقة خضراء .. من يسكن هذا البيت ؟ هل فيه أطفال وأب وأم ومدرس خاص ؟ لماذا لا نسير اليه ونتعرف بصاحبه ؟ وهنا صف طويل من عربات البضاعة الثقيلة مشدودة الى عربات من نوع الترويكا التي تجرها جياد جيدة التغذية ضخمة السيقان فاضطررنا الى الابتعاد عن الطريق لكي نمر . ويستفسر فاسيلي من أول سائق من سائقي عربات النقل : « ماذا تحملون ؟ » وكان يدلي قدميه الكبيرتين من على اللوح الذي يكون مقعده ، ويرمقنا بنظرة طويلة خاوية ، ويلوح بسوطه ويجيب بنوع من الاجابة عندما يبتعد عنا بمسافة أطول يتعذر معها سماعه . ويسأل فاسيلي وهو يلتفت الى مجموعة أخرى « ما نوع حمولتكم ؟ » وكان يضطجع على سياجها الأمامي سائق آخر تحت حصيرة جديدة من القش ، فيبرز رأس

---

(١) قوس فوق الحصان الأوسط الذي يجر العربة (الترويكا) . او ثلاثة خيول مشدودة بعدتها جنبا الى جنب

أشقر ذو وجه متورد ولحية حمراء برهة من تحت الحصيرة ، ثم يختفي ثانية ، وخطرت لي فكرة أن هؤلاء السائقين لا يستطيعون ان يعرفوا بالتأكيد من نحن ولا المكان الذي نقصده .

واستغرقت في ملاحظاتي المختلفة حتى انني في مدى ساعة ونصف ساعة لم ألاحظ الأرقام المعوجة المكتوبة على أعمدة المسافات. ولكن الشمس تبدأ تحرق رأسي وظهري ، وتصبح الطرق متربة ، ويأخذ رصاص صندوق الشاي المثلث يزعجني ازعاجاً شديداً فأغير مكاني مرات عدة . ويبدأ شعوري بالحر وقلة الراحة والضجر ، ويتجه كل اهتمامي الى أعمدة الفراسخ والأرقام التي تحملها ، وأقوم بعمل احصاءات حسابية عن الوقت الذي سنقضيه للوصول الى المرحلة التالية .

« ان اثني عشر فرسخاً معناها ثلث الستة والثلاثين فرسخاً ، وان واحداً وأربعين حتى ليبتز ، واذن فقد قطعنا ثلث الطريق وأكثر قليلا ؟ » وهكذا .

وألاحظ ان فاسيلي أخذ في تنكيس رأسه فأقول : « فاسيلي ، دعني أجلس في مقعد القيادة ، انه لشيء محبوب » . ويوافق فاسيلي ونتبادل مكانينا ، ثم يأخذ مباشرة في الغطيط والتمدد بحيث لم يترك مكاناً لأي شخص آخر في البريتشكا . وتظهر أمامي ، من مجثمي الجديد أروع صورة — جيادنا الأربعة نيرونشسكايا . ودياكون

وليبقايا ، وهو حصان « العريش » ، وأبونيكادي ، وجميعها اعرفها جد المعرفة حتى أصغر تفاصيلها وتفاوت صفات كل منها .

وأستفسر في شيء من الخجل : « لماذا يوضع دياكون اليوم من الجانب القريب بدلا من الجانب البعيد يا فيليب ؟ » .

« دياكون ؟ » .

فأقول : « وبيوتشسكايا لا يجر شيئاً البتة » .

ويقول فيليب دون ان يعير ملاحظتي الأخيرة أي التفات : « انك لا تستطيع ان تشد دياكون على الجانب البعيد ، انه ليس من النوع الذي يصلح لهذا ـ انك بحاجة الى حصان من النوع الذي ... حصان .. حصان حقيقي ، وليس دياكون من ذلك النوع » .

وعند هذه الكلمات يميل فيليب الى اليمين ، ويجذب الأعنة بكل قوته ، ويأخذ في ضرب دياكون بالسوط ، على ذيله وأرجله بطريقة خاصة من اسفل ، وبالرغم من أن دياكون يشد كل عضلة بحيث كانت البرتشكا تميل ، فان فيليب لا يتخلى عن خطته حتى يشعر بحاجته الى الراحة ، والى امالة قبعته جانبا ، بالرغم من انها كانت متوازنة ثابتة على رأسه من قبل ، وأستفيد من هذه الفرصة المواتية ، فالتمس من فيليب ان يسمح لي بالقيادة فيعطيني فيليب أولا عنانا واحداً ، ثم يعطيني عناناً آخر ، ثم تنتقل الى يدي آخر الأمر الأعنة الستة والسوط ، وأشعر بغاية السرور ، وأحاول تقليد

فيليب في كل صغيرة وأسأله عما اذا كنت أحسن التصرف : ولكنه يبدو غير راض بوجه عام ، ويقول ان حصاناً يتحمل عبئاً أكبر في الجر ، وان آخر لا يجر مطلقاً ، ثم ينحني ويتناول الأعنة مني . وتشتد الحرارة شيئاً فشيئاً ، وتأخذ السحب الشبيهة بصوف الغنم تنتفخ ، وترتفع كفقاقيع الصابون ، وتندمج وتتخذ لونا رماديا قاتما . وتظهر من نافذة العربة يد ممسكة بزجاجة وحزمة صغيرة ، فيقفز فاسيلي من كرسي القيادة بمرونة مدهشة بينما تتحرك نحن ، ويحضر لنا قليلا من كعك الجبن وجعة الجويدار (١) .

ونهبط جميعاً من العربات عند انحدار حاد ، ونركض الى القنطرة بينما يضع فاسيلي وياكوف الدعامات ويسندان العربة من جانبيها بأيديهما كما لو كانا يرفعانها في حالة تعطلها . ويأذن من «ميمي» بركوب فولوديا أو أنا في العربة ، وليوبتشكا أو كاتنكا تأخذ ماكان في البرتشكا . وتهيء هذه التغيرات سروراً كبيراً للفتيات . لأن ركوب البرتشكا ، كما ظنن بحق ، ادعى الى الطرب . وعندما يشتد الحر أحياناً ونحن نجتاز الغابة ، نتمهل خلف العربة ونقطع الأغصان الخضراء ونبني عريشة في البرتشكا . وتفاجأ العربة بهذه العريشة المتحركة ، وتصفر ليوبتشكا صفيراً حاداً الى أقصى حد : لا تنسى البتة ان تفعله في كل مناسبة لانه يمنحها السرور .

---

(١) نوع من الجعة الروسية وتسمى كفاس .   (المترجم)

ولكن هذه هى القرية التى سنتناول فيها غداءنا ونستريح ..
لقد شممنا رائحة القرية من قبل ، روائح الدخان والقطران والخبز ، وسمعنا ضجة الأصوات ووقع الأقدام والعجلات . ولم تعد ترن اجراس الخيل كما كانت تفعل فى الحقول المكشوفة ، وتمر على الجانب الآخر بأكواخ ذات أسقف من القش ، وطنف مصنوعة من شرائح خشبية ، ونوافذ صغيرة ذات مصاريع حمراء وخضراء يلوح من بينها وجه امرأة فضولية ؟ وصغار الصبيان والفتيات من الفلاحين لا يرتدون غير القمصان، عيونهم محملقة وأيديهم ممدودة فى دهشة ، يقفون مسمرين فى أماكنهم أو يلتمسون طريقهم برشاقة ، بين التراب بأقدام حافية ، يحاولون التسلق على الصناديق خلف العربات بالرغم من تهديد فيليب لهم بالاشارات . ويسرع أصحاب الحانات ذوو الشعر البرتقالى الى العربات من كل ناحية . يحاول كل منهم اجتذاب المسافرين من الآخر بالكلمات والاشارات المغرية ، ثم تتوقف ! ويسمع صرير الباب وتربط عارضة العربة بقوائم الباب ، ثم ندلف الى الفناء لننعم بالراحة والحرية أربع ساعات.

(٣٠)

العاصفة الرعدية

تنحدر الشمس نحو الغرب وتلفح عنقى ووجنتى بأشعتها الحامية المائلة غير المحتملة ، فكان من المحال ان تلمس جوانب

البرتشكا اللاسعة ، وثار تراب كثيف فوق الطريق وملأ الهواء . ولم يكن هناك هبة نسيم تحملها بعيداً عنا ، وكان هيكل العربة الطويل المعفر بالتراب يتمايل بانتظام محتفظا على الدوام بنفس المسافة أمامنا ؟ وكنا نلمح السوط بأعلى العربة أحيانا حين يلوح به السائق وقبعته وقبعة ياكوف . ولم أعرف ماذا أفعل بنفسى ، فلا وجه فولوديا الذى اسود من الغبار ، وقد أغفى بجانبى ، ولا حركات ظهر فيليب ولا ظل البرتشكا الطويل المائل التى تتابعنا فى قوة واندفاع ، لا شىء من هذا استطاع أن يمنحنى أية تسلية . كان كل انتباهى مركزا على أعمدة المسافات التى أراقبها عن بعد ، وعلى السحب التى كانت من قبل متناثرة على صفحة السماء ، وهى الآن تتجمع فى كتلة واحدة داكنة متوعدة . وكان الرعد البعيد يهدر بين وقت وآخر وضاعف هذا الحادث الأخير ــ اكثر من أى حادث آخر ــ من تعجلى للوصول الى محطة البريد . وأوحت الى العواصف المرعدة بشعور من الضجر والخوف والحزن يجل عن الوصف .

كان لا يزال بيننا وبين أقرب قرية الينا عشرة فراسخ ، ولكن السحابة الضخمة الأرجوانية القاتمة التى ظهرت من حيث لا أدرى، تتحرك بسرعة فوقنا ، مع أنه لم تكن هناك هبة نسيم ، وكانت الشمس التى لم تتوار بعد وراء السحب تضىء بنورها الباهر كتلتها المعتمة ، والخطوط الرمادية الممتدة منها الى قلب الأفق . وكان البرق يومض من بعيد بين حين وآخر . وتسمع قعقعة خافتة ترتفع

رويداً رويداً كلما اقتربت . ثم تغرق في هزيم متقطع يشمل السماء . وصعد فاسيلي فوق كرسي الحوذي ونشر غطاء البرتشكا . وارتدى الحوذية معاطفهم الفضفاضة وكانوا ينزعون قبعاتهم عند كل قرقعة ويرسمون شارة الصليب . وأرهفت الجياد آذانها ونفخت خياشيمها كما لو كانت تشم الهواء النقي الذي كان يهب من السحابة المرعدة المقتربة . وأسرعت البرتشكا بالسير على الطريق المترب ، وشملني شعور بعدم الاكتراث فقد كنت أحس الدم ينبض بقوة في عروقي . وللحال حجبت السحب الأولى قرص الشمس . ولآخر مرة تبزغ وتلقي بآخر شعاع من الضوء على الأفق الغاضب ثم تختفي . وتحول المنظر الطبيعي برمته فجأة واتخذ طابعاً كئيباً . واهتزت شجيرات الحور ، واصطبغت الأوراق بلون رمادي فبرزت بوضوح ازاء السحابة الأرجوانية ـ وخشخشت واضطربت وتأرجحت أعالي اشجار البتولا العالية ، ودومت خصل الحشيش الجافة مسرعة عبر الطريق وجاءت طيور السنونو الرشيقة ذات الصدور البيضاء تحوم حول البرتشكا وتنقض الى ما تحت صدور الخيل كأنها أرادت وقفنا . وطارت في الهواء غربان الحقول تخفق بأجنحتها من الجانبين . ورفرفت حواف الغطاء الجلدي الذي ثبتناه فوقنا وسمح بدخول الريح الرطبة فصفقت وضربت جسم العربة، وخيل الى كأن البرق يومض في البرتشكا نفسها فيبهر عيوننا ، يضيء لحظة القماش الرمادي بحاشيته المجدولة ووجه فولوديا ،

الرابض في الزاوية . وفي نفس اللحظة دوت فوق رءوسنا مباشرة دمدمة هائلة . وخيل الى انها تعلو وتعلو ، وتتسع وتتسع الى ما لا نهاية . في حلزون عظيم يتزايد شيئاً فشيئاً حتى انفجر في دمدمة تصم الآذان . بعثت فينا رعدة اضطرتنا الى حبس انفاسنا . انه غضب الله !! وكم في ذلك التصور المألوف من شاعرية .

وتدور العجلات أسرع وأسرع . ثم أدرك من ظهر فاسيلي، وظهر فيليب الذي كان دائم التلويح باعنته أنهما هما أيضاً خائفين. وتنحدر البرتشكا مسرعة من على التل وترتطم مدوية بالقنطرة الخشبية فلا أجرؤ على الحركة ، متوقعاً في رعب ان الدمار سيحل بنا جميعاً في أية لحظة .

قف ! ان جرار العربة مكسور . ونضطر الى التوقف عند القنطرة رغم قرقعة الرعد المستمرة التي تصم الآذان .

وأميل براسي عند جنب البرتشكا واحبس انفاسي . ويتملك اليأس قلبي حين أشاهد حركات أصابع فيليب السمينة السوداء ، فهو يربط عقدة في بطء ويقوي الجرارات ، ويضرب جنب الحصان براحة يده وبمقبض السوط .

وازدادت مشاعري المكروبة حزناً ورعباً كلما ازدادت العاصفة قوة . ولكن عندما حل الصمت العظيم الذي يسبق عادة هدير الرعد ، بلغت تلك المشاعر حداً من الشدة بحيث اقتنعت بأنه

لو طال الموقف ربع ساعة لقتلني الهياج . وظهر في تلك اللحظة من تحت القنطرة شكل رجل يرتدي قميصاً قذراً مهلهلا وجهه منتفخ فاقد الشعور ، ورأسه عار حليق متأرجح ، وساقاه عاطلتان من الأعصاب ، وفي مكان اليد بقية من يد حمراء لامعة دفعها الى داخل البرتشكا .

وقال الشحاذ في صوت مرتجف وهو يرسم شارة الصليب عند كل كلمة ثم ينحني بشدة : « في محبة المسيح ، ساعدوا كسيحاً ! » .

لا أستطيع وصف الرعب الذي اقشعرت له روحي في تلك اللحظة ، وسرت في شعري رجفة ، وتسمرت عيناي على الشحاذ في خوف مذهل .

وكان فاسيلي الذي شمل الرحلة بحسناته ، يعطي فيليب التعليمات في كيفية تقوية الجزار . ولم يبدأ فيليب في تحسس جيبه الجانبي الا عندما أعد كل شيء وجمع في يده الأعنة وصعد الى كرسي القيادة ، ولكن ما ان بدأنا المسير ثانية حتى أضاء برق يبهر الأعين ، وغمر كل الوادي برهة بلمعانه الحاد فأدى الى توقف الخيل ، وكان مصحوباً برعد هادر يصم الآذان دون أقل انقطاع حتى خيل الى كأن قبة السماء برمتها ستحطم على رؤوسنا ، وأصبحت الرياح أعنف من ذي قبل ، وأخذت أعراف الخيل وذيولها وعباءة فاسيلي وأطراف غطاء العربة ، كل هذه تصفق بشدة في نفس الاتجاه تحت

صفقات الريح العاصفة الهوجاء . وسقط سيل غزير من المطر فوق غطاء البرتشكا الجلدي ، ثم هطل سيل آخر وثالث ورابع . وسرعان ما أمطرتنا كما تضرب الطبل ، ورددت كل أنحاء الصقع نقرات هطول المطر المطردة ، ولاحظت من حركة كوع فاسيلي انه يفك كيس نقوده ، وكان الشحاذ لا يزال يرسم شارة الصليب وينحني وهو يجري بالقرب من العجلة حتى خيل الى انه سيتهشم « محبة في المسيح ! » وأخيراً طارت قطعة نقد نحاسية مارة بنا ، وتوقف المخلوق التعس مترددا يتأرجح في الريح ، والتصق قميصه الذي بلله المطر بأطرافه المقوسة ثم اختفى عن انظارنا .

كانت الأمطار المنحدرة مدفوعة بالرياح العاتية تتدفق كالسيل الجارف وتتقاطر مسايل الماء من معطف فاسيلي الخشن الى بركة الماء القذر الوحلة التي تجمعت على غطاء العربة . والتراب الذي كان من قبل في شكل حبات ، أصبح الآن وحلا سائلا ترششه العجلات . وأصبحت الهزات أقل من ذي قبل ، وتدفقت الجداول الكدرة في الأخاديد ، وأصبحت ومضات البرق أوسع مدى وأكثر شحوباً ، ولم تعد قرقعة الرعد مفزعة الى حد كبير فوق نقرات المطر .

ولم يعد المطر يهطل بغزارة ، وبدأت السحابة الراعدة توزع وسطع الضوء في المكان الذي يجب أن تكون فيه الشمس ، وكادت تظهر فرجة من اللون الأزرق الصافي من خلال أطراف السحابة

الشهباء • وبعد برهة سطع شعاع خجول من ضوء الشمس في البرك التي على الطريق ، وفي مسايل المطر الرفيعة المستقيمة كأنها سقطت من ثقوب غربال ، وفوق الحشائش على جانب الطريق بخضرتها التي اغتسلت لتوها •

ولم تكن السحابة السوداء المرعدة الممتدة على الجانب المقابل من الأفق أقل وعيداً بالشؤم ، ولكني لم أعد أخافها ، وشملني شعور سار بالأمل في الحياة يقصر عنه الوصف ، بدد شعوري الطاغي بالخوف • وابتسمت روحي كابتسام الطبيعة وتجددت وانتعشت •

وأرخى فاسيلي بنيقة معطفه ، وخلع قبعته ونفضها ، وألقى فولوديا العباءة وأطللت انا خارج البرتشكا وعببت في لهفة من الهواء النقي العطر • وتسير البرتشكا أمامنا قدما بجسمها اللامع المغسول وعارضتها المتقاطعة وصناديق الملابس وكانت ظهور الجياد وحبال الربط ، وأعنة الجياد ، وأطارات العجلات كلها مبللة تلمع في ضوء الشمس كأنها مغطاة بدهان اللك • وعلى أحد جانبي الطريق حقل حنطة شتوية لا يحده البصر • تشوبه هنا وهنالك أخاديد ضحضاحة تلمع مع الأرض الندية والخضرة النضرة • كأنها بساط متباين الألوان ممدود الى صميم الأفق • وعلى الجانب الآخر من الطريق غيضة من أشجار الجوز ، مع شجيرات البندق والكرز البرى تقف ثابتة ، كأنها تائهة في السعادة ، تنفض في بطء قطرات المطر اللامعة من أغصانها التي غسلتها العاصفة فوق أوراق السنة الماضية الجافة•

وتحلق القنابر ذات الشواشي في كافة الأنحاء ، مغردة في مرح ثم تعود فتهبط مسرعة ، بينما تصدر من الأدغال الرطبة ضوضاء صغار الطيور ، ويرن تغريد الوقوق صافيا من صميم الغابة • وبلغ من سحر أريج الغابة بعد هذه العاصفة الربيعية ـ رائحة شجر البتولا ـ وأزهار البنفسج والأوراق الميتة ، وعيش الغراب ، والكرز البرى • انني لم أقو على الجلوس ساكناً في البرتشكا ، بل قفزت من على الدرجة وأسرعت الى الأدغال • وبالرغم من هطول قطرات المطر قطفت نباتات من كرز الصفير فضمخت بها وجهي لأسكر برائحتها الرائعة •

وخضت في الوحل مسرعاً الى باب العربة غير مكترث بحذائي الذي لطخه الطين ولا بجوربي الذي غمره الماء طويلا •

وصحت بصوت مرتفع ، وأنا أمد يدي ببعض أغصان من أزهار الكرز : « ليوبتشكا ! كاتنكا ! •• أنظرا •• ما أجملها ! » •

ولهثت الفتاتان وصرختا في فزع ، وصاحت بي ميمي ان ابتعد والا دستني العربة دون شك •

وصحت : « بل شماها وحسب لتريا مقدار شذاها » •

« ٣١ »
آراء جديدة

•• كانت كاتنكا تجلس بجانبي في البرتشكا ورأسها الجميل محنيا يراقب مفكراً الطريق المترب وهو يجري مارا من بين العجلات • وتأملتها في صمت • ودهشت للملامح البعيدة عن ملامح الطفولة التي رأيتها لأول مرة على وجهها الوردي •

وقلت : « سنكون الآن بموسكو حالا ، فماذا تظنين شكلها ؟ »

فأجابت كارهة : « لست أدري » •

« ولكن ماذا تظنين ؟ هل هي أكبر من سربوخوف أم لا ؟ » •

« ماذا ؟ » •

« آه - لا شيء » •

ولكن عن طريق هذه الغريزة التي يتكهن بها الشخص بأفكار شخص آخر ، والتي تستخدم كخيط يوجهه اثناء المناقشة فهمت كاتنكا ان عدم اهتمامها يؤلمني فرفعت رأسها والتفتت ناحيتي وقالت :

« هل أخبرك بابا اننا ستعيش مع الجدة ؟ » •

« نعم • ان جدتنا تصر على أن نعيش معها » •

« بالطبع • سنعيش في الطابق العلوي في نصف البيت ، وستعيش أنت في النصف الآخر ، أما والدي ففي الجناح ، ولكننا جميعاً سنتناول الطعام مع جدتنا » •

« تقول أمي ان جدتك متجلة للغاية - وسيئة الطباع » •

« آه • لا • انها ليست كذلك ! بل تبدو هكذا فقط لأول وهلة •• انها مبجلة ولكن طباعها ليست سيئة ، بل على العكس ، حنونة وأنيسة جداً ، ولو انك رأيت فقط أية حفلة رائعة أقمناها في عيد قديسها ! » •

« لا أزال خائفة منها • وهذا بالاضافة ، والله يعلم لو أننا•• » •

وأمسكت كاتنكا عن الكلام فجأة وراحت تفكر •

وسألتها في قلق : « ماذا ألم بك ؟ » •

« لا شيء » •

لقد قلت والله يعلم •

وأنت قلت أية حفلة رائعة أقمناها لعيد قديس جدتي !!

نعم ، ويا للأسف انك لم تكوني موجودة ، فقد كان هناك ضيوف كثيرون جداً ، مئات منهم - والموسيقى وقادة الجيش • ورقصت ثم توقفت فجأة أثناء شرحي وقلت : « انك غير مصغية يا كاتنكا » •

نعم ، انني ، لقد كنت تقول انك رقصت .

ما سبب اكتئابك الى هذا الحد ؟.

ان المرء لا يستطيع أن يكون مرحاً طوال الوقت .

« ولكنك تغيرت كثيراً جداً منذ عودتنا من موسكو » ثم تابعت حديثي بنظرة اصرار وانا التفت نحوها : « اخبريني بصدق ، ما الذي جعلك منحرفة المزاج الى هذا الحد ؟ » .

وأجابت كاتنكا في اندهاشة اظهرت اهتمامها بملاحظتي : « هل أنا منحرفة المزاج ؟ لست منحرفة المزاج البتة » .

وتابعت حديثي قائلا : « لست كما اعتدت أن تكوني ، فقد كان من الواضح كل الوضوح انك كنت تشعرين بنفس شعورنا ازاء كل شيء ، وتعتبريننا كالأقارب ، وتحبيننا كما نحبك تماما ، ولكنك الآن أصبحت كثيرة الجد ثم أنك شديدة العزلة » .

لا ، لست كذلك ...

واعترضت حديثها ، اذ شعرت لتوي بدغدغة في أنفي ـ نذير الدموع التي تفيض بها عيناي دائما حين اتنفس عن فكرة شعر بها قلبي وطال احتباسها . فقلت : « انك تبتعدين عنا ، ولا تتحدثين الى أحد سوى ميمي كأنك أردت تجاهلنا » .

وأجابت كاتنكا ، التي كان من عادتها تفسير كل شيء بنوع

من الضرورة القاتلة عندما لا تعرف ماذا تقول : « حسن ، انك لا تستطيع ان تكون دائما كما انت ، بل لا بد لك أن تتغير في بعض الأحيان » .

لقد تشاجرت مرة مع ليوبتشكا وقالت لها في شجارها «يامغفلة» فأجابتها بقولها : « لا يمكن لكل انسان أن يكون حكيما ، فلا بد أن يكون بعض الناس مغفلين » . ولم ترضني اجابتها حين قالت : « انك لا بد ان تتغير في بعض الأحيان » فتابعت توجيه اسئلتي » .

« ولماذا لا بد لك ان تتغيري ؟ » .

وأجابت كاتنكا وقد اعتراها خجل طفيف ، وتطلعت الى ظهر فيليب : « انا لا نستطيع أن نعيش سوياً على الدوام ، ان أمي استطاعت أن تعيش مع أمك المتوفاة لأنهما كانتا صديقتين ، ولكن الله يعلم ما اذا كانت تستطيع مسايرة الكونتيسة التي يقولون انها سيئة الطباع ، وفوق هذا فلا بد لنا من الافتراق يوماً ما مهما كانت الحال ، فأنتم أغنياء ، تمتلكون بتروفسكوي ، ولكنا فقراء ووالدتي لا تملك شيئاً » .

« أنتم أغنياء ، ونحن فقراء !! » وبدت لي تلك الكلمات وما يرتبط بها من أفكار شيئاً غريباً جداً ، فقد كنت أظن في تلك الأيام ان الشحاذين والفلاحين (الموزيك) وحدهم ، هم الذين يمكن ان يكونوا فقراء ـ ولم أستطع قط ان اربط فكرة الفقر هذه بكاتيا الجميلة الرشيقة ، وخيل الى انه ما دامت ميمي وكاتيا قد

عاشتا معنا دائماً فانهما مستطيعتان أن تظلا معنا ومقاسمتنا كل شيء ، ولكن الآن لاحت لى الف فكرة تتصل بموقفهم الانعزالى ، وشعرت بالخجل من كوننا اغنياء وهم فقراء حتى لقد احمر وجهى حياء . ولم أفكر فى التحديق مباشرة فى وجه كاتنكا . وقلت فى نفسى : « ما معنى اننا أغنياء وهم فقراء ؟ وكيف يستدعى هذا أننا لا بد ان نفترق ؟ ولماذا لا نتقاسم كل شيء على قدم المساواة ؟ » ولكنى فهمت ان هذا شيء يجب الا أتحدث عنه مع كاتنكا ، وحدثتنى على التو تلك الغريزة العملية المعارضة لهذه الاستنتاجات المنطقية ، بانها كانت على حق ، وانه من تحصيل الحاصل ان أشرح لها فكرتى .

وسألتها : « أحقيقة انك ستتركيننا ؟ وكيف نستطيع العيش وكل منا بعيد عن الآخر ؟ » .

« وما حيلتنا فى هذا ؟ انه لشيء مؤلم لى أنا أيضاً . ولكنه اذا حدث بالفعل فانا أعرف ما سأفعله » .

وقاطعتها قائلا : « ستصبحين ممثلة ! يا له من عبث ! » وكنت أعرف ان حلمها الدائم هو ان تصبح ممثلة .

« لا . لقد قلت حين كنت صغيرة جداً » .

« وماذا تفعلين اذن ؟ » .

سأصبح راهبة وأعيش فى الدير ، وأتجول فى رداء أسود وقلنسوة من المخمل .

وانفجرت كاتنكا بالبكاء .

وهل حدث لك مرة ايها القارىء ان لاحظت على حين فجأة ، وفى أية مرحلة من مراحل حياتك ، ان نظرتك الى الأشياء قد تغيرت تغيراً تاماً ، كما لو كانت كل الأشياء رأيتها من قبل قد تحولت الى الجانب الآخر الذى لم تكن تدركه ! ان تغيراً عقلياً من هذا النوع قد حدث لى أثناء رحلتنا . ومنذ ذلك الوقت أؤرخ بداية صباى .

ولأول مرة ، وقع فى نفسى اننا ـ أى أسرتنا ـ لم نكن وحدنا فى هذا العالم واننا لسنا المركز الذى تدور حوله جميع الاهتمامات ، وان هناك حياة أخرى لأناس لا تربطهم بنا رابطة ، ولا يهتمون بنا فى شيء ، بل ليس لديهم فكرة عن وجودنا . ولا شك اننى عرفت كل هذا من قبل ، ولكننى لم أعرفه على الوجه الذى عرفته الآن . ولم أحسه بشعورى .

ان الفكرة تصبح اعتقاداً فقط بطريقة محددة يغلب الا تكون متوقعة مطلقاً ومختلفة عن الطريقة التى تصل بها عقول أخرى الى نفس الاعتقاد . ان المحادثة مع كاتنكا التى أثرت فى تأثيراً عميقاً وجعلتنى أمعن النظر فى موقفها فى المستقبل ، كانت هى الطريق الذى انتهجته . لقد تطلعت الى القرى والمدن التى نجتازها ، والتى تعيش فى كل بيت منها أسرة على الأقل كأسرتنا ، والى النساء والاطفال الذين ينظرون فى فضول طارىء بعد مرور عرباتنا

واختفائها عن الأنظار الى الأبد ، والى أصحاب الحوانيت والفلاحين ، الذين لم يحيونا وحسب كما تعودت أن أراهم يفعلون فى بتروفسكوى ، بل انهم لم يكرمونا بأكثر من نظرة ، ولذلك خطرت لى فكرة لأول مرة وهى : ماذا يمكن أن يشغلهم اذا كانوا لا يهتمون بنا أقل اهتمام ؟ ومن هذا السؤال انبثقت أسئلة أخرى : كيف ، وبأية وسيلة يعيشون ؟ وكيف يربون أطفالهم ؟ هل يثقفونهم أو يتركونهم يلعبون ؟ وكيف يعاقبونهم ؟ وما الى ذلك .

(٣٢)
فى موسكو

عند وصولنا الى موسكو كان التغير فى آرائى عن الأشياء والناس ، وعن علاقاتى بهم لا يزال محسوسا . وعندما رأيت جدتى فى أول اجتماع بها نحيلة منغضنة الوجه كليلة العينين ، تحول شعورى بالتبجيل الحقير ، والخوف الذى كان يخالجنى نحوها الى عطف وعندما ضغطت وجهها برأس ليوبتشكا بكت ، حتى لكأنها تنظر الى جثة ابنتها المحبوبة . بل ان عطفى استحال الى حب . وضاقت نفسى لرؤية حزنها لدى مقابلتها لنا . ورأيت أننا لا نساوى شيئاً بذاتنا فى نظرها ، وأننا أعزاء لديها كذكريات . وشعرت انه

لم يعد هناك غير فكرة واحدة ماثلة فى كل قبلة من القبلات التى غمرت بها وجنتى : « لقد ذهبت ، ماتت ، ولن أراها مرة أخرى »

أما أبى الذى لم يكن لديه بعدئذ شىء آخر يفعله لنا فى موسكو ، وكان وجهه مهموماً على الدوام ، ويجىء الينا فى وقت الغداء فقط فى معطف اسود أو ثوب السهرة ، فانه فقد الشىء الكثير فى نظرى كما فقدت ياقاته الكبيرة اللامعة ، وعباءته ، ورؤساء خدمه ، وكلابه ، وسعيه الى الجرن وصيده الشىء الكثير ، ثم كان هناك كارل ايفانتش الذى كانت تطلق عليه جدتى « دياذكا » والذى استقر فى ذهنه على حين فجأة أن يستبدل بصلعته المألوفة المحترمة ، شعراً أحمر مستعاراً به فارق فى وسط رأسه تقريبا . والله يعلم السبب فى هذا . وقد بلغ مما بدا لى من غرابة هذا العمل وماينطوى عليه من سخرية اننى تساءلت كيف فشلت فى ملاحظة ذلك من قبل .

ونشأ أيضا فيما بيننا وبين الفتيات حاجز غير مرئى . فقد كانت لهم أسرارهن وكانت لنا أسرارنا فكن فيما يبدو يتظاهرن أمامنا بوزراتهن التى ازدادت طولا ، ونزهو نحن بسراويلنا ذات الأربطة عند القدمين . وظهرت ميمى فى غداء أول يوم أحد فى ثوب أنيق وأشرطة على رأسها وكانت من الجمال بحيث خيل الينا لأول وهلة اننا لسنا فى الريف ، وان كل شىء أصبح الآن مختلفاً .

(٣٣)

الأخ الأكبر

•• كنت أصغر من فولوديا بعام وبضعة أشهر فقط • نشأنا معا • ولم نفترق مطلقاً لا في الدروس ولا في الألعاب • ولم يحدث بيننا تمييز مطلقاً بين الأكبر والأصغر • ولكن قرابة الوقت الذى اتحدث عنه بالضبط بدأت اتحقق من انني لم أكن متساويا مع فولوديا لا في السن ، ولا في الميول والقدرات • بل بدأت أتصور ان فولوديا كان عارفا بتفوقه ، مزهوا به • ويحتمل ان يكون هذا اعتقادا خاطئا أثاره في حب الذات ، وكان يجرحه في كل مقابلة معه •• لقد كان يبزنى في كل شيء ــ في اللعب والدراسة ، والمشاحنات وفي معرفته كيف يتصرف • كل هذا أبعده عنى ، وسبب لى تعذيبا عقلياً لم أعرف له سبباً • ولو قلت في صراحة ، عندما ارتدى فولوديا في أول مناسبة قميصاً من التيل ذا ثنيات ، انني متضايق لأنني لا أملك قميصاً مثله ، لكان الأمر أهون من ذلك دون شك ، ولما ظننت في كل مرة كان يصلح فيها من بنيقته ، انه يريد أن يفعل ذلك بمفرده لكى يؤذى شعورى •

ومما كان يعذبني أكثر من كل شيء آخر ان فولوديا كان

يفهمني • وهذا ما كنت اتخيله في بعض الأحيان ، ولكنه كان يخفي ذلك عنى •

من ذا الذى لم يلاحظ تلك العلاقات الغامضة الصامتة التى تكشف عنها الابتسامة العابرة المحسوسة ، أو الحركة ، أو النظرة، التى تنشأ بين الناس يعيشون معا أخوة وأصدقاء أو زوج وزوجه ، أو سيد وخادم ، وبخاصة حين لا يكون هؤلاء الناس غير صرحاء من كل الوجوه مع بعضهم البعض !! • وكم من رغبات وأفكار ومخاوف غير منطوقة ــ عن أشياء مفهومة ــ يعبر عنها بنظرة عارضة حين تلتقى العيون على استحياء وتردد ! •

ولكن لعلى كنت مخدوعاً في هذه الناحية نتيجة لشدة حساسيتي وميلى الى التحليل • ولربما لم يشعر فولوديا البتة بما كنت اشعر به ، اذ انه كان مندفعاً صريحاً ، غير ثابت في نزعاته • وكان منساقاً لمطامحه ، مستسلماً لها بكل روحه •

كان يتملكه في وقت ما شغف بالصور • ثم راح يرسم بنفسه وكان يصرف على الرسم كل ما له الذى يلتمسه من معلم الرسم ومن بابا ومن جدته ، ثم كان شغفه بالأدوات التى يزين بها منضدته • يجمعها من جميع أنحاء المنزل • ثم غرامه بالروايات التى يحصل عليها خلسة ويعكف على قراءتها ليلا ونهارا • وقد جرفتني هواياته رغما عني • ولكنني كنت أشد كبرياء من أن أترسم

خطاه ، وأكثر اعتماداً على الآخرين من ان اختار طريقى لنفسى .
ولكن لم يكن هناك شيء بقدر ما كنت أغار من اخلاق فولوديا الراضية الصريحة النبيلة ، التى كانت تتجلى بوضوح عجيب عندما نتشاحن . وكنت أشعر انه يتصرف تصرفاً سليما . ومع ذلك لم استطع حمل نفسى على تقليده .

حدث مرة حين بلغ شغفه بالتحف النادرة ذروته ان قصدت الى منضدته فكسرت مصادفة قارورة عطر صغيرة فارغة متعددة الألوان .

وقال فولوديا حين دخل الحجرة ولاحظ الاضطراب الذى احدثته فى تنسيق التحف المتنوعة الموضوعة على منضدته : « من سمح لك ان تلمس أشيائى ؟ وأين قارورة العطر الصغيرة ؟ انك دائماً ـ » .

« لقد سقطت منى مصادفة وانكسرت فأى ضرر فى هذا ؟ » .

فقال وهو يضع شظايا القارورة المكسورة مع بعضها البعض ويتأملها بأسى : « أرجو الا تتجاسر على لمس أشيائى » .

فأجبته معترضاً : « وأرجو ألا تأمرنى ، لقد كسرت ، وهذا ما حدث ، فماذا تجدى الضجة ؟ » .

وابتسمت مع انه لم تكن لدى أية رغبة فى الابتسام .

واستمر فولوديا فى حديثه وهو يهز كتفيه استهجاناً ، وهى عادة أخذها عن أبى : « آه . انها قد لا تعنى شيئاً بالنسبة لك ، ولكنها تعنى عندى الشيء الكثير ... انت تروح فتكسر أشيائى ثم تضحك أيها الولد البذيء ! » .

« انني ولد صغير . ولكنك غبى بقدر ما أنت كبير » .

وقال فولوديا وهو يدفعنى دفعة خفيفة : « انى لا أنوى التشاحن معك . ابتعد من هنا ! » .

« لا تدفعنى ! » .

« ابتعد ! » .

« قلت لا تدفعنى ! » .

وأمسكنى فولوديا من يدى وحاول ان يجرنى بعيداً عن المنضدة . ولكنى كنت أتميز غضباً فأمسكت برجل المنضدة وأخذت التحف المصنوعة من الخزف والزجاج الصخرى وحطمتها على الأرض قائلا : « ها هى ! » .

وصرخ فولوديا وهو يحاول انقاذ بعض كنوزه المتساقطة : « يا لك من طفل صغير كريه ! » .

وقلت لنفسى وانا أبارح الحجرة : « لقد انتهى الآن كل شيء بيننا ، واختصمنا الى الأبد » .

لم يتحدث احدنا الى الآخر حتى المساء • وشعرت انى مخطىء وخفت ان انظر اليه • ولم استطع ان اشغل نفسى بأى شىء طوال اليوم • ولكن فولوديا كان على العكس ، فقد أنجز دروسه على خير وجه وثرثر وضحك مع الفتيات بعد الغداء كعادته •

وحالما انتهى الدرس غادرت الحجرة • كنت فى حالة من الخوف والارتباك وتأنيب الضمير لا تسمح ببقائى منفرداً مع أخى • وبعد درس المساء فى مادة التاريخ تناولت كراسة مذكراتى واتجهت الى الباب • وعندما مررت بفولوديا عبست وحاولت اصطناع الغضب بالرغم من رغبتى فى الذهاب اليه ومصالحته ، ورفع فولوديا رأسه فى نفس تلك اللحظة ، ونظر الى بجسارة نظرة تكاد ان تكون ملموسة ، فيها رقة وسخرية • وتلاقت عينانا ، وعرفت انه يفهمنى ، بل تحققت أيضا انه يفهمنى • ومع ذلك فان شعوراً أقوى منى جعلنى أعرض عنه •

وقال بصوت ذى نغمة بسيطة للغاية ودون أقل انفعال :
« نيكولنكا ! لقد غضبت مدة كافية ، فاغفر لى ان كنت قد أسأت اليك » •

ومد لى يده •

وخيل الى ان شيئاً يرتفع فى صدرى ويعلو شيئاً فشيئاً حتى كاد ضغطه يخنقنى ولم يستمر ذلك غير لحظة • ثم طفرت الدموع

من عينى ، وشعرت بتحسن حالتى • وقلت وانا اضم على يده :
« انى آسف يا فولوديا » •

ولكن فولوديا نظر الى كأنه لم يستطع ان يفهم لماذا طفرت الدموع من عينى •

(٣٤)
ماشا

ومع ذلك لم يكن هناك تغير فى آرائى عن الأشياء أدعى الى دهشتى من ذلك الذى أدى بى الى الاقلاع عن النظر الى احدى فتياتنا كمجرد خادمة من الجنس الآخر ، والنظر اليها كامرأة قد يعتمد عليها فى سلامى وسعادتى الى درجة ما •

•• وبقدر ما أستطيع تذكر أى شىء مما مضى ، فانى لأتذكر «ماشا» فى بيتنا تلك التى لم أعرها أقل اهتمام الى أن كانت المناسبة التى غيرت نظرتى اليها تغيرا تاما • وهى التى سأذكرها الآن •

كانت ماشا فى الخامسة والعشرين عندما كنت فى الرابعة عشرة ، وكانت رائعة الجمال ، ولكنى أخشى أن أصفها ، أخشى ان يستحضر خيالى مرة أخرى الصورة الفاتنة الخادعة التى كانت عليها فى عهد ولعى بها • ولكى لا أدع مجالا لأى خطأ فحسبى أن

أقول ان بشرتها كانت بيضاء بدرجة غير عادية وكانت مفرطة النضارة ـ كانت امرأة ، وكنت في الرابعة عشرة .

في احدى تلك اللحظات ، حين يكون كتاب الدروس في يدك وتنهمك في المشي ذهابا وايابا في الحجرة محاولا ان تخطو مترسما شقوق الأرض أو في الترنم بنغمات متقطعة أو في تلطيخ حافة المائدة بالحبر أو في اعادة جملة ما بطريقة آلية ـ وقصارى القول في احدى تلك اللحظات التي يرفض فيها العقل ان يعمل ، ويسود فيها الخيال باحثاً عن الانطباعات ـ خرجت من حجيرة الدراسة وهبطت الى بسطة السلم دون هدف ما .

كان شخص ما ينتعل خفا ، يصعد القلبة التالية من الدرج ، وأردت .. بطبيعة الحال معرفة من هو ، ولكن صوت وقع الأقدام توقف فجأة وسمعت صوت ماشا تقول : « اليك عني ! ماذا تظن ماريا ايفانوفنا لو حضرت ؟ » .

وقال فولوديا هامسا : « ولكنها لن تحضر » ثم سمعت حركة ، كما لو كان فولوديا يحاول ان يمسك بظهرها .

« عجباً ، عجباً ، ارفع يديك يا نذل ! » وجرت ماشا مارة بي ، وكان منديلها كله في جانب واحد ، يظهر من تحته عنقها الأبيض الممتلىء .

لا أستطيع ان أشرح كيف دهشت لهذا الاكتشاف ، ولكن

دهشتي سرعان ما أفسحت الطريق للتعاطف على طفرة فولوديا . لم يكن ما فعله هو الذي دهشت له ولكن الذي أدهشني هو كيف خطر له ان يكون هذا العمل ساراً . وأخذت أشعر دون قصد بالرغبة في تقليده .

كنت أقضي ساعات في بعض الأحيان على تلك « البسطة » دون أن أفكر في أي شيء اصغى بانتباه مرهف لأقل حركة تأتي من أعلى . ولكنني لم استطع حمل نفسي على تقليد فولوديا ، بالرغم من انني كنت أرغب قبل كل شيء في الدنيا ان أفعل مثله . وكنت اختبىء أحيانا خلف الباب وأتسمع بشعور آثم من الحقد والغيرة ، الى اللغط الذي يجري في حجرة الخادمات . وساورني التفكير فيما يكون عليه موقفي ان صعدت الى الطابق العلوي وحاولت تقبيل ماشا كما فعل فولوديا ؟ وماذا أقول بانفي المفرطح وشعري المتمرد اذا سألتني عما أريد ؟ كنت اسمع ماشا أحياناً تقول لفولوديا : « يالك من طاعون ! لماذا تصر على مضايقتي ؟ اذهب عني أيها المحتال ! لماذا لا يأتي نيكولاي بتروفتش الى هنا مطلقاً ويمزح هذا المزاح السخيف ؟ » وهي لم تكن تعلم ان نيكولاي بتروفتش كان في تلك الآونة جالساً على السلم ويود ان يعطي أي شيء في الدنيا مقابل ان يكون في مكان ذلك الفولوديا المحتال .

لقد كنت خجولا بطبيعتي ولكن خجلي ازداد كثيراً لاقتناعي بقبح شكلي ، وانني لأعتقد انه لا يوجد شيء له هذا الأثر الحاسم

على مسلك الانسان مثل مظهره الشخصى • ولا يبلغ مظهره مبلغ اعتقاده فى جاذبية هذا المظهر أو عدم جاذبيته •

كانت كبريائى الذاتيــة أقوى من أن أعتــاد وضعى • فكنت أواسى نفسى لثقتى ان الوقت لم يحن بعد • اى اننى حاولت ازدراء جميع الملذات المستمدة من المظهر الــسار الذى كان يتمتع به فولوديا فى نظرى ، والذى كنت أحسده عليــه من كل قلبى • وأجهدت خيالى للوصول الى السلوان فى عزلتى الأبية •

(٣٥)
طلقة

صاحت وهى تلهث خائفة : « يا الهى ، بارود !! ماذا تفعل ؟ أتريد ان تحرق البيت فينهار ونموت جميعاً ؟ » •

وأمرت ميمى ان يبتعد الجميع ، وقد بدت عليها سمات من التصميم يعجز عنها الوصف • وسارت بخطوات واثقة الى الطلقـــة المتناثرة مزدرية بالخطر الذى يمكن ان ينجم عن انفجار لم يحن وقته بعد ، وأخذت تطأه بقدميها • وعندما ابتعد الخطر كما حسبت ، نادت ميخى وأمرته بالقــاء «البارود» فى أقصى مكان يستطيع أو الأفضل أن يلقيه فى الماء • وسوت قبعتها فى كبرياء ، وقصدت الى

قاعة الاستقبال ، وتمتمت قائلة : « ان العناية بهم تامة • هذا شئ غير منكور » •

وعندما جاء والدى من الجناح وصحبناه الى حجرة جدتى ، كانت ميمى جالسة هناك قرب النافذة وهى تنظر نحو الباب متوعدة وعليها سمات معينة من التكلف الغامض وكان فى يدها شئ ملفوف فى ورقة • خمنت انه الطلقة • وان جدتى قد عرفت كل شئ •

وفى حجرة جدتى ، كانت تجلس بجوار ميمى ، الخادمة جاشا التى كان يبدو من وجهها الأحمر الغاضب انها متكدرة الى حد كبير جداً • وكان الطبيب بلومنتال ، وهو رجل صغير به آثار من الجدرى ، يحاول عبثاً تهدئة جاشا بايماءات مبهمة بواسطة عينيه ورأسه •

وكانت جدتى تجلس مجانبة الى حد ما وقد نفد صبرها ، مرتدية ثوباً بسـيطاً • وهذه كانت دائمـاً دلالة على حالة نفسيـة مشئومة •

وسألها بابا وهو يقبـل يدها باحترام : « كيف حالك اليوم يا أماه هل نمت نوماً مريحاً ؟ » •

وأجابت جدتى فى لهجة يدل ظاهرها على أن سـؤال بابا لم يكن مناسبا بل كان مهيناً الى ابعد حد : « على ما يرام يا عزيزى ، وأعتقد أنك تعرف اننى دائماً بصحة جيدة » ثم تابعت حديثها ملتفتة الى جاشا : « حسن • أستحضرين لى منديلا نظيفاً ؟ » •

وأجابت جاشا مشيرة الى منديل من التيل الرفيع فى بياض الثلج موضوعاً على مسند المقعد : «لقد أعطيتك اياه» .

« ابعدى هذا المنديل القذر يا عزيزتى واعطنى آخر نظيفاً » .

وذهبت جاشا الى صوان الملابس ، وفتحت الدرج ، ثم صفقته ثانية صفقة شديدة اهتز لها جميع زجاج الحجرة . فنظرت جدتى الينا جميعاً نظرة تهديد واستمرت فى مراقبة حركات الخادمة بانتباه، وعندما ناولتها الأخيرة واحداً هو نفس المنديل فيما يبدو ، قالت جدتى : «متى تسحقين سعوطى ياعزيزتى » .

« سأسحقه عندما يتسع لى الوقت » .

« ماذا قلت ؟ » .

« سأسحقه اليوم » .

« اذا كنت يا عزيزتى غير راغبة فى البقاء فى خدمتى ، وكان يجب أن تقولى ذلك ، لأعفيتك منها منذ زمن طويل » .

وغمغمت الخادمة فى صوت خفيض قائلة : « لن أبكى ان أعفيتنى من الخدمة » .

وفى تلك اللحظة حاول الطبيب ان يغمز لها بعينه ، ولكنها نظرت اليه نظرة فيها من الغضب والتصميم ما جعله يرخى عينيه على الفور ، ويتشاغل بمفتاح ساعته .

وبينما كانت جاشا لا تزال تغمغم بعد مبارحتها الحجرة التفتت جدتى الى أبى قائلة : أترى ياعزيزى كيف يتحدث الناس الى فى قلب بيتى » .

وقال بابا الذى كان من الواضح انه تضايق كثيراً لهذا التصرف غير المنتظر : « اذا كنت تسمحين لى يا أمى فسأطحن لك سعوطك » .

« لا . أشكرك . انها وقحة ، لأنها تعرف أن أحداً غيرها لا يعرف كيف يسحق سعوطى مثلها » . وأضافت جدتى بعد برهة قليلة من الصمت : « اتعرف يا عزيزى ان اطفالك كانوا على وشك أن يحرقوا البيت اليوم ؟ » .

ونظر بابا الى جدتى مستفسرا نظرة ملؤها الاحترام .

والتفتت جدتى الى ميمى قائلة : « نعم . أتريه ؟ اليك ما كانوا يلعبون به » .

وتناول بابا الطلقة فى يده ، ولم يستطع ان يمسك عن الابتسام وقال : « انها طلقة يا أمى . وهى ليست خطيرة بالمرة » .

« انى شاكرة جدا لك يا عزيزى لتعليمك اياى ، غير انى تجاوزت كثيراً سن التعليم » .

وهمس الطبيب : « الهدوء ، الهدوء » .

والتفت ابى الينا مباشرة .

من أين حصلتم على تلك الطلقة ؟ وكيف تجاسرتم على اللهو بمثل هذه الأشياء ؟ » .

وقالت جدتى : « ليسوا هم الذين ينبغى ان تسألهم ، سل خادمهم ديالكا » .

ونطقت جدتى كلمة ديالكا بنوع معين من الاحتقار ، واضافت : « ما الذى يهتم به ؟ » .

وقالت ميمى : « لقد قال فولديمار ان كارل نفسه هو الذى أعطاه البارود » .

وتابعت جدتى حديثها قائلة : « انظر ، ما أطيبه ! وأين هو ذلك الديالكا ، وما اسمه ؟ أرسله الى هنا » .

وقال بابا : « لقد منحته أجازة لكى يقوم بزيارة » .

« ان ذلك لا يفى بالغرض البتة ، بل ينبغى ان يكون هنا كل الوقت ، والأطفال أطفالك وليسوا أطفالى ، وليس لى الحق فى نصحك لأنك أحكم منى عقلا » ثم تابعت حديثها قائلة : « ويبدو ان الوقت قد أزف لتعيين مدرس خاص لهم لا خادماً ، فلاحاً ألمانياً ـ نعم فلاحا غبياً ، لا يستطيع تعليمهم شيئاً الا العادات السيئة وأغانى التيرول .

وانى لأسألك هل الأطفال حقيقة بحاجة الى انشاد الأغانى التيرولية؟ ومع ذلك فان أحدا لا يفكر فى هذا الآن ، فأنت تستطيع ان تفعل ما تشاء » .

وكانت كلمة « الآن » تعنى انهم محرومون من الأم ، مما أيقظ فى قلب جدتى ذكريات محزنة فأسدلت عينيها على علبة السعوط والصورة التى عليها ، وراحت فى تفكير عميق .

وأسرع أبى يقول : « لقد كنت أفكر فى ذلك منذ مدة طويلة ، وأردت أن أسألك النصيحة يا أمى . هل تسأل سان جيروم الذى يعطيهم الآن دروس الصباح ؟ » .

وقالت جدتى ، ولم يكن قولها بلهجة الساخط التى تحدثت بها من قبل : « ان سان جيروم مدرس خاص على الأقل ، ويعرف كيف ينبغى ان يتصرف أبناء « البيوتات الطيبة » وليس خادماً تافهاً لا يصلح لشىء الا ان يأخذهم للنزهة .

وقال أبى : « سأتحدث معه غدا » .

والواقع ان كارل ايفانتش تسلم مكانه بعد يومين من هذه المناقشة الى الشاب الفرنسى الأنيق .

(٣٦)

قصة حياة كارل ايفانتش

•• فى ساعة متأخرة من الليلة السابقة على رحيل كارل ايفانتش عنا الى الأبد ، وقف بجوار الفراش فى عباءته الفضفاضة وغطاء رأسه الأحمر ، منحنياً على حقيبته يحزم أمتعته بعناية •

كان موقف كارل ايفانتش ازاءنا فى المدة الأخيرة بنوع خاص جافاً : كان يبدو عليه انه يتحاشى كل اتصال بنا • وحين دلفت آنئذ الى حجرته رمقنى كذلك بنظرة كئيبة واستمر فى عمله • واضطجعت على فراشى ، ولكن كارل ايفانتش الذى كان يحرم هذا فى المرات السابقة تحريما قاطعا ، لم يقل لى شيئاً قط ، وكان تفكيرنا فى انه لن يمنعنا بعد الآن أو يزجرنا ولا يهتم بنا الآن فى شىء ، تذكرة قوية بقرب الانفصال • كنت آسفاً لانتهاء حبه لنا فأردت ان أعبر له عن شعورى فقلت وانا مقبل عليه : « اسمح لى بمساعدتك يا كارل ايفانتش » فنظر الى كارل ايفانتش ثم تحول عنى ثانية ، ولكنى لم أقرأ فى نظرته العابرة التى ألقاها على ، عدم المبالاة الذى كنت أفسر به فتوره ، بل كان حزنا حقيقيا •

وقال وهو يشد قامته ويقف منتصبا كل الانتصاب ويتنهد

بحزن : « ان الله يرى كل شىء ، ويعلم كل شىء ، فلتكن مشيئته الصالحة فى كل شىء » ، ثم راح يقول حين لاحظ تعبير العطف الخالص الذى انطوت عليه نظرتى اليه : « نعم ، يا نيكولنكا ، ان نصيبى هو ان أكون تعيساً من طفولتى الى قبرى ، لقد كنت أجازى دائماً بالشر لقاء ما أفعله من خير للناس » ثم قال وهو يشير الى السماء : « ان ثوابى ليس هنا ، ولكنه سيكون هنالك » ••• وختم حديثه بقوله : « لو انك عرفت تاريخى فقط ، وكل ما صادفته فى هذه الحياة !! لقد كنت اسكافاً ، وكنت جندياً ، وكنت هارباً من الخدمة العسكرية ، وكنت عاملا فى مصنع ، وكنت مدرساً ، أما الآن فأنا لا شىء ، مثل ابن الانسان ، لا أجد مكاناً أضع فيه رأسى » ثم أغمض عينيه وغاص فى مقعده •

وعندما رأيت حالة كارل ايفانتش العقلية المؤثرة التى صرح فيها بأعز أفكاره ليفرج عن نفسه دون اكتراث بالسامع ، جلست على الفراش فى صمت ، دون ان احول عينى عن وجهه الحنون •

« انك لست طفلا ، وتستطيع أن تدرك ، وسأقص عليك قصتى وكل ما احتملته فى هذه الحياة • وستذكر يوما ما ، الصديق القديم الذى أحبكم حبا جما ايها الأطفال » •

وأسند كارل ايفانتش كوعه على المنضدة القريبة منه ، وتناول قبضة من السعوط ، وأدار عينيه الى السماء ، وبدأ يحكى قصته بذلك الصوت المعتدل الخاص الذى اعتاد ان يملى به علينا •

•• وقال في تأثر عميق : « لقد كنت تعيساً حتى قبل ان أولد » •

ولما كان كارل ايفانتش قد روى لي قصة حياته أكثر من مرة بنفس العبارات ، ودائما بنفس النغمات ، فانني آمل أن أستطيع اعادة روايتها كلمة بكلمة ، فيما عدا اخطاءه في اللغة الروسية بطبيعة الحال• وسواء أكانت هذه قصة حياته حقيقية ، أم من تصوير خياله الذي توهجه أثناء حياته المنعزلة في بيتنا ، أم أنه اقتصر على تلوين الوقائع الحقيقية ، بالحوادث المتخيلة ، فليس في استطاعتي حتى اليوم القطع بشيء • فهو أولا روى قصته بشعور قوي ، وتتابع منتظم مما يكون الأدلة الأساسية للصدق ولا يسمح للمرء بالشك فيها ، ومن ناحية أخرى ، فان نفس الاسراف في التفاصيل الشاعرية عن تاريخه تميل الى زيادة الشكوك •

« تجري في عروقي دماء كونت سومربلات النبيلة ، وكان زوج أمي (وكنت أدعوه بابا) مزارعا في أرض الكونت سومر بلات ، ولم يستطع ان ينسى مطلقا عار أمي ، ولم يحبني • وكان لي أخ صغير يدعى جوهان ، وأختان ، ولكني كنت غريبا في وسط أسرتي • واعتاد « بابا » حين كان جوهان يقترف حماقة ان يقول : « لا أجد مطلقا لحظة هدوء مع ذلك الطفل ، كارل ! » وكنت أعنف وأعاقب • وعندما كانت اختاي تغضبان ، الواحدة من الأخرى ، كان بابا يقول : « لن يصبح كارل ولدا مطيعاً البتة » ثم أعنف وأعاقب •

« ولم يحبني أحد غير أمي الطيبة دون غيرها • وكثيراً ما كانت تقول لي : « تعال هنا يا كارل الى حجرتي » ثم تقبلني خلسة وتقول : « مسكين كارل ، لا يحبك أحد ، ولكني لا أعدل بك واحدا ، كائناً من كان ، ان شيئاً واحداً فقط تطلبه منك امك ، هو ان تكون دائماً رجلا شريفا ، فلا يتخلى الله عنك ! وحاولت أن أكون كذلك •

وعندما بلغت الرابعة عشرة ، واستطعت ان اتنقل بالمواصلات وحدي ، قالت أمي « لبابا » ان كارل أصبح ولدا كبيرا الآن يا جوستاف فماذا أنت فاعل ؟ » وقال بابا : « لا أدري » ، وقالت أمي : « فلنرسله الى المدينة ، الى هر شولتز ، ليصبح اسكافا ، فقال بابا : « حسن جدا » وعشت في المدينة ست سنوات وسبعة اشهر ، مع معلمي الاسكاف ، واحبني معلمي ، وقال مرة : « ان كارل صانع ماهر ، وسيكون قريبا صانعاً بأجر يومي ، ولكن الانسان يفكر والله يدبر ، وفي سنة ١٨٩٦ صدر الأمر بالتجنيد لكل من يصلح للخدمة العسكرية ، وبأن يذهب الى المدينة كل من كانوا في الثامنة عشرة الى الواحدة والعشرين •

وقدم بابا وأخي جوهان الى المدينة ، وذهبا معا لسحب النصيب «القرعة» لمعرفة من سيكون جنديا ومن لا يكون • وسحب جوهان رقما منحوساً : فكان عليه ان يصبح جنديا ، وسحبت انا رقماً موفقاً ،

فلم أكن مضطراً أن أصبح جنديا ، وقال بابا : « ان لى ولدا واحداً ولا بد لى أن افارقه !! » .

تناولت يده وقلت : « لماذا قلت ذلك يا بابا ؟ تعال معى لأقول لك شيئاً » وجاء بابا . جاء بابا وجلسنا سويا الى مائدة صغيرة فى الحانة . وقلت : « احضر لنا كأسين من الجعة » فقدمنا لنا ، وشربنا معا ، وكذلك شرب جوهان .

وقلت : « لا تقل يا بابا ان لك ولدا واحداً ، وانك لا بد ان تفترق عنه ، ان قلبى يريد ان يقفز خارج صدرى عندما اسمع ذلك .. ان أخى جوهان سوف لا يذهب الى الجيش : انا الذى سأصبح جنديا ، فلا يحتاج هذا أحد الى كارل ، فكارل هو الذى سيصبح جنديا » .

وقال لى بابا : « انك رجل شريف النفس يا كارل » ، ثم قبلنى . وأصبحت جنديا .

(٣٧)

متابعة ما تقدم

.. تابع كارل ايفانتش حديثه قائلا : « كان ذلك الوقت عصيباً يا نيكولنكا ، اذ كان نابليون يعيش فى ذلك العهد ، وأراد أن يقهر ألمانيا فدافعنا عن بلادنا لآخر قطرة من دمائنا ! .

وكنت فى «أولم» وفى «اوسترلتز» ، وكنت فى «واجرام» .

وسألته وأنا أتأمله فى دهشة : وهل قاتلت أنت أيضا ؟ وهل قتلت رجالا كذلك ؟ » .

وللحال هدأ كارل ايفانتش فكرى من تلك الناحية .

« حدث مرة أن سقط جندى فرنسى من رماة القنابل وراء زملائه وانقض على الطريق فأسرعت اليه ببندقيتى وكنت على وشك قتله ، ولكن الرجل الفرنسى رمى بندقيته وصاح طالباً الرحمة ، فأخليت سبيله (١) .

وفى واجرام طاردنا نابليون الى الجزيرة ، وطوقنا بحيث لم نستطع الفرار من أى مكان ، وظللنا ثلاثة أيام دون مؤن ، واقفين فى الماء حتى ركبنا .

فلم يأخذنا الوغد كأسرى حرب ، ولم يتركنا نهرب ! .

« وفى اليوم الرابع ، اقتادونا الى قلعة ، فحمدا لله على ذلك . وكنت ارتدى سروالا أزرق ، وحلة عسكرية من قماش جيد ، وكان معى خمسة عشر ريالا وساعة فضية ، وهدية من « بابا » فأخذها منى جميعاً جندى فرنسى . وبقى معى لحسن الحظ ثلاث قطع ذهبية

(١) قالها بالفرنسية .

من البندقى كانت أمى قد خاطتهـا بداخـل صـدريتى فلم يعثر عليها أحد •

ولم أرغب فى البقاء طويلا بالقلعة ، وصممت على الفرار • وفى أحد الأعياد الكبرى قلت للجاويش الذى يقوم على حراستى : « سيدى الجاويش ، انه احتفال مهيب ، وأود مشاهدته ، فأرجو ان تحضر زجاجتين من نبيذ ماديرا لنشربهما معا ، فقـال الجاويش : « حسن جدا ، سأفعل » وعندما أحضر الجـاويش الماديرا وشرب كل منا كأسـاً ، امسكت يده وقلت له : « أليس لك يا سـيدى الجـاويش أب وأم ؟ » فأجاب : « نعم ، يا سـيد موير » فقلت : « آه يا سيدى الجاويش ، ان أبى وأمى لم يريانى منذ ثمان سنوات ، ولا يعرفان اذا كنت حياً أم ان عظامى راقدة فى الأرض الرطبة ! ان لدى قطعتين من البندقى كانا فى صـدريتى ، خذهمـا ودعنى أذهب ، قدم لى مكرمة ، وستصلى أمى لله القدير من أجلك طوال حياتها » •

فأجاب الجاويش : « انك رجل فقير وسوف لا آخذ نقودك ، ولكنى سأساعدك فعندما أذهب لأنام ، اشتر دلوا من «البراندى» للجنود فينامون ، وسوف لا أراقبك » •

•• كان رجلا طيباً • واشتريت دلوا من البراندى • فلما ثمل الجنود لبست حذائى ومعطفى العسكرى القـديم ، وخرجت من الباب ، وقصدت الى الحائط ، على أمل القفز من فوقه ، ولكن كان

هناك ماء ، ولا أريد اتلاف آخر ما بقى لى من الملابس ، فذهبت الى البوابة •

وشرب الجاويش كأساً من الماديرا وقال : « اننى يا سيد موير أحبك وأعطف عليك الى أقصى حد ، ولكنك سجين ، وأنا جندى » ثم ضغطت على يده وقلت « يا سيدى الجاويش !! » •

كان الديدبان يسير جيئة وذهاباً ببندقيته ونظر الى وسأل فجأة : « من يسير هناك ؟ ولكنى لم أجب • وسأل للمرة الثانية : « من هناك ؟ فلم أحر جواباً • وسأل للمرة الثالثة : « من هناك ؟ فأطلقت ساقى للـريح ! واندفعت الى المـاء ، وخرجت من الجانب الآخر ، وانطلقت أجرى •

ظللت أجرى طوال الليل فى الطريق ، ولكن عندما أخذ يتبلج الفجر خفت ان يعرفونى فاختبأت وراء نبات الجودار المرتفع ، ثم ركعت على الأرض وشبكت يدى وشكرت أبانا السماوى لانقاذه اياى ، ثم رحت فى النوم بنفس هادئة •

وصحوت فى المساء ، فتابعت سيرى ، وبلغتنى عربة نقل المانية ضخمة ذات حصانين أسودين • كان يجلس فى العربة رجل حسن الملبس يدخن غليونا ونظر الى ، فسرت متباطئاً لكى تسبقنى العربة ، ولكنى عندما أبطأت السير ، تباطأت العربة أيضاً ، وتفرس فى الرجل ، فأسرعت السير ، ففعلت العربة كذلك • وأخذ الرجل يتفرس فى

وجهي طوال الوقت ، وجلست على جانب الطريق فأوقف الرجل جواده وأخذ يتطلع الي ، وقال : « أنت أيها الشاب ، الى أين تذهب في هذه الساعة المتأخرة ؟ » فقلت : « انني ذاهب الى فرانكفورت ».. فقال : « أركب في عربتي ، لدي متسع ، وسآخذك الى هناك ، وسألني عندما جلست بجانبه : لماذا لا تحمل معك شيئا ؟ ، ولماذا لم تحلق ذقنك ؟ ولماذا تلوثت ملابسك بالطين ؟ فقلت : « انني رجل فقير ، وأريد أن أشتغل بالأجر كعامل ، أما ملابسي فقد تلوثت بالطين لأنني سقطت في الطريق . فقال الرجل : «انك لاتصدقني القول ، أيها الشاب ، فالطريق الآن جاف » . ولذت بالصمت .

وقال الرجل الطيب : « أذكر لي كل الحقيقة .. من أنت ، ومن أين أتيت ؟ ان شكلك يعجبني ، فان كنت أمينا فسأساعدك » .

وذكرت له كل شيء ، فقال : « حسن جدا أيها الشاب ، تعال معي الى مصنع الحبال ، فأعطيك عملا وملابس ونقودا ، وتعيش معي » .

فقلت : « حسن جدا » .

وذهبنا الى مصنع الحبال ، فقال الرجل لزوجته : « هاهو ذا شاب حارب في سبيل بلاده ، وهرب من الأسر ، وهو لا يملك بيتا ولا ملابس ولا خبزا وسيعيش معي فاعطه ملابس بيضاء من الكتان وأطعميه .

وعشت في مصنع الحبال عاما ونصف عام ، وأولع بي رئيسي

ولعا شديدا حتى انه لم يدعني أتركه ، وكنت آنئذ رجلا وسيما ، صغير السن ، طويل القامة ، لي عينان زرقاوان وأنف روماني ، وكانت السيدة (ل) زوجة رئيسي (ولا أستطيع ذكر اسمها) امرأة صغيرة جميلة ووقعت في حبي .

وعندما رأتني قالت : « بماذا تدعوك أمك ياسيد موير ؟ فأجبتها ، كارلتشن فقالت : « اجلس هنا بجانبي ياكارلتشن » .

وجلست بجانبها فقالت : « قبلني ياكارلتشن ! » .

وقبلتها فقالت انني أحبك ياكارلتشن كثيرا جدا ، حتى انني لا أقوى على احتمال هذا الحب طويلا ثم ارتجفت من قمة رأسها الى أخمص قدميها .

وهنا توقف كارل ايفانتش طويلا ، وأدار عينيه الزرقاوين الحانيتين الى أعلى وهز رأسه وأخذ يبتسم كما يفعل الناس حين يقعون تحت تأثير ذكريات سارة .

ثم بدأ حديثه ثانية وهو يجلس على كرسيه ذي المسندين ، ويشد رداءه البني حول جسمه ، ويشير الى صورة المخلص ، المطرزة على الخيش المعلقة فوق فراشه قائلا : « لقد لقيت في حياتي الشيء الكثير من الخير والشر ، ولكنه سبحانه وتعالى يشهد أن أحدا لا يستطيع القول بأن كارل ايفانتش كان رجلا غير أمين ، فلم أقابل عطف السيد (ل) الذي شملني به ، بالنكران الأسود المجحيل ،

فصممت على الهرب . وفي المساء ، عندما أوى الجميع الى فراشهم ، كتبت لرئيسي خطاباً وضعته بحجرتي على المائدة ، وأخذت ملابسي ، وثلاثة ريالات ، ومشيت دون ضجة الى الشارع ، ولم يرني أحد ، وسرت قدماً في الطريق .

(٣٨)

تتمة القصة

لم أكن قد رأيت أمي منذ تسع سنوات ، ولم أعرف ما اذا كانت حية أم ان عظامها راقدة في الأرض الرطبة ، وعدت الى مسقط رأسي ، وعندما بلغت المدينة سألت عن مكان جوستاف موير الذي كان يعمل مزارعاً عند الكونت سومر بلات ، فقالوا لي ان الكونت سومر بلات قد توفي ، وان جوستاف موير يسكن في الشارع الرئيسي ويقتني حانوتاً للمشروبات الروحية ، فارتديت صدريتي الجديدة ، ومعطفاً جميلا (كان هدية من صاحب المصنع) وفرشت شعري جيدا وذهبت الى حانوت بابا للمشروبات الروحية وكانت أختي مارينشن جالسة في الحانوت ، فسألتني عما أريد فقلت : أيمكنني الحصول على كأس من الخمر ؟ فقالت : « أبي ، ان شخصاً يطلب كأساً » وقال بابا : « قدمي للشاب كأساً منها » وجلست الى المائدة وشربت كأسي ، ودخنت غليوني ، وأخذت انطلع الى بابا

ومارينشن ، وجوهان الذي دخل أيضاً الحانوت . وقال لي بابا أثناء الحديث : « لعلك تعرف أيها الشاب مكان جيشنا الآن ؟ فقلت : « انني قادم أنا نفسي من الجيش وهو بالقرب من فينا » ، فقال أبي : « ان ابننا كان جنديا ، وقد مضت تسع سنوات منذ ان كتب لنا ، ولا نعرف اذا كان حياً أم ميتاً ... ان زوجتي دائمة البكاء عليه » ونفخت الدخان من غليوني وقلت : « ما اسم ابنكم ، وفي أية فرقة كان يعمل ؟ فلعلني أعرفه ، فقال أبي : « ان اسمه كارل موير ، وكان يعمل بفرقة القناصة النمسوية . وقالت اختي مارينشن : « كان طويلا وسيما مثلك » .

فقلت : « انني أعرف ابنكم كارل . فقال والدي فجأة : « أماليا ! تعالى الى هنا ، يوجد شاب يعرف ابننا كارل . وتأتي أمي العزيزة من الباب الخلفي ، وعرفتها لتوي ، وقالت وهي تنظر الى وقد استحالت الى شحوب شديد وأخذت ترتجف فقالت : « أتعرف ابننا كارل ؟ » فقلت : « نعم ، لقد رأيته . ولم أجرؤ على رفع عيني اليها ، كان قلبي يريد أن يقفز ، وقالت أمي : « ابني كارل على قيد الحياة ؟ شكراً لله ... أين هو حبيبي كارل ؟ سأموت في سلام لو رأيته مرة أخرى ، ولدي المحبوب ، ولكنها ليست مشيئة الله ، ثم أخذت تنتحب ، ولم أقو على تحمل هذا فقلت : « امي ، انا ابنك كارل ، فارتمت بين ذراعي » .

وأغمض كارل ايفانتش عينيه ، وارتعشت شفتاه ، وكرر

عبارته ، وهدأ نوعاً ما ومسح الدموع الكبيرة التي هطلت على وجنتيه .

« ولكن لم يرض الله ان أقضي آخر أيامي في بلادي ، كان مصيري أن أكون تعيساً وطاردني سوء الطالع في كل مكان ، فلم أقض في وطني غير ثلاثة أشهر ، وفي أحد أيام الآحاد كنت في مقهى وابتعت ابريقاً من الجعة وأخذت ادخن غليوني وأتكلم في السياسة مع أصدقائي، عن الامبراطور فرانز ، وعن نابليون والحرب وكان يدلي كل واحد برأيه . وكان يجلس بالقرب منا سيد يرتدي معطفاً رمادياً ، ويشرب القهوة ، ويدخن غليوناً ولا ينطق بكلمة . وعندما اعلن الحارس الليلي عن الساعة العاشرة تناولت قبعتي وعدت الى المنزل . وفي نحو منتصف الليل طرق الباب شخص ما ، فاستيقظت وسألت : « من هناك ؟ » فأجاب : « افتح الباب » . قلت : « اخبرني من أنت فأفتح لك » ، فقال : « افتح باسم القانون » ، وفتحت الباب ، وكان هناك جنديان يحملان بندقيتين يقفان بالباب ، ودخل الغرفة ذلك الرجل الغريب ذو المعطف الرمادي ، الذي كان يجلس بجوارنا في المقهى .. لقد كان جاسوساً . وقال الجاسوس « تعال معي » قلت : « حسن جدا » فلبست حذائي وسروالي ، وحمالتي وأخذت أتجول ، في الغرفة ، وكنت حانقاً في صميم قلبي ، وقلت لنفسي : « انه وغد » . وعندما وصلت الى الجدار حيث كان السيف معلقاً ، قبضت على السيف فجأة

وقلت : « انك جاسوس ، دافع عن نفسك ! » وناولته ضربة من يمين وضربة من شمال ، وواحدة على الرأس ، وسقط الجاسوس، وتناولت حقيبتي وكيسي وقفزت من النافذة ، وذهبت الى « ايمز » وهناك تعرفت بالجنرال سازين فمال الي ، واستخرج لي من السفير جواز مرور وصحبني معه الى روسيا لتعليم اطفاله . وعندما توفي الجنرال سازين ، استدعتني والدتك اليها وقالت لي : « انني أعهد اليك يا كارل ايفانتش بأطفالي ، فلتحبهم ، وسوف لا أعزلك ، وسأعنى، لك شيخوخة ميسرة ! » ولقد ماتت الآن ، وأصبح كل شيء منسياً . وبعد عشرين عاماً من الخدمة ، يجب أن أخرج الى الشارع في سني المتقدمة للبحث عن كسرة من خبز جاف : ان الله يرى ويعلم ، ولكن ارادته الصالحة ، غير انني آسف لأجلكم يا أطفالي . وختم كارل ايفانتش قصته بأن جذبني اليه من يدي ثم قبلني على رأسي .

(٣٩)

درجات سيئة

.. انتهى عام الحداد ، وتخلصت جدتي من حزنها نوعا ما ، وأخذت تستقبل الضيوف بين وقت وآخر ، وبخاصة من الأطفال والأولاد والفتيات ممن في مثل أعمارنا .

وفى اليوم الثالث عشر من ديسمبر ، وهو عيد ميلاد ليوبوتشكا ، وصلت قبل الغداء ، الأميرة كورناكوفا وبناتها فلاجينا وسونتشكا والينكا جراب ، واخوان صغيران من آل أيفين .

ومع اننا كنا نسمع الحديث والضحك والجرى فى قاعة الاستقبال من تحتنا ، فاننا لم نستطع الاشتراك معهم حتى تنتهى دروسنا الصباحية . وكان جدول المواعيد بحجرة الدراسة ينص على ان : « الاثنين من الثانية الى الثالثة ، مدرس التاريخ والجغرافيا ، وكان مدرس التاريخ هو الذى نضطر الى انتظاره والاستماع اليه ، وتحيته تحية الانصراف قبل ان نصبح أحراراً . وكانت الساعة الثانية وعشرين دقيقة ، ولكن لم تكن هناك أية اشارة تدل على حضوره ، حتى فى الشارع الذى كنت أراقبه برغبة قوية فى ألا أراه البتة .

وقال فولوديا وهو يرفع عينيه لحظة من كتاب سمارجدوف الذى يعد منه دروسه : « أظن ان ليبدوف سوف لا يأتى اليوم » .

وأضفت قائلا فى لهجة اليائس : « أرجو من الله ألا يأتى ، لأننى لا أعرف شيئاً .. ولكن ها هو ذا » .

ونهض فولوديا وتقدم من النافذة .

وقال : « لا ، ليس هو ، انه سيد آخر » ثم أضاف وهو يتمدد على الأرض ويحك رأسه ، على عادته حين يستريح دقيقة

من العمل : « اذا لم يحضر حتى الساعة الثانية والنصف ، فيمكننا أن نسأل سان جيروم ان يحفظ كراساتنا » .

وقلت وأنا أتمدد أيضاً وأهز كتاب كايدانوف فوق رأسى بكلتا يدى : « ولماذا يأتى اطلاقاً » .

ولحاجتى الى أى شىء أعمله ، فتحت الكتاب فى موضع الدرس وبدأت أقرأه ، وكان الدرس طويلا صعباً ، ولم أفهم منه شيئاً ، وتحققت من اننى سوف لا أنجح فى حفظ أى شىء ما دمت فى تلك الحالة من الانفعال التى يرفض فيها العقل التركيز على أى موضوع .

وبعد آخر درس لنا فى التاريخ (وكان يبدو لى انه أبعد الموضوعات عن الفهم وأدعاها الى الضجر) شكا منى ليبدوف الى سان جيروم ، وأثبت درجتين فى تقريرى ، وكان ذلك يعتبر تقديراً سيئاً جداً ، وأخبرنى سان جيروم آنئذ اننى لو حصلت على أقل من ثلاث درجات فسيكون عقابى صارماً والآن وقد أصبح الدرس الثانى قريباً ، فاننى أعترف اننى كنت أشعر بخوف شديد .

وجرفتنى قراءة الدرس الذى لم أحفظه بحيث سبب لى صوت انتقال النعال بحجرة الاستقبال فزعا مفاجئا ، ولم يكد يتسع وقتى لرؤية ما حولى قبل ان يظهر عند باب المدخل ذلك الوجه المشوه بالجدرى ، الذى أبغضه كل البغض ، وجه ذلك المدرس الثقيل

ذى الهيئة المألوفة ، والمعطف الأزرق الذى تضمه بإحكام الأزرار التقليدية .

وضع قبعته على عتبة النافذة ببطء ، ومذكراته على المنضدة ، وثنى ذيل معطفه جانباً (كأن هذه العمليـة ضرورية جداً) ثم جلس فى مكانه وهو يلهث وقال وهو يدعك احدى يديه التى تنضح عرقاً باليد الأخرى : « والآن يا سادة فلنستعرض أولا ما رأيناه فى الدرس الـسابق ، وحينئذ أحاول اطلاعكم على الحوادث اللاحقة فى العصور الوسطى .

وكان معنى ذلك : « أسمعنى درسك » .

وبينما كان فولوديا يجيبه بسهولة وثقة نتيجة لمعرفته بموضوعه معرفة تامة ، خرجت على غير هدى مصعداً على السلم ، ولما لم يكن من المسموح لى بالهبوط ، فقد كان من الطبيعى جداً ، ان أجد نفسى على « بسطة السلم » ، دون أن أنتبه اليها ، واحتل موقفى المعتاد الملائم خلف الباب ، جرت ميمى الى فجأة ، وهى التى كانت دائماً سبب نحسى ، وقالت وهى تتفرس فى متوعدة ، ثم فى باب حجرة الخادمات ، ثم تتفرس فى مرة أخرى : « انت هنا ؟ » .

وشعرت شعوراً قوياً بذنبى ، لأننى لم أكن بحجرة الدراسة ، ولأننى كنت فى مكان ليس فيه أى عمل . ولذلك اسكت لسانى ، واستعرضت فى شخصى أقوى طابع مؤثر للصبر . وقالت ميمى :

« هذا عمل سيىء للغاية ! ماذا تفعل هنا ؟ » وبقيت صامتاً ... وتابعت حديثها وهى تضرب بقبضتها على سياج السلم قائلة : « لا يمكن السكوت على ذلك ، سأخبر الكونتيسة عن كل هذا » .

.. كانت الساعة الثالثة الا خمس دقائق حين عدت الى حجرة الدراسة ، وكان المدرس يشرح الدرس التالى لفولوديا كأنه نسى حضورى . وعندما انتهى من عرضه أخذ يجمع مذكراته ، ودخل فولوديا الحجرة الأخرى لاحضار بطاقة الدروس وساورتنى فكرة هدأت من انفعالى وهى ان كل شىء قد انتهى ، واننى أصبحت منسيا .

ولكن المدرس التفت نحوى فجأة وعلى شفتيه شبه ابتسامة ماكرة :

وقال وهو يفرك يديه : « أرجـــو ياسيدى أن تكون قد ألممت بدروسك » .

فأجبت : « نعم يا سيدى » .

فقال وهو يعتدل على مقعده ويتأمل قدميه باهتمام : « تستطيع اذن أن تذكر لى شيئا عن حملة سان لويس الصليبية » . ثم قال وهو يرفع حاجبيه ويشير بأصبعه الى قارورة الحبر : « اخبرنى أولا عن الأسباب التى حملت الملك الفرنسى على أخذ الصليب » ثم أضاف وهو يقوم بحركة برسغه كمن يحاول ان يمسك بشىء ما : « ثم يمكنك توضيح الخصائص العامة لتلك الحملة » ثم قال وهو يضرب بمذكراته على الجانب الأيسر للمنضدة : « وأخيراً أثر هذه

الحملة الصليبية على دول أوروبا عامة ، وعلى مملكة فرنسا خاصة ، ثم ختم اسئلته بضرب الجانب الأيمن من المنضدة ، وامالة رأسه الى اليمين .

وبلعت لعابى مرات قليلة وسعلت ، وأحنيت رأسى الى جانب ، وظللت صامتاً ثم أخذت أنقر على ريشة موضوعة على المنضدة وأنتفها قطعاً ، عاكفاً على صمتى .

وقال المدرس وهو يمد يده : « أعطنى هذه الريشة من فضلك ، انها تصلح لشىء ما ... » .

« حسن يا سيدى » .

« الملك — لو — كان — سان لويس — كان — قيصراً طيباً وحكيماً » .

« ماذا يا سيدى ؟ » .

« قيصر ... فكر فى الذهاب الى أورشليم ، ونقل مقاليد الحكم الى أمه » .

« ماذا كان اسمها ؟ » .

« ب — ب — لانكا » .

« ماذا يا سيدى ؟ بولانكا » (١) .

---

(١) اسم لنوع معين من الجياد لونها اصفر باهت .

وضحكت ضحكة ملتوية مغتصبة .

وسألنى : « أتعرف شيئاً آخر غير ذلك ؟ » .

لم يبق لى الآن شىء أفقده ، ولذلك سعلت وأخذت أقول أى لغو من الكلام يطرأ على عقلى ، وأخذ المدرس الذى جلس صامتاً ينفض التراب من على المنضدة بالريشة التى أخذها منى ، ويتفرس فيما وراء أذنى مباشرة ، ويقول مردداً : « حسن ، حسن جداً يا سيدى » وكنت مدركاً انى لا أعرف شيئاً ، وانى لا أعبر عن نفسى البتة كما ينبغى ، وقد أزعجنى بدرجة فظيعة ان أجد المدرس لا يستوقفنى أو يصحح لى .

وكرر كلماتى متسائلا : « لماذا فكر فى الذهاب الى أورشليم ؟ » .

وقلت : « لأنه — لكى — بقصد ان — لأنه » — ثم أخذت أتخبط يائساً ، ولم استطع قول كلمة أخرى . وشعرت ان هذا المدرس المؤذى ، لو انه أمسك عن الكلام عاماً كاملا وتفرس فى وجهى متسائلا ، لبقيت عاجزاً عن التفوه بكلمة أخرى وحدجنى المدرس بنظرة دامت ثلاث دقائق ، ثم ظهر على وجهه تعبير عن الأسف العميق ، ثم قال لفولوديا الذى دخل الغرفة لتوه ، فى نغمة جادة :

« ناولنى كراسة السجل من فضلك » .

وناوله فولوديا الدفتر ، ووضع البطاقة بعناية بجانبه .

وفتح المدرس الكراسة ، وغمس ريشته بحرص وكتب بخطه الجميل خمس درجات لفولوديا تحت عنوان المحفوظات والسلوك ، ثم ترددت ريشته فوق العمود الذي سجلت فيه درجاتي ، ونظر الى ، ثم نفض الحبر واستغرق فى التفكير .

وللحال تحركت يده حركة غير ملحوظة وظهر هناك رقم واحد رسم بخط جميل ، ونقطة وقف ، ثم حركة أخرى فى عمود السلوك ظهر رقم واحد ونقطة وقف .

ونهض المدرس بعد أن أقفل كراسة السجل واتجه الى الباب كأنه لم يلاحظ نظرتى المعبرة عن اليأس والتوسل والعتاب .

وقلت : « ميخائيل اللاريونوفتش » .

ولما كان قد عرف لساعته ماذا أردت أن أقول ، أجابنى : « لا ، ليست هذه هى طريقة الدراسة ، اننى لا أتقاضى أجرى دون مقابل » .

وانتعل المدرس خفية وارتدى معطفه الصوفى وعقد ربطة رقبته بعناية كبرى ، كأن أى شخص يستطيع أن يعنى بأى شىء بعد الذى حدث لى !! انها حركة من الريشة بالنسبة اليه ، ولكنها أسوأ كارثة بالنسبة لى .

واستفسر سان جيروم وهو يدخل الحجرة : « هل انتهى الدرس ؟ » .

« نعم » .

« هل مدرسكما راض عنكما ؟ » .

وقال فولوديا : « نعم » .

« ما الدرجة التى حصلت عليها ؟ » .

« خمس درجات » .

« ونيكولاس ؟ » .

ولم أحر جوابا .

وقال فولوديا : « أظنه حصل على أربع درجات » .

كان يعرف ضرورة انقاذى ولو لذلك اليوم فقط ، فان كان لا بد ان أعاقب ، فلا يكون في ذلك اليوم حيث يوجد بالمنزل ضيوف .

.. اعتاد سان جيروم طريقة خاصة ، فهو يصدر كل ما يقوله بكلمة « هيا » فقال :

« هيا يا سادة ، أصلحوا من هندامكم لكى نهبط الى الطابق السفلى » .

(٤ •)

المفتاح الصغير

•• ما كدنا نهبط الى الطابق السفلى ونحيى ضيوفنا حتى أعلن عن الغداء • وكان بابا فى حالة معنوية عالية ، (كان حظه مواتياً فى لعب الورق آنئذ) وأهدى ليوشكا طاقماً فضياً ، وتذكر بعد الغداء ان يمسكنه أيضاً علبة « ملبس » كان يريد اهداءها لها •

وقال لى بابا : « لماذا أرسل خادماً ؟ من الخير أن تذهب أنت يا كوكو ، والمفاتيح على المكتب الكبير فى المحارة كما تعرف ، فخذها وافتح الدرج الثانى الى اليمين بأكبر مفتاح فيها • وستجد هناك العلبة وبعض الفاكهة المسكرة ملفوفة فى ورقة ، فأحضرها جميعاً الى هنا » وسألته : « هل أحضر لك سيجارك ! » وذلك لأننى أعرف انه يرسل فى طلبها بعد الغداء •

ثم صاح بى قائلا : « أحضرها ، ولكن اياك أن تلمس أى شىء غيرها » •

ووجدت المفاتيح حيث قال لى ، وكنت على وشك أن أفتح الدرج حين توقفت تدفعنى الرغبة فى معرفة ماذا يتصل بالمفتاح الدقيق المعلق فى نفس الحزمة •

كان موضوعا على المكتب بين عدد من مختلف الأشياء ، وبالقرب من الحاجز ، محفظة مطرزة ذات قفل ، وطرأ على ذهنى أن أحاول تجربة المفتاح الصغير لعله يفتحها ، وتكللت المحاولة بنجاح تام ، وفتحت المحفظة فوجدت بداخلها كومة كاملة من الأوراق ، وكان فضولى من القوة بحيث دفعنى الى البحث عن كنه هذه الأوراق وأخمد صوت ضميرى ، وبدأت عملية الفحص فيما تحتويه المحفظة •••

•• ان شعور الطفل بالاحترام الذى لا يناقش ، وبخاصة نحو بابا كان من العمق فى دخيلة نفسى بحيث رفض عقلى بطبيعته الوصول الى أية نتائج مما رأيت ، وشعرت أنه يجب ان يعيش أبى فى جو خاص ، جو جميل ، حريز غير مفهوم بالنسبة الى ، وأن أية محاولة للتغلغل فى أسرار حياته تكون بمثابة انتهاك للمقدسات من جانبى •

ولذلك فان الكشف الذى توصلت اليه عن غير قصد تقريباً فى محفظة أبى ، لم يترك فى نفسى أثرا واضحاً فقط ، بل ادراكاً لتصرفى الخاطىء ، وشعرت بالخجل والقلق •

وأدى بى شعورى هذا الى الرغبة فى اغلاق المحفظة بأسرع ما أستطيع ، ولكن قدر لى على ما يظهر أن أتحمل كل نوع ممكن من سوء الطالع فى ذلك اليوم المشهود وأدخلت المفتاح فى ثقب

القفل وأدرته بطريقة خاطئة ظناً مني بأن القفل مغلق ، ثم جذبت المفتاح ، ولكن ، آه ، يا للهول !! خرج رأس المفتاح في يدى ، وكان من العبث محاولة وصله بالنصف الباقى فى القفل وتخليصه بنوع من السحر • واضطررت أخيراً الى الاستسلام الى فكرة مرعبة ، وهى أننى ارتكبت جريمة جديدة لا بد ان تكتشف فى نفس اليوم عندما يعود بابا الى مكتبه •

شكوى ميمى ، والدرجة السيئة ، والمفتاح الصغير !! لا يمكن ان يحدث لى ما هو أسوأ من ذلك ، فجدتى بالنسبة لشكوى ميمى ، وسان جيروم بالنسبة للدرجة السيئة ، وبابا بالنسبة لذلك المفتاح ـ كل أولئك سينقضون على ، ولن يتأخر هذا عن تلك الليلة بالذات •

وقلت بصوت مرتفع وأنا أخطو على سجادة المكتب الناعمة : « ماذا سيحدث لى ، ثم أسرعت بدخول البيت •

•• ان هذا المثل القدرى الذى سمعته فى طفولتى من نيكولاى كان يحدث أثرا نافعا ومهدئاً وقتياً فى جميع لحظات الشدة التى لقيتها فى حياتى • وعندما دخلت القاعة كنت مضطرباً وغير طبيعى الى حد ما ، ومع ذلك كنت فى أقصى حالات الابتهاج •

(٤١)

الغادرة

•• بدأت الألعاب الصغيرة بعد الغداء ، وأخذت بأنشط دور فيها • وبينما كنا نلعب « القط فى الركن » ارتطمت بقهرمانة كورناكوفا التى كانت تلعب معنا ، فدست على ثوبها مصادفة ومزقته ، وعندما لاحظت أن الفتيات جميعاً قد سررن سروراً عظيماً ، وبخاصة سونتشكا ، لرؤية القهرمانة تنسحب مقطبة الوجه الى حجرة الخدم لرتق ثوبها ، صممت على توفير ذلك السرور لهن مرة أخرى ، وكان من نتيجة هذا القصد الظريف ان أخذت أقفز حولها حالما عادت القهرمانة من الحجرة ، وداومت على هذه المناورة حتى وجدت فرصة مواتية ليمسك كعبى مرة أخرى بذيل ثوبها ويمزقه • ولم تقو سونتشكا والأميرة على حبس ضحكهما الذى تملق شعورى الى حد بعيد جداً ، ولكن سان جيروم الذى لا بد كان يلاحظ تهورى، جاءنى وقال لى بوجه عابس (الأمر الذى لم أستطع تحمله) انه يظهر ان مزاحى تدبير سوء ، وانى اذا لم أتصرف بكياسة فسوف يجعلنى أندم على ذلك حتى لو كان فى يوم الأحتفال •

•• ولكنى كنت فى حالة رجل مهتاج قامر بأكثر مما فى جيبه، ويخشى أن يحصى حساباته ، فيستمر مقامراً فى مراهنة يائسة ،

لا يؤمل من ورائها استرداد خسارته ، ولكن لمجرد ابعاد عقله عن الحقيقة . وضحكت بوقاحة وانصرفت بعيداً عنه .

وبعد لعبة « القط فى الركن » بدأ شخص ما لعبة كنا نطلق عليها « الأنف الطويل » وكانت الكراسى فى هذه اللعبة توضع فى صفين متقابلين ، وينقسم السيدات والرجال الى فريقين ، ويختار كل واحد زميله بالتناوب .

كانت أصغر الأميرات تختار فى كل مرة أصغر اخوة ايفين ، وكانت كاتنكا تختار اما فولوديا واما النكا ، وتختار سونتشكا فى كل مرة سريوزا . ولشد ما كان يدهشنى انها لم يكن يعتريها أقل خجل حين كان سريوزا يذهب اليها ويجلس أمامها مباشرة كانت تضحك ضحكتها الحلوة الرنانة ، وتومىء اليه لتريه أنه أحسن التخمين ، ولم تخترنى أية واحدة . ومما جرح كبريائى جرحاً عميقاً ، أن أدركت أننى زائد عن الحاجة ، « طيشة » ! حتى انهم كانوا يقولون فى كل مرة : « من المتبقى ؟ نعم ! نيكولنكا ! حسن فلنأخذه » .

ولذلك ، فعندما جاء دورى لأخمن « من التى اختارتنى » كنت اذهب اما الى أختى واما الى احدى الأميرات القبيحات ، ولسوء الطالع اننى لم أخطىء التقدير مرة . ويبدو ان سونتشكا اندمجت مع سريوزا ايفين اندماجا كبيراً حتى أصبحت ولا وجود لى فى

نظرها . ولست أعرف سببا لتسميتها « بالغادرة » ما دامت لم تعدنى مطلقاً بأن تختارنى دون سريوزا ، ولكنى كنت مقتنعاً كل الاقتناع انها سلكت سلوكاً متمردا الى أبعد حد .

.. ولاحظت بعد اللعب أن « الغادرة » التى ازدريتها — وان لم أحول عينى عنها — كانت قد انسحبت الى ركن مع سريوزا وكاتنكا حيث اشتركوا فى مناقشة سرية ، فتسللت خلف « البيانو » لأكشف عن سرهم ، وكان هذا ما رأيت : كانت كاتنكا ممسكة بمنديل من زاويتيه ، ومن ثمة جعلت منه ستاراً بين رأس سونتشكا ورأس سريوزا ، وقال سريوزا : « لا ، لقد خسرت ، والآن يجب أن تدفعى الجزاء ! » ووقفت سونتشكا أمامه كالمذنبة ، وقد تدلى ذراعاها الى جانبيها ، وقالت فى خفر : « لا اننى لم أخسر ، هل خسرت يا آنسة كاترين ؟ » وأجابت كاتنكا : « أحب ان يكون اللعب عادلا ، لقد خسرت رهانك يا عزيزتى » .

ولم تكد تنطق كاتنكا بهذه الكلمات حتى مال سريوزا على سونتشكا وقبلها ، قبلها قبلة طويلة على شفتيها الورديتين ، وضحكت سونتشكا كأن شيئاً لم يحدث ، وكأن ذلك ليس الا لهواً . يا للفظاعة ! آه ، تباً للغادرة المحتالة ! .

« ٤٢ »
غموض

•• شعرت باحتقار مفاجىء للجنس اللطيف بوجه عام ، ولسونتشكا خاصة ، وأخذت أؤكد لنفسي ان ليس في هذه الألعاب مايدعو بالمرة الى المرح ، وأنها تليق بالبنات ، ورغبت في خلق جلبة لعمل شيء فيه من الجسارة ما يدهش له الجميع ، ولم يطل الوقت على ظهور الظرف الملائم •

بعد ان تحدث سان جيروم عن شيء ما غادر الحجرة ، وسمعت صوت وقع أقدامه وهو يصعد السلم ، ثم وهو يسير فوقنا في اتجاه حجرة المكتب • وخطر لي ان ميمي أخبرته عن المكان الذي رآني فيه أثناء ساعات الدرس ، وانه ذهب لكي يفحص السجل •

في ذلك الوقت لم أكن أصدق ان « سان جيروم له أي هدف آخر في حياته غير رغبته في عقابي ، وكنت قد قرأت في مكان ما ان الأطفال فيما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرهم ، أو بمعنى آخر أولئك الذين في مرحلة الانتقال من الصبا يميلون بنوع خاص الى جريمة الحرق العمد بل الى القتل • وعندما استعيد ذكريات طفولتي وبخاصة الحالة العقلية التي كنت عليها في ذلك اليوم

المشئوم ، أقدر في وضوح تام ان أبشع جريمة يمكن أن ترتكب دون غاية أو بقصد الاضرار ، ولكن لمجرد حب الاستطلاع ، أو بسبب الحاجة الغريزية لبذل النشاط • وهناك أوقات يتمثل فيها المستقبل لشخص بألوان شديدة القتامة حتى انه ليخاف ان يركز فيها نظرته العقلية ، فيتوقف عندها عقله عن التفكير ، ويحاول ان يقنع نفسه بأن المستقبل لن يكون ، وان الماضي لم يوجد البتة ، ففي مثل هذه اللحظات ، حين لا يستطيع العقل ان يقدر سلفاً كل قرار للارادة ، وتبقى الغرائز البدنية المصدر الوحيد للحياة• أستطيع أن أفهم كيف ان الطفل نتيجة لعدم خبرته ، يميل بنوع خاص الى مثل هذه الحالة العقلية ، ولذلك فربما أشعل النار في بيته نفسه حيث ينام أخوته ووالده وأمه الذين يحبهم بسخاء ، دون أدنى خوف أو تردد وبابتسامة فضول وذلك بتأثير عدم وجود التأمل نفسه ـ شرود العقل تقريباً ـ يفكر صبي فلاح في السابعة عشرة من عمره في حافة فأس مشحوذة حديثاً بجوار الأريكة التي ينام عليها والده العجوز ووجهه الى تحت ، وفجأة يدبر أمر استخدام الفأس ويتفرس بفضول أحمق في الدم المتدفق من الجرح في عنق النائم ، وبتأثير انعدام نفس التأمل والفضول الفطري ، يزاول رجل متعة معينة ، اذ يقف على شفا هاوية ويقول لنفسه : « ماذا يحدث لو أنني ألقيت بنفسي الى أسفل ؟ » أو يضع غدارة مشحونة على جبهته ويتساءل : « ماذا يحدث لو أنني ضغطت على زند الغدارة ؟ » أو ان يقول لنفسه وهو يتطلع الى شخص ما يضمر له المجتمع كافة ،

احتراما خاصا : « ماذا يحدث ان ذهبت اليه » وأمسكته من أنفه وقلت له : « تعال يا صاحبي العزيز ، فلنذهب » .

.. وتحت تأثير هذا النوع من الهياج وانعدام التأمل ، هبط سان جيروم السلم ، وأخبرني ان ليس لى الحق فى البقاء هناك فى ذلك المساء لأننى أسأت التصرف ، وأسأت المذاكرة ، وأن على ان أصعد الى الطابق العلوى فوراً ، تحت هذا التأثير أخرجت له لسانى وأخبرته اننى لن أتحرك من مكانى .

ومنعت الدهشة والغضب سان جيروم لحظة من النطق بكلمة واحدة .

وقال متحاملا على : « لقد وعدت بمعاقبتك مرات عدة ، الا ان رغبة جدتك أنقذتك ولكنى أرى الآن ان العصا ستجعلك مطيعاً ، وانك تستحقها اليوم كل الاستحقاق » .

.. وكان صوته مرتفعاً جداً حتى لقد سمع الجميع ما قاله . وشعرت بالدم يندفع الى قلبى بقوة غير عادية جعلته ينبض بعنف حتى هرب اللون من وجهى ، وارتعشت شفتاى رعشة لا ارادية ، ولا بد ان كانت هيئتى فى تلك اللحظة مخيفة ، لأن سان جيروم تجاهل نظرتى ، وتقدم منى بسرعة وأمسكنى من يدى ، ولكن ماكدت أشعر بلمسة يده ، حتى استشطت غضباً ، وجذبت يدى منه وضربته بكل قوة الطفولة .

وقال فولوديا وهو يقترب منى متحيراً مفزعاً لتصرفى : « ماذا دهاك ؟ » .

وصرخت والدموع تسقط مدرارا : « دعونى وشأنى ! ليس بينكم من يحبنى ، ولا من يدرك مدى تعاستى ، ثم أضفت وأنا التفت الى المجموعة كلها فى نوبة غضبية : « انكم جميعاً خبثاء تعافكم النفس » .

وجاءنى فى أثناء ذلك سان جيروم بوجه شاحب فيه تصميم ، وقبل ان أتخذ موقفاً للدفاع ، أمسك بكلتا يدى كأنهما فى منجلة وبحركة قوية ، ثم جرتنى ... كانت رأسى تدوم من الغضب ، ولا أذكر غير العراك اليائس برأسى وركبتى بقدر ما بقى لى من قوة ، وأذكر ان أنفى قد احتك بفخذ شخص ما ، وان معطف شخص ما كاد يدخل فى فمى ، وأذكر اننى كنت اشعر بوجود اشخاص من حولى ، وبرائحة تراب ، ورائحة البنفسج التى كان سان جيروم يتعطر بها .

وبعد خمس دقائق أغلق من دونى باب غرفة السطح .

وقال « هو » فى صوت الثائر الظافر : « فاسيلى ! أحضر العصا » ...

(٤٣)

هواجس

•• هل كان يمكن ان أتخيل في ذلك الوقت انني سأبقى حياً بعد النوائب التى حلت بى ، وأن يأتى اليـــوم الذى أتذكرها فيه برباطة جأش ؟

حين تذكرت ما فعلت لم أستطع أن أتصور ما اذا كان سيأتى، ولكن كان يخالجنى شعور بأننى هلكت الى الأبد •

ران ســكون مطلق على الطابق الأرضى ، ومن حــولى ، أو هكذا خيل لى على الأقل بسبب انزعاجى الداخلى الذى تسلط على ، ولكنى بدأت أميز شيئاً فشيئاً بين الأصــوات • لقد صعد فاسيلى ، وألقى بشىء يشبه المكنسة على افريز النافذة ، ثم رقد يتثاءب • وكان يسمع فى الطابق السفلى صوت سان جيروم المرتفع (لا بد أنه كان يتحدث عنى) ، ثم أصوات الأطفال ، ثم ضحك وجرى• وبعد دقائق قليلة جرى كل شىء فى المنزل مجراه السابق ، كأن أحداً لا يعرف أو يفكر فى انني جالس فى غرفة السطح المظلمة•

•• لم أبك ، ولكن شيئاً ثقيلا كان يجثم على قلبى كالحجر ، وومضت الأفكار والرؤى أمــام خيــالى المشــوش ، ومع ذلك فان ذكرى المصــيبة التى حلت بى كانت تقطع سلسلتها الوهمية دون

توقف ، وتغرقنى مرة أخرى فى متاهة لا حد لهـا من الحيرة ازاء المصير الذى ينتظرنى بما فيه من الفزع واليأس •

وخطر لى آنئذ أنه لا بد من وجود سبب ما للنفور العام منى، بل لبغضى (كنت اعتقد فى ذلك الوقت اعتقاداً جازماً ان الجميع ، من جدتى حتى فيليب الحوذى كانوا يبغضوننى ويجدون فى شقائى لـذة) • وقلت لنفسى لعلنى لست ابن أبى وأمى ، ولســت أخـا لفــولوديا ، بل مجــرد يتيم تعيس ، لقيط قاموا على تربيتــه بدافع الشفقة • ولم تقدم لى هذه الفكرة السخيفة نوعاً من الراحة الكئيبة وحسب ، بل انها كانت تبدو لى قوية الاحتمــال • وفرحت لفكرة انني تعيس ، لا لسبب آلام عليه أنا نفسى ، ولكن لأن مصــيرى هو هذا منذ ولادتى نفسها ، وان نصيبى من الحيــاة شبيه بنصيب كارل ايفانتش التعيس •

وقلت لنفسى : « ولكن لماذا أخفى هذا السر بعد الآن ، مادمت قد كشفت عنه الستار ؟ سأذهب غداً الى بابا وأقول له : « من العبث يا بابا ان تخفى عنى سر مولدى فأنا أعرفه وسيقول لى : « حسن – ما دمت تعرفه – فعاجلاً أو آجلاً ، كان لا بد لك أن تعرف ، ••• انك لست ابنى ، ولكنى ربيتك ، فان برهنت على انك جدير بحبى، فلن أتخلى عنك مطلقاً » ، وسأقول له : « يا بابا ، وان كنت لا أملك الحق فى مناداتك بهذا الاسم ، فأنا أفعل ذلك الآن لآخر مرة – لقد أحببتك دائمــاً ، وســأحبك دائماً ، ولن أنسى أبداً انك كنت ولى

نعمتي ، ولكني لا أستطيع البقاء في بيتك ، فليس هنا أحد يحبني ، وسان جيروم أقسم على تدميري ، فلا بد لأحدنا من ترك هذا البيت لأنني لا أستطيع أن أكون مسئولا عن نفسي .. انني أكره هذا الرجل الى حد أتأهب فيه لعمل أي شيء ـ سأقتله ـ هذا ما سأقوله له ـ بابا اني سأقتله ويبدأ أبي في استعطافي ولكني سأتجنبه جانباً وأقول لا يا صديقي « أبي لا يا ولي نعمتي ، اننا لا نستطيع العيش سويا ، دعني أذهب » ، ثم أعانقه وأقول له بالفرنسية : « يا بابا يا ولي نعمتي !! باركني للمرة الأخيرة ، ولكن ارادة الله !! وبينما كنت جالساً على الصندوق في حجرة المخزن المظلمة ، بكيت بكاء مراً عندما ساورتني هذه الفكرة ، ثم سرعان ما تذكرت العقوبة المهينة المبيتة لي ، وتمثلت أمامي الحقيقة في ضوئها ، فسرعان ما تبخرت أحلامي .

.. ثم تخيلت نفسي حراً ، بعيداً عن المنزل ، التحق بفرقة الهوسار (١) ، وأذهب الى الحرب ، ويحمل الأعداء على من كل جانب ، وأستل سيفي وأقتل واحداً وثانياً ، ثم ثالثاً ، وأخيراً ، تخور قواي نتيجة للجراح والتعب ، وأسقط على الأرض وأصيح « النصر ! » ويقترب القائد ويسأل : « أين منقذنا ؟ » فيدلونه علي : ويرتمي على عنقي ويصيح بدموع الفرح « النصر ! » وأستعيد قواي ، وأتجول في تفيرسكوي بوليفار بذراعي معلقة في حمالة

(١) فرقة السواري الخفيفة .

سوداء « أنا قائد !! وأقابل الامبراطور ، ويسأل : « من هذا الشاب الجريح ؟ » ويقولون له انه نيكولاي ، البطل المشهور . ويتقدم مني الامبراطور ويقول : « أشكرك ، انني سأفعل أي شيء تسألني اياه » فأنحني له باحترام وأتوكأ على سيفي وأقول : « انني سعيد أيها الامبراطور العظيم اذ استطعت ان أريق دمي في سبيل وطني ، ويسرني أن أموت في الذود عنه ؛ ومع ذلك فما دمت سمحاً الى هذا الحد ، فاسمح لي أن أطلب منك شيئاً واحداً ـ دعني أقضي على عدوي الأجنبي سان جيروم ، وأقف أمام سان جيروم متوعدا ، فأقول له : « لقد تسببت في تعاستي ... اركع ! » ولكن تخطر لي فكرة على حين فجأة ، وهي ان سان جيروم الحقيقي قد يدخل بالعصا في أية لحظة ، فأرى نفسي مرة أخرى ، لا قائداً ينقذ وطنه ، ولكن مخلوقاً ضئيلاً باكياً .

وتخطر لي فكرة الله ، فأسأله تعالى في وقاحة عن سبب عقابه لي : « انني لم أهمل صلواتي مطلقاً ، صباح مساء ، فلماذا اذن أتألم ؟ » أستطيع أن أؤكد دون أي شك ان أول خطوة نحو الشكوك الدينية التي أقلقتني ابان مرحلة صباي قد بدأت في ذلك الوقت ، لا لأن التعاسة أغرتني بالتذمر والكفر ، ولكن لأن فكرة عدم عدالة العناية الالهية التي هبطت على عقلي في ذلك الوقت المليء بالبلبلة الروحية وعزلتني في ذلك اليوم برمته ، سرعان ما نمت وأخرجت جذورا كالبذرة الضارة سقطت على أرض لينة بعد المطر ،

ثم تخيلت أنني سأموت ، ورسمت في خيالي صورة حية عن حيرة سان جيروم عندما يجد بدلا مني جثة لا حياة فيها بحجرة السطح ، وتذكرت حكايات ناتاليا سافيشنا عن ان روح الشخص الميت لا تترك المنزل لمدة أربعين يوما ، وتخيلت نفسي أطير غير مرئي في حجرات بيت جدتي جميعاً ، وأشاهد دموع ليوبتشكا المخلصة ، وحزن جدتي ، وحديث أبي مع سان جيروم . وقول بابا والدموع في عينيه : « لقد كان ولدا لطيفاً » واجابة سان جيروم : « نعم » ولكنه كان متهوراً » وقول بابا : « ينبغي أن تحترم الموتى ، فقد كنت سبب موته ، لقد أفزعته ، ولم يستطع احتمال الاذلال الذي كنت تعد له .. اليك عني أيها النذل ! » .

ولا بد أن يجثو سان جيروم على ركبتيه ويبكي ويلتمس المغفرة . وبعد نهاية الأربعين يوماً ستطير روحي الى السماء ، وهناك سأرى شيئاً رائع الجمال ، أبيض شفافاً ، وطويلا ، وأشعر انه أمي . وهذا الشيء الأبيض سيضمني ويدللني ، ولكنني أشعر بالضيق كما لو كنت أعرفها . وأقول لها : « ان كنت أنت حقيقة فدعيني أتطلع اليك في صورة أكثر وضوحاً » ويجيئني صوتها « نحن جميعا هكذا هنا ، فلا أستطيع أن أعانقك خيراً من هذا ، ألا تشعر بالسعادة على هذا الوجه ؟ » .

« آه ، نعم أشعر بالسعادة ! ولكنك لا تستطيعين مداعبتي ، ولا أستطيع تقبيل يديك » وتقول : « لا حاجة الى ذلك ، ان الحياة

هنا جميلة كما هي » . وأشعر انها جميلة حقيقة ، وانّا سنحلق سوياً ونرتفع ، ونرتفع الى ما لا نهاية . ثم يبدو لي فجأة أنني مستيقظ ، وأجدني جالساً على الصندوق بحجرة السطح المظلمة ، وقد بللت وجنتي الدموع ، وعقلي صفحة خاوية وأنا أكرر عبارة « سنحلق ونرتفع ، ونرتفع الى ما لا نهاية » . لقد ركزت كل قوتي ، وقتا طويلا ، في محاولة تفسير موقفي ، ولكن كل ما استطاع عقلي أن يتخيله في تلك اللحظة كان مدى غير محدود ، لا يمكن اختراقه ، مخيف في كآبته . وحاولت استرجاع الأحلام البهيجة الهائلة التي وضع الشعور بالحقيقة لها حداً ، ولكن لشد ما كانت دهشتي ، أنني سرعان ماوطئت دروب هواجسي الأولى حتى رأيت ان استمرار السير فيها أمر مستحيل ، بل ان ما هو أدعى الى الدهشة ، انها لم تعد تبعث في نفسي سروراً .

(٤٤)

لا دقيق بلا طحن

قضيت ليلتي بحجرة السطح ، ولم يقترب مني أحد . ولم يحدث شيء حتى اليوم التالي ، أي يوم الأحد حين نقلوني الى حجرة صغيرة ملحقة بحجرة الدراسة وحبست فيها مرة أخرى . وبدأت أؤمل في أن عقوبتي ستقتصر على حبسي ، وأخذت أفكاري

تطمئن تحت تأثير النعاس اللذيذ المنعش ، وضوء الشمس الساطع
يخادع نماذج الجليد فوق النوافذ ، والضوضاء المألوفة نهاراً في
الشوارع •

ومع ذلك فان عزلتي كانت عسيرة الاحتمال • أردت ان
انقل ، وأن أقص على شخص ما كل ما يتأجج في روحي ، ولم
يكن هناك أي كائن بشري بالقرب مني ، وكان موقفي مكدراً الى
أقصى حد ، وبالرغم من انه كان ثقيلا علي ، فانني لم أستطع تحاشي
سماع سان جيروم وهو يصفر نغمات مرحة في هدوء تام ويدور في
حجرته • وكنت مقتنعاً تماماً انه لم يكن يرغب في الصفير البتة ،
بل كان يصفر لكي يعذبني وحسب •

في الساعة الثانية هبط سان جيروم وفولوديا الى الطابق
السفلي ، وأحضر لي نيكولاي غدائي • وعندما تحدثت معه عما
فعلته وعما ينتظرني قال :

« لا عليك يا سيدي ! لا تحزن لأنك لا تستطيع الحصول على
دقيق بلا طحن » •

•• ان هذا القول المأثور الذي ساعد على صلابة روحي فيما
بعد أكثر من مرة ، قد أراحني الى حد ما ، ولكن حقيقة الواقع ،
وهي انهم لم يرسلوا لي مجرد خبز وماء ، بل غداء كاملا يشمل
الكعك المزخرف ، أفسحت التفكير في الشيء الكثير • فلو كانوا لم

يرسلوا الي الكعك ، فان معنى هذا انني سأعاقب بالحبس ، أما الآن
فان عقابي لا بد آت ، وانني عزلت عن الآخرين لأنني كنت ذا
تأثير سيء ، وبينما كنت مشغولا في حل هذه المشكلة دار المفتاح في
قفل سجني ، ودخل سان جيروم بملامحه الجامدة الرسمية •

وقال دون ان ينظر الي : « انزل وقابل جدتك » •

وأردت تنظيف كمي سترتي الملطخين بالطباشير قبل مغادرتي
الحجرة ، ولكن سان جيروم قال لي ان ذلك لا ضرورة له البتة
كأنني في مثل هذه الحالة المعنوية الهابطة لا أستحق الاهتمام بمظهري
الخارجي •

وتفرست في كاتنكا وليوبتشكا وفولوديا عندما كان سان
جيروم يقودني ممسكاً بيدي ونحن نجتاز القاعة ، تماماً كما كنا
نتطلع الى المسجونين الذين يقادون من أمام نوافذنا كل يوم اثنين •
وعندما اقتربت من مقعد جدتي بقصد تقبيل يدها ، أشاحت عني
وأخفت يدها تحت وشاحها •

وبعد صمت طويل نوعا ما ، تفحصتني خلاله من قمة رأسي الى
قدمي في أسلوب من التعبير لم أعرف معه الى أين انظر ، أو ماذا
أفعل بيدي ، ثم قالت : « حسن يا عزيزي ، يجب أن أقول انك
تقدر حبي ، وانك عزائي الحقيقي » ثم أضافت وهي تتأنى عند كل
كلمة ، « وان السيد سان جيروم الذي أخذ على عاتقه أمر تعليمك

استجابة لرجائي لا يريد البقاء في منزلي بعد الآن . ولماذا ؟ بسببك يا عزيزي ، وكنت آمل ان تحمد له عنايته وتعبه ، ثم تابعت حديثها بعد فترة صمت قصيرة وفي نغمة كشفت عن أن حديثها كان معدا من قبل : « وان تفهم قيمة خدماته ، ولكنك ، وأنت صبي صغير تجاسرت على وقع يدك ضده ، حسن جداً ! حسن جداً في الحقيقة ! لقد بدأت .. أفكر في انك لا تقدر المعاملة الكريمة ، وان وسائل أخرى أكثر فظاظة هي التي تلزمك » ، ثم قالت بلهجة أمر جافة وهي تشير الى سان جيروم « التمس صفحه حالا ، ألا تسمع ؟ » .

ونظرت الى الناحية التي فيها يد جدتي ووقع نظري على سترة سان جيروم فأشحت عنه ولم أتحول عن موقفي ، وللمرة الثانية بدأت أشعر بقلبي يتجمد .

« حسن ، ألا تسمع ما أقوله لك ؟ » .

وارتعد كل جسمي ، ولكني لم أتحرك .

وقالت جدتي ، التي لا بد قد أدركت عذابي الداخلي الذي كنت أقاسيه : « كوكو ! ثم قالت في صوت أقرب الى الحنان منه الى الأمر » : « كوكو ! أهذا أنت ؟ » .

فقلت : « لن التمس صفحه يا جدتي عن أي شيء » ثم انفجرت بالبكاء فجأة ، اذ شعرت ان الدموع التي كانت تغصني ستنهمر من عيني لو نطقت بكلمة أخرى .

« انني آمرك : اطلب منه ... الآن حالا » .

وقلت لاهثاً : « انا – أنا – لا أريد – لا أستطيع » ثم انفجر فجأة البكاء الذي حبسته طويلا في فيض من اليأس .

وقال سان جيروم بصوت مؤثر : « أهذه هي الطريقة التي تطيع بها أمك الثانية ؟ أهذه هي الطريقة التي تقابل بها حنانها ؟.. اركع !! » .

وقالت جدتي وهي تتحول عني وتكفكف دموعها : « يا الهي ، لو رأته الآن على هذا الحال ! لو رأته – ان كل هذا بقصد الخير . لا ، لم تكن لتتحمل هذا الحزن ، أبداً » .

وظلت جدتي تبكي بكاء مفرطاً ، وبكيت أنا أيضاً ، ولكن لم يكن في قصدي طلب الصفح . وقال سان جيروم : « هدئي من ثائرتك بحق السماء يا سيدتي الكونتيسة » .

ولكن جدتي لم تلتفت اليه ، وغطت وجهها بيديها ، وسرعان ما تحول بكاؤها الى فواق ونوبات هستيرية . واندفعت ميمي وجاشا الى الغرفة بوجوه مفزعة وسرعان ما سمع الهمس في جميع أرجاء البيت .

وقال سان جيروم وهو يقتادني الى الطابق العلوي : « هناك شيء ما يمكنك أن تفخر به » .

« يا الهي ، ماذا اقترفت ؟ يا لي من ولد شرير ! » .

وما كاد سانز جيروم يأمرني بدخول حجرتي وبعود أدراجه الى جدتي حتى أطلقت ساقي الى السلم الكبير المؤدي الى الشارع دون أن أعرف ماذا كنت أفعل .

لا أذكر ما اذا كنت أقصد : الهرب أم اغراق نفسي ، وكل ما أعرفه انني كنت أخفي وجهي بيدي لكي لا أرى أحداً، واندفعت اندفاعاً أعمى أهبط السلم .

وسألني صوت مألوف لدي : « الى أين تذهب ؟ انك هو الشخص الذي أريده بعينه يا بني » .

وحاولت المضي مسرعاً ، ولكن بابا أمسكني من يدي وقال في حزم :

« تفضل بالحضور معي ، كيف تجاسرت على لمس المحفظة التي في مكتبي ؟ » وصحبني وراءه الى غرفة الجلوس الصغيرة ، وأضاف وهو يشد أذني « حسن ! لماذا لا تجيب ؟ » .

فقلت : « انني آسف ، لا أدري ماذا دهاني » .

« آه ، لا تعرف ماذا دهاك ! اذن أنت لا تعرف ، ألا تعرف ؟ لا تعرف ، آه حقاً انك لا تعرف ! » وأخذ يكرر هذه العبارة ويشد على أذني عند كل كلمة .

« هل ستدس أنفك حيث لا يعنيك الأمر في المستقبل ؟ هل تفعل ؟ هل تفعل ؟ » وآلمني أذني كثيراً ، ولكني لم أبك ، وكان

الشعور الذي خبرته لذيذاً ، فسرعان ما أطلق بابا أذني حتى أمسكت بيده وأخذت أغمرها بدموعي وقبلاتي .

وقلت له من خلال دموعي : « اضربني ثانية ، أضربني بشدة حتى تؤلمني ، انني ولد شرير ، ولد شقي بائس » .

وقال لي وهو يدفعني دفعة خفيفة : « ما قصتك ؟ » .

فقلت وأنا أتشبث بسترته : « لا ، لا أريد الذهاب ، ان الجميع يكرهونني ، وأنا أعرف ذلك ، ولكن بحق الله ، اصغ الي ، أحمني ، أو اطردني من البيت ، لا أستطيع الحياة معه ، انه «يفعل» كل ما يستطيع لاذلالي ، ويجعلني أركع أمامه ، ويريد أن يضربني ، وأنا لا أحب ذلك فلست صبياً صغيراً ، لا أستطيع تحمل هذا ، انني سأموت سأقتل نفسي . لقد قال لجدتي انني شرير ، وهي الآن مريضة ، وستموت بسببي — انت ، استحلفك بالله ، اجلدني ! لماذا يعذبونني جميعاً ؟ » .

وكنت أغص بالبكاء ، فجلست على الأريكة وألقيت برأسي على ركبته ، وأخذت انشج حتى خيل الى انني سأموت للتو والساعة .

وسألني بابا في تأثر وهو ينحني فوقي : « ما سبب بكائك ، أيها الطفل ؟ » .

« انه ظالمي — ومعذبي .. انني سأموت ، لا يحبني أحد ! » واستطعت بشق النفس التفوه بهذه الكلمات ، ثم رحت في رجفة تشنجية .

وأخذني بابا بين يديه الى حجرة النوم ، ورحت في نعاس • وعندما استيقظت كان الوقت متأخراً جداً ، كان هناك قنديل مشتعل بالقرب من فراشي ، ويجلس بالحجـــرة طبيب الأسرة وميمـــى وليوبتشكا • وكان واضحاً على وجوههم انهم يخشون على صحتي ، ولكني كنت أشعر انني على خير حال من الصحة والنشاط بعد نوم استغرق اثنتى عشرة ساعة ، حتى لقد كنت استطيع القفز من فراشي لولا تخوفي من زعزعة اعتقادهم في أنني مريض جداً •

(٤٥)

كراهية

•• حقاً ، لقد كان شعوراً بالكراهية الحقيقية ، ليست الكراهية التي يكتب عنها في القصص ، والتي لا أعتقد فيها ـ وهي الكراهية التي تنشرح لعمـل السـوء ، ولكنها الكراهيـة التي توحي اليك باشمئزاز لا يقـاوم من شخص ما ، على الرغم من انه يستحق احترامك ، بل الكراهية التي تجعل شعره وعنقه ، وصدى صوته ، وكل عضو فيه ، وكل حـركة بغيضـة لديك ، وفي نفس الوقت تجذبك اليه قوة غامضة ، وتضطرك الى مراقبة أتفه عمل من أعماله باشتياق • ولقد خبرت هذا الشعور نحو سان جيروم •

لقد بقى معنـا سـان جيروم عـاماً ونصف عام ، ولو حكمت

على الرجل الآن دون تأثر فانني أجده شاباً فرنسياً لطيفاً ، ولكنى روسي لحماً ودماً ، ولم يكن غبياً ، بل كان متعلماً تعليماً بين بين ، وكان يؤدى واجباته نحونا بضمير حي ، ولكن كانت فيه الخصائص المميزة لبنى وطنه والتى تخالف الخلق الروسي ، التردد والأنانية والخيلاء والوقاحة ، والثقـة العميـاء بالنفس ، كل هذه كانت تثير استيائي كثيراً •

لقد أوضحت له جدتي بطبيعة الحال وجهـة نظرها في مسألة العقوبة البدنية ، فلم يجرؤ على ضربنا بالسوط ، ولكنه برغم هذا كثيراً ما كان يهددنا بالعصا ، وبخاصة أنا ، ويتفوه بكلمة «الجلد» (١) (كما لو كنت آثماً) وبصورة كريهة جداً وبنغمـة يبـدو منها ان الجلد يبعث في نفسه أعظم الرضا •

لم أكن أخشى ألم العقاب مطلقاً ، ولم أجربه البتة ، ولكن مجرد التفكير في أن سان جيروم قد يضربني كان يجرني الى حالة من الغضب واليأس المكبوتين •

كان كارل ايفانتش أحيـاناً ، في لحظة ضـيقة ينفس عن سخطه بضربنا بالمسطرة أو بحزامه ، ولكنى أتذكر هذا دون أقل غضب • وحتى لو كان كارل ايفانتش قد ضربني في الوقت الذي اتحدث عنه (أى حين كنت في الرابعة عشرة) لاحتملت ذلك بغاية

---

(١) نطق هذه الكلمة بالفرنسية نطقاً خاطئاً ، فبدلاً من كلمة fouatter نطقها كأنها fousetter

الهدوء . كنت أحب كارل ايفانتش ، وأستطيع ان أتذكره كما أتذكر نفسي ، واعتقدت ان أعتبره كشخص من أفراد أسرتي ، ولكن سان جيروم ، كان رجلا متعجرفاً متعالياً ، لم أشعر نحوه بميل ، ولكن بالاحترام المغتصب الذي كان يوحي به الى جميع الكبار . كان كارل ايفانتش رجلا يثير السخرية ، من نوع من الخدم الذين أحبهم من كل قلبي ، ولكني كنت أضعه في مرتبة اجتماعية أقل مني في تصوري الطفولي .

.. أما سان جيروم فقد كان على العكس ، شاباً صغيراً جميلا متعلما حاول ان يقف على قدم المساواة مع كل شخص . وكان ايفانتش ينتهرنا ويعاقبنا دائما بهدوء ، ومن الواضح أنه كان يعتبر ذلك واجبا ضروريا وان كان مؤلماً ، بينما كان سان جيروم من ناحية أخرى يحب التفاخر بدوره كمعلم ، وكان واضحا حين كان يعاقبنا انه انما يفعل ذلك ارضاء لذاته أكثر منه لصالحنا . وكانت أوداجه المنتفخة بعظمته ، وتحذلقه في تعبيراته الفرنسية التي كان ينطق بها مشدداً على المقطع الأخير بنبرات ممدودة ، تثير في منه نفوراً يجل عن الوصف . كان كارل ايفانتش يقول حين يغضب : « مهزلة صبيانية ، ولد خبيث ، أو ذبابة هندية !! » . وكان سان جيروم يطلق علينا اسماء مثل « وغد » وتصاب خبيث » وما الى ذلك مما كان يجرح كبريائي .

.. وكان كارل ايفانتش يجعلنا نركع ووجوهنا في الركن ،

وكانت عقوبتنا تقتصر على الوضع البدني غير المريح ، اما سان جيروم فكان ينفخ صدره ويصيح ملوحاً بيده في تعاظم ويقول بصوت مفزع : « اركع ايها الوغد » ويجعلنا نركع أمامه ونلتمس منه المغفرة ، فكانت العقوبة تنطوي على اذلالنا .

.. انني لم أعاقب . ولم يذكر لي أحد شيئاً مما حدث ، ومع ذلك لم أنس كل ما قاسيته من اليأس ، والعار ، والفزع والكراهية في هذين اليومين . وبالرغم من ان سان جيروم لم يقطع كل أمل في منذ ذلك الوقت ، وقلما كان يضايقني ، فانني لم أستطع أن أحمل نفسي على معاملته دون اكتراث ، وكنت أشعر في كل مرة تتقابل فيها عينانا ، ان نظرتي كانت صريحة العداء له ، وأسرع باتخاذ مظهر عدم الاهتمام ، ولكن كان يخيل لي آنئذ انه يفهم ريائي ، فأخجل وانصرف عنه كلية .

.. وقصارى القول ، لا أستطيع أن أصف الى أي حد كانت تشمئز نفسي من أي شيء يتصل به .

(٤٦)

حجرة الخادمات

.. شعرت بتزايد الوحدة شيئاً فشيئاً ، وتكونت مسراتي الأساسية من تأملاتي وملاحظاتي في عزلتي ، وسأتحدث عن

موضوع تأملاتي في فصل لاحق ، والمسرح الهام للاحتفالات كان حجرة الخادمات ، حيث تجرى القصة التي كانت تهمني وتثيرني من الأعماق ، وبطلة هذه القصة كانت ماشا بطبيعة الحال • كانت تحب فاسيلي الذي عرفها مذ كانت تعيش من الخدمة ، ووعدها بالزواج في ذلك الحين ، ومع ذلك فان القدر الذي فرق بينهما منذ خمس سنوات ، ثم جمع بينهما في بيت جدتي ، وضع بينهما حاجزاً في شخص نيكولاي (عم ماشا) الذي لا يحب أن يسمع عن زواج ابنة أخيه من فاسيلي الذي كان يطلق عليه (الرجل الغبي الداعر)•

وكان من تأثير هذه العقبة ان وقع فاسيلي الهادىء الطبع الذي لا يهتم لشيء ، في حب ماشا حباً جارفاً ، بقدر ما يستطيع أن يحب رفيق خياط يرتدي قميصاً وردي اللون مصقول الشعر بالدهان •

وبالرغم من ان دلائل حبه كانت غريبة وسيئة الاختيار الى حد بعيد ، (فمثلا كان حين يقابل ماشا يحاول دائما ان يسبب لها ألما ، اما يقرصها أو يصفعها أو يحتضنها بعنف بحيث لا تستطيع أن تتنفس الا بشق النفس) وكان حبه حقيقياً ، والدليل على ذلك أنه منذ أن أنكر نيكولاي على فاسيلي يد إبنة أخيه ، انكب على الشراب لشدة حزنه ، وأخذ يغشى حانات الشرب ويخلق الاضطرابات • وقصارى القول ، أخذ يسلك سلوكاً غير حميد حتى أنه تصرف تصرفاً مشيناً عاقبه عليه رجال الشرطة • غير ان سلوكه

هذا ونتائجه جعلته أكثر استحقاقاً في نظر ماشا فازداد حبها له ، وفي أثناء حبس فاسيلي كانت ماشا تبكي أياماً برمتها دون أن تجف لها عين ، وتشكو مصيرها المؤلم الى جاشا (التي كانت تروقها كثيراً شئون المحبين التعساء) وتتسلل خلسة الى مركز الشرطة مستهينة بتحقير عمها وتعنيفه لها ، لزيارة صديقها والترفيه عنه •

لا تحقر من شأن المجتمع الذي أقدمه لك أيها القارىء ، فان لم تكن أوتار الحب والعطف قد ضعفت في روحك ، فانك لواجد الأصوات التي تتجاوب معها في حجرة الخادمات • وسواء أكان يروقك أو لا يروقك أن تتبعني ، فانني سأعمد الى « بسطة » السلم التي أستطيع أن أرى منها كل ما يجرى في حجرة الخادمات : هناك اريكة عليها مكواة الثياب ، والعروسة المصنوعة من الورق القوى ذات الأنف المكسور ، وقصعة الاغتسال الصغيرة ، ومغسل اليد ، وهناك عتبة النافذة التي يتكوم عليها خليط يتكون من كتلة شمعية سوداء ، وحزمة خيط من الحرير ، وخيارة خضراء مقضومة ، وعلبة للملبس ، ويوجد كذلك المائدة الكبيرة الحمراء ، عليها قطعة قرميد ملفوفة بقماش من « البفتة » موضوعة على رقعة من شبكة متقاطعة ، ومن خلفها تجلس « هي » في ثوبها الكتاني الوردي المفضل عندي ومنديلها الأزرق الذي يجتذب انتباهي بنوع خاص ، وهي تطرز وتتوقف بين وقت وآخر لكي تحك رأسها بابرتها أو لتقص فتيل شمعة وأنا أتطلع وأفكر : لماذا لم تولد سيدة

بهاتين العينين الزرقاوين اللامعتين ، وتلك الجديلة الذهبية الضخمة، وذلك الصدر الناهد ؟ كيف كانت تصبح حالتها لو جلست في حجرة الجلوس وعلى رأسها غطاء ذو أشرطة وردية في ثوب أحمر قاتم ، لا كثوب ميمي ، ولكن كالثوب الذي رأيته في تفرسكوى بولفار ! ... لكانت تطرز على اطار وأرقبها في المرآة ، ولكنت أفعل أي شيء تطلبه . كنت أناولها وشاحها وأقدم لها طعامها بنفسي .

وبأي وجه مخمور وخلقة تشمئز منها النفس ، يبدو فاسيلي في سترته المحبوكة ، وقميصه الوردي القذر الذي يكشف عما تحته !! ان في كل حركة من جسمه ، وفي كل انحناءة من ظهره ، أرى فيما يبدو علامات لا نزاع في انها عقوبات العصيان التي لحقت به .

قالت ماشا متعجبة وهي تغرز ابرتها في الوسادة دون أن ترفع رأسها لتحية فاسيلي عند دخوله : « آه ، فاسيا ، مرة أخرى ـ

وأجاب فاسيلي : « نعم ، وما في ذلك ؟ وأي خير كنت توقعين منه ؟ فلو انه يستطيع لدبر الأمر بصورة ما ! ولكن هذه جهودي كلها تضيع سدى ، وكل ذلك بسببه » .

.. وسألته نادژدا ، وهي خادمة أخرى : « أتريد بعض الشاي ؟ » .

وقال فاسيلي : « اشكرك بكل تواضع » ثم أتم حديثه وهو

يلوح بيده : « ولماذا يكرهني عمك اللص ؟ لأن لدي ملابس خاصة بي ، بسبب كبريائي ، بسبب هيأتي . آه ، اللعنة على كل هذا !! » .

.. وقالت ماشا وهي تقضم الخيط : « يجب أن يكون المرء مطيعاً ، وانت ... » انني لا أستطيع احتمال هذا بعد الآن ، وذلك لأن ! » .

وفي تلك اللحظة صفق باب حجرة جدتي بشدة ، وسمع صوت جاشا وهي تصعد السلم تقول : « واذن !! أحاول ان أرضيها حين لا تعرف هي نفسها ماذا تريد . يا لها من حياة لعينة ـ انها مجرد اشغال شاقة !! ثم همست وهي تلوح بيديها : « آه أرجو ـ الله أن يغفر لي » .

وقال فاسيلي وهو ينهض لتحيتها : « أقدم تحياتي الى أجافيا ميخايلوفنا » .

فأجابته عابسة وهي تحدجه بنظراتها : « آه ، فلتنصرف ! انني لا أريد تحياتك ... لماذا تأتي الى هنا ؟ هل حجرة الخدمات مكان يأتي اليه الرجال ؟ » .

وقال فاسيلي في خجل : « أردت السؤال عن صحتك » .

وصاحت أجافيا ميخايلوفنا بأعلى صوتها وهي لا تزال غاضبة : « سألفظ آخر أنفاسي وشيكا ، هذا هو حالي » .

وضحك فاسيلى .

« ليس هناك ما يدعو الى الضحك ، واذا قلت لك اخرج من هنا فيجب أن تخرج ! ، حسبكم أن تنظروا اليه ! هل يتزوجها ؟ الوغد القذر ! هيا اخرج من هنا ! » .

وخرجت أجافيا ميخايلوفنا من الحجرة وهى تضرب الأرض بقدميها ، وقصفت الباب بعنف قصفة هزت النوافذ .

وظلت برهة تشتم كل شىء وكل شخص بصوت مسموع من وراء الحاجز ، وتلعن حياتها وتلقى بأمتعتها ، وتشد أذنى قطتها الصغيرة ، وأخيرا فتح الباب بالقدر الذى يسمح فقط بمرور القطة مروراً خاطفا ، معلقة من ذيلها وهى تصرخ صراخاً محزناً .

وقال فاسيلى هامساً : « ويظهر أن من الأفضل ان أحضر مرة أخرى لشرب الشاى .. الى اللقاء فى مناسبة أفضل » .

وقالت نادژدا وهى تغمز بعينها : « لا ضير ، سأذهب لألقى نظرة على الغلاية » .

وتابع فاسيلى حديثه وهو يجلس بالقرب من ماشا حالما غادرت نادژدا الحجرة : « انى أقصد أن أضع حداً لهذا مرة واحدة فقط . فاما أن أذهب الى الكونتيسة مباشرة ، وأشرح لها كيف تجرى الأمور ، واما أن أترك كل شىء وأهرب الى آخر الدنيا ، وسأفعل والله ! وكيف أعيش هنا وحدى ؟ » .

انك الشخص الوحيد الذى آسف له ، فلو لم يكن من أجلك ، لهربت منذ زمن طـ ـطويـ ـل وأقسم بالله .

وقالت ماشا بعد قليل من الصمت : « لماذا لا تحضر لى ملابسك لكى أغسلها يا فاسيا ؟ » ثم أضافت وهى تمسك بنيقة القميص : « انظر مقدار سواد هذه » .

وفى تلك اللحظة سمع جرس جدتى يصلصل من تحت ، وخرجت جاشا من حجرة نومها ، وقالت وهى تدفع فاسيلى نحو الباب وهو ينهض مسرعاً عند رؤيتها : « أنت السبب فيما صار اليه أمرها ، ولا تفتأ تضايقها ، وأظنك تريد أن تراها باكية أيها الوحش السليط الوجه ! انصرف ! اغرب عن نظرى !» ثم مضت تقول ملتفتة الى ماشا : « ماذا وجدت فيه ؟ ألم يضربك عمك بسببه اليوم ؟ ولكن لك طريقتك الخاصة : « انا لا أتزوج أحدا غير فاسيلى جروسكوف » . يالك من غبية ! » .

وصاحت ماشا ، وانفجرت بالبكاء فجأة : « ولا أنا أريد أن أحب أى شخص آخر ، ولو ضربت حتى الموت بسببه » .

وتفرست طويلا فى ماشا التى اضطجعت على الصندوق ، وكفكفت دموعها بمنديلها وقد بذلت أقصى ما أستطيع لأغير رأيى فى فاسيلى ، وحاولت الوقوف على وجهة النظر التى استطاع من

خلالها ان يجذبها • ولكن بالرغم من عطفى الخالص على حزنها فقلما استطعت أن أفهم كيف أن فتاة تبدو لى فاتنة مثل ماشا يمكن ان تحب فاسيلى •

وقلت فى نفسى وأنا أصعد الى مسكنى الخاص : « ان بتروفسكى عندما أكبر ستكون ملكى ، وماشا وفاسيلى سيكونان رقيقين فى أرضى • سأجلس فى مكتبى أدخن غليونى ، وتذهب ماشا الى المطبخ بمكواتها • وسأقول له : « ارسل الى ماشا » ثم تأتى حيث لا يكون أحد بالحجرة ، ويأتى فاسيلى فجأة ، وعندما يرى ماشا سيقول : « لقد ضعت الآن » • وتبكى ماشا ، وسأقول : « أنا أعرف يافاسيلى انك تحبها وهى تحبك ، هذه مائة روبل لك تزوجها ، والله يمنحك السعادة » ، واذهب عندئذ الى حجرة الجلوس ، ومن بين الأفكار التى لا حصر لها والتى تومض فى العقل والخيال فلا تترك أثراً ، توجد أخرى تترك ثلمة عميقة حساسة حتى انك ، وبدون ان تسترجع الشىء الذى فكرت فيه تتذكر انه كان شيئاً ساراً ، وتشعر بأثر الفكرة ، وتحاول بعثها مرة أخرى• ومثل هذا الأثر العميق هو ما تركه فى نفسى التفكير فى تضحية شعورى الخاص فى سبيل السعادة التى قد تجدها ماشا فى زواجها من فاسيلى •

(٤٧)

الصبا

•• ربما لا يصدقنى الناس حين أذكر لهم ماذا كانت أعز تأملاتى وأكثرها ثباتاً ابان مرحلة صباى ـ وهى أبعد ما تكون ملاءمة لسنى ومركزى ـ ولكن التفاوت بين مركز •• الانسان ونشاطه الخلقى لهو فى رأيى أضمن دليل على سلامة طويته •

فى خلال العام الذى عشته فى حياة أخلاقية انفرادية محصوراً فى داخل نفسى كانت تواجهنى كل المسائل العويصة المتعلقة بمصير الانسان وحياته المستقبلة وخلود الروح ، فيحاول عقلى الصبيانى الضعيف بكل ما فيه من قوة تنقصها الخبرة ، حل هذه المسائل التى يشكل تفسيرها أعلى مرتبة يمكن للعقل البشرى أن يبلغها ، ولكن حلها لا يوهب له هبة •

•• ويخيل الى ، أن العقل عند كل فرد ، يتبع فى نموه نفس الطريق الذى تتبعه الأجناس جميعاً ، وان الأفكار التى تستخدم كأساس للنظريات الفلسفية المختلفة تشكل الملكات الموقوفة على العقل ، ولكن كل انسان كان يدركها بوضوح كبير أو صغير حتى قبل أن يعرف شيئاً من النظريات الفلسفية •

طرأت هذه الأفكار على ذهنى فى ضوء بلغ من الوضوح ومن القوة حداً حاولت معه تطبيقها على الحياة ، متصوراً اننى كنت «أول» من كشف عن مثل هذه الحقائق العظمى النافعة .

وحدث أن خالجتنى فكرة ان السعادة لا تعتمد على الظروف الخارجية ، بل على موقفنا منها ، وان الانسان الذى اعتاد تحمل الألم لا يكون غير سعيد ، ولكي أعـود نفسى على الكدح ؛ كنت أحمل معجم تاتشيف بين يدى ممـدودتين لمدة خمس دقائق بالرغم من الألم الفظيع ، أو أدخل الى غرفة السـطح وأجلد ظهرى العريان بحبل جلدا شديداً حتى تفيض عينى بالدموع رغماً عنى .

وخطر لى فجأة فى احـدى المرات ، ان الموت ينتظرنى فى أية ساعة وأية لحظة وأخذت أفكر دون أن أفهم كيف أخفق الناس حتى الآن فى ادراك ذلك ، وان الانسان يمكن ان يكون سعيدا اذا ما استفاد وحسب من حاضرة دون أن يفكر فى المستقبل . وقضيت ثلاثة أيام مذعناً لتأثير هذه الفكرة ، فأهملت دروسى ولم أفعل شيئاً غير الرقاد فى فراشى والاستمتاع بقراءة قصة ، وأكل كعك الزنجبيل الذى كنت قد اشتريته بآخر ما كان معى من نقود .

وفى مناسبة أخرى ، حين وقفت أمام السـبورة أرسم عليهـا أشكالا مختلفة بالطباشير خطرت ببالى فكرة ، وهى : لماذا يروق التناسق للعين ؟ وما هو التناسق ؟

وكانت اجابتى ، انه شـعور فطرى . ولـكن ما أسـاسه ؟

هل هناك تناسق فى كل شىء فى الحياة ؟ على العكس فها هنا الحياة . ورسمت شكلا بيضاويا ، فالروح بعد الحيـاة تمضى الى الأبدية . ورسـمت من أحد جانبى الشـكل البيضـاوى خطا يمتد الى حـافة السبورة نفسها . ولماذا لا يكون هنـاك خط على الجانب الآخر ؟ الواقع اننى عدت الى التفكير فيها ، فما نوع هذه الأبدية ذات الجانب الواحد فقط ؟ لأننا وجدنا بالتأكيد قبل هذه الحياة ، بالرغم من اننا نسينا هذا الوجود السابق .

.. وقد سرنى هذا التحليل العقلى الذى بدا لى جديدا متألقاً الى أقصى حد ، والذى أستطيع الآن ان أمسك فقط بخيطه فى صعوبة وتناولت صحيفة من الورق بقصد الكتابة عليها ، ولكن مثل هذه المجمـوعة من الأفكار ازدحمت فى ذهنى أثناء العمليـة ازدحاماً اضطرنى الى النهوض والمشى فى الحجرة وعندما اقتربت من النافذة تحول انتباهى الى الحصان الذى كان الحوذى يشـد عدته فى تلك اللحظة ، وتركزت كل أفكارى حول حل مسألة هى : ــ الى جسم أى حصان أو انسان ستنتقل روح هذا الحصان عندما تتحـرر من الجسد ؟ وفى هـذه اللحظة مر فولوديا بالحجـرة ، فابتسم عندما لاحظ اننى أحاول حل مشـكلة ما ، فكانت هذه الابتسـامة كافية لأن توضح لى ان ما كنت افكر فيه ليس الا محض هراء .

.. ولقد رويت هذا ــ وهو فى نظرى مناسبة تستحق الذكر ــ لمجرد اعطاء القارىء الفرصة لفهم طبيعة تأملاتى .

ولكنى لم أكن مفتونا بأى نوع من أنواع الاتجاهات الفلسفية جميعا بقدر ماكنت مفتونا بالتشكك الذى جعلنى في وقت ما أقف على حافة الجنون . وتخيلت أنه لا يوجد شيء أو انسان فى العالم برمته عدا نفسى ، وان الأشياء لم تكن أشياء ، بل هي مجرد صور تتراءى لى اذا ما وجهت اليها انتباهى ، وان هذه الصور ستختفى حالما أكف عن التفكير فيها .

وقصارى القول أننى أتفق مع تشلنج فى فكرة أن الوجود ليس الأشياء وانما هو علاقتى بها . وهناك لحظات كنت أصل فيها حين أكون واقعا تحت تأثير هذه « الفكرة الثابتة » ، الى مرحلة من الخبل بحيث كنت أحيانا ألتفت بسرعة الى الاتجاه المضاد على أمل أن أفاجيء العدم (اللاشيء) حيث لم أكن .

يالعقل البشرى من مصـــدر ضئيل تافه بالنســـبة للعمـــل الأخلاقى !! .

لم يستطع عقلى الضعيف التغلغـل فى هذا العمل العـويص ، ولكنى فى هذا العمل الذى يفوق قدرته فقدت معتقداتى التى لم يكن ينبغى أن أتجاسر مطلقا على أن أمسها حرصا على سعادة حيـــاتى الخاصة ، معتقدا بعد معتقد .

ولم أحصل على شيء من كل هذا العناء الأخلاقى الشاق الا دهاء

العقل الذى قلل من قوة ارادتى ، والا عادة التحليل الأخلاقى الدائم الذى حطم جدة الشعور ووضوح الحكم .

ان الأفكار المجـــردة ، كنتيجة للطاقة العقلية عند الانسان ، تتشكل بحيث تفهم حالة روحه في أية لحظة معينة وتنقلها الى ذاكرته. ولقد قوى ميلى الى التحليل المجرد من قدرتى على الادراك الحسى الى درجة غير طبيعية ، حتى أننى عندما كنت أبدأ فى التفكير فى أبسط وجه للأشياء ، كثيرا ماكنت أقع فى تحليل لأفكارى لا ينتهى عند حد ، فلا أعود أعير المسألة التى كانت تشغلنى من قبل اهتماما ، بل أفكر فيما أفكر فيه . وحين كنت أسأل نفسى : فيما أفكر ؟ كنت أجيب : أننى أفكر فيما أفكر فيه . وفيما أفكـــر الآن ؟ أظننى أفكـر فيه وهكذا . ولا أستطيع أن أجد سببا لتحليلى العقلى .

ومع ذلك فان كشوفى الفلسفية التى وصلت اليها كانت تملق غرورى الذاتى الى أقصى حد . وكثيرا ماكنت أتخيل نفسى رجـلا عظيما يكشف عن حقائق جديدة لنفع الجنس البشرى ، وأنظر الى المخلوقات الأخرى شاعرا بقيمتى ، ومن العجيب أن أقول اننى عندما اتصلت بتلك المخلوقات كنت أشعر بالخجل فى حضرة كل واحد منهم ، وكلما ازداد تقـــديرى الشخصى لذاتى عجـزت عن اظهار الشعور بجدارتى أمام الآخرين ، بل لم أستطع حتى تعويد نفسى على عدم الشعور بالخجل من كل كلمة وكل حركة مهما كانت بسيطة .

(٤٨)
فولوديا

نعم ، كلما تقدمت في وصف هذه المرحلة من حياتي ، أصبحت أكثر ايلاما لي وعنتا علي ، فقلما أجد بين ذكرياتي عن هذه المرحلة ، لحظات من الشعور بالدفء الحقيقي شديدة التألق ، والنورانية الدائمة كما كان الحال في مستهل حياتي ، وبقدر مايفرحني المضي بأسرع ما أستطيع مجتازا صحراء صباي ، يسعدني بلوغ هذه الفترة السعيدة التي تفيئها الصداقة بحنانها الحقيقي وشعورها النبيل في أخريات هذا العهد وتفتح عهدا جديدا مليئا بالسحر والشعر — الشباب .

ولن أتتبع ذكرياتي ساعة بساعة ، بل ألقي نظرة سريعة على الذكريات الأساسية منذ ذلك الحين الى أن اتصلت برجل بارز أثر تأثيرا راسخا ومفيدا في خلقي وتقدمي .

سيلتحق فولوديا بالجامعة بعد أيام قلائل ، ويأتي اليه معلمون خصوصيون ، وأصغي بحسد واحترام غير ارادي وهو ينقر على السبورة بالطباشير بجسارة ويتحدث عن الوظائف والتجاويف والأبعاد والأحداثية وما الى ذلك ، مما يبدو أنه تعبير عن حكمة منيعة المنال ، وأخيرا ، في يوم أحد بعد الغداء اجتمع مدرسان وأستاذان بحجرة جدتي ، في حضرة بابا وعدة ضيوف ، فوضعوا فولوديا موضع

اختبار تجريبي لامتحان الجامعة ، ولشد ماكان سرور جدتي عندما أظهر فولوديا أثناء ذلك تفهما واضحا ، كما وجهت الى أيضا أسئلة في مختلف الموضوعات ، ولكنني قدمت عرضا متواضعا جدا ، وواضح أن الأساتذة حاولوا اخفاء جهلي أمام جدتي الأمر الذي زاد من ارتباكي ، ومع ذلك فان الالتفات الذي وجه الي كان ضئيلا جدا ، فقد كنت في الخامسة عشرة فقط ، واذن ، لايزال أمامي عام أستعد فيه لامتحاني ، ويهبط فولوديا الى الطابق السفلي للغداء فقط ، ويقضي كل النهار بل والأمسيات مكبا على دراساته بالطابق العلوي لا لضرورة ذلك ، ولكن لرغبته الخاصة ، فهو شديد الغرور لا يرضيه مجرد النجاح في الامتحان ، بل يرضيه الامتياز .

وأخيرا يحل يوم الامتحان الأول ، ويرتدي فولوديا سترته الزرقاء ذات الأزرار النحاسية ويضع ساعته الذهبية وينتعل حذاءه الجلدي الحديث الطراز ، وتحضر مركبة بابا المكشوفة الى الباب ، ويزيح نيكولاي الغطاء جانبا ويركب فولوديا وسان جيروم الى الجامعة ، وتطل الفتيات وبخاصة كاتنكا من النافذة على منظر فولوديا اللطيف وهو يركب العربة ، بوجوه مبتهجة يستخفها الطرب ، ويقول أبي : « بمشيئة الله ! بمشيئة الله ! » وكذلك جدتي التي جرت نفسها الى النافذة تبارك فولوديا والدموع في عينيها الى أن تتوارى المركبة عند منحنى الشارع وتقول شيئا ما هامسة .

ويعود فولوديا ويحيط به الجميع في لهفة : « حسن ؟ جيد ؟

ماهي الدرجة ؟ » ولكن وجهه المشرق كان اجابة في ذاته • لقد حصل فولوديا على الدرجات النهائية • وفي اليوم التالي أسرع فولوديا في طريقه مودعا بنفس الاهتمام والتمنيات بالنجاح ؟ ••• واستقبل بنفس اللهفة والفرح • ومضت تسعة أيام ، وكان في اليوم العاشر آخر وأشق امتحان ينتظره ، وهو امتحان المعلومات الدينية • ونقف جميعاً عند النافذة وننتظره بصبر نافد أكثر من ذي قبل • ولم يحضر فولوديا حتى الساعة الثانية •

وتصيح ليوبتشكا وقد ألصقت وجهها في لوح الزجاج : « يالله! يا أعزائي ! انهم قادمون ! انهم قادمون ! » •

حقيقة كان فولوديا يجلس بجانب سان جيروم بالمركبة المكشوفة ، ولم يعد يرتدي سترته الزرقاء والقبعة الرمادية ، ولكنه كان يرتدي حلة الطلبة الرسمية ذات الياقة الزرقاء المطرزة ، والقبعة المثلثة الزوايا ، والخنجر المذهب على جنبه •

وتبكي جدتي عندما تشاهد فولوديا في حلته الرسمية قائلة : « آه ، لو كانت الآن على قيد الحياة ! » ثم تروح في اغماءة •

ويجري فولوديا في صحن الدار بوجه مشرق فيقبلني ، أنا وليوبتشكا وميمي وكاتنكا التي يعتريها حمرة الخجل حتى أذنيها • ويكاد فولوديا يطير من الفرح •• كم كان مليحا في حلته الرسمية ، وكم تلائم ياقته الزرقاء شاربه النامي الأسود ! يالخصره الطويل

النحيل ، ومشيته اللطيفة ! وفي ذلك اليوم المشهود يتناول الجميع الغداء بحجرة جدتي ويشع الفرح من جميع الوجوه • وبعد الغداء ، في وقت تناول الحلوى ، يقدم رئيس الخدم زجاجة من الشمبانيا ملفوفة بمنشفة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مهيبة ولكنها ضاحكة • وتشرب جدتي الشمبانيا لأول مرة منذ وفاة أمي ، فتشرب زجاجة كاملة لتهنئة فولوديا ، ثم تعود فتبكي ثانية وهي تتأمله • وينصرف فولوديا ويخرج الآن من الفناء مع بطانته ، ويستقبل معارفه في مسكنه الخاص • يدخن ويغشى المراقص ••• بل لقد رأيته في مناسبة ما يشارك في شرب زجاجتين من الشمبانيا مع اثنين من الضيوف في حجرته ، وكانت الجماعة كلها تشرب مع كل زجاجة نخب بعض الشخصيات الغامضة ، ثم يتناقشون فيمن يتناول آخر جرعة من الزجاجة •• ولكنه يتناول غداءه بانتظام في البيت ويقضي فترة مابعد الظهر بحجرة الجلوس كعادته من قبل ، يشتغل دائما في مناقشات غامضة مع كاتنكا ، ولكن بقدر ما أستطيع أن أسمع لأنني لا أشترك في محادثتهما – يدور الحديث عن أبطال وبطلات القصص التي يقرآنها ، وعن الحب والغيرة • ولا أستطيع استنباط مدى التسلية التي يجدانها في مثل هذه المناقشات ، أو لماذا يبتسمان بهذه الرقة ويتباحثان بهذه الرغبة •

انني ألاحظ بوجه عام أنه بالاضافة الى الصداقة الطبيعية ، توجد بين كاتنكا وفولوديا بعض العلاقات الغريبة التي تعزلهما عنا وتربط أحدهما بالآخر بطريقة غامضة •

« ٤٩ »
كاتنكا وليوبتشكا

كاتنكا الآن في السادسة عشرة ، فهي ناضجة ، وقد أفسح الخجل وارتباك الحركة الخاصان بالفتيات في مرحلة انتقالهن من الصبا الى العذرة ، الطريق للنضارة المتسقة ، ورشاقة الزهرة الحديثة المولد . ولكنها لم تتغير : نفس العينين الزرقاوين اللامعتين ، والنظرة الباسمة ونفس الأنف الصغير المستقيم الذي يكون مع جبينها بمخريه القويين خطا واحدا تقريبا . والفم الدقيق بابتسامته المشرقة ، و « الغمازتين » على وجنتيها الورديتين الشفافتين ، ونفس اليدين الصغيرتين البيضاوين . ولسبب ما ، لاتزال عبارة « فتاة متكلفة » تلائمها بنوع خاص كل الملاءمة . والأشياء الجديدة الوحيدة فيها هي طريقة تصفيف شعرها الأشقر الغزير الذي تجعل منه ضفيرة على غرار ماتفعل المرأة الكبيرة ، وصدرها الصغير الذي لا يخفى ابتهاجها به وان كان يخجلها .

وبالرغم من أن ليوبتشكا قد نشأت وتربت معها ، فهي فتاة تختلف عنها كل الاختلاف ، وليوبتشكا أقصر منها نوعا ما . ونتيجة لكساح الأطفال لاتزال ساقاها معوجتين ، ووجهها قبيحا جدا ، والشيء الوحيد الجميل في وجهها هو عيناها ، فهما جميلتان جدا في الواقع ـ

كبيرتان داكنتان فيهما تعبير جذاب عن الكرامة والبساطة يجل عن التعريف حتى أنهما ملفتتان للانتباه .

ان ليوبتشكا طبيعة بسيطة في كل شيء ، في حين يبدو على كاتنكا أنها تريد تشكيل نفسها على نمط شخص آخر .

ونظرة ليوبتشكا مستقيمة دائماً ، وهي تثبت عينيها الداكنتين الواسعتين أحيانا على شخص ولا تحولهما عنه لمدة طويلة ، حتى لقد يعاب عليها ذلك ويقال لها أنه مجاف للأدب .

وكاتنكا من ناحية أخرى تسدل جفنيها ، وتدير عينيها ، وتقول ان نظرها قصير ، في حين أنني أعرف جد المعرفة أن نظرها على أحسن ما يكون ، وليوبتشكا لا تحب التودد الى الغرباء ، واذا مابدأ أي شخص في تقبيلها وهي بين جماعة فانها تتجهم وتقول انها لا تحتمل « العواطف » ، وكاتنكا على العكس تتودد بنوع خاص الى ميمي في حضرة الضيوف ، وتحب أن تسير متشابكة الذراعين مع فتاة ما بالقاعة ، ويسهل استثارة الضحك عند ليوبتشكا ، وعندما يستخفها الطرب أحيانا تلوح بيديها وتجري في الحجرة ، أما كاتنكا فعلى العكس ، تغطي فمها بيديها أو بمنديلها عندما تأخذ في الضحك ، وتجلس ليوبتشكا دائما معتدلة ، وعندما تسير ترفع يديها الى جنبها ، أما كاتنكا فتميل برأسها جانبا وتسير مشبكة اليدين ، وتفرح كاتنكا أشد الفرح عندما تقتنص فرصة للتحدث الى رجل من الكبار ، وتعلن أنها ستتزوج بالتأكيد من أحد رجال السواري ، ولكن كاتنكا تقول ان جميع

الرجال مزعجون ، وانها لن تتزوج أبدا ، وتصبح فتاة مختلفة كل الاختلاف عندما يتحدث اليها رجل كما لو كانت تخاف شيئا ما • وليوبوتشكا متفائلة على الدوام من ميمى لأنها تحزمها باحكام شديد بالمشدات حتى انها تقول : « لا أستطيع أن أتنفس » ثم انها مغرمة بالأكل ، ولكن كاتنكا من ناحية أخرى كثيرا ماتدفع باصبعها تحت صدريتها لترينا مدى اتساعها ، وهى تأكل قليلا جدا • وليوبوتشكا تحب اجتذاب العقول ، ولكن كاتنكا تجتذب الأزهار والفراشات فقط ، وتعزف ليوبوتشكا « كونسرتو فيلد » باتقان ، وبعضا من سوناتا بتهوفن ، وتعزف كاتنكا منوعات ومقطوعات من موسيقى الفالس ، وتستمسك بنغماتها مدة أطول مما يجب ، وتدق على المفاتيح بقوة شديدة ، وتستعمل « الدواسة » دون انقطاع • وقبل أن تعزف أى شىء تدق ثلاثة أصوات سريعة التتابع •

وكنت أرى كاتنكا آنئذ أقرب ماتكون الى الراشدات ولذلك كانت تروقنى كثيرا •

(٥٠)

أبى

كان بابا مرحا بنوع خاص منذ أن التحق فولوديا بالجامعة ، فهو يأتى لتناول الغداء مع جدتى أكثر من المعتاد ، ومع ذلك فان سبب ابتهاجه كما سمعت من نيكولاى يرجع الى أنه كسب أخيرا قدرا كبيرا من المال • وكان يأتى أحيانا لرؤيتنا فى المساء قبل ذهابه الى النادى ، ويجلس الى البيانو ونحن مجتمعون حوله ، ويغنى أغانى غجرية ويدق بحذائه الرقيق للتوقيت الموسيقى (لا يتحمل الحذاء ذا الكعب ولا يلبسه مطلقا) • وينبغى أن ترى فرحة محبوبته ليوبتشكا العارمة التى تهيم به • وهو يأتى أحيانا الى حجرة الدراسة ويستمع الى عند القائى دروسى بملامح عابسة ، ولكنى أدرك من كلماته المرضية حين يحاول توجيهى الى الصواب أنه لا يعرف الكثير مما أتعلم • وأحيانا يغمز لنا بعينه غمزة ماكرة ، ويومىء الينا باشارات عندما تبدأ جدتى فى التذمر وتغضب مع الجميع دون سبب ، ثم يقول بعد ذلك « حسن » ، « لقد عرفنا هذا يا أطفال » وقصارى القول ، ان منزلته هبطت قليلا فى نظرى من قمتها التى لا تدانى والتى كان خيالى الصبيانى قد وضعها فيها ، فألثم يده الكبيرة البيضاء بنفس شعور الحب الحقيقى والاحترام ، ولكنى أسمح لنفسى الآن بالتفكير فيه ، واصدار حكم على أعماله ، وتخطر على ذهنى أفكار تفزعنى ، ولا أنسى البتة حدثا واحدا أثار فى نفسى أفكارا كثيرة سببت لى ألما معنويا شديدا •

فى ساعة متأخرة من احدى الأمسيات دخل حجرة الاستقبال بسترته السوداء وصديريته البيضاء لكى يصحب فولوديا الى قاعة الرقص ، وكان الأخير يرتدى ملابسه فى حجرته ، وكانت جدتى فى حجرة نومها تنتظر مثول فولوديا أمامها قبل ذهابه الى المرقص ،

(كانت عادتها أن يمثل أمامها قبل كل حفلة راقصة لتفحصه وتمنحه بركتها وتزوده بتوجيهاتها) وكانت ميمى وكاتنكا تروحان وتجيئان فى القاعة التى كانت مضاءة بشمعة واحدة فقط ، بينما كانت ليوبتشكا تجلس الى « البيانو » تتعلم كونسرتو فيلد الثانية وهى قطعة أمى المفضلة •

لم يقابلنى البتة تشابه بين أى شخصين مثل هذا التشابه ، بين أختى وأمى ، ولم يكن التشابه فى الوجه ولا فى القوام ، ولكن فى صفة دقيقة ــ فى اليدين وطريقة المشى ، وخصائص الصوت وبعض العبارات ، فحين كانت ليوبتشكا تغضب فتقول : « لن يسمح بهذا لطول العمر » كانت تنطق كلمتى « طول العمر » اللتين جرت عادة أمى أيضاً على استعمالهما ، حتى ليبدو لك أنك تسمع نطقهما فى صوتها ، ولكن التشابه يكون أكثر وضوحا عندما تعزف على البيانو جميع أنواع العزف ، فهى تعــدل وضع ثوبها عندما تجلس بنفس الطريقــة تماما ، وتقلب صفحاتها من أعلى بيدها اليسرى ، وتدق المفاتيح بقبضــتها وهى عابسة ، وذلك اذا لم تستطع أداء مقطوعة صعبة كما يجب ، وتقول : « آه ، يا الهى ! » وكانت تمتاز بتلك النعومة التى تجل عن الوصف ، ودقة التنفيذ ، وطريقة فيلد الجميلة التى تسمى بجدارة ، « المعزوفة النقية » التى لا يستطيع واحد بين جميع عازفى البيانو المحدثين الأدعياء أن ينسى سحرها •

ودخل بابا الحجرة فى خطوات سريعة قصــيرة ، وقصد الى

ليوبتشكا ، التى توقفت عن العزف عندما رأته • وقال بابا وهو يعيدها الى جلستها ثانيا : « لا ، •• استمرى فى العزف ، فأنت تعلمين كم أحب سماعك ، واستمرت ليوبتشكا فى العزف ، وجلس بابا مواجها لها وقتا طويلا مسندا رأسه بيده ، ثم هز كتفيه هزة خاطفة على حين فجأة ، ونهض وأخذ يسير ذهابا وايابا ثم جلس • وكان فى كل مرة يقترب من البيانو يتوقف ويتأمل بامعان فى ليوبتشكا • وقد تبينت من حركاته وطريقة مشيته أنه كان شديد الاضطراب • وبعد سيره حول الحجرة عدة مرات ، وقف وراء مقعد ليوبتشكا وقبل شعرها الأسود ثم عاد أدراجه واستأنف سيره • وعندما أتمت ليوبتشــكا عزف مقطوعتها وأقبلت عليه تسأله « هل تحبها ؟ » تناول رأسها بين يديه ، صامتا دون أن ينطق بكلمة واحدة وأخذ يقبل حاجبيهــا وعينيها فى حنان لم أره يظهر مثله تماما •

وقالت ليوبتشكا فجأة وهى تدلى سلسلة ساعتها وتثبت على وجهه عينيها الشديدتى الدهشة : « لماذا تبكى ! اغفر لى يا بابا العزيز ، لقد نسيت تماما أن هذه كانت مقطوعة ماما » •

وقال فى صوت يتهدج بالانفعــال : « لا ياعزيزتى ، اعزفيها كثيرا ، انك ستفعلين اذا ماعزفت فقط كم يريحنى أن أبكى معك » •

وقبلهــا مرة أخرى محــاولا التغلب على انفعاله ، وهز كتفيه وخرج من الباب المؤدى الى الدهليز وحجرة فولوديا • وصاح وهو يقف فى منتصف الدهليز : « والديمار ! أيمكن أن تستعد بسرعة ؟ »

وفى تلك اللحظة مرت الخادمة ماشا فغضت من بصرها حين رأت سيدها وحاولت أن تتحاشاه . فاستوقفها وقال لها وهو ينحنى عليها : « ان جمالك ليتزايد كل يوم » .

وخجلت ماشا وأحنت رأسها أكثر من ذى قبل ، وقالت هامسة « اسمح لى » .

وقال بابا مرة أخرى وهو يهز كتفيه ويسعل عندما مضت ماشا ووقع نظره على والدمار : «هل أوشكت على التأهب يا والدمار ؟ » .

لقد أحببت بابا ، ولكن عقل الانسان لا يستشير قلبه ، وكثيرا مايخفى الأفكار التى تهين مشاعره ، فهو لا يدركها كما يجب ، ويتجهم لها . ورغما عن ذلك فقد جاهدت لكى أطرد مثل هذه الأفكار بعيدا عنى ولكنها ظلت تساور عقلى .

(٥١)
جدتى

ازدادت جدتى ضعفا يوما بعد يوم ، وكثيرا ماكان يسمع فى حجرتها صوت جرسها وصوت جاشا المتذمر ، وصفق الأبواب . ولم تعد تستقبلنا فى المكتبة وهى فى مقعدها الكبير المريح ، ولكن فى حجرة نومها ، فى سريرها المرتفع بوسائده المزركشة الطرفين بالمخرم

« الداتللا » . وعندما كانت تحينا كنا نلاحظ انتفاخا باهتا ضاربا الى الصفرة بارزا على يدها ، ونشم تلك الرائحة الخانقة فى حجرتها التى لاحظتها منذ خمس سنوات فى حجرة أمى . وكان يحضر الطبيب ثلاث مرات فى اليوم ويتشاور مع زملائه عدة مرات ، ولكن خلقها وعاداتها الرفيعة المتكلفة مع جميع أفراد البيت وبخاصة مع أبى لم تتبدل أقل تبدل ، فهى لاتزال تمد كلماتها وترفع حاجبيها وتقول « ياعزيزى » بنفس طريقتها السابقة تماما .

ثم لم يسمح لنا بزيارتها لأيام قليلة . واقترح سان جيروم فى صباح أحد الأيام أن أخرج للتنزه مع ليوبتشكا وكاتنكا راكبين ، وكان ذلك فى ساعات الدراسة . وبالرغم من أننى لاحظت أثناء ركوبى مركبة الجليد أن الشارع المقابل لنوافذ حجرة جدتى كان مفروشا بالقش وأن أناسا كثيرين يرتدون معاطف زرقاء يقفون على مقربة من بابنا ، الا أننى لم أفهم لماذا أرسلونى فى نزهة راكبة فى مثل هذه الساعة غير العادية . كنا ليوبتشكا وأنا طوال نزهتنا ، ولسبب ما ، على تلك الحالة النفسية المرحة الغريبة حتى أنه كان يثير ضحك الواحد منا كل مصادفة ، وكل كلمة وكل حركة .

لقد أثار ضحكنا بائع متجول عبر الطريق بصندوقه ركضا . وجعلنا نضحك بصوت صاحب جوادى لحق بمزلقتنا واسعا وهو يلوح بأعنته ، واشتبك سوط فيليب فى زلاقتى مركبة الجليد فالتفت خلفه وقال : « شىء يضايق !! » فكدنا نموت من فرط الضحك

ورمقتنا ميمي بنظرة امتعاض وقالت ان « البلهاء » من الناس فقط هم الذين يضحكون بلا سبب على الاطلاق ، أما ليوبتشكا فقد احتقن وجهها بالضحك المكبوت وألقت على نظرة جانبية طويلة • وتقابلت عينانا ، ثم انفجرنا في ضحك طائش حتى طفرت الدموع من أعيننا ، ولم نستطع ضبط انفجارات المرح التي كانت تخنقنا • وما كدنا نهدأ حتى رمقت ليوبتشكا بنظرة ونطقت بكلمة غامضة كانت في وقت ما دارجة بيننا ، وتحرضنا دائما على الضحك ، حتى انفجرنا بالضحك مرة أخرى •

وعندما وقفنا عند بابنا ، كنت على وشك افتعال حركات بوجهي لليوبتشكا بصورة مضحكة جدا حين أفزعني منظر غطاء أسود لتابوت مستند الى الباب ، فتجمدت الحركة على وجهي •

وخرج الينا سان جيروم بوجه شاحب وقال لنا : « لقد ماتت جدتكم ! » •

لقد كنت طوال الوقت الذي بقيت فيه جثة جدتي بالمنزل أعاني خوفاً لا يحتمل من الموت كما لو كان الجسم الميت حياً ، وذكرني ذلك بصورة كريهة ، وهي أنني لابد أن أموت في يوم ما — وهو شعور جرت العادة لسبب ما ، أن يختلط بالحزن • لم أشعر بالحزن على جدتي • وبالرغم من أن البيت كان في الواقع مليئاً بالزائرين المحزونين فلا يكاد يكون هنالك شخص بينهم شعر بحزن خالص عليها

سوى شخص واحد حيرني حزنه الشديد أعظم حيرة ، وكانت الخادمة جاشا هي ذلك الشخص ، اذ حبست ، نفسـها في حجرة السطح على الدوام ، وسبت نفسها ، وقطعت شعرها ، ورفضت تقبل أي عزاء ، وقالت ان سيدتها الآن قد ماتت ، وانها لا تريد الا أن تموت هي نفسها •

وأكرر مرة أخرى ان عدم اليقينية في مسائل الشعور هو دلالة الصدق التي يعول عليها أكبر تعويل •

وبالرغم من أن جدتنا لم تعد معنا ، فان الذكريات والاشارات الخاصة بها ظلت في البيت كما هي ، وكانوا قلقين بنوع خاص على الوصية التي كتبتها قبل وفاتها ، والتي لا يعرف أحد شيئا من محتوياتها باستثناء منفذها ، الأمير ايفان ايفانتش • وقد لاحظت بعض الهياج بين أهل جدتي ، وكثيرا ما ترامت الى سمعي ملاحظات عمن ستؤول اليه ممتلكاتها ، ويجب أن أعترف أنني سررت رغما عني لفكرة أننا سنرث شيئا ما •

وفي نهاية ستة أسابيع أخبرني نيكولاي الذي كان يقوم بوظيفة الصحيفة اليومية في مسكننا ، أن جدتي تركت جميع ممتلكاتها لليوبوتشكا ، وان الذي يقوم بالوصاية عليها لحين زواجها ليس بابا ، بل هو الأمير ايفان ايفانتش •

(٥٢)
أنا

لم يبق غير شهور قليلة على التحاقي بالجامعة ، أجيد الدرس ، ولا أنتظر معلمي دون وجل وحسب ، بل أجــد لذة محققة في دراستي •

وأستمتع بالقاء الدرس الذي تعلمته بوضوح ودقة ، وأستعد لكلفة الرياضيات ، وأقرر الحقيقة أنني اخترتها لمجرد حبي غير العادي للكلمات ، مثل الجيوب ، والمستقيمات المماسة ، والتفاضل والتكامل وما الى ذلك •

انني أقصر قامة من فولوديا ، عريض الكتفين وأكثر امتلاء ، بسيط دائما ، أهتم بالبساطة كالمعتاد ، وأحاول أن يبدو مظهـــري مبتكرا ، ويغريني شيء واحد : هو أن بابا قال لي مرة ان لي ، وجها حساسا ، وانني لأصدقه كل التصديق •

وسان جيروم راض عني ، ولا أحمل له كراهية بعد ، والواقع أنه حين يوجه الى ملاحظته أحيـــانا بأنه من العـــار ، مع مواهبي وذكائي ، أن أفعل هذا أو ذاك ، يبدو لي أنني أحبه •

وتوقفت مراقبتي لحجرة الخادمات منذ أمد بعيد ، وأشـــعر بالخجل من الاختفاء وراء الباب ، ويجب أن أعترف فوق ذلك أن

اقتناعي بأن ماشا تحب فاسيلي قد هدأ بعض الشيء من ثائرتي ، وزواج فاسيلي الذي استخلصت الموافقة عليه من أبي ، نتيجة لرجائه ، قد شفاني نهائيا من غرامي التعس •

وعندما يأتي العروسان ، ومعهما صحفة عليها الحلوى المسكرة لتقديم الشكر الى بابا •• وتلبس ماشا قبعة ذات أشرطة زرقاء ، وتقبل كل واحد منا على كتفه ، ثم تعود فتشكرنا جميعا عن شيء أو آخر ، لا أعي من ذلك شيئا غير الدهان الوردي على شعرها ، ولكن دون أقل عاطفة •

وقصارى القول ، آخذ في سبيلي الى الشفاء تدريجيا من قصوري الصبياني ، ولكن مع استثناء القصور الأساسي الذي لايزال يسبب لي كثيرا من الأذى في حياتي - ميلي الى التفلسف •

(٥٣)
أصدقاء فولوديا

بالرغم من أنني كنت أقوم بدور في جماعة فولوديا بجـــرح كبريائي ، فقد كنت أحب الجلوس في حجرته عنـــدما يكون لديه ضيوف فأراقب في صمت كل مايجري هناك •

وكان أكثر ضيوف فولوديا ترددا عليه ضابط اتصال يسمى دوبكوف ، وتلميذ هو الأمير نخليودوف وكان دوبكوف صغيرا قوى العضلات أسمر الوجه ، ولم يعد فى مستهل شبابه ، تميل ساقاه الى القصر ، ولكنه ليس سيء المنظر ، وهو مرح على الدوام ، من أولئك الأشخاص المحدودى التفكير الذين يلقون قبولا بنوع خاص ، بسبب هذا التحديد نفسه ولا يقدرون على تأمل الأشياء من مختلف الجوانب، ويسمحون لأنفسهم على الدوام بالانسياق مع شيء ما . وحكم أناس كهؤلاء يكون من جانب واحد ويتسم بالخطأ ، ومع ذلك فقلوبهم خالصة ويخلبون اللب دائما . ولسبب ما تبدو حتى أنانيتهم الضيقة مغتفرة ، وجذابة . وبالاضافة الى هذا ، فان لدوبكوف سحرا مزدوجا ازاء فولوديا وازائي ــ هو مظهر البسالة ، وأكثر من هذا كله السن التي يميل فيها الصغار من الناس الى الأخذ بالوقار ــ وهو ماكان يطلق عليه ، كما ينبغي » ــ الشيء الذي يقدره الناس ممن في مثل عمرنا أسمى تقدير ــ يضاف الى ذلك أن دوبكوف كان حقيقا بأن يطلق عليه « كما ينبغي » . والشيء الوحيد الذي لم أكن أحبه هو أن فولوديا في بعض الأحيان كان يبدي خجله في أثناء وجوده من أعمالي البالغة السذاجة ، ومن حداثة سني فوق كل شيء .

لم يكن نخليودوف وسيما : عينان صغيرتان رماديتان ، وجبهة منخفضة غير مستوية ، ذراعان وساقان طويلة غير متناسقة ، وتقاسيم لا يمكن وصفها بالجمال . والشيء الجميل الوحيد فيه هو قامته

الطويلة بصورة غير عادية ، ولون وجهه الرقيق وأسنانه الفائقة الجمال . ولكن تقاسيم وجهه اكتسبت طابع الجدة والحيوية ، من عينيه الضيقتين اللامعتين ، وتعبير ابتسامته الذي كان يتغير من التجهم الى غموض صبيانى لا يسعك الا أن تلتفت اليه .

كان يبدو عليه الخجل الشديد من كل تافهة حتى ليثور وجهه الى أذنيه ، ولكن خجله لم يكن كخجلي، فكلما ازداد وجهه احمرارا ازداد تعبيره قوة اصرار ، وكان يبدو حانقا على نفسه بسبب ضعفه .

وبالرغم مما كان يبديه من شدة الود لدوبكوف وفولوديا ، فمن الواضح أن المصادفة كانت قد وجدت بينهم ، لأنهم كانوا مختلفين كل الاختلاف ... كان يبدو على فولوديا ودوبكوف الخوف من كل شيء ، حتى مايشبه التفاني الجاد والشعور . وكان نخليودوف على العكس ، حاد الطباع الى أقصى حد ، وكثيرا ماينغمس في مناقشة مسائل فلسفية ومشاعر مهملا الأمور الهازلة . وكان فولوديا ودوبكوف مغرمين بالتحدث عن موضوعات حبهما (وكانا يقعان فى الحب فجأة مع الكثيرات ، وكل منهما مع نفس الأشخاص) أما نخليودوف فكان على العكس ، يسخط دائما على نفسه سخطا حقيقيا عندما يشيران الى حبه لفتاة معينة ، فتاة حمراء الشعر » .

كان فولوديا ودوبكوف كثيرا مايسمحان لنفسيهما بالسخرية من أقاربهما ، بينما كان نخليودوف على العكس ، كان ينساق رغم أنفه الى تلميحات خالية من المجاملة الى عمته التي يضمر لها نوعا من

الاحترام المذهل . واعتاد فولوديا ودوبكوف الذهاب الى مكان ما بعد العشاء بدون نخليودوف ، وكانا يطلقان عليه « الفتاة الظريفة » .

وقد أثر الأمير نخليودوف في نفسي منذ الوهلة الأولى بحديثه وكذلك بمظهره . وبالرغم من أنني وجدت كثيرا من طبعه مشتركا معي ــ ولعل ذلك كان هو السبب ــ فان الشعور الذى أوحى به الى عندما رأيته لأول مرة ، لم يكن غير شعور الاستحسان .

كنت أكره لفتته المتعجلة وصوته الحاسم ، وهيئته المتعالية ، وفوق ذلك كله ، عدم الاهتمام الكلى الذى كان يبديه نحوى . وكثيرا ماكنت أحترق شوقا فى أثناء الحديث ، الى معارضته والتغلب عليه كى أعاقبه بالرغم من اهماله لى ، ولكن خجلى كان يمنعنى .

(٥٤)

المناقشات

عندما ذهبت الى حجرة فولوديا كالمعتاد بعد دروس المساء ، كان مضطجعا وقد أسند قدميه على الأريكة ، معتمدا كوعه ، يقرأ قصة فرنسية ، وتطلع الى لمدة ثانية ثم استأنف القراءة ، وهو أمر بسيط وطبيعى الى أقصى حد ، ومع ذلك تسبب فى صعود الدم الى وجهى .

وكان يبدو أن نظرته تتساءل عن سبب مجيئى ، والسرعة التى طأطأ بها رأسه كأنها كانت تفسر الرغبة فى اخفاء معنى هذه النظرة عنى (ان هذا الميل الى ايجاد معنى لأبسط حركة كان خاصة بارزة عندى فى تلك السن) وسرت الى المائدة وتناولت كتابا ، ولكنى قبل أن أبدأ القراءة خطر لى مدى السخرية التى ينطوى عليها عدم تحدث أحدنا الى الآخر فى أى شىء ، فى حين أن أحدنا لم يكن قد رأى الآخر طوال اليوم .

« هل ستكون بالبيت هذا المساء ؟ » .

« لا أدرى ، ولماذا ؟ » .

قلت : « اننى أتساءل وحسب » واذ رأيت أننى لا أستطيع بدء مناقشة ما ، تناولت كتابى وأخذت أقرأ .

ومن العجيب حقا أن فولوديا وأنا كنا نستطيع قضاء ساعات برمتها صامتين وحيدين . ولكن مجرد وجود شخص ثالث معنا ، حتى اذا لم يتكلم ، كان كافيا لبدء أكثر الأحاديث تنوعا وأدعاها الى الاستغراق . وشعرنا كأن أحدنا عرف الآخر جد المعرفة ، فزيادة المعرفة بشخص ما تمنع الألفة الحقيقية بقدر ماتمنعها قلة المعرفة به .

وسمع صوت فى الدهليز يقول : « هل فولوديا بالبيت ؟ » .

فأجاب فولوديا وهو ينزل قدميه ويضع كتابه على المائدة : « نعم » .

ودخل دوبكوف ونخليودوف الغرفة فى سترتيهما وقبعتيهما .

« هل ستأتى الى المسرح ؟ »

وأجاب فولوديا وقد احمر وجهه : « لا ، ليس لدى متسع من الوقت » .

« يالها من فكرة ! أرجو أن تحضر »

« وفوق ذلك فاننى لم أشتر تذكرة »

« يمكنك شراء أى عدد من التذاكر عند الدخول »

وقال فولوديا مراوغا : « انتظر ، سأحضر على الفور » ثم غادر الحجرة وهو يهز كتفيه .

كنت أعرف أن فولوديا شديد الرغبة فى الذهاب الى المسرح ، ولكنه رفض لعدم وجود نقود معه ، وذهب ليقترض خمسة روبلات من الساقى لحين تسلمه راتبه التالى .

وقال دوبكوف وهو يناولنى يده : « كيف حالك أيها الدبلوماسى ؟ »

وكان أصدقاء فولوديا يطلقون على السياسى ، لأن جدتى تحدثت مرة بعد الغداء عن مستقبلنا ، وانها تتمنى أن ترانى دبلوماسيا فى حلتى ذات السترة السوداء ، وشعرى المصفف على طراز « عرف الديك » ، وكانت تعد ذلك أمرا ضروريا فى وظيفة السلك السياسى .

وسأل نخليودوف : « الى أين ذهب فولوديا ؟ »

فأجبته : « لا أدرى » واعترانى الخجل حين فكرت فى أنهم قد يخمنون سبب مغادرة فولوديا للحجرة .

وأضاف : « ليس لديه نقود فيما أظن ، أليس كذلك ؟ » ثم أضاف بالايجاب مفسرا ابتسامتى : « وليس لدى أنا أيضا ـ ألديك نقود يادوبكوف ؟ »

وأجاب دوبكوف على نفسه وهو يخرج كيس نقوده ويتحسس بعناية قطعا صغيرة قليلة بأصابعه القصيرة : « سوف ترى » . وقال وهو يشير بيده اشـــارات مضحكة : « هذه قطعة من ذات الخمسة كوبكات ، وهذه قطعة ذات عشرين كوبك ـ أف » .

ودخل فولوديا فى تلك اللحظة .

« حسن ، أسنذهب ؟ » .

« لا » .

وقال نخليودوف : « يالك من أضحوكة ! لماذا لا تقول انه ليس لديك نقود ؟ خذ تذكرتى ان شئت » .

« ولكن ماذا يكون من أمرك ؟ » .

فقال دوبكوف : « سنذهب الى مقصورة ابن عمه » .

« لا ، سوف لا أذهب البتة » .

« لماذا ؟ » .

« لأنني لا أحب أن أجلس في مقصورة كما تعلم » .

« لا أحب ذلك ، لأنها تجعلني أشعر بالحرج » .

« نفس الفكرة القديمة تعود مرة أخرى !! » انني لا أفهم كيف تشعر بالحرج في حين أن كل شخص يسره أن تكون معه ، انه شيء غير معقول ياعزيزي » .

قال : « وماذا أفعل اذا كنت خجولا ؟ انني متأكد من أنك لم تخجل في حياتك البتة ، ولكني لا أزال أخجل من أقل التوافه » وقد احمر وجهه خجلا في الواقع وهو يتكلم .

وقال دوبكوف بلهجة مشجعة : « أتعرف مصدر خجلك ؟ ... انه من المبالغة في الاعتزاز بالنفس ياعزيزي » .

وقال نخليودوف وقد تأثر في الصميم : « حقاً ، المبالغة في الاعتزاز بالنفس !! على العكس ، لست أحتمل غير قليل جدا من الكبرياء ، وأشعر دائما كأنني غير مقبول ، وأبعث على الملل » .

وقال دوبكوف وهو يمسك فولوديا من كتفيه ويسحب سترته : ارتد ملابسك يافولوديا ، وأنت يا « اجنات » ، دع سيدك يستعد » .

وراح نخليودوف يقول : « وهكذا يحدث لي كثيرا جدا » .

ولكن دوبكوف لم يعد يصغي اليه وأخذ يترنم متمتما : « ترا ـ لا ـ لا ـ لا » .

وقال نخليودوف : « آه ، انك لا تستطيع المضي طويلا على هذا السؤال ، وسأبرهن لك أن الخجل لا ينجم مطلقا عن حب الذات » .

« انك ستبرهن عليه ان أتيت معنا » .

« لقد قلت انني لست بذاهب » .

« حسن ، ابق اذن وبرهن عليه للدبلوماسي ؟ وسيخبرنا بكل ذلك عند عودتنا » .

وجاوب نخليودوف في عناد صبياني : « وأنا كذلك ؟ فهيا أسرعوا بالعودة » .

وقال وهو يجلس بجانبي « وماذا تظن ؟ هل أنا متكبر ؟ » .

ومع أنه كان لي رأي في تلك النقطة ، فقد أذهلني هذا السؤال غير المتوقع ، حتى لقد انقضت فترة قبل أن أتمكن من اجابته » .

وقلت : « وأنا أشعر بصوتي يتهدج ووجهي يحمر ؟ عندما ساورتني فكرة أن الوقت قد حان لأريه أنني ذكي ـ : « أظن أن كل انسان متكبر ؟ وأن كل شيء يفعله الانسان انما يفعله بدافع الكبرياء» .

وقال نخليودوف وهو يبتسم ابتسامة أظن فيها شيئا من الاستخفاف : « وما الكبرياء في رأيك ؟ » قلت : « الكبرياء ـ هو اعتقاد الشخص بأنه أفضل وأعقل من أي شخص سواه » .

« ولكن كيف يستطيع كل شخص قبول ذلك الاعتقاد » .

« لست أعرف ما اذا كان محقا أم لا ، ولكن لا يعترف بذلك أحد ، وأنا مقتنع الآن أنني أعقل من أي شخص آخر في العالم ، وواثق من أنك مقتنع بنفس الشيء » .

وقال تخليودوف : « لا ؛ أستطيع على الأقل أن أقول لنفسي : انني قابلت أناسا أعترف أنهم أعقل مني » .

وأجبت في اقتناع : « هذا مستحيل » .

وقال تخليودوف وهو يمعن في النظر : «هل تظن ذلك حقا ؟» .

ومن ثمة خطرت لي فكرة صرحت بها على التو .

وأضفت قائلا بابتسامة لا ارادية مهذبة : « سأثبت لك هذا . لماذا نحب أنفسنا أكثر من الآخرين ؟ ذلك لأننا نعتبر أنفسنا أفضل من الآخرين، وأجدر منهم بالحب ، فاذا اعتبرنا الآخرين أفضل منا ، فينبغي اذن أن نحبهم أكثر من أنفسنا ، وهذا مالا يحدث مطلقا ، وحتى اذا كان يحدث فأنا على حق أيضا » .

وظل تخليودوف صامتا برهة .

وقال في ابتسامة فيها من العذوبة والرقة ما جعلني أشعر فجأة بالسرور التام : « انني لم أشك مطلقا في أنك ذكي جدا » .

ان المديح يؤثر تأثيرا قويا جدا ، لا في شعور الانسان وحسب ، بل في عقله ، الذي يبدو لي أنني أصبحت أكثر ذكاء تحت تأثيره السار ، وان الأفكار تخطر على ذهني الواحدة بعد الأخرى بسرعة

غير عادية ، ومن الكبرياء انتقلنا الى الحب دون أن نلاحظ ، وتناقشنا في هذا الموضوع الذي لا ينضب له معين فيما أظن . وبالرغم من أن أحكامنا ربما بدت محض هراء للسامع الذي لا يهمه الأمر — وبالرغم من غموضها وانها ذات جانب واحد — الا انها كانت ذات دلالة سامية بالنسبة لنا . وكانت أرواحنا متوافقة في انسجام كبير حتى لقد كانت أقل لمسة على أي وتر في واحد منا تجد لها صدى عند الآخر . واستمتعنا بهذا الصدى المتبادل في مختلف الأوتار التي لمسناها في نقاشنا .

وخيل الينا أن الوقت والكلمات كانت بحاجة الى أن تفسر بها لبعضنا البعض الأفكار التي ننشد النطق بها .

(٥٥)

بداية الصداقة

منذ ذلك الوقت نشأت بيني وبين ديمتري تخليودوف علاقات غريبة نوعا ما ، ولكنها مرضية جدا . وقلما كان يوجه الى اهتماما في حضرة الغرباء ، ولكن حالما يتصادف وجودنا وحيدين ، كنا نجلس في ركن هادىء ، ونأخذ في المناقشة ساهين عن الوقت وعن كل شيء حولنا .

كنا نتحدث عن حياتنا المستقبلة ، وعن الفنـــون ، وعن خدمة الحكومة ، والزواج وتعليم الأطفال، ولم يخطر لأذهاننا أن كل ماقلناه كان هراء فظيعا ، ولم يخطر لنا هذا البتة لأن اللغو الذى كنا نتحدث فيه كان حكمة وهراء لطيفا ، اذ يظل المرء فى شبابه يرفع من قــدر الحكمة ويعتقد فيها . وفى الشباب تتجه كل قدرات الروح نحـــو المستقبل ، ويتخذ ذلك المستقبل لنفسه مثل هذه الأشـــكال الزاهية القائمة تحت تأثير الأمل ـ لا الأمل المؤسس على تجربة الماضى ، ولكن على الاحتمالات المتخيلة لسعادة مقبلة ـ حتى لتشكل مجرد أحـلام المستقبل سعادة حقيقية فى تلك المرحلة من العمر عندما نشترك فيها. وفى المناقشات التى كانت تدور حول ماوراء الطبيعة ، والتى تكون واحدا من أهم موضوعات مناقشاتنا ، كنت أحب اللحظة التى تتوالى فيها الأفكار فى تعاقب سريع بعضها اثر بعض ، ويزداد غموضها على الدوام ، ثم تبلغ درجة من الابهام بحيث لا تجد وسيلة للتعبير عنها ، وبالرغم من ذلك أنك تقول ماتعنيه ، فانك تقول شـــيئا مختلفا كل الاختلاف . كنت أحب التحليق الى أعلى فأعلى فى عوالم الفكر الى حيث تدرك فجأة لا نهائيتها كلها ، وتعترف بتعذر التقدم الى أبعد من ذلك .

حدث أن كان نخليودوف أثنـــاء الكرنفال مستغرقا فى أنواع اللهو ،وبالرغم من حضوره الى المنزل عدة مرات كل يوم لم يتحدث الى مرة واحدة ، وقد ضايقنى هذا منه كثيرا حتى لقد خيل الى مرة

أخرى أنه متعال بغيض ، غير أننى كنت أنتظر الفرصة لأريه على الأقل أننى لم أكن أقيم لعشرته وزنا وأننى لا أحتفظ له بود خاص .

وفى أول مناسبة بعد الكرنفال أراد أن يتحدث الى قلت له ان لدى دروســـا يجب أداؤها ، ثم صعدت الى الطابق العلوى ، ولكن شخصا ما فتح باب حجرة الدراسة ، ودخل نخليودوف .

وسألنى : « هل أزعجتك ؟ » .

فأجبت : « لا » وان كنت أريد أن أقول له اننى مشـــغول فى الحقيقة .

واذن لماذا غادرت حجرة فولوديا ؟ » انا لم نتحدث منذ وقت طويل ، ولقد تعودت ذلك الى الحد الذى أتخيل معه أننى افتقـــدت شيئا » .

واختفى كدرى فى لحظة ، وبدا ديمترى فى عينى نفس طراز الرجل الساحر كما كان من قبل .

قلت : « لعلك تعرف سبب ابتعادى » .

فأجاب وهو يجلس بجانبى : « ربما يكون ذلك ، ولكن حتى لو كنت أخمن فلا أستطيع أن أقول لماذا ولكنك تستطيع أنت ذلك» .

« سأخبرك » : لقد ابتعدت لأننى كنت غـــاضبا عليك ـ لست

خائفاً ، ولكن متكدر • وأصارحك القول أنني أخشى على الدوام أن تستهين بي لأنني لا أزال صغيرا جدا » •

وقال مجيبا على اعترافي بمزاج باش وابتسامة صريحة — « هل تعرف لماذا أصبحت مخلصا لك الى هذا الحد ؟ ولماذا كان حبي لك يفوق حبي للناس الذين عرفتهم وألفتهم أكثر منك ؟ لقد اكتشفت السبب •• لأنك تمتاز بصفة نادرة جدا — الصراحة » •

فقلت مؤمنا على قوله : « نعم ، انني أقول دائما نفس الأشياء التي أخجل من الاعتراف بها ، ولكنني أعترف بهـا لأولئك الذين أثق بهم » •

« نعم ، ولكن لكي يثق المرء بشخص ما ، يجب أن يخلص له حقيقة ونحن لسنا أصدقاء بعد يانيكولاي ، وأنت تذكر أننا بحثنا في الصداقة ، فلكي نكون صديقين مخلصين يجب أن يثق أحدنا بالآخر » •

فقلت : « ولكي آمن على ما أقوله لك ، يجب ألا تذكره لأي شخص آخر ، ولكن أهم الأفكار وأكثرها فائدة هي تلك الأفكار التي لا يخبر بها أحدنا الآخر لأي سبب ! » •

فقال : « ويالهـا من أفكار تعافها النفس ! ان أفكارا كتلك ، لو عرفنا أننا يجب أن نرغم على الاعتراف بها ، كان يجب ألا نتجاسر مطلقا على التفكير فيها » •

وأضاف قائلا وهو ينهض من على مقعده ويفرك يديه مبتسما : « أتعرف ماذا حدث لي يانيكولاي ؟ دعنا ، نعمله ، وسترى كم هو مفيد لكلينا • فلنتعاهد على أن يعترف كل لصاحبه بكل شيء : سيعرف كل منا الآخر ، ولن نخجل ، ولكن لكي لا نخشى الغرباء فلنتعاهد « ألا » نقول « أي شيء » عن بعضنا البعض ، لأي شخص ، وذلك ماسنفعله » •

« ولقد فعلنا ذلك حقيقة ، اما مانتج عن هذا ، فهو ماسأرويه لك فيما يلي :

قال كارل ان لكل اتصال وجهين : واحد يحب ، في حين يسمح الآخر لنفسه بأن يحب ، وواحد يقبل ، والآخر يقدم الوجنة ، وهذا صحيح تماما • وفي صداقتنا ، أنا الذي قبلت وديمتري قدم وجنته ، ولكنه كان مستعدا أيضا لتقبيلي ، حتى لقد أحببنا أحدنا الآخر على قدم المساواة ، لأن كلينا عرف الآخر وقدره ، ولكن هذا لم يمنعـه من فرض تأثيره علي وخضوعي له •

وتحت تأثير نخليودوف تبنيت رأيه دون وعي مني بطبيعة الحال ، وجوهر هذا الرأي هو العبادة الحارة للفضيلة المثالية والاعتقاد في أن الانسان يهدف على الدوام الى تكميل نفسه ، ثم يبدو اصلاح النوع

البشري كله ، والقضاء على رذائل الانسان ، وتفاهته ، شيئا سهلا ، فاصلاح المرء لنفسه ، والحصول على كل الفضائل ، والتمتع بالسعادة ، كل ذلك كان يبدو أمرا يسيرا .

ولكن الله وحده يعلم ما اذا كانت آمال الشباب السامية هذه هزلا ، ومن هو الملوم على عدم تحقيقها .

الشباب

(٥٦)

الوقت الذى أعتبره بداية لشبابى

قلت ان صـــداقتى مع دمترى كشفت لى صـــورة جديدة من الحياة ... أهدافها واتجاهاتها . وتتكون هذه الصورة فى جوهرها من الاعتقاد بأن مصير الانسان هو الكفاح فى سبيل الكمال الخلقى ، وأن هذا الكمال سهل وممكن ودائم . ولكنى كنت استمتع قبل الآن بكشف الأفكار الجديدة التى تنبثق من هذا الاعتقاد ، ومن تكوين خطط رائعة لمستقبل أخلاقى نشيط ، بينما كانت حياتى تسير على أسلوبها المشوش العقيم - وكانت الأفكار المختلفة التى بحثتها فى أحاديثى مع صديقى المحبوب دمترى - (أو ميتيا المدهش) كما كنت أدعوه أحيانا فيما بينى وبين نفسى - لاتزال ترضى عقـــلى فقط ، لا مشاعرى . ومع ذلك فان الوقت قد حان لظهور أفكار أخلاقية كهذه فى عقلى ، فيها من العذوبة والجدة ماجعلنى أنزعج حين تأملت مدى الوقت الذى ضيعته ! وأردت أن أطبق هذه الأفكار مباشرة ،

وفى نفس اللحظة ، على الحياة ، بقصد راسخ وألا أتنكر لها .

ذلك هو الوقت الذى أؤرخ به بداية « شبابى » . كنت آنئذ أناهز السادسة عشرة، واستمر المدرسون فى تلقينى الدروس، وكان سان جيروم لايزال مشرفا على دراساتى ، وكنت مضطرا الى الاعداد للجامعة على غير رغبة منى ، وكانت مشاغلى خارج الدراسات تتضمن العـزلة ، والهـــواجس والتأملات المتقطعة ، وتدريبات الألعـاب الرياضية ، لكى أجعل من نفسى أقوى رجل فى العالم ؟ وفى التجول على غير هدى بجميع حجرات المنزل ، وبخاصة فى دهليز حجرة الخادمات ، والتفرس فى وجهى عرضا فى المرآة . وكنت أنصرف عن هذا الانشغال دائما بشعور من القنوط لا يحتمل ، بل بشـعور الامتعاض . ولم يقتصر الأمر على سذاجة مظهرى ، كما كنت أعتقد، بل كنت عاجزا عن التسرية عن نفسى بضروب التسلية المعتادة فى مثل هذه الأحوال ، فلم أستطع القول بأن وجهى معبر أو مفكر أو نبيل ؛ لم يكن فيه شىء ينطوى على تعبير ، فالتقـــاسيم من الطراز البسيط المعتاد ، وعيناى الصغيرتان الرماديتان أقرب الى الغباء منهما الى الذكاء وبخاصة حين كنت أتفرس فى المرآة ، كان شكلى لايزال ينقصه شىء من سمات الرجولة؟ وبالرغم من أننى لم أكن صغير القامة، وكنت قويا جدا بالنسبة الى سنى ، فان جميع تقاسيم وجهى كانت

رخوة مترهلة ، سيئة التحديد ، بل لم يكن فيها شيء نبيل ، على العكس ، كان وجهي أشبه بوجه الفلاح الروسي ، وكانت يداي وقدماي كبيرتان مثله ، وخيل الى في ذلك الوقت أنه شيء مهين .

« ٥٧ »

الربيع

في السنة التي التحقت فيها بالجامعة ، وقع عيد القيامة في تاريخ متأخر جدا من شهر ابريل حتى ان الامتحانات عقدت في أسبوع كواسيمودو (١) ، وكان على أن أتناول القربان المقدس أثناء أسبوع الآلام وبذلك يتم اعدادي .

كان الطقس رخواً ، حاراً صافياً لثلاثة أيام بعد الجليد الرطب الذي كان يسميه كارل ايفانتش عادة « الابن أعقب الأب » . ولم تعد ترى في الشوارع كتلة واحدة من الثلج ، وكان الوحل القذر قد أفسح الطريق للبلل ، والأرصفة اللامعة والجداول السريعة .

---

(١) هو الأسبوع التالي لعيد القيامة عند الكنيسة الغربية . ويعرف الأحد التالي لعيد الفصح بأحد توما في الكنيسة الشرقية . ولا يقدم القربان المقدس في أسبوع القيامة عادة الا للضرورة القصوى .

(المترجم)

كانت القطرات الأخيرة من ذوب الجليد تتساقط من الأسطح تحت الشمس ، والبراعم تزدهر على الأشجار في الحديقة الأمامية ؛ وكان الممر في الفناء جافاً ، وبدأت الحشائش الشبيهة بالطحلب بالقرب من مرابط الماشية ، وفيما وراء أكوام السماد المتجمدة ، وبين الأحجار عند السقيفة تتحول الى الخضرة . ان هذه الفترة الخاصة من الربيع هي التي تؤثر تأثيرا قويا في نفس الانسان ــ الشمس صافية ، مكتملة، لامعة ، ولكنها ليست حارة . والجداول ومساحات الجليد المكشوفة تهمس للهواء بالنضارة ، والسماء ذات الزرقة الرقيقة المرقطة بالسحب الطويلة الشفافة ... لست أعرف السبب ، ولكن يخيل الى أن تأثير هذه الفترة الأولى من مولد الربيع تكون أشد قوة وأدعى الى الشعور بها في مدينة كبرى ــ ان المرء يرى القليل ولكنه يدرك الكثير . كنت واقفا أمام النافذة التي تنسكب أشعة الشمس المرقطة من اطاراتها المزدوجة على أرض حجرة الدراسة التي ضقت بها ضيقا لا يحتمل ، وأنا أحل على السبورة معادلة طويلة في الجبر . كنت ممسكا باحدى يدي نسخة بالية ضعيفة من كتاب فرانكر في علم الجبر ، وبالأخرى قطعة صغيرة من الطباشير كنت قد لوثت بها يدي الاثنين ووجهي وكتفي سترتي . وكان نيكولاي يرتدي مبذعة ويكشط المعجون ويخلع المسامير من النافذة المطلة على الحديقة الأمامية ، فأدى عمله هذا ، والضجة التي أحدثها الى تشتيت انتباهي ، بالاضافة الى حالتي العقلية السيئة الساخطة . لم تجر الأمور معي على وجه مرض ، فقد ارتكبت غلطة في أول عملية الجمع ، ولذا

كان لا بد لى أن أبدأها من جديد ، وأسقطت قطعة الطباشير مرتين، وكنت عارفاً بتلوث يدى ووجهى ، واختفت الاسفنجة فى مكان أو آخر ، وكانت الضجة التى يحدثها نيكولاى قد أتت على أعصابى ، وشعرت كأننى أثور غضبا وأتذمر من شخص ما ؛ فألقيت بالطباشير والجبر جانبا وأخذت أذرع الحجرة . وتذكرت حينئذ أننى يجب أن أذهب اليوم للاعتراف ، وأننى يجب أن أكف عن ارتكاب أى خطأ ؛ ثم انتهيت فجأة الى مزاج لطيف ، واقتربت من نيكولاى .

وقلت محاولا أن أضفى على صوتى أرق تنغيم : « دعنى أساعدك يانيكولاى ، ولاعتقادى أننى أتصرف تصرفاً سليما ، وأننى كظمت غيظى وأخذت فى مساعدته ، فقد رفعت هذه النزعة اللطيفة من حالتى العقلية أكثر من ذى قبل .

ونزع المعجون ، وأزيلت المسامير ، وبالرغم من أن نيكولاى قد شد على الاطار المعاكس بكل قوته فانه لم يذعن له .

وقلت فى نفسى : « اذا انخلع الاطار الآن مباشرة عندما نشده سويا ، فمعنى هذا أننى أرتكب اثما لو ذاكرت اليوم أكثر من ذلك ، ولذا فلن أذاكر » . ومال الاطار على أحد الجانبين ثم انفصل .

وقلت : « الى أين سيحمل ؟ » .

وأجاب نيكولاى وقد ظهرت عليه الدهشة ، وامتعض فيما يبدو لحماستى هذه : « اسمح لى أن أدبر هذا بنفسى ، سأحتفظ بها جميعا مرقمة فى حجرة السطح .

وقلت وأنا أرفع الاطار : « سأرقمه » .

يخيل الى أنه لو كانت حجرة السطح على مسافة فرسخين ، واطار النافذة ضعف وزنه ، لسرنى هذا كثيرا جدا . ولأردت أن أتعب نفسى فى أداء هذه الخدمة لنيكولاى . وعندما عدت الى الحجرة كانت القراميد وأقماع الملح (١) قد أعيد وضعها على عتبات النوافذ ، وكنس نيكولاى الرمل والذباب المسكين وقذف به من النافذة المفتوحة . وملأ الحجرة هواء جديد لذيذ ، ونفذ منها أيضا طنين المدينة وزقزقة العصافير .

كان كل شىء يسبح فى الضوء ، وأصبحت الحجرة مبهجة ، ونسيم الربيع الهادىء يهز أوراق كتاب الجبر وشعر نيكولاى . وسرت الى النافذة ، وجلست على الافريز ، وانحنيت مطلا على الحديقة وأخذت أفكر .

وللحال تغلغل فى روحى شعور جديد سار بالغ القوة : الأرض الرطبة التى تتدافع فوقها النصال الخضراء اللامعة من الحشائش ذات السيقان الصفراء وتنسق طريقها ، والجداول تتلألأ تحت أشعة الشمس ، وتدوم بالمدر الترابى الصغير وشرائح الخشب ، وتحمل معها عساليج الزنبق الآخذة فى الاحمرار ببراعمها المتفتحة التى كانت تتمايل تحت النافذة مباشرة ؛ والزقزقة القلقة التى تصدر عن

(١) أقماع الملح الصغيرة توضع فى النوافذ المزدوجة لامتصاص الرطوبة ، أما القراميد أو قوالب الطوب الصغيرة فانها تضاف غالبا للزينة .

الطيور المزدحمة في هذه الحريجة ، والسياج الضارب الى السواد المبلل بذوب الجليد ، بل الهواء الندى المعطر والشمس الضاحكة بنوع خاص ــ كانت تتحدث الى في صراحة وصفاء عن شيء جديد بالغ الجمال ، ان كنت لا أستطيع تصويره كما حدثني عن نفسه ؟ فانني سأحاول أن أعيده كما تلقيته ، كل شيء تحدث الى عن الجمال والسعادة والفضيلة ، وقال كل منها انها ميسرة لى وممكنة ، حتى أن الواحدة لا يمكن أن توجد من دون الأخرى ، بل ان الجمال والسعادة والفضيلة كل واحد ونفس الشيء . وقلت في نفسي : « كيف أخفقت في فهم هذا ؟ وكم كنت شريراً قبل الآن !! وكم كان يمكن أن أكون سعيداً ، وكم ستكون سعادتي في المستقبل !! » يجب أن أصبح بسرعة رجلا آخر ، بأسرع ما يمكن ، وفي نفس هذه اللحظة ؟ وأبدأ حياة مختلفة . . ولكنني برغم ذلك ظللت جالساً وقتاً طويلا عند النافذة أحلم ولا أفعل شيئا . ألم يحدث لك مطلقا أن اضطجعت في الصيف لكي تنام إبان النهار في جو مقبض مطير ، ثم تستيقظ عند غروب الشمس ، لتفتح عينيك ، فترى من خلال النافذة المربعة الواسعة ، ومن تحت الستار الكتانى الذى ينتفخ بالهواء ، ويضرب بعوده عتبة النافذة من الجانب الظليل الأرجواني لممشى الزيزفون المبلل بالمطر ، وممرات الحديقة المنداة التى تضيئها أشعة الشمس اللامعة المائلة ، ولتسمع على حين فجأة صوت الحياة المرحة بين العصافير في الحديقة ، ولترى الحشرات تحوم عند فتحة النافذة في الشمس الشفافة ؟ ثم تنتبه الى رائحة الهواء العطرة بعد المطر وتقول

في نفسك : « ياله من عار أن أنام في أمسية كهذه !! » وحينئذ تقفز متعجلا لكي تذهب الى الحديقة وتبتهج بالحياة ؟ اذا كان هذا قد حدث لك ، فلابد أن هناك نوعا من الشعور القوى الذى خبرته آنئذ .

(٥٨)

هواجس

قلت لنفسي : « سأذهب اليوم الى الاعتراف ، ولن أقترف خطيئة مرة أخرى (وهنا تذكرت جميع ذنوبي التى كانت تؤلمنى الى أقصى حد) ؟ وسوف أذهب الى الكنيسة دون انقطاع كل يوم أحد ، ثم سأقرأ في الانجيل فيما بعد ساعة كاملة . ومن الورقة ذات الخمسة والعشرين روبل التى سأتناولها كل شهر عندما ألتحق بالجامعة سأعطى بكل تأكيد روبلين ونصف روبل (وهو عشر المبلغ) للفقراء ، وبوسيلة لا يعرفها أحد قط ــ وليست للمتسولين ، بل سأبحث عن أناس فقراء ، يتيم أو امرأة عجوز لا يعرف أحد عنهما شيئاً .

« وستكون لى حجرة خاصة بى (يحتمل أن تكون حجرة سان جيروم) وسأعنى بها بنفسي ، وسأحافظ على نظافتها بصورة مدهشة ، ولن أترك للخادم شيئاً يفعله ، لأنه كائن بشرى مثلى . ثم سأمشى الى الجامعة (واذا أعطونى دروشكا (عربة صغيرة)

فسأبيعها وأعطي هذا المال أيضاً للفقراء) ، وسأفعل كل شيء بأعظم قدر من التدقيق (أما هذا « الكل شيء » فلم يكن لدي فكرة عنه آنئذ) ، ولكنني كنت مدركا وشاعراً بهذا « الكل شيء » في الحياة الحسية والعقلية المستقيمة ، وسأعد محاضراتي بل سأقرأ الموضوعات مقدماً لكي أكون على رأس المرحلة الدراسية الأولى .

وأكتب بحثاً ؛ وسأعرف كل شيء مقدماً في المرحلة الثانية ، ولربما انقل مباشرة الى المرحلة الدراسية الثالثة ، وبذلك أتخرج في الثامنة عشرة بوصفي الطالب الأول مع وسامين من الذهب ، وحينئذ أستعد لامتحان درجة أستاذ ، ثم لدرجة دكتور ، وأصبح المتعلم الرائد في روسيا ، ولربما أصبح أعظم عالم في أوربا ، وتساءلت : « ثم ماذا بعد ذلك ؟ » ، ولكنني تذكرت هنا أن هذه أحلام ـ كبرياء ، اثم ، يجب أن أعترف بها للكاهن في ذلك المساء ، وعدت الى أول تأملاتي : « ولاعداد محاضراتي سأسير الى تلال سبارو ، وهناك سأتخير بقعة تحت شجرة حيث أقرأ الدرس . وسآخذ شيئاً أطعم به في بعض الأحيان مثل الجبن أو فطائر اللحم من محل « بيدوتي » أو شيئاً آخر . وأستريح ، ثم أقرأ كتاباً ممتعاً ، أو أرسم منظراً طبيعياً أو أعزف على آلة موسيقية (يجب أن أتعلم بلا شك العزف على الناي) ، ثم تذهب « هي » أيضاً للنزهة الى تلال سبارو سيراً على الأقدام ، وستقبل علي يوماً وتسألني عمن أكون وسأتفرس فيها .. آه ، في أسى ، وأقول لها انني ابن

كاهن ، وأنني أشعر بالسعادة هنا فقط حين أكون وحدي ، وحيداً تماماً . ثم تناولني يدها وتقول شيئاً ما ، ثم تجلس الى جانبي ، ومن ثمة تذهب الى هنالك كل يوم ونصبح أصدقاء ، وسأقبلها» لا ، ليس هذا صواباً ، بل على العكس ، فلن أتطلع البتة الى امرأة من هذا اليوم فصاعداً . ولن أدخل أبداً حجرة الخادمات ، بل سأحاول ألا أمر بها . وبعد ثلاث سنوات سأتحرر من الوصاية وأتزوج دون ابطاء . وسأقوم بالتدريبات الرياضية كل يوم قدر ما أستطيع ، وبذلك عندما أبلغ العشرين سأكون أقوى من « رابو » ؛ سأرفع في أول يوم نصف بود بيدي ممدودة لمدة خمس دقائق ، وفي اليوم التالي واحداً وعشرين رطلا ، وفي اليوم الثالث اثنى وعشرين رطلا وهكذا بحيث استطيع رفع أربعة أبواد في كل يد ، وأصبح أقوى من أي رجل عرفته ، فاذا ما تجاسر أي شخص على اهانتي ، أو تحدث « عنها » بلا تبجيل ، فانني أمسكه من صدره وأرفعه ذراعاً أو ذراعين عن الأرض بيد واحدة ، وأمسك به فقط مدة كافية لأجعله يشعر بمدى قوتي ، ثم أخلي سبيله . ولكن هذا ليس صواباً أيضاً ، آه ، لا أهمية لذلك ، فلن أصيبه بأي أذى ! انما سأريه فقط » .

لا يعيرني أحد لأن أحلام شبابي كانت طفولية كأحلام طفولتي وصباي ، وأعتقد أنني لو عشت الى أرذل العمر ، لأواصل قصة حياتي على الأيام ، أنا ، الرجل العجوز ذو السبعين عاما ،

لوجدتني أرى أحلاما طفولية متعذرة الحدوث كتلك التي أحلم بها الآن ، سأحلم بفاتنة ما اسمها ماريا ، تحبني ، أنا العجوز العاطل من الأسنان كما أحبت ماريا (١) ، وأحلم بابني الضعيف العقل كيف سيصبح وزيراً على حين فجأة في ظرف غير عادي ، أو أحلم كيف سيهبط على كنز من الملايين فجأة ، واعتقادي أنه لا يوجد كائن بشري ، أو عمر من الأعمار محروم من هذه القدرة الخيرة المعزية ، وهي القدرة على الحلم . ومع ذلك ، فقيما عدا ما يميز الأحلام من طابع الاستحالة بوجه عام – أي طبيعتها السحرية – فان أحلام كل انسان في كل أعمار الحياة لها معالمها الخاصة المميزة . وفي خلال تلك الفترة الزمنية التي اعتبرها ختاماً لصباي وبداية لشبابي، تكونت أربع عواطف هي أساس أحلامي : عاطفة حب موجه « اليها » ، الى امرأة وهمية كنت أفكر فيها دائماً بنفس الانفعال ، وأتوقع مقابلتها في مكان ما ، في أية لحظة . وهذه هي الـ « هي » ، كانت تشبه سونتشكا قليلا ، وتشبه ماشا زوجة فاسيلي قليلا ، عندما كانت تقف تغسل منحنية فوق القصعة ، وتشبه قليلا تلك المرأة ذات اللآلىء حول عنقها الأبيض ، التي رأيتها بالمسرح منذ أمد طويل ، في المقصورة الملاصقة لمقصورتنا . والعاطفة الثانية كانت الحب للحب . كنت أريد أن يعرفني كل شخص ويحبني . كنت أريد أن أكون قادراً على النطق باسمي ، نيكولاي ارتنيف ، وأن يأتي

(١) اشارة الى قصيدة بوشكين الشاة «بولتافا» .

الجميع وقد أفزعهم هذا النبأ ، فيحتشدون حولي ويشكرونني على شيء ما . والشعور الثالث كان الأمل في سعادة ما بارزة باهرة – سعادة فيها من العظمة والثبات ، ما يجعلها تشرف على حافة الجنون . كنت واثقاً تماماً أنني سأصبح وشيكاً جداً أبرز رجل في العالم نتيجة لظرف أو لآخر غير عادي حتى أنني كنت أعيش في توقع مهزوز دائم لغبطة ساحرة في صورة ما . كنت دائم التوقع أنها على وشك البداية ، وأنني سأحصل على كل ما يتمناه انسان ، وكنت أتعجل دوماً في كافة الاتجاهات مفترضاً أنها ، بدأت ، فعلا في مكان تصادف أنني لم أكن فيه . والشعور الرابع والأساسي كان تقززي من نفسي وندمي ، ولكنه ندم يمتزج بالأمل في النعيم امتزاجاً كبيراً بحيث لم يكن يعتوره أي شيء يدعو الى الأسى . كان يبدو لي من اليسير والطبيعي جداً ، انتزاع نفسي من الماضي برمته ونسيان كل شيء كان في الماضي ، وأن أفعل كل شيء من جديد ، وأنسى كل ما كان ، وأبدأ حياتي مرة أخرى بكل علاقاتها وأن الماضي لا يثقل علي ولا يقيدني . بل انني وجدت لذة في نبذ الماضي، ورأيته ذا ألوان أشد كآبة مما كانت . وكلما يشتد سواد ذكريات الماضي ، كلما تزداد نقطة الحاضر النقية اللامعة ، نقاء ولمعانا ، وتبرز ألوان قوس قزح المستقبل على نقيضها . ان صوت تأنيب الضمير ، والرغبة المتحمسة التي تطلب الكمال ، كانت هي العاطفة الأساسية الجديدة في تلك المرحلة من مراحل النمو ، وكان هذا الصوت هو الذي هيأ مبادىء جديدة لآرائي عن نفسي وعن الناس وعن دنيا

الله . آه ، أيها الصوت الحنون المعزى ـ فى الأيام الحزينة التى تنوء فيها الروح مذعنة لثقل بطلان الحياة ورذيلتها ـ الذى كثيراً ما ارتفع فجأة بالاحتجاج على كل شىء كاذب ، كاشفاً عن الماضى ، مشيراً الى النقطة اللامعة فى الحاضر ، دافعاً للمرء على حبها ، واعداً بالخير والسعادة فى المستقبل ـ آه ، يالك من صوت مبارك مفرح !! أستصمت فى يوم من الأيام ؟

(٥٩)

دائرة اسرتنا

قلما كان يأتى والدى الى البيت فى هذا الربيع ، ولكنه كلما أتى كان يمرح الى أبعد حد ، ويعزف قطعه المفضلة على البيانو ، وينظر الينا متحاباً ، ويمازح ميمى ويمازحنا جميعاً ، فيقول ان ابن قيصر جورجيا رأى ميمى تجيد الركوب فوقع فى حبها ، حتى أنه أرسل التماساً الى مجمع رؤساء الطائفة يطلب الطلاق ، أو أننى عينت سكرتيراً مساعداً للسفير فى فينا ـ وكان يذيع هذه الأخبار بوجه جاد تماماً ، وبعد ذلك يخيف كاتنكا بالعناكب ، التى كانت تفزع منها . كان ودوداً جداً لصديقينا دوبكوف ونخليودوف ، ويخبرنا على الدوام مع زائرينا بمشروعاته عن السنة المقبلة . وبالرغم من أن هذه المشروعات كانت تتغير كل يوم تقريباً ، ويناقض بعضها

البعض ، الا أنها كانت جذابة جداً حتى لقد كنا نصغى اليها باشتياق ، وتتفرس ليوبتشكا فى فم أبى دون أن تطرف لها عين خشية أن تفوتها كلمة . ومشروعه الآن هو أن يتركنا فى موسكو بالجامعة ، ويذهب مع ليوبتشكا لمدة عامين ، ثم يشترى ضيعة بالقرم على الشاطىء الجنوبى ، ويذهب الى هناك كل صيف ، ومرة أخرى أيضاً ، ينتقل الى سان بترسبورج مع كل الأسرة ، وهكذا . ومع ذلك ، فبالاضافة الى مرح والدى الملحوظ ، فقد حدث فيه تغير آخر سبب لى أعظم الحيرة ، ذلك أنه أحضر لنفسه بعض الملابس على أحدث طراز ـ سترة زيتونية اللون ، وسروالاً من الطراز الحديث ذا أحزمة للقدمين ، ومعطفاً طويلاً ملائماً له الى أقصى حد ـ وكثيراً ما كان يتعطر بأذكى العطور عندما يذهب الى مكان ما ، وبخاصة الى السيدة التى لم تتحدث عنها ميمى قط الا وهى تتنهد ، ويتسم وجهها بملمحة كأن لسان حالها يقول : « أيها الأيتام المساكين ! انه حب تعيس ، ومن الخير أنها » ليست على قيد الحياة ، وهكذا . وقد علمت من نيكولاى (لأن أبى لم يقل لنا شيئاً قط عن مغامراته) أنه كان موفقاً جداً فى لعب الورق ابان ذلك الشتاء ، فقد ربح مبلغاً هائلاً جداً وضعه كله فى المصرف ، ولم يرغب فى اللعب مرة أخرى فى ذلك الربيع ؟ ومن المحتمل أن يكون هذا هو سبب اهتمامه بالذهاب الى الريف بأسرع ما يستطيع خشية ألا يستطيع كبح جماح نفسه ، بل انه صمم على ألا ينتظر دخولى

الجامعة ، وعلى أن يذهب مع الفتيات الى بتروفسكوى بعد عيد القيامة مباشرة ، حيث نلحق به ، فولوديا وأنا هناك فيما بعد .

لم يفترق فولوديا عن دوبكوف طوال الشتاء ، بل الى الربيع (ولكن علاقته قترت كثيراً مع ديمترى) وكانت متعهما الأساسية ، بقدر ما أستطيع الحكم من خلال الأحاديث التى سمعتها ، تتضمن شرب الشمبانيا دون انقطاع ، والسير بمركبة جليد تمر من تحت نوافذ السيدات الصغيرات اللائى وقع كلاهما فى حبهن ، والرقص وجها لوجه ـ لا فى حفلات الرقص الخاصة بالأطفال ، ولكن فى مراقص حقيقية .

ان هذه الحالة الأخيرة سببت نفوراً بين فولوديا وبينى بالرغم من ودنا المتبادل ! وكنا ندرك أن هناك بوناً كبيراً جداً بين صبى لا يزال تحت اشراف معلمين خصوصيين ، ورجل يرقص فى حفلات الرقص الكبرى ، بحيث يتعذر ربط أفكار أحدنا بالآخر . كانت كاتنكا قد نضجت تماماً ، وقرأت طائفة كبيرة جداً من الروايات ، ولم تعد فكرة زواجها وشيكاً مجرد مزاح فى نظرى بعد الآن ، ومع ذلك ، فبالرغم من أن فولوديا قد اكتمل نموه أيضاً ، فانهما لم يكونا متلازمين ، لا بل كان يستخف أحدهما بالآخر فيما يظهر . ولم يكن لدى كاتنكا وهى فى البيت ما يشغلها غير الروايات ، وكانت تضيق بالوقت كل الضيق ، ولكن حين كان يزورنا الرجال تصبح فى غاية النشاط والفتنة ، وترمقهم بنظرات الغرام ، ولم أستطع فهم

أقل شىء مما تعنيه هذه النظرات . وأخيراً فقط ، حين عرفت من حديثها أن الغزل الوحيد المباح لفتاة ، هو غزل العيون ، استطعت أن أفسر لنفسى حركات العين الغريبة المصطنعة التى لم تبد غريبة البتة فى أعين الآخرين . وأخذت ليوبتشكا ترتدى ملابس معظمها طويل لكي تخفى ساقيها السيئى التكوين فلا يكاد يظهر منهما شىء البتة ، ولكنها ظلت كثيرة البكاء ، كما كانت دائماً ولم يعد حلمها الآن الزواج من أحد رجال السوارى ، بل من مغن أو موسيقى ، وبناء على ذلك عكفت على موسيقاها بنشاط أوفر من ذى قبل . أما سان جيروم ، الذى كان يعلم أنه سيبقى بالمنزل فقط حتى تنتهى امتحاناتى ، فقد وجد وظيفة عند ، كونت ، فكان منذ ذلك الوقت ينظر الى بيتنا فى شىء من الازدراء . وقلما كان يبقى فى البيت ، وعكف على تدخين السجائر التى كانت تمثل قمة الأناقة ، ويصفر انغاماً مرحة دون انقطاع . وأخذت ميمى تزيد صرامة يوماً بعد يوم ، والآن ، وقد بدأنا نكبر ، لم يعد ينتظر ، فيما يبدو ، من أحد ، أى خير .

عندما نزلت لتناول الغداء ، وجدت ميمى وكاتنكا وليوبتشكا ، وسان جيروم وحدهم فى حجرة الطعام ، ولم يكن أبى بالمنزل ، وكان فولوديا يستعد لامتحانه مع زملائه بحجرته ، وأمر بتقديم الطعام لهم هناك . وأخيرا جاءت ميمى التى لم يكن بيننا من يحمل لها احتراماً ، فجلست على رأس المائدة ، وبذلك فقد الغداء كثيراً من

جماله . لم يعد الغداء كما كان على أيام أمي وجدتي ، نوعاً من الاحتفال يوجد الأسرة كلها في ساعة معينة ، ويقسم اليوم الى نصفين ؛ وكنا نسمح لأنفسنا بالتأخر ، والحضور في شطره الثاني ، وبشرب النبيذ من اكواب غير الأكواب العادية (وضع سان جيروم بنفسه مثالا في هذه النقطة) ، وبأن نسترخي على مقاعدنا ، ونترك المائدة قبل أن ينتهي الطعام ، وما الى ذلك من الحريات . ومنذ تلك الآونة لم يعد للغداء كما كان من قبل ، مرحه ووقاره العائلي اليومي .

تعودنا في أيامنا السالفة في بتروفسكي ، أن يأتي كل منا الى الطعام وقد استحم وارتدى ملابسه من جديد ، وأن يذهب الى حجرة المائدة في الساعة الثانية ، ويجلس هناك يثرثر مغتبطاً في انتظار الساعة المعينة . وفي الوقت الذي تبدأ فيه ساعة مخزن رئيس الخدم في الطنين التمهيدي لتعلن عن الساعة الثانية ، كان يدخل فوكا دون جلبة والفوطة على ذراعه بوجه مهيب عابس نوعاً ما ، ويعلن في صوت مرتفع وقور أن « الغداء جاهز !! » . ويذهب الجميع الى حجرة الطعام ، الكبار في المقدمة والصغار من ورائهم بوجوه مرحة راضية ، قمصانهم النشاة تخشخش ، وأحذيتهم تحدث صريراً ، فيجلسون في أماكنهم المألوفة يتحدث في أصوات خفيضة .

وكنا في موسكو أيضا نقف أمام المائدة نتحدث في هدوء في انتظار جدتي ؛ ويكون جافريلو قد ذهب ليبلغها أن الغداء معد ، فتفتح الباب في الحال ، وهنا يسمع حفيف ثوب خافت ، وصوت أقدام .

وتخرج جدتي من حجرة نومها وعلى رأسها غطاء مزركش بأشرطة قديمة بنفسجية ، باسمة أو متجهمة (حسبما يتفق مع حالتها الصحية) — ويندفع جافريلو الى مقعدها ، وتصرف المقاعد الأخرى فتشعر بقشعريرة تجرى في عمودك الفقرى — تبشر بشهية للأكل — وتتناول « فوطتك » الرطبة المنشاة نوعاً ما ، وتطعم قضمة أو قضمتين من الخبز ، وتفرك يديك تحت المائدة بضراعة متعجلة هائلة . وتتأمل جفنة الحساء التي يتصاعد منها البخار ، التي يوزعها رئيس الخدم وفقاً للمركز والسن والحظوة عند جدتي .

ولكنني لم أعد أتذوق مثل هذا الابتهاج أو الاثارة التي تجرى بين ميمي وسان جيروم والفتيات حول الحذاء الفظيع الذي ينتعله المدرس الروسي وملابس الأميرة كورناكوفا ذات الأذيال وهكذا — هذه الثرثرة التي كانت توحى الى من قبل بالاحتقار الحقيقي الذي لم أكن حتى أحاول اخفاءه بقدر مايتصل الأمر بلوبتشكا وكاتنكا — أخفقت في ازعاج حالتي العقلية الجديدة الخيرة ، وكنت لطيفا على غير العادة ، وأصغيت اليهم بابتسامة مجاملة خاصة ، وطلبت بأدب أن يناولوني « الكفاس » (١) . ووافقت سان جيروم حين أصلح لي العبارة التي كنت قد استعملتها قبل الغداء وأخبرني أن قولي : « أستطيع » خير من قولي : « يمكنني » (٢) . ومع ذلك فيجب أن

---

(١) نوع من الجعة الروسية ، وتصنع عادة من الجاودار .

(٢) قيلت هذه العبارة باللغة الفرنسية ، وهي في الأصل Je puis بدلا من Je peu .

أعترف أنه ساءنى نوعاً ما أن أحداً لم يلاحظ أية ملاحظة خاصة على كياستى وظرفى . وأرتنى ليوبتشكا بعد الغداء ورقة كانت قد كتبت عليها ذنوبها ! فقلت لها كل شىء على خير مايكون ، ولكن الأفضل أن يكتب المرء ذنوبه فى روحه ، أما الذى فعلته فانه « لم يكن المطلوب » .

وسألتنى ليوبتشكا : « ولم لا ؟ » .

« لا ضير ـ وذلك أيضا حسن جدا ، انك لا تستطيعين فهمى » ثم صعدت الى حجرتى بالطابق العلوى ، وأخبرت سان جيروم أننى ذاهب للمذاكرة ، ولكننى فى الحقيقة أردت قضاء الوقت الباقى على الاعتراف الذى كان سيتم فى مدى ساعة ونصف ، وكتبت قائمة بواجباتى ومشاغل حياتى كلها ، وعرضت على ورقة هدف حياتى والقواعد التى ينبغى العمل بمقتضاها دون أى انحراف .

(٦٠)

قواعد

أخذت رقعة من الورق ، وحاولت قبل كل شىء كتابة قائمة بواجباتى وفروضى فى السنة القادمة ، ولما كان يجب أن تسطر هذه الورقة ، فى حين أننى لم أجد مسطرة ، فقد استخدمت قاموس اللغة اللاتينية . وعندما أجريت الريشة على طول القاموس ، ثم رجعت بها ثانية ، ظهر لى أننى تركت على الورقة بقعة طويلة من الحبر بدلا من السطر ، هذا بالاضافة الى أن القاموس كان أقصر من الورقة ، فدارت الريشة حول زاويته اللينة . وتناولت قطعة أخرى من الورق ، وبتحريك القاموس تمكنت الى حد ما أن أرسم خطا معينا . وبعد أن قسمت واجباتى الى ثلاثة أقسام ـ نحو نفسى ، ونحو جارى ونحو الله ـ بدأت أكتب واجبات القسم الأول ، ولكنها أصبحت كثيرة جدا ، وتعددت أنواعها وأقسامها الفرعية حتى أصبح من الضرورى أن أكتب أولا « قواعد الحياة » ثم أشرع عندئذ فى عمل بيان بها . فتناولت ست قطع من الورق ، خططتها فى شكل كراسة وكتبت فى أعلاها « قواعد الحيـاة » وظهرت هاتان الكلمتان فى شكل متعرج مشوش حتى أننى فكرت برهة طويلة فيما اذا كان ينبغى أن أكتبها ، وانزعجت طويلا وأنا أتأمل هذا البيان المهلهل وهذا العنوان الذى لا شكل له ... لماذا يتحول كل شىء كان جميلا وتليقا جدا فى روحى الى شىء كريه على الورقة ، وفى الحياة بوجه عام حين أرغب فى التطبيق العملى لأى شىء من الأشياء التى أفكر فيها ؟

وجـاء نيكولاى ينبئنى قائلا : « لقد حضر الكاهن ، فتفضل بالهبوط الى الطابق السفلى لسماع توجيهاته » :

خبأت كراستى فى المـائدة ، ونظرت فى المرآة ، وفرشت شعرى الذى أكسبنى فى رأيى مظهر المفكر ، وذهبت الى حجرة الجلوس حيث جهزت منضدة بالصور المقـدسة والشموع الموقدة .

ودخل أبى من باب آخر فى نفس الوقت الذى دخلت فيه ، ومنح الكاهن بركته لأبى ، وهو راهب رمادى الشعر ، متقدم السن، عابس الوجه ؛ ولثم أبى يده القصيرة العريضة اليابسة ، وفعلت مثله .

وقال أبى : « نادوا فالديمار ، أين هو ؟ آه ، حقاً انه يتناول القربان فى الجامعة » .

وقالت كاتنكا ونظرت الى ليوبتشكا : «انه يدرس مع الأمير» ، واحمر وجه ليوبتشكا لسبب ما ، وفزعت متظاهرة بأن شيئا ما آلمها ، وغادرت الحجرة فتبعتها ، وتوقفت فى حجرة الاستقبال ، وكتبت شيئا آخر فى ورقتها .

وسألتها : « ماذا ، هل ارتكبت خطيئة جديدة ؟ » .

فأجابت وقد احمر لونها : « لا ، لا شيء من هذا » .

وفى هذه اللحظة سمعنا صوت ديمترى فى حجرة الانتظار وهو يودع فولوديا .

وقالت كاتنكا مخاطبة ليوبتشكا وهى تدخل الحجرة : « ان كل شيء يوسوس لك » .

لم أعرف ماذا حدث لأختى ؛ لقد كانت بالغة الارتباك حتى أن الدموع طفرت من عينيها ، وتزايدت حيرتها حتى صارت غضبا ، من نفسها ، ومن كاتنكا ، التى كان من الواضح أنها تغيظها .

انه ليسهل على المرء أن يرى أنك « أجنبية » (لم يكن هناك شيء أكثر اهانة لكاتنكا من أن يقال لهـا « أجنبية » ، وكان هذا هو السبب فيما فعلته ليوبتشكا) ثم مضت تقـول فى صوت فيه تعال : « انك قبل تناول سر مقدس كهذا تروحين فتزعجينني ؛ ينبغى أن تفهمى أن هذا ليس مزاحاً قط » .

وسألت كاتنكا وقد ساءتها كلمة أجنبية : « أتعرف ماذا كتبت يانيكولاى ؟ لقد كتبت ... » .

وقالت ليوبتشكا متلعثمة وهى تبتعد عنا : « لم أتوقع أن تكونى حقودة الى هذا الحد ... انها تدفعنى الى الخطيئة عامدة فى مثل هذه الآونة ، انى لا أثير مشاعرك وآلامك ، هل فعلت هذا ؟ » .

(٦١)

اعتراف

بهذه الأفكار وما شابهها من الأفكار الأخرى المحيرة ، رجعت الى حجرة الجلوس ، وكان الكل قد اجتمعوا هناك ، ونهض الكاهن ليتلو الصـلاة قبل الاعتراف ؛ ولكن ما أن جلجل صوت الراهب الوقور المعبر بين الصمت الشامل ، وبخاصة عندما وجه الينا الكلمات التالية ، « اعترفوا بكل ذنوبكم دون خجل ، أو اخفاء أو تخفيف ،

فتصفو روحكم أمام الله » ولكن ان أخفيتم أى شىء فانكم تقترفون اثما أعظم » حتى عـاودنى القلق الورع الذى كنت قد شعرت به صباح اليوم الـسابق عند تفكيرى فى العشاء الربانى القادم • بل لقد وجدت لذة فى فهم حالتى وحاولت المحافظة عليها ، ووضعت حداً لجميع الأفكار التى ساورتنى محاولا أن أخالف شيئا ما •

كان أبى أول من ذهب للاعتراف ، ومكث وقتا طويلا جداً فى حجرة جدتى وبقينا نحن جميعا فى نفس الوقت بحجرة الجلوس صامتين ، أو أخذنا نتناقش هامسين فى من ينبغى أن يذهب أولا — وأخيراً سمع صوت الكاهن مرة أخرى من وراء الباب وهو يقرأ صلاة ، ثم سمع وقع أقدام أبى • وصرف البـاب ، وخرج وهو يسعل ، رافعاً أحد كتفيه أعلى من الآخر كما كانت عادته ، دون أن ينظر الى أحد منا •

وقال أبى فى ابتهاج وهو يقرص وجنة ليوبشكا : « اذهبى أنت الآن يا لوبا ، وأعلمى أنك ستقولين كل شىء • انك مذنبتى الكبرى كما تعلمين » •

واحمر وجه ليوبشكا ثم شحب على التوالى ، وأخرجت قائمتها من مئزرتها ثم أخفتها مرة أخرى ، وغاص رأسها بين كتفيها كمن تتوقع ضربة من فوق ، ومرت من الباب • ولم تمكث طويلا ، ولكنها عندما خرجت كان كتفاها يهتزان بالنشيج •

وأخيرا جاء دورى بعد كاتنكا الجميلة التى خرجت مبتسمة • دخلت الحجـــرة نصف المضيئة بنفس الخـــوف الكئيب ، والرغبة المقصودة فى مضاعفة الخـوف • ووقف الكاهن أمام المنبر ، وأدار وجهه نحوى فى بطء •

لم أمكث أكثر من خمس دقائق فى حجرة جدتى ، ولكنى حين خرجت ، كنت سعيدا ؛ ووفقا لمعتقداتى فى ذلك الوقت ، كامل النقاء ، وتغيرت الى أقصى حد ، وأصبحت رجلا جديدا • وبالرغم من أن كل ملابسات الحياة القديمة كانت تصدمنى بصورة كريهة•• نفس الحجرات ، ونفس الأثاث ، ونفس وجهى أنا ، (لابد أننى قد رغبت فى تغيير مظهرى ، تماماً كما فكرت من قبل فى أن كل ما فى طويتى قد تغير) ـ ومع ذلك ، فقد بقيت على هذه الحـــالة العقلية المنعشة الى أن ذهبت للنوم •

كنت من قبل وسنانا أستعرض فى خيـالى جميع الآثام التى تطهرت منها ، عندما تذكرت على حين فجأة خطيئة مخجلة احتفظت بها ولم أذكرها فى اعترافى ! وعادت الى ذهنى كلمات الصلاة التى تليت قبل الاعتراف وتردد صداها فى أذنى دون انقطاع ، واختفت كل رصانتى فى لحظة واحدة ، وظللت أسمع دون توقف : « ولكن ان أخفيتم أى شىء فانكم تقترفون اثماً أعظم » • ورأيت أننى أثيم فظيع بحيث لا توجد عقـوبة تلائمنى • وظللت أتخبط من جنب الى جنب بينما كنت أتأمل موقفى وأتوقع عقاب الله ، بل الموت من

لحظة الى لحظة وهي الفكرة التى قـــذفت بى الى فزع يجــل عن الوصف . ولكن ساورتنى على حين فجأة الفكرة الموفقة ، وذلك أن أذهب ماشيا أو فى عـــربة الى الكاهن فى الدير حالما يبزغ الضوء وأعترف اليه مرة أخرى ، وأستعيد هدوئى .

(٦٢)

الرحلة الى الدير

استيقظت عدة مرات فى تلك الليــــلة ، خشية أن أتأخر فى النوم : وفى الساعة السادسة كنت واقفاً على أهبة الاستعداد . ولم يكد الضوء يظهر فى النوافذ بعد ؛ فارتديت ملابسى وانتعلت حذائى، الذى كان مكوماً بالقرب من فراشى غير ممسوح ، لأن الوقت لم يتسع لنيكولاى لنقله بعيدا عن الفراش ، وخرجت الى الشارع وحدى لأول مرة فى حياتى دون أن أغتسل أو أتلو صلواتى .

ومن وراء المنزل الكـــبير ذى السقف الأخضر ، على الجانب الآخر من الشارع بزغ الفجر البــارد الكئيب ذو اللون الأحمر الوردى ، وكان جليد الصباح الربيعى القــــارس يحتجز الوحل والجداول ويتهشم تحت الأقدام ويلفح وجهى ويدى .

لم يكن هناك حوذى واحد فى شارعنا حتى ذلك الوقت ، وان

كنت قد عولت على واحـــــد ينقلنى فى الذهاب والعودة فى وقت أسرع ... لم يكن هناك غير عربات قليلة تسير متثاقلة على امتداد الـ « أربات » واثنين من بنائى الأحجـــار يسيران على الرصيف يتحادثان. وبعد أن قطعت نحو ألف خطوة بدأت أقابل رجالا ونساء يحملون سلالا فى طريقهم الى السوق ، أو براميل فى طريقهم الى الماء ؛ وظهر بائع « بقلاوة » عند ناصية الشارع ، وكان دكان واحد لبائع خبز الكلاتش (١) مفتوحاً ، ومررت عند « أربات سكي جيت » بحوذى عجوز نائم على مركبته (دروشكي) الممزقة المرقعة . ويحتمل أنه كان لايزال نائماً حين طلب منى عشرين كوبك ليحملنى الى الدير ويعود بى ثانية ، وكاد يسير مبتعدا ، وقال مزمجرا : « ان حصانى بحاجة الى طعام ولا أستطيع أن أحملك ياسيدى » .

وكان أن أغريته بصعوبة على الوقوف بمنحه أربعين كوبك ، فجذب حصانه وتأملنى باهتمام وقال : « أدخل ياسيدى » وأعترف أننى خفت ، الى حد ما ، أن يحملنى الى طريق منعزل ويسلبنى ما معى . وأمسكت بياقته البالية بقوة ، وكان عنقه المجعد نحيلا فوق ظهره المقوس ، وصعدت الى المقعد الأزرق المائل المتأرجح ، وسار يقعقع الى فوزدفيزنكا . ولاحظت أثناء الطريق أن ظهر الدروشكي مبطناً من القمـــاش الأخضر ، الذى صنعت منه ســترة الحوذى ،

(١) الكلاتش نوع معين من الخبز الاسطوانى الشكل أو الرغيف الصغير .

وطمأنتني هذه الحقيقة لسبب ما ، ولم أعد خائفا من أن يحملني الى طريق مظلم ويسلبني .

كانت الشمس قد ارتفعت تماما وكست قباب الكنائس بلونها الذهبي اللامع حين وصلنا الى الدير . وكان الصقيع لايزال باقيا فى الظل ، ولكن الطريق كان يفيض بمجارى المياه العكرة ، وكان الحصان يرتعش وهو يجتاز ذوب الجليد الموحل . ولـدى دخولى سياج الدير ، استفسرت من أول شخص رأيته مارآ عن المكان الذى أجد فيه الكاهن .

وقال الراهب المار بعد أن توقف هنيهة وهو يشير الى مسكن صغير ذى رواق صغير : « هنالك توجد صومعته » .

قلت : « انني شاكر لك كل الشكر » .

وهنا رحت أتساءل عما يظنه بى الرهبان (الذين كانوا فى تلك اللحظة يخرجون من الكنيسة) ويتطلعون جميعا ناحيتى . لم أكن كبيرا ولا طفلا ، كان وجهى غير مغسول وشعرى غير ممشط وملابسى غير مهندمة ، وحذائى غير مصبوغ وملوث بالطين ... لابد أنهم كانوا يحاولون تعيين الطبقة من الناس التى أنتسب اليها — لأنهم تفرسوا فى تفرسا شديدا جدا . ومع ذلك فقد سرت الى الناحية التى عينها لى الكاهن الشاب .

قابلنى رجل عجوز فى ثوب أسود ، ذو لحية رمادية غزيرة ، فى الممر الضيق المؤدى الى الصومعة وسألنى عما أريد .

وبقيت لحظة أريد أن أقول « لا أريد شيئا » ، وأعود مسرعا الى العربة ، وأركب الى البيت ، ولكن وجه الرجل العجوز أوحى الى بالثقة بالرغم من حاجبيه المعقودين ، فقلت لابد لى من مقابلة الكاهن ، وذكرت له اسمه .

فقال وهو يتلفت وراءه : « تعال ياسيدى الشاب فأرشدك الى الطريق » ومن الواضح أنه تكهن لساعته عن سبب زيارتى فقال : « ان الأب يؤدى صلاة الصباح وسيكون هنا حالا » .

وفتح الباب ، وتقدمنى عبر دهليز وحجرة استقبال كلتيهما نظيف ، أرضهما مغطاة بفرش من الكتان النقى ، ثم الى الصومعة .

كانت الغرفة التى وجدت نفسى فيها صغيرة الى أبعد حد ، ومنظمة بدقة كبرى ، يتكون أثاثها فقط من منضدة صغيرة مغطاة بمشمع ، موضوعة بين نافذتين مزدوجتى المصاريع ، عليها آنيتان من أزهار الخبيزى الافرنجية (الجيرانيوم) ، وقاعدة تحمل الصور ، يتدلى أمامها مصباح . بها مقعد واحد ذو مسندين ومقعدان عاديان . وفى الركن ساعة معلقة رسمت على مزولتها أزهار ، مع أثقالها النحاسية ، ذات السلاسل التى تلف نصف دورة ، وهناك ثوبان للكاهن معلقان بمسمارين على الحاجز الذى يغلب على الظن أن

الفراش من ورائه والذى يتصل بالسقف بألواح خشبية مطلية باللون الأبيض .

كانت النوافذ تطل على جدار أبيض على مسافة (أرشين) تقريبا بينها وبين الجدار تنمو خرجة صغيرة من شجيرات السوسن، ولا يصل الى الغرفة أى صوت من الخارج ، ولذلك كانت تسمع دقات خطار الساعة الرتيبة عالية فى هذا الصمت ، وحالما أصبحت وحيداً فى ركنى الهادىء هجرتنى تماماً أفكارى وذكرياتى السابقة على حين فجأة كأنها لم تكن ، واستغرقت تماما فى هواجس لذيذة يتعذر التعبير عنها : ذلك الثوب الكهنوتى القطنى الحائل ، وأغلفة الكتب الجلدية السوداء الممزقة ، ومشابكها النحاسية ، وخضرة النباتات القاتمة ، والأرض التى رويت بعناية والأوراق التى أحسن غسلها ، ونوع خاص ، صوت خطار الساعة الرتيب المتناوب ، كلها كانت تتحدث الى بجلاء عن حياة جديدة كانت مجهولة عندى حتى آنئذ — حياة عزلة وصلاة ، وسعادة ساكنة هادئة .

وقلت فى نفسى : « تمضى الشهور ، وتمضى السنون ، وهو وحيد دائما ، هادىء دائما ، وهو يشعر دائما أن ضميره نقى أمام الله ، وأن صلواته مسموعة عنده تعالى » وجلست على ذلك المقعد نصف ساعة ، أحاول ألا أتحرك ، وألا أتنفس بصوت مرتفع حتى لا أشوش ذلك التناسق فى الأصوات التى كانت تتحدث الى بالشىء الكثير . وكان الخطار يدق كما كان من قبل . . . دقة عالية الى اليمين وأخرى أكثر رقة الى اليسار .

« ٦٣ »

اعتراف ثان

ونبهنى وقع أقدام الكاهن من هواجسى .

وقال لى وهو يصلح شعره الرمادى بيده : « مرحباً ، ماذا تستطيع أن أفعل لك ؟ » .

فطلبت منه أن يباركنى ، ولثمت يده القصيرة الصفراء برضاء غريب .

وعندما شرحت له التماسى ، لم يجب ، بل ذهب الى الأيقونة وبدأ فى سماع اعترافى .

وحين تغلبت على خجلى ورويت له كل شىء فى نفسى وانتهى الاعتراف ، وضع يديه على رأسى وقال بصوته الهادى العذب : « ليباركك يابنى نعمة أبينا السماوى، وليحفظ عليك ايمانك وسلامك ووداعتك الى الأبد ، آمين » .

كنت سعيدا تماما ، وارتفعت دموع الغبطة فى حلقى ، وقبلت ثنايا ثوبه الكهنوتى ذا القماش الرقيق ، ورفعت رأسى ، وكان وجه الراهب هادئا تماما .

شعرت أننى أستمتع بغبطة فى احساسى بالانفعال ؛ وخوفى من طردها من ذهنى لسبب ما ، سارعت بوداع الكاهن ، وغادرت السياج

دون أن أتطلع يمينا أو شمالا حتى لا ألفت الانتباه ، وجلست ثانية في الدروشكي المرقشة المتأرجحة ، ولكن اهتزاز المهمات ، وتباين الأشياء التي كانت تتراءى أمام عيني ، سرعان ما قشعت ذلك الاحساس ، وبدأت لساعتي أفكر في أن الكاهن كان في أغلب الظن ، يفكر في نفس الوقت في أنه لم يقابل البتة روحا لطيفا كروح شاب مثلي ، بل لن يقابلها من بعد .. طوال حياته ، وأنه لا يوجد آخرون على شاكلتي . كنت مقتنعا بذلك ، وبعث في هذا الاقتناع شعور الابتهاج بمثل هذه الطبيعة ، حتى أنني احتجت الى الاتصال بشخص ما .

كنت بحاجة ملحة الى التحدث الى شخص ما ، ولما لم يكن في متناولي أحد غير الحوذي فقد التفت اليه .

سألته : « هل تركتك مدة طويلة جدا ؟ » .

فأجابني ، وكان يبدو عليه الآن الابتهاج أكثر من ذي قبل ، لأن الشمس كانت قد ارتفعت في السماء : « لقد حان وقت اطعام حصاني منذ وقت طويل ، وأنا كما ترى حوذي ليلي » .

قلت : « يخيل الى أنني لم أتغيب أكثر من دقيقة » ، ثم أضفت وأنا أقعد مقعدي ، وأنتقل الى المكان الخالي بجانب الحوذي : « وهل تعرف لماذا ذهبت الى الدير ؟ » .

فأجاب : « حسن ، ليس هذا من شأني ، أليس كذلك ؟ انني أحمل ركابي الى حيث يأمرونني » .

وقلت في اصرار : « ولكن ، ماذا تظن ؟ » .

فقال : « حسن ، ربما هناك من هو بحاجة الى الدفن فذهبت تشتري له مكانا » .

« لا ياصديقي ، هل تعرف سبب ذهابي ؟ » .

فأجاب : « لا يا سيدي ، لا أستطيع أن أعرف » .

وخيل الى أن صوته بالغ الرقة حتى أنني صممت على أن أقص عليه سبب رحلتي ، بل والشعور الذي كابدته وذلك بقصد تهذيبه .

« سأقص عليك ان شئت . أنت تعرف ... » .

ورويت له كل شيء ، ووصفت له كل عواطفي الجميلة ، حتى أني لأخجل الآن عندما أتذكر هذا .

وقال بارتياب : « نعم ياسيدي » .

وظل صامتا بعد ذلك وقتا طويلا دون أن يتحرك ، غير أنه كان بين حين وآخر يصلح من ذيل سترته ، فقد ظل يجتنبه قدمه المرقشة التي تهتز صاعدة هابطة في حذائها الكبير على سلم العربة ، وظننت أن رأيه في كرأي الكاهن تماما ـ أي أنه لا يوجد شاب لطيف مثلي في العالم ، ولكنه التفت ناحيتي فجأة وقال لي :

« حسن ياسيدي ، ذلك هو شأنكم يامعشر الأعيان » .

فقلت مستفسراً : « ماذا ؟ » .

« انه تماما شأن الأعيان » •

وقلت فى نفسى : « لا ، انه لم يفهمنى » ولكننى لم أقل شيئا أكثر من ذلك حتى وصلنا المنزل •

ومع أن شعور الحماسة والورع لم يبق طوال الطريق ، فقد بقى الرضاء الذاتى عن التجربة التى خبرتها بالرغم من الناس الذين رقطوا الشوارع المشمسة بالألوان فى كل مكان • ولكن حالما وصلت الى المنزل اختفى هذا الشعور تماما • لم يكن لدى القطعتين من فئة العشرين كوبك لأدفع للحوذى ، ولم يقرضنى جافريلو رئيس الخدم مرة أخرى لأنه أقرضنى من قبل • ولابد أن يكون الحوذى الذى رآنى أجرى مرتين مجتازا الفناء للحصول على نقود ، قد خمن السبب ، لأنه هبط من الدروشكى ، وبالرغم من أنه كان قد أظهر نحوى رقة بالغة ، فقد بدأ يتكلم بصوت مرتفع وعداء واضح نحوى ، عن النصابين الذين لا يدفعون أجر ركوبهم •

كان الجميع نائمين فى المنزل ، ولذلك لم يكن هناك أحد أستطيع أن أقترض منه أربعين كوبك ، فيما عدا الخدم • وأخيرا دفع فاسيلى أجره نيابة عنى بناء على كلمة الشرف المقدسة ، بل المقدسة الى أبعد حد من التقديس ، والتى لم يثق فيها أقل ثقة (يقدر ماتبينت من وجهه) ، ولكنه فعل ذلك لأنه كان يحبنى ، ولأنه تذكر الخدمة التى قدمتها له • وعندما ذهبت لأرتدى لباس الكنيسة لأتناول القربان المقدس مع الباقين ، ولما وجدت أن ملابسى الجديدة لم تصل

بعد ، أثارنى ذلك كثيراً • وارتديت حلة أخرى وذهبت لتناول القربان فى حالة غريبة من التشوش العقلى ، مليئا بالتشكك فى كل دوافعى السامية •

(٦٤)

اعددت نفسى للامتحان

فى يوم الجمعة ، التالى لعيد الفصح ذهب أبى وأختى وميمى وكاتنكا الى الريف ، وبذلك بقى فى بيت جدتى الكبير ،فولوديا وأنا وسان جيروم وحسب •• واختفت حالتى العقلية التى كنت عليها فى يوم الاعتراف ، حينما ذهبت الى الدير اختفاء تاما ، وتركت مجرد ذكرى مبهمة وان كانت سارة ، أغرقتها شيئا فشيئا الانطباعات الجديدة التى تتسم بها الحياة الحرة •

وكذلك اندست الكراسة المعنونة : قواعد الحياة ، فى كومة المذكرات ذات الخط المهوش • وبالرغم من سرورى لفكرة امكان وضع قواعد لجميع أحداث الحياة والاسترشاد بها دائما ، وبما بدا لى من أنها فكرة بسيطة جداً ، وعظيمة جداً فى نفس الوقت ، عمدت الى تطبيقها على الحياة ، الا أننى نسيت أيضا فيما يظهر ضرورة تطبيقها فوراً ، وظللت أؤجلها الى وقت غير محدد ، ولكنى اغتبطت لحقيقة واحدة هى أن كل فكرة طرأت على ذهنى آنئذ ، كانت تندرج

مباشرة تحت قسم من أقسام قواعدي وواجباتي ــ تحت عنوان الواجب ، اما نحو جاري أو نحو شخصي أو نحو الله . وكنت أقول لنفسي :

« سأصفها كثيرها من الأفكار الكثيرة التي ستطرأ على ذهني في هذا الموضوع فيما بعد » وكثيرا ما أسأل نفسي الآن : متى كنت أحسن حالا وأكثر صوابا ؟ أعندما كنت أعتقد في قدرة العقل البشري ، أم الآن بعد أن فقدت القدرة على النمو ، وتشككت في قوة العقل البشري ودلالته ؟ لا أستطيع أن أجيب على نفسي بأية اجابة مؤكدة .

ان الشعور بالجزئية ، وذلك الشعور الربيعي بحدوث شيء منتظر ، الشيء الذي وصفته فوراً ، أدانى الى الحد الذي لم أستطع معه السيطرة على نفسي سيطرة ايجابية ، اذ كان استعدادي للامتحان سيئا ، فلتفرض أنك مشغول في حجرة الدراسة وقت الصباح ، وأنت تعرف أنك يجب أن تعمل ، لأنه سيعقد في اليوم التالي امتحان في موضوع معين لم تقرأ منه مسألتين كاملتين ، وتهب عليك فجأة من النافذة هبات نسيم معطرة ، ويخيل اليك أنك لا بد أن تتذكر شيئاً ما ، وتسقط يداك تلقائيا ، وتأخذ ساقاك في الاهتزاز بمحض رغبتها الخاصة ، وتخطو الى خلف والى أمام ، ويخيل اليك أن « بابا » مضغوطاً مثبتا في رأسك ، وتشعر بالخفة والمرح وتبدأ الهواجس المتألقة تسري في عقلك بسرعة فائقة ، ومن ثمة تمضي ساعة وساعتان

دون أن تنتبه لذلك ، أو الى أنك جالس الى كتابك تركز انتباهك الى حد ما على ماتقرأ ، ثم تسمع على حين فجأة صوت وقع أقدام سيدة وحفيف ثوبها في الدهليز فيهرب كل شيء من عقلك ولا تستطيع الجلوس ساكناً بالرغم من أنك تعرف حق المعرفة أن أحدا لا يمكن أن يمر في ذلك الدهليز الا جاشا ، خادمة جدتي القديمة ، وتقول لنفسك : « ومع ذلك أفرض أنها لابد أن تكون « هي » » وهب أنها يجب أن تبدأ الآن ، وأنني أضيعها » وتندفع الى الدهليز فتجد أنها جاشا فعلا ، ومع ذلك لا تستطيع السيطرة على عقلك وقتا طويلا ــ ويضغط « الباب » مرة أخرى ، ويبدأ الاضطراب المخيف مرة أخرى . أو أنك تجلس في غرفتك في المساء وحيدا ومعك شمعة من الشحم ، فتنصرف عن كتابك برهة لكي تقرض ذبالة الشمعة ، أو لتستقر في مقعدك في وضع أبعث الى الراحة ــ ان الظلام يسود كل مكان ... الأبواب والأركان ؟ والهدوء يشمل كل شيء في البيت ، فكذلك من المحال ألا تقف وتصغي الى ذلك الصمت ، وألا تتفرس في حلكة الباب المفتوح ، وألا تمكث هناك وقتا طويلا جدا دون حركة وفي نفس الوضع ، أو لا تهبط الى الطابق السفلي ، أو لا تسير في الحجرات الخاوية . وكثيرا أيضا ماكنت أجلس لا يدري بي أحد ، أصغي في القاعة الى صوت معزوفة « العندليب » التي كانت تعزفها جاشا على البيانو بأصبع واحدة ، وهي جالسة وحدها على ضوء شمعة من الشحم في المسكن الفسيح . وعندما كان يضيء القمر لم يكن باستطاعتي أن أقاوم النهوض من فراشي ،

والوقوف الى النافذة المشرفة على الحديقة والنظر الى سقف بيت شابوسنيكوف المضىء ، وبرج كنيسة الأبروشية الرشيق ، وفي الليل الى ظلال السياج والحرجات مبسوطة على ممرات الحديقة • كنت أجلس هناك وقتاً طويلاً حتى لقد تحل الساعة العاشرة صباحاً قبل أن أستطيع فتح عيني •

ولذلك ؟ فلو لم يكن بسبب المدرسين الذين استمروا فى الحضور الى ، وبسبب سان جيروم الذى أصبح بين حين وآخر يستنهض خيلائى كارها ، ولرغبتى فى أن أبدو قبل كل شىء فى عينى صديقى نخليودوف ذلك الشاب الكفؤ ، أى بالحصول على امتياز فى الامتحان وهذا شىء يعتبر فى رأيه على جانب عظيم من الأهمية : لو لم يكن بسبب هذا كله ، لكان للربيع والحرية تأثير على نسيان كل شىء عرفته من قبل ، ولما استطعت بحال من الأحوال اجتياز الامتحان •

(٦٥)

امتحان التاريخ

فى السادس عشر من ابريل دخلت القاعة الكبرى بالجامعة لأول مرة فى حياتى برعاية سان جيروم • ووصلنا الى هناك فى مركبتنا المكشوفة الأنيقة الى حد ما ؟ وكنت أرتدى سترة السهرة الطويلة • وكانت جميع ملابسى حتى الداخلية البيضاء منها والجوارب ، جديدة

تماماً ومن أجود نوع • وعندما ساعدنى « الحاجب » على خلع معطفى ووقفت أمامه بكل جمال زيى شعرت بالخجل الى حد ما لكونى أبهر البصر الى حد كبير ، ولكن ما أن دخلت القاعة المتألقة بأرضها المصقولة التى كانت ملأى بالناس ، ورأيت مئات من الشبان فى زى الجمنازيوم (١) وسترة السهرة ، وتطلع الى عدد قليل منهم فى غير اهتمام ، وكان الأساتذة الأجلاء فى الطرف البعيد من القاعة يمشون فى حرية بين المكاتب ، أو يجلسون فى مقاعد ضخمة ذات مساند ، وما أن رأيت هذا حتى زال أملى الواهم فى جذب الانتباه العام الى شخصى ؟ وأن تعبير وجهى الذى كان يدل فى البيت ، بل وفى حجرة الانتظار على أنى ذو مظهر نبيل ممتاز رغماً عنى ، قد تحول الى تعبير عن أقصى حد للخجل ، والى كآبة الى حد ما ، بل انتهى الأمر الى النقيض ، وفرحت كثيراً حين رأيت سيداً بالغ القبح مهمل الثياب ، لم يكن كبير السن ، ولكنه أشيب الشعر تقريباً ، يجلس على الأريكة الأخيرة على مبعدة من الباقين جميعاً ، فجلست الى جواره مباشرة ، وأخذت أراقب المرشحين للامتحان وأكون استنتاجاتى عنهم ــ هناك وجوه كثيرة ومتباينة ، ولكنها جميعاً ،

---

(١) مدارس ثانوية راقية تهيىء الطلبة للدراسات الجامعية ، وتعرف فى أوربا وبخاصة فى ألمانيا بالجمنازيوم ورأينا الاحتفاظ بالاسم فى الترجمة العربية لأنه ذو مفهوم معين (المترجم) •

وبناء على رأيي في ذلك الحين ، كان يمكن أن تقسم بسهولة الى ثلاث فئات :

أولا ، كان هناك من هم على غراري ، قد حضروا الى الامتحان بصحبة مدرسيهم الخصوصيين أو مع آبائهم ، وقد رأيت من بين هؤلاء ايفن الصغيرمع فروست المعهود، والتكا جراب مع والده العجوز ، وكانت ذقونهم جميعاً زغباء ، يزدهون في ملابسهم الكتانية المتفخة ، يجلسون في هدوء دون أن يفتحوا الكتب أو الكراسات التي أحضروها معهم ، ويتطلعون في تهيب واضح الى الأساتذة ومناضد الممتحنين . والفئة الثانية من المرشحين هم الشبان في ملابس الجمنازيوم الرسمية ، وكثيرون منهم حديثو الحلاقة ، ومعظم هؤلاء يعرف بعضهم البعض ، ويتحدثون بصوت مرتفع ، ويذكرون الأساتذة بأسمائهم وأسماء عائلاتهم ومعظم هؤلاء يعرف بعضهم البعض ، ويتحدثون بصوت مرتفع ، ويذكرون الأساتذة بأسمائهم وأسماء عائلاتهم وكانوا يعدون الأسئلة لساعتهم ويناول بعضهم البعض الكراسات ، ويصعدون فوق الأدراج ، ويحضرون بأنفسهم الفطائر والشطائر ، ويلتهمونها في التو واللحظة ، ولا يفعلون أكثر من طأطأة رؤوسهم بمحاذاة الأدراج . وأخيراً ، الفئة الأخيرة من المرشحين ، ومع أن المتقدمين منهم في السن تماماً قليلون ، الا أن بعضهم يرتدون معاطف السهرة ، ولكن الأغلبية يرتدون أعطفة ، ولم يتظاهروا بأية ملابس كتانية ، وهؤلاء حافظوا على التصرف

الجاد ، وجلسوا وحدهم ، وكان يبدو عليهم الاكتئاب الشديد . أما الشخص الذي بعث في نفسي العزاء لكون ملابسه كانت بالتأكيد أسوأ من ملابسي فينتسب الى هذه الفئة ، وبينما كان متكئاً على مرفقيه ، يجري أصابعه بين شعره الأشعث ويقرأ كتاباً ، ألقى على نظرة عابرة من عينيه المتألقتين — ولم تكن نظرة ودية — وتجهم تجهماً مبهماً ، ومد مرفقه ناحيتي حتى لا أقترب منه بحال . وكان طلبة الجمنازيوم من ناحية أخرى ودودين جداً ، وكنت أخشاهم قليلا . قال أحدهم وهو يدفع بكتاب الى يدي : « أعط هذا الى ذلك الزميل الذي هناك » وقال آخر وهو يمر بي : « معذرة أيها الفتى العجوز » واتكأ ثالث وهو يصعد فوق الدرج على كتفي كأنه المقعد ، كل ذلك كان مشيناً وكريهاً بالنسبة الى ؛ وكنت أعتبر نفسي أفضل من طلبة الجمنازيوم هؤلاء ، ورأيت أن ليس من شأنهم أن يسمحوا لأنفسهم بمثل هذه الحريات معي . وأخيراً بدأوا في نداء الأسماء : وتقدم تلاميذ الجمنازيوم بشجاعة وكانت اجابة معظمهم حسنة وعادوا مبتهجين . وظهر أن مجموعتنا أكثر حياء وأسوأ اجابة . وأجاب بعض الرجال المتقدمين في السن اجابات ممتازة ، وأجاب بعضهم اجابات سيئة حقيقية . وعندما نودي اسم سيميونوف نهض جاري ذو الشعر الأشيب والعينين البراقتين ، ووخزني بكوعه بشدة ، وعبر من على ساقي ، وقصد الى احدى مناضد الممتحنين . واتضح من وجوه الأساتذة أنه أجاب على وجه حسن وفي ثقة . ولدى رجوعه الى مكانه تناول كراساته ومضى بهدوء دون أن يعرف

الدرجة التي حصل عليها . وكنت قد ارتعدت عدة مرات لدى سماعي نداء الأسماء ، ولكن دوري لم يكن قد حل بعد ، فقد كانت القائمة مرتبة بحسب الحروف الأبجدية ، مع أن بعض الأسماء التي تبدأ بحرف (ك) كانت قد نوديت بالفعل . ونادى واحد من ركن الأساتذة على حين فجأة : « اكوتين بارتنييف » وسرت في ظهري وشعري قشعريرة .

وأخذوا يقولون فيما حولي : « من الذين ينادونهم ؟ من هو بارتنييف ؟ » .

وقال جمنازي طويل ذو وجه أحمر كان يقف ورائي : « اذهب يا اكوتين ، انهم ينادونك ؟ ولكن من هو هذا البارتنييف أو المرديشيف ؟

وقال سان جيروم : « لا بد أن تكون أنت »

وقلت للجمنازي ذي الوجه الأحمر : « هل ينادون ارتنيف ؟ » .

فقال : « نعم ، لماذا بالله لا تذهب ؟ » ثم أضاف بصوت غير مرتفع ، ولكني سمعت كلماته وأنا أغادر مقعدي : « يا له من متحذلق ، يا الهي ! » .

كان ايكوتين يسير أمامي ، وهو شاب طويل يناهز الخامسة والعشرين ، يتبع أولئك الذين أدرجتهم بين فئة كبار السن من

المتنافسين . وكان يرتدي سترة محكمة زيتونية اللون ، ورباط رقبة أزرق من الأطلس ، يتدلى من ورائها شعره الطويل الخفيف المقصوص على طريقة الفلاح الروسي (١) . وقد اجتذب مظهره نظري عندما كنا جالسين الى أدراجنا ، فقد كان حسن المظهر كثير الكلام ، وأخص ما لفت نظري اليه شعره الأحمر الغريب الذي تركه يستطيل على عنقه ، وأغرب من هذا عادة فك أزرار صدريته باستمرار ، وحك صدره من تحت قميصه .

كان يجلس ثلاثة أساتذة الى المنضدة التي ذهبنا اليها ، اكوتين وأنا ، ولم يرد أحد منهم تحيتنا . كان أصغرهم يخلط بطاقات شبيهة بحزمة ورق اللعب ، والثاني الذي يضع نجمة على سترته ، كان يتفرس في الجمنازي الذي كان يثرثر بشيء عن شارلمان ، ويضيف الى كل كلمة « وأخيراً » . والثالث رجل عجوز نظر الينا من خلال نظارته وأشار الى البطاقات . وشعرت أن نظرته كانت موجهة الى ايكوتين والى سويا ، وأن في مظهرنا شيئاً لا يعجبه (ربما يكون لحية ايكوتين الحمراء) ، لأنه بينما كان يعيد النظر الينا بنفس الطريقة أشار الينا بحركة من رأسه تدل على نفاد صبره لكي نسرع بسحب بطاقتنا . وشعرت قبل كل شيء بالغيظ والاهانة لأن أحداً لم يرد تحيتنا ، وثانياً لأنه من الواضح أنهم كانوا يضعون ايكوتين وأنا في نفس الفئة من المرشحين للامتحان ، وكانوا مجحفين لي

(١) مقصوص على شكل مربع من كل جهة .

بسبب لحية ايكونين الحمراء . وتناولت بطاقتي دون تهيب ، وتأهبت للاجابة ، ولكن الأستاذ وجه نظرته الى ايكونين . وقرأت بطاقتي ، وعرفت فحواها . وفي أثناء انتظار دوري في هدوء كنت أراقب ما يدور أمامي ، ولم يرتبك ايكونين أقل ارتباك ، بل كان شديد الجرأة لأنه حالما حصل على بطاقته ، مال جانباً على المنضدة ، وأزاح شعره الى الخلف ، وقرأ المطبوع عليها بسرعة ، وأظنه كان على وشك أن يفتح فمه بالاجابة حين صرفه الأستاذ صاحب النجمة ممتدحاً وهو يرمقه بنظرة ، ويبدو أن ايكونين تذكر شيئاً وتوقف ، وساد صمت شامل لمدة دقيقتين .

وقال الأستاذ ذو النظارة : « حسن ؟ » .

وفتح ايكونين فمه مرة أخرى ولكنه ظل صامتاً .

وسأله الأستاذ الشاب : « هيا ، انك لست الوحيد ، هل تريد الاجابة أم لا ؟ » ، ولكن ايكونين لم ينظر اليه مجيرة النظر ، وتفرس في البطاقة ولم ينطق بكلمة . ونظر اليه الأستاذ ذو النظارة من خلال نظارته ، ومن فوق النظارة ، وبدون نظارة ، اذ كان الوقت يتسع لخلعها ، وتنظيفها بعناية ، ثم اعادتها مرة أخرى ... ولم ينطق ايكونين بكلمة ، وشملت وجهه ابتسامة مفاجئة ، وأزاح شعره الى الخلف ، ثم استدار تماما نحو المنضدة ، وتفرس في جميع الأساتذة كل بدوره ، ثم تفرس في ، واستدار ، وسار في مرح الى مقعده وهو يلوح بيديه . وتبادل الأساتذة النظرات .

وقال الأستاذ الشاب : « أنعم به من فتى ! انه يرغب في دراسة على نفقته الخاصة » .

واقتربت من المنضدة ، ولكن الأساتذة ظلوا يتحدثون بأصوات خافتة فيما بينهم كأن أحداً منهم لم ينتبه حتى لوجودي . وقد اقتنعت اقتناعاً جازماً بأن الأساتذة الثلاثة كانوا أشد مشغولين غاية الانشغال بمسألة اجتيازي الامتحان وخروجي منه بسلام ! ولكنهم كانوا يتظاهرون بذلك حفظاً لكرامتهم ، وأن الأمر لم يكن يهمهم في شيء مطلقاً وأنهم حتى لم يلاحظوا وجودي .

وعندما التفت الى الأستاذ صاحب النظارة دون اهتمام ، ودعاني الى الاجابة عن الأسئلة نظرت الى عينيه مباشرة ، وكنت خجلا له الى حد ما ! اذ كان يتصنع كبراً أمامي ، وترددت بعض الشيء في بدء اجابتي ، ولكن الأمر أصبح أكثر سهولة فأكثر . ولما كان السؤال من التاريخ الروسي الذي كنت أعرفه كل المعرفة ، فقد أجبت بأسلوب رائع ، بل بلغت بي الثقة في نفسي حداً جعلني أقترح سحب بطاقة أخرى وذلك لرغبتي في أن يشعر الأساتذة أنني لست من طراز ايكونين ، وأن من المستحيل الخلط بيني وبينه ، ولكن الأستاذ هز رأسه وقال : « هذا يكفي يا سيدي » وأثبت شيئاً ما في سجله . وعندما رجعت الى المقاعد علمت على التو من الجتازين الذين كانوا يعرفون كل شيء ، ـ ولسبب يعرفه الله ـ أنني حصلت على الدرجة النهائية .

(٦٦)

امتحان العلوم الرياضية

كونت كثيراً من المعارف الجدد في الامتحانات التالية بالاضافة الى جراب الذي كنت أعتبره غير جدير بمعرفتي ، وايفن الذي كان يتجنبني لسبب ما ، وتبادل معي التحيات كثيرون ، حتى ايكونين ابتهج عندما رآني وأسر الى أنه سيعيد امتحانه في التاريخ ، وأن أستاذ التاريخ حاقد عليه منذ الامتحان الأخير الذي أوقعه أثناءه أيضاً في ارتباك . أما سيمينوف الذي كان سيدخل كلية الرياضيات مثلي ، فقد كان يخجل من كل شخص وظل حتى نهاية الامتحانات يجلس صامتاً وحيداً ، متكأ دائماً على مرفقيه ، يجري يديه في شعره الأشيب ، وأنجز امتحاناته بأسلوب ممتاز وكان ترتيبه الثاني ، وكان الأول طالب من مدرسة الجمنزيوم الأولى ، وكان الأخير شاباً طويلا نحيلا شاحب اللون الى أقصى حد ، أسمر الوجه ، ذا عنق من حوله رباط رقبة أسود وجبين تغطيه البثور . كانت يداه نحيلتان حمراوان ، أصابعهما طويلة ملفتة للنظر ، وفي أظافره كدمات كثيرة حتى لتبدو أطراف أصابعه كأنها ملفوفة بخيط . كان يبدو لي كل هذا رائعاً ، وكما ينبغي تماماً أن يكون عليه الفتى الأول بالجمنازيوم . كان يتحدث الى كل انسان كأي شخص سواء حتى أنني تعرفت به ، ولكن كان يبدو لي أن هناك شيئاً شاذاً غير عادي وجذاباً في مشيته وحركات شفتيه وعينيه السوداوين .

تؤدي على في امتحان الرياضيات مبكرا عن المعتاد ، وكنت ملماً بالموضوع بدرجة ملائمة ، ولكن كانت هناك مسألتان في الجبر دبرت أمر اخفائهما عن مدرسي بطريقة ما ، ولم أكن أعرف عنهما شيئاً البتة ، وهما فيما أتذكر الآن ، نظرية التبادل والنظرية ذات الحدين لنيوتن . جلست على مقعد في المؤخرة ، وتأملت المسألتين المجهولتين ، ولكن لما كنت لم أتعود العمل في حجرة صاخبة ، وشعرت أن وقتي أضيق مما ينبغي ، فقد رأيت من العسير أن أفهم ما كنت أقرأه .

وسمعت صوت فولوديا المألوف من ورائي يقول : « من هذا الطريق يا نخيلودوف » .

والتفت فرأيت أخي وذمتري — سترتاهما مفكوكتان وأيديهم تلوحان لي بالتحية — وهما يشقان طريقهما نحوي من بين المقاعد ، وكان من الواضح لأول وهلة أنهما من طلبة السنة الثانية ، وأنهما يرفعان الكلفة في الجامعة كأنهما في بيتهما الخاص ، وكان منظر سترتيهم المفكوكتين وحده يدل على ازدراء لنا نحن الجدد ويوحي الينا بالحسد والاحترام . وزهوت كثيراً جداً حين فكرت في أن جميع من سيرون أنني أعرف طالبين من السنة الثانية ، ونهضت مسرعاً للقائهما ولم يستطع فولوديا الا أن يتفاخر قليلا بسبقه .

فقال : « آه ، أيها الشقي المسكين ، ألم تمتحن بعد ؟ » .

ـ لا .

ـ ماذا تقرأ ؟ ألم تستعد ؟

ـ نعم ، ولكنى لم أستعد تماماً فى مسألتين لم أفهمهما .

وقال فولوديا : « ماذا !! هذه واحدة ، ثم أخذ يشرح لى نظرية « ذى الحدين » لنيوتن ، ولكن بسرعة كبيرة وبطريقة مهوشة ، حتى انه قرأ فى عينى تشككى فى معلوماته فنظر الى دبمترى ، ويرجح أنه قرأ فى عينيه هو الآخر نفس التشكك ، فاحمر وجهه ، ولكنه مع ذلك راح يقول شيئاً لم أفهمه .

ـ وقال دمترى وهو ينظر الى ركن الأساتذة : « لا يا فولوديا ، انتظر ، دعنى أراجعها معه ، فقد يكون لدينا الوقت الكافى ، ثم جلس بجانبى .

ـ وعرفت مباشرة أن صديقى كان فى تلك الحالة من الانبساط الهادىء التى يكون عليها دائما حين يصل الى درجة الوثوق من نفسه ، والتى أحبها فيه بنوع خاص . ولما كان يجيد معرفة الرياضيات ، ويتحدث بوضوح فقد شرح لى المسألة شرحاً دقيقاً حتى أننى لا أزال أتذكرها حتى اليوم . ولم يكد ينتهى حتى همس لى سان جيروم بصوت مرتفع قائلا : «جاء دورك يا نيكولاس» نهضت وتبعت ايكونين دون أن تسمح لى الفرصة لمراجعة المسألة

الأخرى التى لم أفهمها . واقتربت من المنضدة التى يجلس اليها الأستاذان ، وأحد الجمنازيين واقفاً أمام السبورة يوضح معادلة ، وكان قد كسر هذا الجمنازى قطعة طباشيره بنقرة خفيفة على السبورة واستمر فى الكتابة بالرغم من قول الأستاذ له « هذا كاف !! » ، وأمره لنا بأخذ بطاقتنا . وقلت فى نفسى : « والآن ، ماذا يحدث لو حصلت على نظرية التوافيق وسحبت بطاقتى بأصابع مرتعشة من الورق الناعم المقطع . وأخذ ايكونين البطاقة العلوية دون أى انتقاء وبنفس الحركة الجريئة والاندفاع جانبياً بكل جسمه كما حدث فى الامتحان السابق .

ـ وزمجر قائلا : « أيلازمنى دائماً هذا الحظ السىء ! » .

ـ ونظرت الى بطاقتى .

ـ آه ، يا للفزع ! انها نظرية التوافيق .

ـ وسألنى ايكونين : « ماذا أخذت ؟ » .

ـ وأريته إياها ،

فقال : « اننى أعرفها » .

ـ هل تبادلنى ؟ » .

ـ واختلق ايكونين حيلة بسيطة عندما استدعانا الأستاذ الى السبورة فقال : « لا ، أشعر اننى كفء لها » .

ـ وقلت لنفسى : « حسن ، لقد فقدت كل شىء ! فبدلا من الامتحان الباهر الذى كنت أحلم باجتيازه ، تكسونى مهانة أبدية

بأسوأ مما حدث لايكوتين • ولكن ايكوتين التفت نحوى فجأة وتحت أنظار الأساتذة ، وخطف البطاقة من يدى وأعطانى بطاقته ، وألقيت نظرة على بطاقته ، فاذا بها نظرية ذى الحدين لنيوتن •

ـ لم يكن الأستاذ رجلا عجوزاً ، وكان تعبيره لطيفاً صريحاً ، وساعد على ذلك بنوع خاص بروز الجزء السفلى من جبهته بروزاً كبيراً للغاية •

ـ ما هذا يا سادة ؟ هل تتبادلان البطاقات ؟

وقال ايكوتين اختلاقاً : لا ، انه أعطانى بطاقته لأراها

وحسب ، يا أستاذ ـ وكانت أيضا كلمة أستاذ هى آخر ما نطق به فى ذلك المكان ، ومرة أخرى بينما كان يتراجع مارآ بى ، ونظر الى الأساتذة والى ، وابتسم وهز كتفيه بطريقة خاصة كأنه يقول : « ماذا يهم !! » •

وعرفت فيما بعد أن هذه كانت ثالث مرة يدخل فيها ايكوتين الامتحان •

ـ وأجبت عن المسألة التى كنت قد راجعتها مراجعة جيدة ـ بل خيراً من المطلوب ـ كما قال لى الأستاذ ـ وحصلت على الدرجات النهائية •

(٦٧)

امتحان اللاتينية

جرى كل شىء على ما يرام حتى امتحان اللغة اللاتينية ، والى هنا كان فتى الجمنازيوم بعنقه الأقطس هو الأول ، وسيميوف الثانى ، وأنا الثالث ، بل بدأت أشعر بالزهو ، وفكرت فى أننى برغم صغر سنى أصبحت رجلا له وزن •

كان الجميع يتحدثون برعب منذ اليوم الأول للامتحان عن أستاذ اللاتينية ، الذى ظهر أنه شرس ، يجد اللذة فى اخفاق الشباب ، وبخاصة أولئك الذين يتعلمون على نفقتهم الخاصة ، ولا يتكلم أية لغة سوى اللاتينية أو اليونانية • وشجعنى سان جيروم الذى كان معلمى الخاص فى اللاتينية • وقد بدا لى فى الحقيقة أننى مادمت أستطيع الترجمة عن شيشرون وعن عدة قصائد من هوراس بدون قاموس ، ومادمت أعرف (زومب) معرفة جيدة ، فاننى لم أكن أسوأ استعداداً من الباقين • ولكن الذى حدث أثبت غير هذا ؛ ولم يكن يسمع شىء طوال الصباح غير قصص الرسوب من أولئك الذين سبقونى : فأحدهم نال صفراً ، وآخر حصل على درجة واحدة ، وآخر أيضا زجر بعنف ، وكان على وشك أن يطرد ، وهكذا ، وهكذا • وذهب سميوف والطالب الجمنازى الأول وحدهما وعادا كالمعتاد فى حالة طيبة ، اذ حصل كل منهما على الدرجة

النهائية • وكان يساورنى شعور سابق بالخيبة عندما استدعيت مع ايكونين الى المنضدة الصغيرة حيث تواجه الأستاذ جالسا وحده تماما • كان رجلا صغيرا نحيلا أصفر البشرة ذا شعر زيتى اللون وتقاسيم تدل على شدة التفكير •

وناول ايكونين مجلداً يضم خطب شيشرون وجعله يترجم •

والشيء الذى أدهشنى أن ايكونين لم يكن يقرأ وحسب ، بل ترجم عدة سطور بمعاونة الأستاذ • ولشعورى بتفوقى على مثل هذا المنافس الضعيف لم أستطع مقاومة الضحك بازدراء الى حد ما عندما جاء سؤال الاعراب وغرق ايكونين كما حدث من قبل فى صمت عنيد • وأردت ارضاء الأستاذ بتلك الابتسامة الذكية ذات التهكم الطفيف ، ولكنها أحدثت عكس التأثير •

وقال لى الأستاذ بلغة روسية رديئة : « يبدو أنك تعرف خيراً منه مادمت تبتسم ••• حسن ، سنرى • أذكر لى الاجابة اذن » •

وعرفت بعدئذ أن أستاذ اللاتينى كان معاونا لايكونين ، بل ان ايكونين كان يعيش فى بيته ؟ ولم أضيع وقتا فى الاجابة عن سؤال الاعراب الذى وجه لايكونين ، ولكن الأستاذ تظاهر بالكدر وأشاح بوجهه عنى •

وقال دون أن ينظر الى : « حسن جداً ياسيدى ، سيأتى

دورك • وسنعرف مدى علمك » ثم أخذ يشرح لايكونين موضوع سؤاله •

وقال له : « يمكنك أن تنصرف » • ورأيته يضع فى سجله أربع درجات لايكونين ، وقلت فى نفسى : « حســـن ، انه ليس بالدقة التى تحدثوا عنها » • وبعد مغادرة ايكونين ، بما لا يقل عن خمس دقائق — خلتها خمس ساعات — رتب كتبه وبطاقاته ، واعتدل فى مقعده ذى المساند ، واضطجع فيه ، وتطلع فيما حوله بالحجرة وفى كل ناحية الا ناحيتى ، ولكن كل هذا التصنع لم يكن كافيا فى نظره ، ففتح كتابا وتظاهر بقراءته كأننى غير موجود ، فاقتربت منه وسعلت •

فقال وهو يناولنى كتاباً : « آه ، حقاً ! وأنت أيضا بالطبع • ترجم شيئا من هذا » ثم قلب صفحات من نسخة لهوراس وفتحه عند قطعة خيل الى أن أحـــداً لم يستطع ترجمتها وقال : « لا ، الأفضل أن تأخذ هذا » •

فقلت له : « اننى لم أستعد لهذا » •

وأنت تريد أن تلقى ماحفظته عن ظهر قلب ، أليس كذلك ؟ حسن جدا ! لا ، ترجم هذا » •

حاولت أن أصل الى المعنى بصورة ما ، ولكن الأستاذ كان يهز رأسه وحسب عند كل نظرة استفسار ، ويكتفى بكلمة « لا »

مع التأوه • وأخيرا أقفل كتابه بسرعة عصبية بالغة حتى لقد ضغط على أصابعه بين الأوراق وجذبها غاضبا ، ووجه الى سؤالا فى قواعد اللغة واضطجع فى مقعده ، واستمر فى صمته المتعمد • وكنت على وشك الاجابة ، ولكن تعبير وجهه ألجم لساني ، وخيل لى أن كل شيء قلته كان خاطئا •

وانفجر فجأة يقول بطريقة نطقه القطيعة وهو يغير من وضعه بخفة ، ويتكىء بمرفقيه على المنضـــدة ، ويلعب بالخاتم الذهبى الواسع المعلق بأصبع نحيلة بيده اليسرى : « ليس كذلك !! ليس كذلك مطلقاً ••• ليست هذه طريقة الاستعداد لمؤسسة تعليم عالية ياســيدى •• ان كل ماتطلبونه هو ارتداء الزى الرســمي بشيقته الزرقاء ، والحصول على خليط من المعرفة ، وتظنون أنكم تسمون طلبة ••• لا يا سـادة ، يجب أن تتبوا من موضوعكم ، وهكذا وهكذا ••

وابان هذا الحديث كله الذى كان يقوله بلغة مهلهلة ، كنت أتفرس باتباه متبلد فى عينيه المثبتين على الأرض • كان اقتنـاع الوهم فى حصولى على المركز الثـــالث يعذبنى فى أول الأمر ، ثم أصبح الخوف من عدم نجاحى البتة فى الامتحان ، وأخيراً أضيف شعورى بالظلم ، وبكبريائى المجروح وبالاذلال دون مبرر ؟ يضاف الى ذلك ، احتقارى للأستاذ لأنه فى رأيى لم يكن « رجلا » كما ينبغى أن يكون » ، وهو الشيء الذى فطنت له عند رؤيتى أظافره القصيرة

القـوية المستديرة ـ كل ذلك أثر فى نفسى كثـــيرا حتى الآن ، وأفسد كل هذه المشاعر ، ورمقنى بنظرة ، وعنـــدما شاهد شفتى المختلجتين ، وعينى تفيضـــان بالدموع ، لابد أنه فسر انفعالى الى التماس لرفع درجتى ، قال كأنه يرأف بحـــالى (قبل أن يحضر أيضا أستاذ آخر ، كان مقبلا علينا) :

« حسن جداً يا سيدى ، بالرغم من أنك لا تستحق فسأمنحك درجة النجاح ، تقديرا لحداثة سنك ، وعلى أمل ألا تكون متهورا الى هذا الحد فى الجامعة » •

وهذه العبارة الأخيرة التى قيلت فى حضور الاستاذ الأجنبى الذى نظر الى كأنه يقول : « أترى أيها الشاب ! » أكملت ارتباكى ، وأسدلت على عينى غشاء من الضباب لحظة واحدة ، فخيل الى أن الاستاذ المختبئ بمنضدته ، كان جالسا على مسافة بعيدة ، وساورتنى فكرة طارئة وضحت من جانب واحد وضوحاً شديداً : « ماذا لو ـ ماذا يحدث لو ؟ » ولكنى لم أفعل شيئا لسبب ما ؟ بل على العكس ، انحنيت للأستاذين بطريقة آلية ومجاملة خاصة • وغادرت المنضدة وأنا أبتسم ابتسامة خفيفة ، هى نفس الابتسامة التى كان ايكونين قد أبداها •

لقد أثر فى هذا الظلم تأثيرا قويا فى ذلك الوقت ، حتى أننى لو كنت سيد نفسى ، لما اشتركت فى امتحانات بعد ذلك • وفقدت

وهمى (مادمت لم أستطع أن أكون الثالث) وتركت الامتحانات الباقية تمر دون أى اجهاد ، بل دون قلق من جانبى ، ومع ذلك فقد كان مستواى بعد الرابع بقليل ، ولكننى لم أهتم بذلك على الأقل ، وفكرت ، وأثبت لنفسى فى وضوح تام ، أن من خطل الرأى أن يحاول الانسان أن يكون الأول ، وأنه ينبغى ألا يكون حسناً جداً ولا رديئاً جداً ، مثل فولوديا ، وقصدت أن أحافظ على ذلك فى الجامعة وان كنت قد اختلفت فى هذه النقطة لأول مرة عن صديقى دمترى .

ان كل ماكنت أفكر فيه هو حلتى الرسمية ، وقبعتى المثلثة الزوايا ، وعربتى الخاصة ، وحجرتى الخاصة ، وفوق هذا كله استقلالى .

« ٦٨ »

مرحلة الرشد

وحتى هذه الأفكار كان لها سحرها .

عند عودتى من آخر امتحان فى المعلومات الدينية ، فى الثامن من مايو ، وجدت بالمنزل صبى خياط من محل « روزانوفا » الذى عرفت أنه استدعى لاعداد حلتى الرسمية وسترتى ذات القماش

الأسود اللامع المفتوحة عند العنق ، وكان قد وضع علامات على الثياب بالطباشير وقد أحضر الآن الحلة كاملة بأزرارها المذهبة اللامعة ملفوفة بالورق .

وارتديت الحلة ، وأظنها كانت أنيقة جدا ، (وان كان عاق جيزوم قد قرر أنها واسعة من الخلف) . وهبطت الى الطابق السفلى بابتسامة الرضاء عن نفسى التى شملت كل وجهى دون أية رغبة منى ، حيث وجدت فولوديا . كنت شاعراً بالنظرات المتحمسة التى كان يصوبها الى الخدم من حجرة الانتظار والدهليز ، ومع ذلك تظاهرت بعدم الانتباه اليها . ولحق بى رئيس الخدم جافريلو فى القاعة فهنأنى على دخولى الجامعة ، وناولنى ، بأمر أبى أربع ورقات من فئة الخمسة والعشرين روبل ، وكذلك بناء على توجيه أبى ، أخبرنى أن الحوذى كوزما ، والدروشكى ، والحصان البنى « بيوتى » تحت تصرفى التام منذ اليوم . وقد ابتهجت أيما ابتهاج لهذه السعادة التى لم تكن متوقعة تقريبا ، حتى أننى لم أستطع تجاهلها أمام جافريلو ، فقلت فى شىء من الارتباك واللهفة أول شىء خطر على ذهنى ، وهو أن « بيوتى » بديع جداً فى الركض . ولدى رؤيتى الرءوس المطلة من الأبواب المؤدية الى حجرة الانتظار والدهليز لم أستطع ضبط نفسى ، واندفعت مجتازا القاعة فى سترتى ذات الأزرار النحاسية اللامعة . وبينما كنت أدخل حجرة فولوديا سمعت أصوات دوبكوف ونخليودوف اللذين قدما لتهنئتى وليقترحا أن نذهب الى

مكان ما لتناول الغداء وشرب الشمبانيا تكريماً لمناسبة دخولى الجامعة ، وأخبرنى دمترى أنه بالرغم من عدم اهتمامه بشرب الشمبانيا ، فإنه سيذهب معنا فى ذلك اليوم لكى يشرب معى تذكاراً لبداية صداقتنا ، وقرر دوبكوف أنى أشبه عقيداً (أميرالاى) بوجه ما ، ولم يهنئنى فولوديا بل قال لى فقط ، وفى كثير من الخشونة اننا الآن نستطيع الذهاب الى الريف بعد غد ، ويخيل الى أنه فى الوقت الذى فرح فيه لدخولى الجامعة ، لم يسره كثيراً أننى أصبحت الآن راشداً مثله تماماً .

وقال سمان جيروم الذى كان قد وصل كذلك الى البيت لساعته ، فى لهجة متعالية ان واجباته قد انتهت الآن ، ولا يعرف ان كان قد أداها على وجه حسن أم سىء ، ولكنه قد فعل كل مايستطيع ، ويجب أن يذهب الى صاحبه الكونت فى اليوم التالى . ورداً على كل ماقيل لى ، شعرت بابتسامة معسولة سعيدة ، بل ابتسامة رضاء ذاتى حمقاء تداعب وجهى رغماً عنى ، وأدركت أن هذه الابتسامة كانت تنتقل الى جميع من تحدثوا معى .

هأنذا أصبحت بدون مدرس خاص ، ولدى دروشكى خاصة بى ، وأدرج اسمى فى سجل الطلبة ، وعندى خنجر فى حزامى ! وقد يحيينى الحارس أحياناً ، لقد أصبحت راشداً وسعيداً فيما كنت أظن .

قررنا تناول الغداء بمطعم « يار » فى الساعة الخامسة ، ولكن

بينما انصرف فولوديا مع دوبكوف ، واختفى دمترى أيضاً فى مكان ما كعادته قائلا ان لديه عملا سيعنى به قبل الغداء ، كان فى استطاعتى التصرف فى ساعتين كما يحلو لى ، وتجولت فى جميع الحجرات برهة طويلة ، أشاهد نفسى فى جميع المرايا ، مرة بسترتى مزرورة ومرة مفكوكة الأزرار ، ومرة مشبوكة بالزر العلوى فقط ، وكانت تبدو رائعة فى نظرى فى جميع الأحوال ، وحينئذ اعترانى الخجل لفرط ما أظهرت من مرح ، ولم أستطع الامتناع عن الذهاب الى الاسطبل، وحظيرة العربة لأعاين «بونى» وكوزما والدروشكى، ثم رجعت وأخذت أطوف بالحجرات مرة أخرى أتطلع الى المرايا ، وأعد النقود التى فى جيبى ، وابتسم بنفس المزاج المنبسط طوال الوقت . ولكن قبل أن تمضى ساعة شعرت بالضيق نوعاً ما ، أو بالأسف لعدم وجود أحد يرانى فى هذه الحالة التى تبهر العيون ، واشتقت الى الحركة والنشاط . وأمرت نتيجة لذلك باحضار الدروشكى وقررت أن أفضل ما أفعله هو الذهاب الى « كوزنتسكى موست » لشراء بعض الأشياء .

تذكرت أن فولوديا عندما دخل الجامعة اشترى لنفسه صورة « جياد فيكتور آدم » مطبوعة بالحجر وبعض التبغ ، وغليوناً ؟ وخيل الى أنه لا مفر من أن أفعل مثله .

ركبت الى كوزنتسكى موست ، وتلفت الى الأنظار من جميع الجهات ، وضوء الشمس يلمع على أزرارى وعلى الشارة ، فى قبعتى

وعلى خنجرى ، ووقفت بالقرب من متجر جمون دانسيارو وتلفت حولى ودخلت . لم أرغب فى شراء صورة جياد فيكتور آدم خشية أن أتهم بتقليد فولوديا . ولشدة رغبتى فى الاسراع بالاختيار قدر ما أستطيع ؛ وبسبب خجلى مما سببته من عناء للبائع ، اشتريت صورة بالألوان المائية لرأس امرأة تطل من النافذة ، ودفعت عشرين روبل ثمنا لها . ولكنى بعد أن صرفت عشرين روبل شعرت بتعذيب الضمير لما سببته لبائعين حسنى الهندام من متاعب لأجل شراء أشياء تافهة كهذه ، ومع ذلك خيل الى أنهما ينظران الى عفوا وبمحض المصادفة ، ولكنى أريهما أى نوع من الرجال أنا ، وجهت انتباهى الى قطعة فضية صغيرة موضوعة تحت زجاجة ، وعرفت أنها يد قلم ثمنها ثمانية عشر روبل فأمرت بلفها ، ودفعت ثمنها . وعرفت أيضا أن الغلايين الجيدة والتبغ الفاخر توجد بمتجر التبغ المجاور ، فانحنيت بأدب للبائعين وسرت فى الشارع بصورتى تحت ذراعى . وفى المتجر المجاور الذى توجد على لافتته صورة زنجى يدخن سيجارا ، اشتريت التبغ السلطانى لا تبغ روكوف وذلك أيضا لعدم رغبتى فى تقليد أى شخص ، وغليونا تركيا وقصبتين للتدخين احداهما من خشب الزيزفون والأخرى من خشب الورد ، وعند مغادرتى المتجر فى طريقى الى الدروشكى ، رأيت سيميونوف يسير بخطوات واسعة فى الطريق الجانبية مرتديا ملابس مدنية ، مطأطأ الرأس ، وقد تكدرت لأنه لم يعرفنى . فقلت فى صوت مرتفع تماما « هيا أسرع بالسير ! » وجلست فى الدروشكى ولحقت بسيميونوف .

قلت له : « كيف حالك ؟ »

فأجاب وهو يتابع سيره : « أقدم احترامى »

وسألته : « لماذا لا ترتدى حلتك الرسمية ؟ »

وتوقف سيميونوف ، وزر عينيه وكشف عن أسنانه كأن رؤية الشمس تؤذيه ، ولكنه كان فى الواقع يعبر عن عدم اهتمامه بالدروشكى وبحلتى الرسمية . وتفرس فى وجهى وتابع سيره .

ومن كوزنتسكى موست ، سرت الى محل للحلوى عند تفرسكايا ، ومع أننى حاولت التظاهر بأن الصحف التى فى المحل هى التى تهمنى قبل كل شىء ، فاننى لم أستطع كبح جماح نفسى ، وأخذت فى التهام الكعك ، الواحدة بعد الأخرى . وبالرغم من الخجل الذى شعرت به أمام بعض السادة الذين كانوا ينظرون الى فى دهشة من وراء صحفهم ، فقد أكلت ثمان كعكات من جميع الأصناف الموجودة بالمحل ، وبسرعة كبيرة جداً .

وعند وصولى الى المنزل شعرت بقليل من عسر الهضم ، ولكنى لم أعر ذلك التفاتا وشغلت نفسى بفحص مشترياتى . أما الصورة ، فلم يقتصر الأمر على أنها لم ترقنى بحيث أصنع لها اطارا وأعلقها فى حجرتى كما فعل فولوديا ، بل أخفيتها فى درج حيث لا يراها أحد ؛ ولم ترقنى كذلك يد القلم فى المنزل ، فوضعتها على المنضدة معزيا نفسى بأنها مصنوعة من الفضة ، فهى ذات قيمة وذات فائدة قصوى للطالب .

أما عن الأشياء الخاصة بالتدخين ، فقد صممت على استعمالها مباشرة وتجربتها .

وما أن فضضت حزمة تزن نصف رطل وملأت غليوني التركي بعناية بشرائح التبغ السلطاني الأصفر الضارب الى الحمرة ، ووضعت عليها قطعة مشتعلة من الفحم حتى تناولت واحدة من قصبتي غليوني بين أصبعي الثالث والرابع (الوضع الذي يروقني الى أبعد حد) ثم بدأت في التدخين .

كانت رائحة التبغ مقبولة جداً ولكن طعمه كان لاذعاً ، وقطع التدخين أنفاسي ، ومع ذلك عكفت عليه مدة طويلة ، أستنشق الدخان وأحاول أن أنفثه في دوائر ، وسرعان ما امتلأت الحجرة بأكملها بسحب من الدخان الأزرق ، ثم أخذ الغليون يطبق والدخان الساخن يتطاير ، وشعرت بمرارة في فمي ودوار خفيف في رأسي ... حاولت النهوض والتطلع الى وجهي في المرآة مع غليوني ، وقد أدهشني أنني أخذت أترنح ، وتدور بي الحجرة ، وبينما كنت أتطلع الى المرآة التي وصلت اليها بصعوبة رأيت وجهي أبيض كصحيفة الورق ، وما كدت أنجح في الارتماء على الأريكة ، حتى شعرت بمرض وهزال جعلاني أتخيل أن الغليون كان شؤماً عليّ ، وظننت أنني موشك على الموت . لقد خفت حقيقة ، ورغبت في طلب المعونة واستدعاء الطبيب .

ولكن هذا الفزع لم يدم طويلا ، فقد عرفت بسرعة موضع

التعب ، ورقدت وقتا طويلا على الأريكة ، هزيلا أشعر بألم فظيع في رأسي ، وأتطلع بغباء الى شعار بوستانزوجولو الدال على النبالة المرسوم على حزمة ربع الرطل ، والى الغليون ، وبقايا كعك بائع الحلوى التي تتدحرج على الأرض ، وقلت في نفسي وأنا أفكر بالكتاب : « انني لم أنضج بالتأكيد حتى الآن ما دمت لم أستطع أن أدخن كالآخرين ، وواضح أنه ليس من المقدر لي أن أمسك بغليوني بين أصبعي الوسطى والثالث ، وأن أبتلع الدخان وأنفثه من تحت شاربي الأشقر » .

وعندما سأل عني دمتري في الساعة الخامسة وجدني على هذه الحالة الموصفة ، ولكنني بعد أن شربت كوباً من الماء أصبحت بحالة طيبة تقريبا ، مستعدا للذهاب معه .

وقال وهو يتفرس في بقايا تدخيني ، من أغراك بالتدخين ، انه عبث في عبث ، ومضيعة للمال دون فائدة ، لقد عاهدت نفسي ألا أدخن أبداً . ولكن هيا ، أسرع ـ علينا أن نستدعي دوبكوف .

(٦٩)
كيف كان فولوديا ودوبكوف يشغلان نفسيهما ؟

حالما دخل دمتري الحجرة عرفت من وجهه ومن مشيته ، ومن حركة خاصة به عندما يكون منحرف المزاج ـ وهي غمزة بعينيه

وطريقة مضحكة يهز بها رأسه الى أحد الجانبين ـ أنه فى الحالة النفسية المستعصية الفاترة التى كانت تسلط عليه عندما يكون غير راض عن نفسه ، وهى الحالة التى كانت ترطب شعورى نحوه على الدوام • وكنت قد بدأت ألاحظ أخيرا وأحكم على أخلاق صديقى، ولكن صداقتنا لم يعتورها أى تغير نتيجة لذلك ، بل كانت لاتزال من الشباب والقوة ، بحيث كنت من أى جانب أنظر الى دمترى ، لا أرى فيه الا الكمال • لقد كان ينطوى على رجلين ، كل منهما فى نظرى بالغ الرقة ، أحدهما الذى أحببته أشد الحب ، كريم طيب ، رقيق مرح ، شاعر بهذه الصفات الحميدة • فهو اذا ما كان معتدل المزاج يبدو كل مظهره ، وجرس صوته ، وكل حركة فيه كأنها تقول : « اننى لطيف وصالح ، واننى لأتمتع بلطفى وصلاحى كما ترون جميعا » • أما الرجل الآخر ـ فقد بدأت الآن فقط فى ادراكه ، وفى الانحناء أمام عظمته ـ فكان فترا جافا نحو نفسه ونحو الآخرين ، متدينا الى حد التعصب ، متحذلقا فى الأخلاقيات، وفى هذه الآونة الحاضرة ، كان الرجل الثانى •

ومع الصراحة التى نظمت حالة علاقاتنا الضرورية قلت له حين كنا فى الدروشكى ، اننى تألمت وحزنت لرؤيتى اياه فى مثل هذه الحالة النفسية الكئيبة الكريهة فى يوم سعيد كهذا بالنسبة الى•

وسألته : « لابد أن شيئا ما قد أزعجك ، لماذا لم تخبرنى ؟ »

فأجاب بترو وقد أدار رأسه فى توتر الى جهة واحدة

وارتعشت وجنتاه : « ما دمت قد عاهدتك يانيكولنكا ألا أخفى عنك أى شىء ، فليس هناك مبرر لكى تشك فى كتمانى ، ومن المحال أن أكون دائما فى نفس الحالة النفسية ، ولو كان هناك ما أزعجنى ، فاننى لا أستطيع حتى أن أعلله لنفسى » •

وقلت فى نفسى : « ياله من خلق صريح نبيل يدعو الى الدهشة ! » ولم أقل له شيئا أكثر من ذلك •

وقطعنا بقية الطريق الى بيت دوبكوف صامتين • كان مسكن دوبكوف لطيفا بدرجة ملحوظة ، أو خيل الى أنه كذلك حينئذ • كانت هناك سجاجيد وصور وأستار ، ومعلقات ملونة وصور ، ومقاعد ذات مساند مقوسة فى كل مكان ، معلقة على الجدران ، بنادق وغدارات ، وأكياس تبغ ؛ وفى خزانة بعض رءوس حيوانات متوحشة • وقد نبهنى منظر هذا المكتب الى الشخص الذى كان فولوديا يقلده فى تزيين حجرته الخاصة • ووجدنا فولوديا ودوبكوف يلعبان الورق • وكان يجلس الى المائدة يشاهد اللعب باتنباه كبير ، سيد لم أعرفه من قبل (وهو لابد أن يكون قليل الأهمية اذا حكمت عليه من هيئته المتواضعة) • وكان دوبكوف يرتدى عباءة حريرية وخفا رقيقا • وكان فولوديا يجلس أمامه على الأريكة خالعا سترته ؛ وقد حكمت على استغراقه فى اللعب الى أقصى حد ، من تورد وجهه ونظرته المتبرمة الخاطفة التى ألقاها علينا من فوق الأوراق • وعندما رآنى ازداد وجهه احمرارا •

وقال لدوبكوف : « تعال ، لقد جاء دورك فى التوزيع »

ورأيت أنه امتعض لأنني عرفت أنه يلعب الورق ، ولكنه لم يكن في نظرته ارتباك ملموس حتى لكأنه يقول لي : « نعم ، انني ألعب وأن الذي يدهشك فقط هو أنك لا تزال صغيراً ، وليس في هذا خطأ ــ بل انه ضروري في سننا » .

لقد شعرت بهذا مباشرة وفهمته .

ومع ذلك فان دوبكوف نهض بدلا من التوزيع ، فسلم علينا وأجلسنا على المقاعد ، وقدم لنا الغلايين التي انصرفنا عنها .

وقال دبكوف : « هــاهو ذا صاحبنا الدبلوماسي اذن ــ بطل اليوم ؟ انك لتبدو بحق البسماء مثل العقيد » .

وتمتمت ، عندما شعرت بتلك الابتســامة الخرقاء ، ابتسامة الرضا عن النفس تنتشر على وجهي .

وتهيبت دوبكوف ذلك التهيب الذي لا يشعر به غير صبي لم يتجاوز السادسة عشرة نحو ضابط اتصال في السابعة والعشرين يقول عنه كل من يكبرونه سنا أنه شاب لطيف جدا ، يرقص ويتكلم الفرنسية ؛ وان كان يستخف بحداثتي سرا ، فمن الواضح أنه يكافح في سبيل اخفاء الحقيقة .

ولكن بالرغم من كل احترامي له ، فيعلم الله أنني كنت ابان فترة تعارفنا كلها ، أجد دائما أن التحديق في وجهه صعبا ومدعاة للحرج . وقد لاحظت منذ ذلك الحين أن هناك ثلاث فئات من الناس

يصعب على النظر اليهم وجها لوجه ــ أولئك الذين هم أسوأ مني حالا ، وأولئك الذين يفضلونني قدرا ، وأولئك الذين لا أستطيع أن أفكر حين أكون معهم أن أذكر أشــياء نعرفهــا على الســواء ولا يذكرونها لي هم . ولا أعرف ما اذا كان دوبكوف أحسن أو أسوأ مني ، ولكني كنت متأكداً من شيء واحد ، هو أنه كان يكذب في كثير من الأحيــان دون أن يعرف بذلك ؛ ولاحظت فيه هذا الضعف بطبيعة الحال ، ولكني لم أتحدث عنه مطلقا .

وقال فولوديا وهو يهز أحد كتفيه مثل أبي ويخلط الورق : « فلنلعب دوراً آخر » .

وقال دوبكوف : « لا نستطيع أن نفلت منه !! سننتهي منها بعد قليل ، آه ، حسن ، دورة واحدة ، عليك توزيع الورق » .

وبينما كانوا يلعبون كنت أراقب أيديهم . كانت يد فولوديا ضخمة جميلة ، يرفع ابهامه وحده ويثني الأصابع الأخرى عندما يمسك أوراقه بطريقة كثيرة الشبه جدا بطريقة أبي ، حتى لقد خيل الي مرة أن فولوديا رفع يديه بهذه الطريقة لكي يبدو أكثر شبها بالكبار ، ولكنه في اللحظة التالية ، حين تفرست في وجهه رأيت أنه لم يفكر في شيء قط الا اللعب . وكانت يدا دوبكوف على العكس صغيرتين ممتلئتين ، مطبقتين ، أصابعهما بالغة النعومة والمهارة ، تماما كالأيدي التي تلائم الخواتم ، والتي يمتاز بهــا الناس الذين يميلون الى الأشغال اليدوية ، ويغرمون باقتناء الأشياء الجميلة .

لابد أن يكون فولوديا قد خسر ، لأن السيد الذى كان ينظر من فوق أوراقه لاحظ أن فلاديمير بتروفتش كان حظه سيئا للغاية ؛ وأخرج دوبكوف دفتر الجيب ، وسجل فيه شيئا ما وقال وهو يطلع فولوديا على ما كتبه ، « أحقيقة ؟ » .

وقال فولوديا وهو يتفرس في دفتر الجيب في شرود ذهن مصطنع : « نعم ، ولنذهب الآن » .

وحث فولوديا ، دوبكوف على السير ، وأخذني دمترى في مركبته المكشوفة .

واستفسرت من دمترى قائلا : « ماذا كانوا يلعبون ؟ » .

« لعبة الأثنين وثلاثين ورقة ، وهى لعبة سخيفة ، ولعب القمار شيء سخيف على أى حال » .

« هل يلعبون بمبالغ كبيرة ؟ » .

« ليست كبيرة جدا ، ولكنه خطأ على السواء » .

« وهل لا تلعب أنت ؟ » .

لا ، لقد تعهدت ألا ألعب ، ولكن دوبكوف لا يمكنه تجنب اللعب مع أى شخص يستطيع أن يتشبث به ، وهو يكسب فى غالب الأحيان » .

وقلت : « ولكن هذا ليس صوابا من جانبه ؛ فمن المحتمل أن فولوديا لا يجيد اللعب مثله » .

انه ليس صوابا بطبيعة الحال ، ولكن ليس هناك مايشينه خاصة؛ ودوبكوف يحب الورق ، ويجيد اللعب ، ولكنه مع ذلك شخص ممتاز » .

قلت : « حسن ، انني خالى الذهن » .

يجب ألا تظن به السوء ، لأنه فى الواقع رجل لطيف جدا ؛ وأنا أحبه كثيرا جدا ، وسأحبه دائما بالرغم من سخافاته .

وخيل الى بسبب دفاع دمترى عن دوبكوف بهذه الحماسة الشديدة ، لغرض ما ، أنه لم يعد يحبه أو يحترمه ، ولكنه لا يعترف بذلك ، بسبب عناده ، ولكن لا يعيب عليه أحد تقلب رأيه ، فقد كان من أولئك الذين يحبون أصدقاءهم مدى الحياة ، لا لأن هؤلاء لا يزالون أعزاء عندهم وحسب ، ولكن لأنهم اذا ما أحبوا شخصا مرة ولو عن طريق الخطأ ، فانهم يعتبرون انتهاء حبهم له مجافيا للشرف .

(٧٠)

الاحتفال بالنجاح

كان دوبكوف وفولوديا يعرفان جميع الناس الذين فى مطعم « يار » بأسمائهم ، ويبدى لهما كل شخص ، من البواب الى المالك أعظم احترام . وقادونا مباشرة الى حجرة خاصة وقدموا لنا غداء

فاخراً اختاره دوبكوف من ألوان الأطعمة الفرنسية : أعدت زجاجة من الشمبانيا الباردة التي حاولت قدر طاقتي النظر اليها بأقل اهتمام ، وانقضت فترة الغداء في سرور ومرح بالرغم من أن دوبكوف كان يروي أغرب الأحداث المشكوك في صحتها – بين الأخرين – وكيف أن جدته أطلقت النار من بندقية قصيرة على ثلاثة لصوص هاجموها (وعند ذلك أرخيت عيني ، وحولت عنه وجهي) – وبالرغم من أن فولوديا كان يبدو عليه خوف واضح كلما فتحت فمي (ولم يكن لهذا أية ضرورة لأنني لم أقل أي شيء بسبب الخجل خاصة ، على قدر ما أتذكر) . وعندما قدمت الشمبانيا هنأني الجميع وشربت ، والأيدي متصالبة ، مع دوبكوف ودمتري ، وتبادلت معهم القبلات التي استطعنا بعدها مخاطبة أحدنا للآخر بالضمير « أنت » . ولما كنت لا أعرف من هو صاحب زجاجة الشمبانيا (فقد كانت مشاعاً بين الجميع كما قالوا لي فيما بعد) ، وأردت الاحتفاء بأصدقائي من مالي الخاص الذي ظللت أتحسسه بأصابعي في جيبي ، وأخرجت خلسة ورقة من ذات العشرة روبلات ، وناديت النادل ، وأعطيتها له ، وقلت له هامساً، ولكن بصوت سمح للجميع بسماعه ، بأن يتفضل باحضار نصف زجاجة أخرى من الشمبانيا . واحمر وجه فولوديا وأخذ يهز كتفه بشدة وينظر الي والى الآخرين في رعب شعرت معه أنني لابد أن أكون قد ارتكبت خطأ ؛ بالرغم من أن الزجاجة أحضرت وشربناها في انبساط عظيم . وخيل الي أن الأمور ستسير في مرح . كان دوبكوف يكذب دون انقطاع ، وكان فولوديا أيضا يروي

حكايات مضحكة جدا بطريقة لم أكن أعتقد أنه يتقنها ، وضحكنا كثيراً جداً . ان طبيعة ملحهما – أي ملحة دوبكوف وفولوديا – تتكون من التقليد والمبالغة لقصة مشهورة جدا : يقول واحد : « حسن ، هل كنت بالخارج ؟ » ، ويجيب الآخر : « ولكن أخي يعزف على الكمنجة » . وكانا يتقنان مثل هذا النوع من اللغو المضحك واستطاعا أن يقصا هذه الحكاية الآتية : « ان أخي لم يعزف على الكمنجة كذلك هو الآخر » . وكان كل منهم يجيب على أسئلة الآخر على هذا النحو . وكانا يحاولان أحيانا دون أسئلة ربط شيئين متنافرين – وكانا يقولان هذا اللغو بوجوه جادة – وثبت أنها مضحكة الى أبعد حد . وبدأت أفهم الفكرة ، وحاولت كذلك قول شيء مضحك ، ولكن بدا عليهم جميعاً الخوف ، أو حاولوا عدم النظر الي أثناء كلامي ، ولم تكن قصتي ناجحة . وقال دوبكوف : « انها غليظة أكثر من اللازم أيها الدبلوماسي العزيز » ، ولكني شعرت أنني على خير حال لما شربته من الشمبانيا ، وفي صحبة هؤلاء الكبار ، حتى أن هذه الملاحظة لم تجرح شعوري البتة . ومع أن دمتري وحده هو الذي شرب معنا بالتساوي ، فقد استمر على حالة الهدوء الجادة مما أدى الى شيء من كبح المرح العام .

وقال دوبكوف : « والآن ، أصغوا أيها السادة ، يجب أن نتكفل بالدبلوماسي بعد الغداء ، فلنفترض أننا ذاهبون الى منزل عمتنا ؟ فسنهيئ له الراحة بسرعة هناك » .

وقال فولوديا : « لن يذهب تخليودوف » .

وقال دوبكوف وهو يلتفت اليه : « الساذج الذى لا يحتمل ! انك ساذج غير محتمل ! تعال معنا ، وسترى أية سيدة ساحرة هذه العمة » .

وأجاب دمترى وقد احمر وجهه خجلا : « اننى لن أذهب بالتأكيد ، وأكثر من هذا لن أسمح له أيضاً » .

« من ؟ الدبلوماسى ؟ أتريد الذهاب أيها الدبلوماسى ؟ لماذا ، أنظروا لقد تألق كله حالما ذكرنا العمة » .

وتابع دمترى حديثه وهو ينهض من مقعده ويأخذ فى ذرع الحجرة دون أن ينظر الى : « لست أقصد أننى لن أدعه يذهب ، انه لم يعد طفلا ، فاذا كان يريد ، فانه يستطيع الذهاب وحده . ان ماتفعله يادوبكوف ليس صوابا ، وتريد الآخرين ان يفعلوه » .

وسأله دوبكوف وهو يغمز فولوديا : « وما الضرر اذا دعوتكم جميعاً الى منزل عمتى لتناول فنجاناً من الشاى ؟ حسن ، اذا كان لا يلائمكما أن تذهبا معنا ، فسنذهب ، فولوديا وأنا ، هل ستأتى يافولوديا ؟ » .

وأجاب فولوديا بالايجاب : « سنذهب الى هناك ثم نأتى الى مسكنى ونستمر فى لعبة الاثنين والثلاثين ورقة » .

وقال دمترى وهو مقبل على : « حسن ، هل تريد الذهاب معهم أم لا ؟ » .

وأجبت وأنا أتحرك لأفسح له مكانا بجانبى على الأريكة : « لا ، لا أريد الذهاب بحال من الأحوال ، ولو لم تنصحنى بعدم الذهاب لما ذهبت لأى داع » .

وأضفت بعد ذلك : « لا ، لا أستطيع أن أقول صادقاً اننى لا أحب الذهاب معهم ، ولكنى سعيد لأننى سوف لا أذهب » .

فأجاب : «هذا صواب ، يجب أن تعيش بطريقتك الخاصة ، ولا ترقص لأى زمار ، هذه أمثل الطرق » .

ولم تفشل هذه المناقشة فى تعكير سرورنا وحسب ، بل زادته قوة . وراح دمترى لتوه فى حالته المعنوية التى أحبتها فيه أكثر من كل شىء ــ فلقد كان لشعوره بالعمل الطيب تأثير عظيم عليه (وهذا ما لاحظته أكثر من مرة فيما بعد) . كان راضياً عن نفسه آنئذ لأنه صدنى عن الذهاب ، وشمله فرح غير عادى ، وطلب زجاجة أخرى من الشمبانيا (وكان ذلك يخالف قواعده) ودعا شخصا غريبا الى الحجرة ، وزوده بكثير من الخمر ، وغنى أغنية «جودياموس ايجتور» وطلب منا جميعاً الاشتراك فيها ، واقترح أن نركب الى سوكولنيكى التى قال عنها دوبكوف انها شاعرية جداً .

وقال دمترى مبتسما : « فلنمرح فى هذا اليوم ؟ وتكريما

لدخوله الجامعة سأشرب لأول مرة ، هل أستطيع أن أمتنع ، أيمكن هذا ؟ » ومن العجيب أن يصبح دمترى فى هذه الحالة من الابتهاج، كان يشبه المعلم الخاص أو الأب الحنون القانع بأطفاله الراغب فى اسعادهم ، والذى يستطيع فى نفس الوقت أن يبتهج بطريقة شريفة محترمة ؛ ومع ذلك يظهر أن هذا الفرح غير المنتظر انتقل الينا بالعدوى ، وبالتالى شرب كل منا نحو نصف زجاجة شمبانيا .

وبهذه الحالة النفسية خرجت الى الحجرة العامة لأدخن السيجارة التى أعطانى اياها دوبكوف .

وعندما نهضت من مقعدى لاحظت أن رأسى يدور قليلا ، وأن قدمى ويدى كانت فى حالة طبيعية ، وذلك حين كنت أركز انتباهى عليها بقوة . أما فيما عدا ذلك فان قدمى كانتا تزحفان الى جانب واحد ، وتشير يداى اشارات مختلفة . وركزت كل انتباهى على أطرافى ، فأمرت يدى أن ترتفعا وتزرروا سترتى ، وتصففا شعرى (وفى خلال ذلك كان مرفقاى يهتزان الى أعلى بصورة مخيفة) والى ساقى لكى تحملانى الى الباب ، وقد امتثلتا لهذا الأمر ولكنهما ظلتا مقيدتين ، اما بمشقة كبرى واما فى يسر شديد ، وكانت القدم اليسرى بخاصة تقف على أطراف أصابعها . ونادانى شخص ما يسألنى : « الى أين تذهب ؟ انهم سيحضرون مصباحا على التو » وخمنت أنه صوت فولوديا ، وأمدنى تفكيرى فى صواب تخمينى بالرضا ، فكانت اجابتى مجرد ابتسامة ، ثم مضيت فى طريقى .

(٧١)

المشاحنة

كان يجلس الى مائدة صغيرة بالحجرة العامة سيد قصير قوى البنية فى ملابس مدنية ، ذو شارب أحمر يتناول طعامه . وجلس بجانبه رجل طويل أسمر الوجه حليق الشارب ، وكانا يتحدثان بالفرنسية ، وأربكتنى نظراتهما ، ومع ذلك صممت من أجل ذلك أن أشعل سيجارتى من الشمعة القائمة أمامهما ، ونظرت جانباً لأتحاشى نظرتهما ، وقصدت الى المائدة ، ووضعت سيجارتى فى اللهب ، وعندما اشتعلت تقريباً لم أستطع أن أتحاشى التفرس فى السيد الذى كان يتناول الطعام فوجدت عينيه الرماديتين مثبتتين على بامعان واستنكار . وبينما كنت على وشك الانصراف تحرك شاربه الأحمر وقال بالفرنسية : « لا أحب أن يدخن الناس أثناء طعامى ياسيدى العزيز » .

وتمتمت باجابة غير صريحة .

ومضى صاحب الشارب يقول فى اصرار : « لا ياسيدى ، لا أحب هذا » ورمق السيد الحليق الشارب بنظرة سريعة كأنه يدعوه الى استصواب الطريقة التى كان يوشك أن يفصل بها الخلاف معى . وراح يقول : « ولا أحب ياسيدى العزيز الناس الوقحاء ، الذين يأتون لينفخوا دخانهم فى أنف الآخرين ، لا أحبهم البتة » . وفهمت

على التو أن السيد كان يتهربني ، وخيل الى فى بادىء الأمر أنني أخطأت خطأ جسيما جداً .

وقلت : « لم أفكر فى أن ذلك يقلقك » .

وصاح السيد : « حسن ، ولم تفكر فى أنك كنت قليل التربية ، لم تفكر أنت ولكنني فكرت ! » .

وقلت متسائلا ، وقد شعرت أنه يهيني وبدأ يساورني الغضب : « بأى حق تصرخ فى بهذا الشكل ؟ » .

لى كل الحق ، فانا لا أسمح مطلقا لأى شخص أن يكون وقحاً نحوى ، ولسوف ألقن هؤلاء الشبان من أمثالك طريقة سلوكهم . ما اسمك ياسيدى ، وأين تقيم ؟ » .

بلغ بى الغضب أقصاه ، وارتعشت شفتاى ، وأصبح تنفسى لهاثاً ، ومع ذلك شعرت بنوع من الذنب ، ربما يكون السبب هو الكمية الكبيرة التى شربتها من الشمبانيا : لم أقل شيئاً مهيناً للسيد ، بل على العكس نطقت شفتاى باسمى وعنواننا بطريقة بالغة الاستسلام .

وختم حديثه كله الذى جرى بالفرنسية بقوله : « اسمى كوليكوف ، ياسيدى العزيز ، وسوف أضايقك لكى تكون فى المستقبل أكثر مجاملة .. وسوف تسمع عن أخبارى » .

واقتصرت على قولى : « يسعدنى ذلك » محاولا أن أجعل صوتى حازماً قدر المستطاع ، ثم قفلت راجعاً الى حجرتنا بسجارتى التى كانت السبب فى خروجى .

لم أذكر ماحدث ، لا لأخى أو لصديقى (وبخاصة أنهما كانا مشتركين فى نقاش حام) ولكنى جلست وحدى فى ركن لأتأمل هذا الحادث الغريب . وكانت الكلمات « سيء التربية ياسيدى » ترن فى أذنى وتثير غضبى أكثر وأكثر . وأفقت آنئذ من ثملى تماما ، وفى أثناء تأمل سلوكى فى الموضوع ، صدمت بفكرة قطيعة هى أننى تصرفت كجبان : « بأى حق يهاجمنى ؟ لماذا لم يقل اننى أزعجته وحسب ؟ لابد أنه كان مخطئ ... ولماذا اذن لم أقل له انك أنت السيء التربية يا سيدى حين قال لى أننى سيء التربية ، ومن ذا الذى يسمح لنفسه بالوقاحة ؛ أو لماذا لم أصرخ فى وجهه وحسب : (أمسك لسانك !) لابد أن ذلك خطأ فظيع . لماذا لم ادعه للمبارزة ؟ لا ، لم أفعل شيئا من هذه الأشياء ، بل ابتلعت الاهانة كجبان دنيء » . ورنت فى أذنى دون انقطاع وفى صورة غاضبة عبارة : « انك سيء التربية ، ياسيدى » فقلت فى نفسى : « لا ، لا أستطيع أن أقف عند هذا الحد » فنهضت فى ثبات مصمما على العودة الى السيد ، لأقول له شيئا يفزعه ، ولربما ضربته على أم رأسه بالشمعدان اذا كان هذا ملائما . فكرت فى هذا التصميم الأخير بأشد سرور ، ولكن دخولى الحجرة العامة مرة أخرى لم

يكن يخلو من خوف عظيم . ومن حسن الحظ أن كوليكوف لم يكن هناك ، ولكنى وجدت نادلا فقط ينظف المائدة . وأردت أن أخبر النادل بما حدث وأشرح له أننى لم أكن ملوما البتة ، ولكنى غيرت رأيي وعدت ثانية الى حجرتنا فى أسوأ حال من الكآبة .

وقال دوبكوف : « ماذا يضايقك أيها الدبلوماسى ، لعله يقرر الآن مصير أوربا » .

وقلت متجهما وأنا أشيح بوجهى : « آه ، دعنى وحدى » .

وبينما كنت أتجول فى الحجرة ، بدأت أفكر ، لسبب ما ، أن دوبكوف ليس شخصا لطيفا بالمرة ، وأقول فى نفسى : « أما عن حركاته الدائمة ، وتلك التسمية « دبلوماسى » فليس فيها مايستحىء ، وكل مايصلح له هو كسب المال من فولوديا ، والذهاب الى عمة ما من عماته ، وليس فى كل هذا ما يسر . كان كل شىء يقوله ، اما كذباً ، واما تهكماً ، وكان يضحك دائما على حساب غيره ، وقصارى القول كان أحمق ، وخبيثا فوق ذلك » . وقضيت خمس دقائق فى هذه التأملات ، وتزايد شعورى العدائى شيئا فشيئا نحو دوبكوف . أما من جانب دوبكوف ، فانه لم يعرنى أى اهتمام ، وقد أغضبنى هذا كثيرا ، بل غضبت من فولوديا ودمترى لأنهما كانا يتحدثان اليه .

وقال دوبكوف على حين فجأة وهو يرمقنى بنظرة خيل الى

أنها مقرونة بالسخرية ، بل وبابتســامة خبيثة : « أتعرفون ماذا بالمادة ؟ يجب أن نسكب بعض الماء على الدبلوماسى ، انه فى حـالة سيئة ، وأقسم بالسماء انه فى حالة سيئة ! » .

فأجبت بابتسامة شريرة « انك بحاجة الى اغراقك لأنك أنت نفسك فى حالة سيئة » .

ورددت الاهانة بابتســامة متخابثة ، بل متناسيا أننى خاطبته بضمير المفرد ، وقلت : « انك بحاجة الى أن تغرق فى الماء ، فأنت نفسك فى حالة سيئة » .

ولابد أن تكون هذه الاجــابة قد أذهلت دوبكوف ، ولكنه تحول عنى دون اهتمام ، وتابع حديثه مع فولوديا ودمترى .

كان يمكن أن أحاول الاشتراك مع فولوديا ودمترى ، ولكن شعرت بأننى غير قادر على التظــاهر ، فانسحبت الى ركنى حيث مكثت الى أن غادرنا المكان .

وبعد أن دفعنا قائمة الحساب ، وارتدينا معاطفنا قال دوبكوف لدمترى : « حسن الى أين سيذهب أورستس وبلايدس ؟ ربما الى البيت للتحدث عن « الحب » . والآن من الأفضل أن نذهب لزيارة عمتنا العزيزة ، فهى أكثر تسلية من صداقتكم المتناكسة » .

وانفجرت قائلا وأنا أتقدم نحوه مشيرا بيدى : « كيف تجرؤ

على توجيه مثل هذا الحديث الينا وتضحك منا ؟ وكيف تجرؤ على الضحك من مشاعر لا تفهمها ؟ انني لا أسمح بذلك • أمسك لسانك ! » قلت ذلك بصوت مرتفع ثم رحت في صمت ، لا أعرف ماذا أقول بعد ذلك وأخذت ألهث من فرط الانفعال • وتراجع دوبكوف الى الوراء في بادىء الأمر ، ثم حاول أن يبتسم ، ويحمل الأمر محمل المزاح ، ولكنه ارتعد خوفا في النهاية وغض من بصره، مما دهشت له أشد الدهشة •

وقال مراوغاً : « انني لا أسخر منكم ولا من مشاعركم أقل سخرية ، انها طريقتي في الحديث وحسب » •

فصحت قائلا : « يحسن ألا تفعل » ولكني كنت خجلا في نفس الوقت من نفسي وآسفا لدوبكوف الذي كشف وجهه الجميل المتعب عن حزن حقيقي •

وسألني فولوديا ودمترى معاً : « ماذا دهاك ؟ لم يقصد أحد اهانتك » •

« نعم ، انه قصد اهانتي » •

وقال دوبكوف وهو ينصرف حتى لا يسمع ماعساى أقول له : « ان أخاكم سيد متهور » •

كان يمكن أن أندفع وراءه وأقول له أشياء وقحة ، ولكن في

تلك اللحظة بالضبط ، ناولتني نعطفي ذلك النادل الذي كان موجودا أثناء مشكلتي مع كوليكوف • وهدأت ثائرتي على التو ، وتظاهرت فقط بالغضب الشديد في حضور دمترى اذ كان لا مفر من ذلك حتى لا يبدو هدوئي المفاجىء غريبا • وتقابلنا في اليوم التالي ، دوبكوف وأنا في حجرة فولوديا ، ولم نشر الى هذا الموضوع ومع ذلك ظل كل منا يخاطب الآخر بضمير المفرد « أنت » ، وكان من العسير علينا أكثر من أي وقت مضى أن يحدق أحدنا في وجه الآخر •

ان ذكرى مشاحنتي مع كوليكوف ، الذي لم يدعني «أسمع منه» في ذلك اليوم ولا فيما بعد ، ظلت صعبة الاحتمال شديدة الوضوح لسنوات عدة ؛ بقيت خمس سنوات كاملة أتلوى وأصرخ كل مرة أتذكر فيها ، تلك الاهانة التي لا تغتفر ، وواسيت نفسي بأن تذكرت وأنا راض عن نفسي كيف كنت شهما في معاملتي مع دوبكوف فيما بعد • ولم أبدأ التفكير في الأمر في ضوء مختلف كل الاختلاف الا أخيراً جداً ، فأتذكر مشاحنتي مع كوليكوف باقتناع ماجن ، وأندم على الجرح الذي أحدثته بغير حق في ذلك الشخص الطروب الطيب دوبكوف •

عندما رويت لدمترى في نفس ذلك اليوم قصة مقابلتي مع كوليكوف الذي وصفت له شكله بالدقة دهش كثيرا جدا •

وقال : « نعم ، انه هو نفس الشخص ، تخيل !! ان ذلك الكوليكوف وغد معروف جدا ، ومحتال فى لعب الورق ، ولكن أهم من ذلك كله أنه جبان فصل من فرقته العسكرية بواسطة زملائه لأن شخصاً ما لطمه على وجهه فلم يقاتله ، فمن أين يستمد جسارته ؟ ثم أضاف بابتسامة رقيقة وهو يتفرس فى : ولذلك لم يقل أى شىء أكثر من « سىء التربية ؟ » .

فأجبت : وقد احمر وجهى : « لا » .

وقال دمترى مواسيا : « هذا شىء سىء ، ولكن لم يسبب ضرراً بليغاً » .

وبعد ذلك بمدة طويلة فكرت فى هذا الأمر فى هدوء ، وانتهيت الى أنه من الممكن جداً أن يكون كوليكوف اقتنص الفرصة فى حضور ذلك الرجل الحليق الشارب ذى الوجه الأسمر ، فأخذ بثأره للصفعة التى تلقاها على وجهه منذ سنوات عدة ، تماما كما ثأرت أنا لنفسى عن عبارة « سىء التربية » التى قالها دوبكوف البرىء .

(٧٢)

كانت أول فكرة طرأت على ذهنى بعد يقظتى فى اليوم التالى هى مغامرتى مع كوليكوف ، وزمجرت فى سرى مرة أخرى

واندفعت نحو الحجرة ، ولكنى لم أستطع عمل شىء ازاءها ، هذا بالاضافة الى أنه كان اليوم الأخير الذى سأقضيه فى موسكو ، وكان على ، تنفيذا لأوامر أبى ، أن أقوم ببعض الزيارات التى اختارها لى هو بنفسه ، لم يكن اهتمام والدى كبيراً بنا فى الناحية الأخلاقية والتعليمية بقدر ماكان من ناحية علاقاتنا الدنيوية ، فكتب على الورقة بخطه السريع المدبب : « (١) زيارة للأمير ايفان ايفانتش ، لابد منها ، (٢) زيارة آل ايفن ، (لابد منها) (٣) زيارة للأمير ميخايلو (٤) زيارة للأميرة نخليودوفا ومدام فالاخينا (اذا أمكن) ، وبالطبع لولى الأمر والعميد والأساتذة » .

لقد ردنى دمترى عن هذه الزيارات الأخيرة قائلا انها ليست غير ضرورية وحسب ، ولكنها قد تكون غير لائقة ، ولكن جميع الزيارات الباقية يجب أن تتم فى ذلك اليوم . وكنت أخشى من القيام بالزيارتين الأوليين الموضحتين بعبارة « لابد منها » بنوع خاص . كان الأمير ايفان ايفانتش قائداً عاما ، رجلا عجوزا غنيا يعيش وحيداً ؟ ثم أنا ، وكنت طالبا فى السادسة عشرة ، مضطراً الى التحدث معه حديثا مباشرا ، وكنت أحس احساساً باطنا بأن هذا الحديث ليس فيه مايرضينى . وآل ايفن كانوا أغنياء كذلك ، وكان والدهم قائداً ذا أهمية لم يزر بيتنا غير مرة واحدة يوم عيد جدتى . وقد لاحظت بعد موت جدتى أن ايفان الصغير كان يتجنبنا ، ويظهر تعاليا . أما الأكبر فقد سمعت أنه أتم دراسة القانون وعين فى سان

بترسبورج ؟ أما الثاني (سيرجي) الذي كنت أعيم به في وقت ما ، فكان أيضا في سان بترسبورج ـ تلميذاً ، كبيرا سميا بالمدرسة الحربية في « سلاح صغار الفرسان » .

لم أكن في شبابي أبغض الاختلاط الا بالناس الذين يعتبرون أنفسهم أسمى مني مكانة ؟ لأن هذا الاتصال كان يسبب لي ألما لا يحتمل ، لخوفي الدائم من الاهانة ، ولتوتر جميع وظائفي العقلية لأبرهن لأمثال هؤلاء الناس على استقلالي . ولكن لما كنت سأعصي أوامر والدي الأخيرة ، فقد شعرت أنني يجب أن أيسر الأمور باطاعة أوامره الأولى . وأخذت أذرع حجرتي وأتأمل ملابسي المنشورة على المقاعد ، وخنجري وقبعتي . وكنت على أهبة الاستعداد حين جاء جراب العجوز لتهنئتي مصطحبا النكا معه . والأب جراب ألماني المولد روسي الجنسية زلق اللسان متملق ، ويغلب كثيراً أن تسوء حالته بالادمان . وكان يأتي الينا عادة بقصد طلب شيء وحسب ، ومع أن والدي كان يستقبله أحيانا في مكتبه الا أنه لم يدعه مرة لتناول الطعام معنا . وكان من شأن ضعته والحاقه في السؤال وامتزاج هاتين الصفتين بنوع معين من دماثة الخلق الشكلية، ودالته على منزلنا أن ظن الجميع أن هذا يجعله جديرا بالاتصال بنا جميعا ، ولكني لسبب ما لم أحمل له حبا مطلقا ، وحين كان يتكلم كنت أشعر بالخجل من أجله .

امتعضت كثيرا جداً لوصول هذين الضيفين ، ولم أبذل أي جهد لاخفاء امتعاضي . لقد تعودت أن أنظر باحتقار الى النكا ،

وتعودت اعتبار عملنا هذا سليما نجدا ، حتى أنه كان من غير المقبول عندي أن يكون طالبا مثلي تماما ، وكان يؤلمني كذلك خجله بنوع ما من هذه المساواة أثناء وجودي، حييتهما بفتور، ولم أدعهما للجلوس، لأنني خجلت أن أفعل ظناً مني أنهما يستطيعان أن يفعلا ذلك دون دعوة مني ، وأمرت باعداد عربتي ـ كان النكا شابا رقيقا شريفا جداً، وماهرا للغاية ، ومع ذلك كان من النوع الذي يطلق عليه رجلا متقلب الأهواء ، وكانت تسلط عليه دائما نزعة متطرفة ، دون أي سبب ظاهر مهما كان : فالآن حالة بكاء، ثم ميل الى الضحك ، وثالثة شعور بالامتعاض لكل شيء تافه . ويبدو أنه كان آنئذ في هذه الحالة العقلية الأخيرة . لم يقل شيئا ، وينظر الى والى والده بغضب ؟ ولا يبتسم الا حين يوجه اليه الكلام ، ابتسامة خضوع مغتصبة اعتاد أن يخفي وراءها مشاعره ، وبخاصة شعوره بالخجل لوالده الذي يحتمه رغما عنه في حضورنا .

وقال الرجل العجوز وهو يتبعني في الحجرة أثناء ارتداء ملابسي ، ويقلب صندوق السعوط الصغير الذي أعطته اياه جدتي ، في بطء ووقار بين أصابعه الغليظة : « ما أن علمت من ابني بنجاحك في الامتحان نجاحا ممتازا ـ وان كانت مهارتك معروفة بطبيعة الحال عند الجميع ـ حتى سارعت بالحضور لكي أهنئك يابني العزيز ... لقد حملتك على كتفي ، ويعلم الله أنني أحب أهلك كأقاربي ، وقد ألح ابني النكا على طلب باستمرار أن أحضر لرؤيتك ، فقد أصبح هو أيضا يألفك كثيرا » .

وفى نفس الوقت جلس النكا صامتا بالقرب من النافذة ، وكان من الواضح أنه غارق فى تأمل قبعتى المثلثة الأركان يغمغم بشىء فى صوت خفيض غاضب .

وتابع الرجل العجوز حديثه قائلا : « والآن أردت أن أسألك يانيكولاى بتروفتش ، هل اجتاز ولدى النكا الامتحان بنجاح؟ يقول انه سيلتحق بنفس القسم مثلك — ولذلك أرجو أن تتكرم بمراقبته ، ونصحه اذا لزم الأمر » .

فأجبت وأنا أنظر الى النكا الذى احمر وجهه حين شعر بنظرتى ، وأوقف تحريك شفتيه : « لقد أحسن الاجابة » .

وسألنى الرجل العجوز بابتسامة هيابة كما لو كان يخافنى كثيرا : « وهل يستطيع قضاء اليوم معك ؟ » ومع ذلك فقد كان شديد القرب منى يلازمنى أينما انتقلت حتى أن رائحة الخمر والتبغ التى كان غارقا فيها ، لم ينقطع شعورى برائحتها ثانية واحدة ، وشعرت بامتعاض نحوه اذ وضعنى فى مثل هذا الموقف ازاء ابنه ، كما أنه صرف انتباهى عن عمل كان بالنسبة الى ذا أهمية كبرى ، وهو ارتداء ملابسى ، ولكن أهم من كل شىء رائحة « البراندى » القوية الدائمة التى أزعجتنى حتى قلت بفتور شديد اننى لن أحظى بصحبة النكا لأننى لن أكون بالمنزل طوال النهار .

وقال النكا وهو يبتسم ولكن دون أن ينظر الى : « انك ذاهب

لزيارة أختك يا أبى ، وسيكون لدى عمل أهتم به » . كنت لا أزال متضايقا ، كما كان تأنيب الضمير يخزنى ، فلكى أخفف من وقع رفضى ، أسرعت فقلت لهما اننى سوف لا أكون بالمنزل لأننى مضطر الى زيارة الأمير ايفان ايفانتش والأميرة كوناكوفا ، ثم ايفن الذى يلى منصبا ذا نفوذ كبير ، ومن المحتمل أن أتناول الطعام مع الأميرة تخليودوفا . وظننت أنهم حين يعلمون أى المنازل الشهيرة سأزورها، سوف لايسألوننى مطالب أخرى . وعندما تأهبوا للانصراف دعوت النكا الى زيارتى مرة أخرى ، ولكن النكا غمغم فقط بعبارة ما ، وابتسم ابتسامة مغتصبة . وكان من الواضح أن قدميه لن تعبرا مطلقا عتبة بابى مرة أخرى .

وبدأت بعد رحيلهما القيام بجولة زياراتى . وكان فولوديا الذى دعوته فى ذلك الصباح الى مرافقتى لكى لا أشعر بخجل شديد عندما أكون وحيدا قد رفض بحجة أن ركوب أخوين ودودين معاً فى عربة جميلة صغيرة — شىء يثير العواطف .

(٧٣)

آل فالاخين

وهكذا انطلقت وحدى ، وكانت أول زيارة فى طريقى لدى آل فالاخين فى سيفتسيف فرازك ، ولم أكن قد رأيت سونتشكا منذ

ثلاث سنوات ، وأصبح حبي لها بطبيعة الحال منذ أمد بعيد أثراً من الماضي ، ومع ذلك كانت لاتزال تستهل في روحي ذكرى بهيجة مؤثرة عن ذلك الحب الصبياني الماضي ، وكنت أتذكرها في بعض الأحيان خلال هذه الأعوام الثلاثة بنفس القوة والوضوح حتى أن الدموع كانت تطفر من عيني وأشعر كأنني عدت ثانية الى الحب ، ولكن هذا لم يكن يدوم غير دقائق قليلة ، وقد مضى أمد طويل على عودتي .

عرفت أن سونتشكا كانت في الخارج مع أمها حيث قضتا عامين، وهناك فيما يقال عرض لهما حادث عربة ، وقد أحدث الزجاج في وجه سونتشكا جرحاً بليغاً وبذلك فقدت سونتشكا جمال طلعتها الى حد كبير ، وبينما كنت راكبا في طريقي الى البيت ، تذكرت صورة واضحة لسونتشكا السابقة ، وتخيلت ماذا سيكون شكلها في هذه المرة ، وبعد مكثها عامين في الخارج كنت أتخيلها بالغة الطول ، ذات وجه جميل جدا ، جاد جليل ، ولكنه جذاب بصورة ملحوظة ، ورفض خيالي أن يصورها بوجه شوهته الندبات ، بل على العكس ، سمعت في مكان ما عن حبيب ملتهب العاطفة ظل مخلصاً لمعبودته بالرغم من ندباتها ، والواقع أنني عندما سرت الى بيت آل فالاخين لم أكن أحب ، ولكني أثرت ذكريات قديمة للحب ، وكنت متأهبا كل التأهب للوقوع في الحب ، وكنت تواقا جدا لعمل ذلك ، وبخاصة

لأنني أشعر بالخجل منذ وقت طويل كلما نظرت الى أصدقائي المغرمين وأنني متخلف عنهم بمسافة طويلة .

كان آل فالاخين يعيشون في بيت أنيق صغير من الخشب ، يتصل بفناء ، وفتح لي الباب عند سماع صوت الجرس صبي صغير جدا أنيق الملبس ، وكان الجرس آنئذ نادرا جداً في موسكو ، وهو اما لم يفهمني ، واما أنه لم يرغب في أن ينبئني عنها اذا كانت الأسرة بالمنزل ، وتركني في صحن الدار المظلم ، وجرى في الدهليز المظلم الصامت .

وبقيت وحدي برهة طويلة في تلك الحجرة المظلمة التي كان بها باب مغلق واحد ، بالاضافة الى الباب المؤدي الى الدهليز ، وقد دهشت من ناحية للطابع المظلم الذي يمتاز به البيت ، وافترضت من الناحية الأخرى أنه لابد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لأنهم كانوا في الخارج ، وبعد مرور خمس دقائق فتح نفس الصبي الباب المؤدي الى القاعة من الداخل ، وقادني الى حجرة استقبال ذات أثاث أنيق ولكنه ليس بالثمين ، وتبعتني اليها سونتشكا .

كانت في السابعة عشرة ، قصيرة القامة ، نحيلة الجسم جدا ، لون وجهها الضارب الى الصفرة ، لا ينم عن صحة ، وليس في وجهها ندبات ظاهرة ، وكانت عيناها الساحرتان الكبيرتان ، وابتسامتها المشرقة اللطيفة المرحة ، كما عهدتها وأحببتها في طفولتي ، ولم

أكن أتوقع أن أراها على هذه الصورة البتة ، ولذلك لم أستطع أن أغدق عليها لساعتي المشاعر التي أعددتها في الطريق . وناولتني يدها على الطريقة الانجليزية التي كانت آنئذ نادرة ندرة الجرس ، وهزت يدي في صراحة ، وهيأت لي مكانا بجانبها على الأريكة .

قالت وهي تتأمل وجهي بنفس التعبير الحقيقي عن الفرح الذي تضمنته كلماتها : « آه ، كم أنا سعيدة لرؤيتك ياعزيزي نيكولاس » قيلت بلهجة ودود لا بلهجة التشجيع . وقد أدهشني أنها أكثر بساطة وعذوبة وأقرب الى الطبيعة في أسلوبها بعد رحلتها الى الخارج . ولاحظت ندبتين صغيرتين بالقرب من أنفها ، وعلى جبينها ، ولكن عينيها وابتسامتها الرائعة كانت مصداقاً تاما لذكرياتي عنها ، مشرقة على عادتها القديمة .

قلت : « كم تغيرت ! لقد كبرت الآن تماماً ... حسن ، وأنا – مارأيك عني ؟ » .

فأجبت ، « آه ماكنت لأميزك » وكنت رغم ذلك أفكر في نفس الوقت في أنني كنت أميزها أينما كانت . وكنت أشعر أيضا أنني كنت في حالة نفسية من خلو البال والبهجة قبل خمس سنوات حين رقصت معها « الجد » في حفلة جدتي الراقصة .

وسألتني وهي تهز رأسها : « ولماذا أصبحت دميمة جداً ؟ » .

وأسرعت بالاجابة : « لا ، أبداً ، لقد كبرت قليلا ، انك أكبر سنا ، ولكنك على العكس – بل انك –– » .

« حسن ، لا أهمية لذلك . هل تذكر رقصنا وألعابنا ، وسان جيروم والسيدة دورات (ولم أتذكر أية سيدة باسم دورات ، ومن الواضح أنها كانت مسوقة بمتعة ذكريات طفولتها ، فخلطت بينها) وتابعت حديثها قائلة : « آه ، كم كان وقتا لطيفا ! » وكانت نفس الابتسامة ، بل أجمل من تلك الابتسامة التي كنت أحملها في مخيلتي ، ونفس العينين ، المشرقتين أمامي . وفي أثناء حديثها استطعت ادراك الموقف الذي وجدت نفسي فيه ، في اللحظة الراهنة ، وقررت أنني كنت في اللحظة الراهنة واقعاً في الحب . وحالما فكرت في هذا اختفت لتوها حالتي النفسية السعيدة اللاهية ، وخيل الى أن ضبابا يرتفع أمامي – ويحجب حتى عينيها وابتسامتها – وشعرت بالخجل من شيء ما فانعقد لساني واحمر وجهي .

وراحت تقول وهي تتنهد وترفع حاجبيها قليلا : « لقد تغير الزمن الآن ، كل شيء يبدو أسوأ كثيراً مما كان ، ونحن أسوأ مما كنا ، ألسنا كذلك يانيكولاس ؟ » .

لم أستطع أن أجيب ، وتفرست فيها صامتا .

وتابعت حديثها وهي تتأمل وجهي الأحمر الخائف في شيء من الفضول : « أين جميع آل ايفن وآل كورناكوف الآن ؟ هل تذكر ... لقد كان وقتا رائعاً ! » .

ولم أحر جوابا كذلك .

وأنقذني من هذا الموقف الشاق وقتا ما ؛ دخول السـيدة فالاخينا فنهضت وانحنيت بالتحية ، واستعدت قدرتي على الحديث ؛ ومن ناحية أخرى شمل سونتشكا تغير غريب لدى دخول أمها ، فقد اختفى فجأة كل مرحها وودها ، واختلفت ابتسامتها ، وحدث كل ذلك بسرعة ، باستثناء قامتها الطويلة ، وأصبحت تلك السيدة الشابة العائدة من الخارج كما تخيلتها أن تكون بالضبط . وخيل الى كأن هذا التغير لم يكن له سبب مادامت أمها قد ابتسمت بابتهاج ، وكانت كل حركاتها تعبر عن الرقة كما كانت قديما . وجلست فالاخينا على مقعد ذي مساند وأشارت الى مكان لى بجانبها ، وتحدثت الى ابنتها عن شيء بالانجليزية ، فغادرت سونتشكا الحجرة لتوها ، فمنحني هذا شيئاً من الارتياح . وسألتني فالاخينا عن أقاربي ، أخي وأبي ، ثم تحدثت الى عن أحزانها الخاصة ــ موت زوجها ــ وأخيراً عندما شعرت أنه لم يعد هناك ماتقوله ، تطلعت الى في صمت كأنها تقول : « ان كنت تريد أن تنهض وتنحني بالتحية لتنصرف فحسناً ماتفعل يازميلي العزيز » ولكن شيئاً غريباً حدث لى : عادت سونتشكا ومعها شغلها وجلست في ركن الحجرة وشعرت بنظرها مثبتا على ، وبينما كانت فالاخينا تروى لى عن موت زوجها ، تذكرت مرة أخرى أنني وقعت في الحب ، وحسبت أن الأم قد تكون حدست هذا ، وعاودتني نوبة أخرى من الخجل بالغة الشدة حتى أنني لم أستطع تحريك طرف واحد من أطرافي بحالة طبيعية . كنت أعرف أنني لكي أنهض وأستأذن في الانصراف ، يلزمني أن أفكر في موضع

قدمي ، وفيما أفعل برأسي ، وبيدي ؛ وقصارى القول شعرت كما سبق أن شعرت تماما في الليلة السابقة بعد أن شربت نصف زجاجة من الشمبانيا ، كان شعوري الداخلي يوحي الى بعجزي عن السيطرة على نفسي في كل هـذا ، ولذلك لم أتحـرك ، وفي الحقيقة « لم أستطع » . ولربما اندهشت فالاخينـا عندما رأت وجهي القرمزي وجمودي التام ، ولكني قررت أن الجلوس في ذلك الوضع السخيف أفضل من المغـامرة بالنهوض على صـورة خرقاء والاستئذان في الانصراف ، ومن ثمة بقيت جالساً مدة طويلة جدا على أمل أن تحدث مناسبة تنقذني من ذلك الموقف . وقد حدثت هذه المناسبة في شخص شاب لا يعتد به دخل الحجرة في هيئة من يألف المنزل وانحنى لى باحترام ؛ ونهضت فالاخينا معتذرة بحجة أنها مضطرة الى التحدث مع « رجل أعمالها » ونظرت الى وعليها سمات الدهشة كأنها تقول : « ان كنت تقصد الجلوس هناك الى الأبد ــ فسوف أطردك » وبذلت جهداً كبيراً لكى أنهض ، ولكن لم أعد فى حالة تسمح لى بالانحناء . وبينما كنت ذاهبا مصحوبا بنظرات الاشفاق من الأم والابنة ، اصطدمت بمقعد لم يكن يعترض طريقي البتة ، ولكني صدمته لأن كل انتباهي كان موجهاً الى عدم التعثر في البساط تحت قدمي . ولكن ما أن خرجت الى الهواء الطلق ــ بعد مضي لحظة من التبرم والزمجرة بصوت مرتفع جدا حتى لقد استفسر مني كوزما عدة مرات قائلا « نعم ، ياسيدى ؟ » ــ الى أن اختفى هذا الشعور ، وبدأت أتأمل في هدوء تام حبي لسونتشكا وموقفها من أمها ، الذي

صدمتني صدمة غريبة . وعندما أطلعت أبي على ملاحظاتي فيما بعد ـ من أن السيدة فالاخينا وابنتها لم يكونا على وفاق ـ قال :

« نعم ، انها بتقتيرها تجعل ابنتها المسكينة تحيا حياة فظيعة ، وهذا شيء مستهجن جداً » ثم أضاف بانفعال أقوى من أن يحمله لشخص قريب وحسب : « لقد تعودت أن تكون المرأة الساحرة الرقيقة !! ولست أعرف سبب تغيرها الى هذا الحد . ألم تر أي سكرتير هناك ؟ أرأيته ؟ » ثم قال وهو يسير متجهماً وقد تملكه الغضب : « من أي طراز هذه السيدة الروسية حتى يكون لديها سكرتير ؟ » .

فقلت : « لقد رأيته بالفعل » .

« حسن ، وهل هو جميل المنظر على الأقل ؟ » .

« لا ، البتة ! » .

فقال أبي وهو يسعل ويهز كتفيه بحركة انفعالية : « هذا غير معقول » .

وقلت في نفسي بينما كنت أسير في عربتي الدروشكي : « هل أنا واقع في الحب هنا أيضاً » .

(٧٤)

آل كورناكوف

كانت الزيارة الثانية في طريقي لآل كورناكوف ، وكانوا يسكنون الطابق الأول من منزل كبير في « أربات » . وكان الدرج حسن المنظر ونظيفا الى حد بعيد ـ مفروشاً ببساط مثبت بقضبان من النحاس المصقول ، ولكن لم يكن هناك أزهار ولا مرايا . وكانت القاعة التي مررت على أرضها المصقولة اللامعة لكي أصل الى حجرة الجلوس ، تتسم بالوقار ، باردة ، مرتبة بأناقة ؛ كل شيء فيها لامع ، ويبدو أنه متين بالرغم من أنه ليس جديدا . ولكن لم تكن هناك صور ولا أستار ، ولا أي نوع آخر من أنواع الزينة ظاهرة في أي مكان . وكانت بعض الأميرات في حجرة الاستقبال ، كن جالسات في وضع بالغ الأناقة والتكاسل بحيث كان واضحا أنهن لا يجلسن على هذه الهيئة اذا لم يتوقعن مجيء ضيوف .

وقالت لي أكبرهن سنا حين قدمت لتجلس بالقرب مني : « ان أمي ستأتي حالا » وشغلتني هذه الأميرة مدة ربع ساعة في حديث هين جدا ، وقد أدارته بقدر كبير من المهارة حتى أن هذا الحديث لم يضعف لحظة واحدة ، بل كان واضحاً جدا أنها تحتفي بي ، ولذلك لم تعجبني . ومن بين الأشياء الأخرى التي حدثتني عنها ، أن أخاها ستيبان الذي يطلقون عليه اتين . والذي كان قد ألحق

بمدرسة أبناء النبلاء ، قد رقى الى رتبة ضابط . وعندما كانت تتحدث عن أخيها ، وبخاصة حين تذكر أنه دخل فرقة الخيالة ضد رغبة أمه ، تتظاهر بالخوف ، ويتظاهر جميع الجالسات فى صمت بنفس الوجوه الخائفة ، وحين كانت تتحدث عن موت جــدتى تتظاهر بالحزن ، وتفعل جميع الأميرات كذلك ، وعندما تتذكر كيف ضربت سان جيروم ، وكيف اقادوني ، كانت تضحك وتكشف عن أسنانها التالفة ، وكانت جميع الأميرات يضــحكن ويكشفن عن أسنانهن التالفة .

ودخلت الأميرة ؛ وكانت نفس المــرأة القميئة العجفاء ذات العينين القلقتين ، وعادة التفرس فى شخص ما وهى تتحــدث الى شخص آخر ـ وناولتني يدها ورفعتها الى شفتى لكى ألثمها ، وهو شىء لم يكن ينبغى أن أفعله لو لم تفعل هى ذلك ، بغرض أنه شىء لا مفر منه .

كم أنا سعيدة اذ أراك ! ، ثم بدأت تتحــدث بذلاقة لسانها المعهودة وهى تتطلع الى بناتها قائلة : « آه ، ما أشد شبهه بأمه ! أليس كذلك يا ليزى ؟ » .

وقالت ليزى انى لكذلك ؟ مع أننى أعرف على وجه التحقيق أننى لا أشبه أمى أقل الشبه .

كم كبرت ! وولــدى اتيين ، لعلك تذكره هو ابن عمك ـ

لا ليس ابن ابن عمك ، ولكن ماهى قرابته يا ليزى ؟ ان أمى فارفارا دمتريفنا ، ابنة دمترى نيكولايفتش ؟ وكانت جدتك هى ناتاليـــا نيكولايفنا » .

وقالت الأميرة الكبرى : « واذن فهو ابن ابن عمنا من الدرجة الثالثة يا أمى » .

وصاحت الأميرة غاضبة : « انكن تخلطن جميع الأشياء بعضها فى بعض ، انه ليس ابن عم من الدرجة الثالثة البتة ـ بل من أبناء أبناء العم ، هذه هى قرابتك لصغيرى العزيز اتيين .. انه ضــابط الآن ، أتعرف هذا ؟ ولكنه ليس كمــا ينبغى أن يكون من ناحية واحدة ؛ انه يتمتع بقسط كبير من الحرية ، انكم يامعشر الشبان يجب أن تكونوا تحت أنظارنا ... نعم ، لا تغضب من عمتك العجوز عندما تذكر لك الحقيقة الواضحة . لقد ربيت اتيين تربية دقيقة ، وأظن أنها الطريقة الملائمة التى يجب اتباعها .

ثم راحت تقول : « نعم ، تلك هى القرابة بيننا ؛ ان الأمير ايفان ايفانتش كان عمى ، وعم أمك ، نعم ، هو ذلك .. والآن ، أخبرنى ، هل زرت منزل الأمير ايفان ؟ » .

فقلت اننى لم أزره بعد ، ولكن يجب أن أزوره اليوم .

وقالت متعجبة : « آه ! كيف فعلت هذا ! لقد كان ينبغى أن تكون أول الزيارات جميعا ، فأنت تعلم أن الأمير ايفان مثل والدك

تماما ، ولم يرزق أبناء ، ولذلك فأنت وأبنائي الذين سيرثونه دون غيركم ، فيجب أن تبجله من أجل سنه ومركزه في العالم ، ومن أجل كل شيء .. انني أعرف أنكم معشر شبان الجيل الحالي لا تفكرون في القرابة البتة ، ولا تحبون المسنين من الناس ؛ ولكن اصغ الى عمتك العجوز لأنني أحبك ، وكنت أحب أمك وجدتك كذلك ، وأحترمها الى حد كبير جداً . يجب أن تذهب دون تأخير ... لابد أن تذهب » .

فقلت انني ذاهب بكل تأكيد ، ولما كانت الزيارة قد استغرقت مدة طويلة جدا في رأيي ، فقد نهضت ، وتحركت للانصراف ، ولكنها استوقفتني .

ومضت في حديثها وهي تلتفت الى قائلة : « لا ، انتظر دقيقة ، أين والدك ياليزى ؟ استدعيه الى هنا ، انه سيسر كثيرا لرؤيتك » .

ودخل الأمير ميخايلو بعد دقيقتين في الواقع - كان رجلا قصيرا قوي البنية ، شديد الاهمال لملابسه غير حليق ، عليه سمات من عدم المبالاة تقرب من البلاهة ، ولم يك سعيداً برؤيتي على كل حال ، وان لم يقل ذلك . ولكن الأميرة التي كان من الواضح أنه يخافها الى حد كبير جدا قالت له :

« فالديمار (ومن الواضح أنها نسيت اسمي) كثير الشبه بأمه ، أليس كذلك ؟ » وأومأت بعينيها للأمير بحيث لابد يكون قد

تكهن برغبتها ، لأنه تقدم مني بملامح بالغة البلادة بل والتبرم ، وعرض لي خده غير الحليق الذي اضطررت الى تقبيله .

وسرعان ماقالت له الأميرة بلهجة غاضبة من الواضح أنها كانت اللهجة التي تستخدمها عادة مع أفراد منزلها : « انك لم ترتد ملابسك بعد ، مع أنك مضطر الى الذهاب بسرعة ؟ انك تريد أن يتحامل عليك الناس ثانية ، وتغضب منك الناس ثانية ! » .

وقال الأمير ميخايلو : « لحظة واحدة ياعزيزتي » ثم انصرف، وانحنيت أنا وانصرفت .

كنت قد سمعت لأول مرة أننا ورثة الأمير ايفان ايفانتش ، وكان هذا الخبر مفاجأة غير سارة لي .

(٧٥)

آل ايفن

كان تفكيري في تلك الزيارة الوشيكة التي لا مفر منها لايزال تقلقني ، ومع ذلك فان ترتيب سيرتي يضع زيارتي لآل ايفن أولا . كانوا يسكنون في تفرسكوي بولفار في بيت واسع وجميل جدا ، ولم أكن خالياً من التوتر العصبي لدى اجتيازي المدخل الذي وقف عنده بواب يحمل هراوة .

وسألته عما اذا كانت الأسرة بالمنزل ؟

وقال البواب : « من تريد مقابلته ياسيدى ؟ ان ابن القائد فى البيت » •

« والقائد نفسه ؟ » •

وقال البواب : « سأستفسر • وأى اسم سأذكر ؟ » • ثم دق الجرس •

وظهرت قدما خادم على السلم ، وقد شملتنى الى حد ما نوبة من التوتر ، حتى أننى طلبت من الخادم ألا يذكر اسمى للقائد ، وأننى سأذهب أولا لمقابلة ابنه • وعندما صعدت الدرج على ذلك السلم الفخم خيل الى أننى صغير بشكل فظيع (لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى للكلمة) • ولقد خبرت نفس التجربة عندما سارت الدروشكى عبر المدخل العظيم ، فقد خيل الى آنئذ أن الدروشكى والحصان والحوذى جميعا أصبحت أشياء صغيرة • كان ابن القائد مستغرقا فى النوم على أريكة وكتابه مفتوح أمامه عندما دلفت الى الحجرة • وتبعنى معلمه الخاص ، هر فروست الذى كان لايزال مقيما بالمنزل الى الحجرة بخطوته المرحة فأيقظ تلميذه • ولم يظهر ايفن ابتهاجاً خاصاً لرؤيته اياى ، ولاحظت أنه يتفرس فى حاجبى وهو يتحدث • وبالرغم من أنه كان مؤدباً جداً ، خيل الى أنه كان يرحب بى على غرار مافعلت الأميرة تماماً ، وأنه لم يشعر مطلقا بأية جاذبية نحوى ، ولم يكن بحاجة الى معرفتى ، مادامت له دائرته

الخاصة من مختلف المعارف على أرجح الظن • تخيلت كل هذا ، وبخاصة لأنه كان يتفرس فى حاجبى • وقصارى القول كان موقفه منى مع ذلك غير ملائم ، فاننى أعترف مع ذلك أنه كان مطابقاً تقريباً لموقفى من الكا • وبدأت أشعر بالانفعال ، وكنت ألاحق كل نظرة من نظرات ايفن الخاطفة ، وعندما كانت تتقابل نظراته مع نظرات فروست كنت أترجم سؤاله : « ولماذا جاء ليزورنا ؟ » •

وبعد أن تحدث الى ايفن وقتا قصيرا قال ان أباه وأمه بالمنزل، وسألنى عما اذا كنت أحب أن أصحبه اليهما ؟ •

وأضاف : « سأرتدى ملابسى فوراً » ثم دخل حجرة أخرى، بالرغم من أنه كان حسن الهندام تماما ــ كان يرتدى سترة وصدرية بيضاء • وعاد بعد دقائق قليلة فى حلته الرسمية ، مزررة تماما ، وهبطنا الى الطابق السفلى معا • كانت حجــرات الاستقبال التى اجتزناها فاخرة الى أقصى حد ، ويبدو على أثاثها الثراء العريض ، ففيها الرخام والتمويه بالذهب ، وشىء مغطى بالحرير الموصلى ، وفيها المرايا • ودخلت ايفنا الحجرة الصغيرة خلف حجرة الجلوس من باب آخر ــ فى وقت دخولنا نفسه • واستقبلتنى استقبالا ودياً جداً كأحد الأقارب ، وقدمت لى مقعداً بالقرب منها ، واستفسرت باهتمام عن كل أفراد أسرتنا • وقد أعجبتنى كثيرا السيدة ايفنا التى رأيتها مرتين عابرتين قبل هذه المرة ، حتى أننى تأملتها بكل انتباه • كانت طويلة نحيلة ، شديدة البياض ، يبدو عليها الاكتئاب

والوهن على الدوام . كانت ابتسامتها حزينة ، ولكنها بالغة الحنان ، عيناها واسعتان جـــدا ، ومتعبتان ، نظراتهما غير مستقيمة تماما ، مما كان يضفي عليها ملامح أكثر كآبة وجاذبية . كانت جالسة غير منحنية تماما ، ولكنهـــا كانت مائلة بكل جسمها ، وكل حركاتها مسترخية . كانت تتحدث بوهن ، ونغمة صوتها ، ونطقها لحرف الراء واللام غير الواضح كان يلذ السمع كثيراً جداً . لم تكن ترحب بي . وواضح أن اجاباتي عن أقاربي كانت تمدها بتسلية حزينة كأنها وهي تنصت الى كانت تتذكر في أسى أياماً أسعد . وذهب ابنها الى مكان ما ، وتأملتني مدة دقيقتين في صمت، ثم أخذت تبكي على حين فجأة ، وجلست هناك لا أستطيع أن أقول أو أفعل أي شيء ، وظلت هي تبكي دون أن تنظر الى البتة . أسفت لها في أول الأمر ثم قلت لنفسي : «ألا ينبغي لي أن أواسيها ، وكيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟» وأخيرا غضبت منها لأنها وضعتني في هذا الموقف المحرج . وقلت : هل يستحق شكلي الرثاء الى هذا الحد ؟ أو أنها تفعل ذلك بقصد أن ترى كيف سأتصرف ازاء هذه الظروف ؟ » .

وتابعت تأملاتي : « ليس من اللائق أن أستأذن في الانصراف الآن ـ فقد يبدو هذا كأنني أهرب من دموعها » وتحركت في مقعدي لأذكرها بوجودي .

فقالت وهي تنظر الى وتحاول الابتسام : « آه ، يابلاعتي ! توجد أيام يبكي فيها المرء لغير ماسبب » .

وأخذت تبحث عن منديلها على الأريكة بجوارها ، ثم انفجرت فجأة في البكاء أكثر من ذي قبل .

« آه ياعزيزي ، انه لمن السخرية أن أبكي على هذه الصورة! لقد كنت أحب أمك كثيرا ، كنا صديقتين و..... » .

وعثرت على منديلها ، وغطت به وجهها ، وراحت تبكي . وتحرج موقفي للمرة الثانية وظللت على هذه الحال برهة طويلة ، وشعرت بالامتعاض ، ولكن شعور الاشفاق عليها كان أقوى . كانت تبدو دموعها حقيقية ، وظللت أفكر في أنها لم تكن تبكي بسبب أمي بقدر ماكانت تبكي لكونها كانت تعيسة آنئذ، وقد عرفت أياما أسعد. ولست أعرف كيف كانت ستنتهي لو لم يدخل ايفن الصغير ويقول ان ايفن الكبير كان يسأل عنها ؟ فنهضت وتأهبت للذهاب اليه حين دخل الحجرة ايفن نفسه . كان سيدا صغير الجسم ، قوي البنية ، أشيب الشعر ، ذا حاجبين غزيرين أسودين ، وشعر رمادي تماما قصه منخفضة ، وفي تعبير وجهه عبوس وثبات فائقين .

نهضت وانحنيت له ، ولكن ايفـــن ، الذي يضع على سترته الخضراء ثلاثة نجوم لم يقتصر فقط على عدم الاستجابة لتحيتي ، ولكنه لم يكد ينظر الى ، حتى لقد شعرت فجأة أنني لست كائنـــا بشريا ، بل مجرد شيء ما لا يستحق الملاحظة ـ مقعد ذي مساند ، أو نافذة ، أو اذا كنت كائنا بشريا فانه لا يمكن تمييزي بحال من الأحوال من المقعد ذي المساند أو النافذة .

وقال لزوجته بالفرنسية ، وكان تعبير وجهه جامداً ولكن في حزم : « انك لم تكتبي باعزيزتي للكونتيسة حتى الآن » .

وقالت لي السيدة ايفنا : « صحبتك السلامة ياسيد ارتنيف » وهي تميل رأسها دفعة واحدة في تعال نوعاً ما ، وتتفرس في حاجبي كما فعل ابنها . وانحنيت لها ولزوجها مرة أخرى ، وأثرت تحيتي مرة أخرى في ايفن الكبير كما يؤثر فيه تماما فتح النافذة أو غلقها ، ولكن ايفن الصغير صحبني حتى الباب . (وقال لي وهو في الطريق انه سينتقل الى جامعة بيترسبرج لأن والده حصل على وظيفة هناك ، وذكر لي مركزا هاماً جدا) .

وغمغمت أقول لنفسي وأنا أركب عربتي الدروشكي : «حسن ، قد يرضى أبي عن هذا أو لا يرضى ، ولكني لن أضع قدمي مطلقا في هذا البيت مرة أخرى . ان ذلك الشيخ العاوى عندما تنظر الى كما لو كنت مخلوقا تعيساً ؟ وذلك الخنزير ايفن الذي لا ينحني لي ، سأردها له » أما كيف قصدت أن أردها له ، فلا أعرف في الحقيقة ، ولكن هذه هي الكلمة التي طرأت على ذهني .

وكثيرا ماكنت أضطر فيما بعد الى تحمل تحذيرات أبي ، وقال لي انه لا مفر من « تهذيب » هذه المعرفة ، وأنني لا أحتاج الى رجل في مركز كهذا مثل ايفن ليرعى صبياً مثلي ، ولكني احتفظت بتصميمي مدة طويلة .

(٧٦)

الأمير ايفان ايفانتش

قلت لكوزما بينما كنا تدحرج نحو بيت الأمير ايفان ايفانتش : « والآن ، الى آخر زيارة لنا في تيكيتسكايا » .

بعد أن خبرت عدة تجارب في القيام بالزيارات حصلت بالمران على الاعتماد على النفس ، وكنت الآن على وشك الذهاب الى بيت الأمير في حالة نفسية محتملة من رباطة الجأش ، عندما تذكرت فجأة كلمات الأميرة كورناكوفا من أنني وريثه ، وفوق ذلك وقع نظرى على عربتين تنتظران عند المدخل فغلبني الخجل مرة أخرى .

وخيل الى أن البواب العجوز الذي فتح لي الباب ، والخادم الذي ساعدني على خلع معطفي ، والسيدات الثلاث والسيدين اللذين وجدتهم في حجرة الاستقبال ، والأمير ايفان ايفانتش نفسه بخاصة ، الذي كان جالساً على الأريكة مرتديا سترة بسيطة ـ خيل الى أنهم جميعا نظروا الى بوصفي وريثا . واذن فنظرتهم عدائية .

كان الأمير ودودا جدا معي : قبلني ، أي أنه وضع شفتيه الناعمتين الجافتين الباردتين على خدي لحظة واستفسر عن مشاغلي وخططي ، ومازحني ، وسألني عما اذا كنت لا أزال أكتب شعراً كالذي كتبته لجدتي يوم عيدها ، وقال لي انه يجب أن أحضر فأتناول معه الطعام في ذلك اليوم . ولكن بقدر ماكان مضيافاً ، بقدر ماكان يخيل الى

أنه يريد تدليلي فقط حتى لا أدرك مدى كراهيته لفكرة أنني وريثه . لقد كانت فيه عادة — نشأت من وجود الأسنان الصناعية التي كانت تملأ فمه — وهي رفع شفته نحو أنفه بعد أن يقول أي شيء ، ويحدث صوتا ضعيفا كأنه يجر شفته الى داخل خياشيمه ، وعندما فعل هذا في المناسبة الحاضرة خيل الى كأنه يقول لنفسه : « أيها الصبي ، لست بحاجة الى أن تقول لي : انك وريثي ، نعم ، وريثي » وهكذا .

عندما كنا أطفالا كنا نطلق على الأمير ايفان ايفانتش « جدنا » ولكن الآن ، بصفتي الوريث ، لا أستطيع ان يرد على لساني هذا التعبير ، بينما خيل الى أن وصفه « بصاحب السعادة » كما فعل واحد من الزائرين الآخرين فيه تحقير ، ولذلك فانني حاولت أثناء الحديث كله ألا أطلق عليه أية صفة كلية ، ولكني كنت متضايقا أكثر من أي شيء آخر ، من الأميرة العجوز التي كانت هي الأخرى من ورثة الأمير ، وكانت تعيش تحت سقف بيته . وفي وقت الغداء الذي كنت أجلس أثناءه بجانب الأميرة ، تخيلت أن الأميرة لم تتحدث الى لأنها كانت تبغضني لأنني وريث للأمير مثلها ، وأن الأمير لم يعر هذا الجانب من المائدة التفاتا لأننا — الأميرة وأنا — وريثان بغيضان لديه على السواء .

وقلت في نفس ذلك المساء لدمترى رغبة مني في التفاخر أمامه بنفوري من أنني وريثه : « نعم ، انك لا تستطيع أن تصدق

مدى كراهيتي لهذه الفكرة » (وكان هذا الشعور يلذ لي كثيراً) وقلت : « وكم كان منفراً لي قضاء ساعتين كاملتين بمنزل الأمير اليوم ... انه رجل لطيف جداً وكان مؤدباً جدا معي » وقلت ذلك مع أشياء أخرى لرغبتي في التأثير على صديقي بأن ماقلته لم يكن نتيجة لشعوري بالمذلة أمام الأمير ، وتابعت حديثي « ولكن ، فكرة أنهم ربما ينظرون الى كما ينظرون الى الأميرة التي تعيش في بيته ، وتسلك أمامه هذا المسلك الذليل لهي فكرة تبعث على الفزع . انه رجل عجوز مدهش ، شديد الحنان والرقة مع الجميع ، ولكن من المؤلم أن أرى كيف يسيء معاملة تلك الأميرة . ان هذا المال الممقوت ليفسد جميع العلاقات ! » .

وقلت : « أتعرف ، أنني أرى من الأفضل كثيراً أن أشرح للأمير موقفي بجلاء ، فأخبره أنني أحترمه كرجل ولكني لا أفكر في وراثته ، وألتمس منه ألا يترك لي أي شيء ، وأنني تحت هذا الشرط وحده أذهب الى بيته » .

ولم يضحك دمترى حين ذكرت له هذا ، بل على العكس ، راح يمعن التفكير ، وبعد صمت دام بضع دقائق قال لي :

« أتعرف ماذا ؟ انك غير محق ، فاما أنك لا تفترض مطلقا أن الناس يمكنهم أن يظنوا فيك كما يظنون في الأميرة ؟ واما ، فلو افترضت هذا ، فحينئذ ينبغي أن تحمل افتراضاتك الى أبعد من ذلك : أي أنك تعرف ماقد يظنه الناس فيك ، ولكن مثل هذه

الأفكار بعيدة جداً عن نواياك ، الى حد أنك تحتقرها ، ولا تفعل شيئاً يقوم عليها . والآن ، افترض أنهم يفترضون أنك تفترض هذا – ثم أضاف ، وقد شعر أنه مستغرق فى تأملاته ، ولكن قصارى القول ، من الأفضل كثيراً ألا تفترض شيئاً على الاطلاق » .

لقد كان صديقى محقاً تماماً ، غير أن الأمر جاء متأخراً جداً ، وانى كنت مقتنعاً من تجربتى فى الجبهة بمدى مافى التفكير من ضرر ، ومايتطوى عليه التطق من أذى أكبر ، فكثير من الأشياء التى تبدو نبيلة جداً ، بل يجب أن تظل الى الأبد خافية عن الجميع ، مخبأة فى قلب الشخص ، وما أندر ماتصحب الكلمات النبيلة الأعمال النبيلة . وانى لمقتنع أن القصد الطيب نفسه اذا ما أذيع ، فانه يجعل تنفيذ هذا القصد الطيب أكثر صعوبة ، بل مستحيلا بوجه عام . ولكن كيف تكبح النطق بواعث الشباب ذات الاشباع الذاتى النبيل؟ ان المرء يتذكرها فقط فيما بعد ، ويحزن عليها كما يحزن على زهرة لم تعمر طويلا ، قطفها شخص قبل أن تتفتح ، ثم يجدها مطروحة على الأرض ، محطمة ذابلة .

أنا ، الذى قلت لصديقى دمترى الآن فقط ان المال يفسد العلاقات ، قد اقترضت منه خمسة وعشرين روبل منحنى اياها فى صباح اليوم التالى قبل رحيلنا الى الريف ، حين وجدت أننى أضعت كل نقودى الخاصة فى شراء الصور المختلفة وسيقان الغليون ، ثم بقيت مديناً له بعد ذلك وقتاً طويلاً حقاً .

« ٢٧ »

حديث ودى مع صديقى

بدأ هذا الحديث فى المركبة المكشوفة فى الطريق الى كنتسيفو . وكان دمترى قد أقنعنى ، بالعدول عن زيارة أمه فى الصباح ولكنه جاءنى بعد طعام الغداء ليعوضنى عنها بكل فترة العصر ، بل بقضاء الليلة فى المنزل الريفى حيث تعيش أسرته . عندما طلعنا فقط من المدينة واستعضنا بالشوارع القذرة الكثيرة الألوان ، وضجيج الأرصفة غير المحتمل الذى يصم الآذان ، مناظر الأشجار الفسيحة المكشوفة فى الحقول ، وصلصلة العجلات الهادئة على الطريق الترابى ، وهواء الربيع المعطر ، والشعور بالفضاء يطلقنى من جميع الجوانب – آنئذ فقط استعدت حواسى لدرجة ما ، من الانفعالات الجديدة المختلفة ، والاحساس بالحرية الذى أربكنى طوال اليومين الماضيين . كان دمترى لطيفاً عطوفاً ، لم يكن ينسق رباط رقبته مع رأسه ، ولم يكن يطرف بعينيه فى توتر أو يلوى عينيه الى أعلى . كنت راضياً عن المشاعر السامية التى أطلعته عليها، معتقداً أن مراعاته لها ستجعله يغتفر لى تماما العمل الشين الذى حدث مع كوليكوف ولا يزدرينى بسببه . وتحدثنا بطريقة ودية عن أشياء كثيرة خاصة لا يتحدث دائما عنها حتى الأصدقاء . وحدثنى دمترى عن أسرته التى لم أكن قد عرفتها بعد – عن أمه وعمته وأخته ، ثم عن

الشخص الذي اعتبره فولوديا ودوبكوف هيـــام صديقي وأطلقوا عليها « الصغيرة ذات الرأس الأحمر » . كان يتحدث عن أمه في شيء من المديح الهادىء المزهو كما لو كان يحول دون أي اعتراض على ذلك الموضوع ، ويظهر الحماس فيما يتصل بعمته ، ولكن في شيء من التلطف ، أما عن أخته فكان يقول الشيء القليل للغاية ، ويظهر أنه كان يخجل أن يتحدث الي عنها . أما عن « الصغيرة ذات الرأس الأحمر » التي كان اسمها الحقيقي ليوبوف سرجيفنا ، وهي فتاة غير متزوجة متقدمة السن ، وكانت تعيش في بيت آل نخليودوف لعلاقة عائلية أو أخرى ، فقد حدثني عنها بحماسة .

قال وقد احمر وجهه خجلا ، ولكنه كان في نفس الوقت ينظر الي بجسارة : « نعم انها فتاة مدهشة ، وهي لم تعد فتاة صغيرة ـ بل انها لكبيرة نوعا ، وليست جميلة بحال ! ولكن ، يالغباء المرء وفقدان شعوره اذ يحب الجمال ! انني لا أفهم هذا ، انه لغباء مطلق (كان يتكلم كأنه كشف لساعته عن حقيقة جديدة جديرة تماما بالاعتبار) ولكنها تحمل روحا وقلبا ومبادىء لا تشبهها في ذلك أية فتاة أخرى في هذه الأيام (ولست أعرف لماذا اكتسب دمترى عادة التعبير عن كل شيء طيب بأنه نادر في هذه الأيام ، وكان مغرما بتكرار هذا التعبير ويظهر أنه ملائم له) .

وتابع حديثه في هدوء بعد أن تعب من ادانة الناس الذين يمتازون بغباء حب الجمال : « انني لأخشى فقط ، أخشى أن يتعبك

فهمها ومعرفتها بعض الوقت . انها محتشمة بل كتوم ، ولا تحب التظاهر بصفاتها اللطيفة المدهشة : فمثلا أمي ، وهي امرأة رقيقة جدا وذكية ، كما سترى ، قد عرفت ليوبوف سرجيفنا منذ سنوات عـديدة ، ولم تستطع ، ولن تستطيع فهمها ! بل سأقص عليك لماذا كنت منقبض النفس عندما سألتني في الليلة الماضية ـ . أرادت ليوبوف سرجيفنا أمس الأول أن أذهب معها الى ايفان ياكوفلفتش ـ وقد سـمعت بالتأكيد عن ايفـان ياكوفلفتش ـ الذي يقال انه مجنون ، ولكنه في الحقيقة رجل شـهير ، ويجب أن أخبرك أن ليوبوف سرجيفنا متدينة جدا ، وتفهم ايفان ياكوفلفتش تمام الفهم ، وكثيرا ماتذهب لزيارته والتحدث اليه ، وتعطيه نقودا من كسبها الخاص لقومه من الفقراء ، فهي كما ترى امرأة مدهشة ، ولذلك ذهبت معها الى ايفان ياكوفلفتش وشكرتها كثيرا لأنها هيأت لي رؤية ذلك الرجل الشهير ، ولكن أمي لا تريد أن تفهم هذا البتة وتعده خرافة . ولقد تشاحنت في الليـــلة الماضية مع أمي لأول مرة في حياتي ، وكانت مشاحنة حامية الى حد ما » ثم ختم حديثه بحركة تشنجية في عنقه كأنها تذكار للشعور الذي عاناه أثناء تلك المشاحنة .

وقلت مستفسرا رغبـــة مني في صرفه عن هذه الذكريات الكريهة : « حسن ، وما رأيك ؟ أي كيف تتصور نتيجة ذلك ؟ أو هل تتحدث اليها عما سيئول اليه الموقف ؟ وكيف ينتهي حبكما وصـداقتكما ؟ »

واستفسر مني وقد احمر وجهه مرة أخرى ، ولكنه إلتفت الي وتفرس في وجهي بجسارة : « تقصد أن تسألني عما اذا كنت أفكر في الزواج منها ؟ » .

وقلت لنفسي مرة أخرى في تعاظم : « حسن ، ان هذا عين الصواب ، انا واشدان ، نحن الصديقين الراكبين في هذه العربة الصغيرة المكشوفة نناقش أمر حياتنا المستقبلة ، وكل واحد يتمتع بالاصغاء والنظر الينا الآن دون أن نراه » .

ومضى يقول بعد أن أجبته بالايجاب : « ولم لا ؟ ان هذا هو هدفي كما هو هدف كل رجل مستقيم التفكير ، أن يكون سعيدا وطيبا بقدر مافي وسعه ؛ وسأكون سعيدا معها ، اذا مارضيت هي بذلك ، وسأكون أحسن حالا مما لو كنت مع أجمل جميلات الدنيا ، حالما أصبح مستقلا تمام الاستقلال » .

ولم نلاحظ ، ونحن نتحدث على هذا الوجه أننا وصلنا الى منزل كوتشيفو وأن السماء تلبدت كلها بالغيوم ، وأنها على وشك أن تمطر . وكانت الشمس الى اليمين لم ترتفع كثيرا في السماء ، فوق أشجار حديقة كوتشيفو العتيقة ، يغطي نصف قرصها اللامع الأحمر سحب رمادية ينبعث منها ضوء ضئيل ، والأشعة النارية تفلت في انبثاقات من النصف الآخر وتحط على الأشجار العتيقة في الحديقة بلمعان أخاذ ، بينما تضيء نواحيها الخضراء الكثيفة الساكنة

في الشق الساطع من السماء اللازوردية ، وأشعة الضوء في هذا الجانب من السماء كانت شديدة التباين ازاء السحابة الكثيفة الأرجوانية المواجهة لنا فوق أشجار البتولا التي ترى عند الأفق .

وعلى مسافة قريبة الى اليمين ، فيما وراء الغابات والأشجار كنا نرى أسقف الأكواخ الصيفية المتعددة الألوان ، بعضها يعكس أشعة الشمس الساطعة ، بينما البعض الآخر يشمله طابع الكآبة الذي يتسم به النصف الآخر من السماء ، ومن تحت الى اليسار ، البركة الساكنة تشع زرقة تحيط بها أشجار الصفصاف الخضراء الباهتة تبرز معتمة عند سطحها الكئيب الذي يبدو منتفخا في ظاهره ، وفيما وراء البركة في منتصف الطريق الى التل يمتد حقل قاتم مشبع بالبخار ، ويجري الخط المستقيم ذو اللون الأخضر الذي يقسمه في الوسط الى مسافة بعيدة ثم يستقر على الأفق الرصاصي اللون المنذر بالمطر . وعلى جانبي الطريق اللين الذي تتدحرج فوقه العربة الصغيرة المكشوفة في حركة رتيبة ، يبدو نبات الجاودار الغزير المتشابك ، أخضر براقا ، وقد بدأ يفرخ سويقات هنا وهناك . وكان الهواء ساكنا تماما يتأرج نضارة ، وكانت خضرة الأشجار والأوراق والجاودار ساكنة ، غير عادية النقاوة والصفاء . كان يخيل الي أن كل ورقة وكل نصل من الحشائش يحيا حياته الخاصة الفردية الحرة السعيدة . والى جانب الطريق لمحت ممرا للمشاة ضاربا الى السواد يخترق الجاودار الأخضر القاتم الذي أصبح آنئذ في أكثر من ربع

تموه . وذكرتنى هذا المر لسبب ما ، وفى وضوح خاص بقريتنا ، ونتيجة لتفكيرى فى القرية ، وبواسطة ترابط عجيب بين الأفكار ، ذكرتنى بوضوح خاص بسونتشكا وبأننى كنت على حب معها .

بالرغم من كل صداقتى لدمترى ، والسرور الذى تبعثه فى صراحته ، لم أرغب فى معــرفة أى شىء عن شعوره ونواياه ازاء لوبوف سرجيفنا أكثر مما عرفت ، لكنى فكرت فى أنه ينبغى أن يعرف شيئا عن حبى لسونتشكا ، الذى كان يبدو لى حبا من طراز أرقى بكثير . ومع ذلك فلسبب ما لم أعقد النية على أن أخبره مباشرة بأفكارى ، وكم يكون جميلا أن أتزوج من سونتشكا ، وعن معيشتى فى الريف ، وكيف يكون لى أطفال صغار يتوقون الى السير على الأرض ، ويناودوننى « بابا » ، وكيف يفرحنى عندما يأتى هو وزوجته لوبوف سرجيفنا لزيارتى فى ملابس السفر ؟ ولكن بدلا من هذا كله أشرت الى الشمس الغاربة وقلت : « انظر يادمترى ، كم هى ساحرة !! » .

ولم يقل دمترى شيئا ، وواضح أنه امتعض لأننى أجبت عن اعترافه الذى كلفه مجهوداً فيما يحتمل ، بتوجيه التفاته الى الطبيعة التى كان موقفه منها جامداً تماما . كانت الطبيعة تؤثر فيه تأثيرا مختلفا جدا عن تأثيرها فى ، لم تكن تؤثر فيه كثيرا بجمالها كما تؤثر فيه بنفعها ، فهو يحبها بعقله أكثر مما يحبها بمشاعره .

وقلت له بعد هذا دون أن أراعى أنه كان منشغلا فيما يبدو

بأفكاره الخاصة غير مهتم مطلقا بما أقوله له : « أعتقد أننى أخبرتك عن سيدة صغيرة وقعت فى حبها حين كنت طفلا ، وقد رأيتها اليوم» ثم تابعت حديثى فى حماسة : « ولا بد أننى أحبها الآن » .

وبالرغم من تعبير عدم الاكتراث الذى كان لايزال يتراءى على وجهــه ، فقد أخــبرته بحبى وبجميع خططى لهناءة زواج المستقبل . ومن العجيب أن أقول اننى حالما ، وصفت له بالتفصيل كل قوة شعورى حتى أخذ شعورى هذا فى النقصان .

لقد باغتنا المطر بعد أن دلفنا مباشرة الى طريق أشجار البتولا المؤدى الى الطــرز (الفيلا) ولم أعــرف أنها تمطر الا بســقوط قطرات قليلة على أنفى ويدى ، وبشىء مــا يطقطق على الأوراق الصغيرة المتلاصقة من البتولا التى كانت أغصانها متدلية دون حركة ، وبدت كأنها تتلقى هذه القطرات النقية الشفافة بحبور ، كما يرى ذلك من الأريج القوى الذى تملأ به الطريق . وهبطنا من العربة الصغيرة لكى نصــل الى البيت بسرعة أكبر ، مجتازين الحديقة جريا ، ولكنا قابلنا عند مدخل البيت مباشرة أربع ســيدات ، كانت اثنتان منهن يقمن بعملما ، ومع الثالثة كتاب ، والأخيرة كانت تقترب بخطى سريعة من ناحية أخرى مع كلب صغير . وقدمنى دمترى مباشرة الى أمه وأخته وعمته ولوبوف سرجيفنا . ووقفن برهة ، ولكن المطر بدأ يتساقط بسرعة متزايدة .

وقالت السيدة التي عرفت أنهـا أم دمتري : « لنذهب الى الشرفة ، فتقدمه لنا هنـاك مرة أخـرى » وصعدنا الدرج مع السيدات .

(٧٨)

آل نخليودوف

كانت السيدة الوحيدة التي لفتت نظري لأول وهلة أكثر من كل هذه المجموعة هي ليوبوف سرجيفنا التي كانت آخر من صعد الدرج ، وبين ذراعيها كلب صغير مدلل وفي قدميها حذاء سميك مربوط ، وتوقفت مرتين لتتفرس في بامعان ، ثم قبلت كلبهـا ، كانت تصف بأي شيء آخر الا الجمال ـ ذات شعر أحمر خفيف قصير على جانب واحد تقريبا ، والذي أضفى على وجهها البسيطة، كل البساطة طريقة تصفيف شعرها القرينة وجعله في جانب واحد (وهي احدى طرق تصفيف الشعر التي تخترعها لأنفسهن النساء ذوات الشعر الخفيف) ، ولقد حاولت ما استطعت مدفوعاً برغبة ادخال السرور الى قلب صاحبي اكتشاف لمحة جميلة واحدة بين قسماتها فلم أستطع، بل ان عينيها البنيتين ـ برغم تعبيرهما اللطيف ـ كانتا بالغتي الصغر متبلدتين ، فهي بالتأكيد لم تكن جميلة ؟ حتى

اليدين اللتين تكشفان عادة عن الأخلاق ، وان كانتا غير كبيرتين أو سيئتي التكوين ، الا أن لونهمـا كان أحمـر ، وملمسهما كان خشناً .

وعندما تبعتهن الى الشرفة ، قالت كل واحدة من السيدات كلمات قليلة قبل أن يعدن الى مشـاغلهن الكثيرة ، ما عدا فارنكا أخت دمتري التي كانت تنظر الى باهتمام من خلال عينيها الواسعتين الرماديتين القاتمتين ، وأخذت فارنكا تقرأ بصـوت مرتفع من الكتاب الذي وضعته على ركبتيها ، مستخدمة أصبعها كمؤشر .

كانت الأميرة ماريا ايفانوفنـا امرأة طويلة قوية البنيـة تناهز الأربعين ، وقد تكون أكثر من ذلك ، اذا ما أدخلنا في حسـابنا خصلات شعرها الضاربة الى اللون الرمادي ، والتي تظهر صراحة من تحت غطاء رأسها . ولكن وجهها الغض الرقيق ، الذي يكاد يخلو من التجاعيد تماماً ، وبخاصة لمعان عينيها الواسعتين البهيج المرح ، جعلها تبدو أصغر سناً . كانت عيناها البنيتان مفتوحتين عن آخرهما ، وشفتاها رقيقتين جـداً ، وعابستين نوعاً ، وأنفها عادى منتظم انتظاماً كافياً ، مع ميل قليـل الى اليسـار . ولم تكن تضع خواتم في يديها الكبيرتين الشبيهتين بأيدي الرجال ، مع أصابعهما النحيلة . وترتدي ثوباً محكمـا ذا لـون أزرق داكن ، يناسب قوامها الأنيق وكان لا يزال فتياً ، وكان من الواضح أنهـا مزهوة به . وجلست معتدلة اعتدالاً غريبـاً تخيط ثوباً . وعندما دخلت

الشرفة ، أمسكت يدي ، وجذبتني نحوها كأنها ترغب في رؤيتي من مسافة أكثر قرباً • وقالت لي وهي تنظر الى بنفس النظرة الفاترة الصريحة التي يمتاز بها ابنها أيضاً ، وأنها عرفتني منذ زمن طويل من أحاديث دمتري عني ، وأنها دعتني لقضاء يوم كامل معهم لكي يكون تعارفها بي أوثق • ثم أضافت : « افعل ما شئت ولا تكترث لنا أقل اكترات ، ونحن كذلك لن نقيد أنفسنا من أجلك • امش أو اقرأ أو اصغ أو نم اذا كان هذا يروقك أكثر من غيره » •

أما صوفيا ايفانوفنا فكانت عانساً كبيرة السن ، وهي الأخت الصغرى للأميرة ، ولكن يبدو من ملامحها أنها هي الأكبر • وكانت تمتاز بذلك الأسلوب الخاص ، العامر بالأخلاق الذي يوجد فقط في الفتيات القصيرات الشديدات الامتلاء ، اللاتي يستعملن المشدات حول خصورهن ، حتى لكأن كل عافيتها قد صعدت الى أعلى بقوة بالغة تهددها في كل لحظة بالاختناق • ولا تستطيع يداها السمينتان ان تتقابلا تحت نقطة بروز صدريتها • وكانت الأخوات تشبه احداها الأخرى شبهاً كبيراً جداً ، بالرغم من أن ماريا ايفانوفنا ذات شعر أسود وعينين داكنتين ، بينما كانت صوفيا ايفانوفنا شقراء ذات عينين زرقاوين واسعتين ، وهادئتين في نفس الوقت • (وهذا مزيج نادر الحدوث) وكان لهما نفس الملامح ، نفس الأنف ونفس الشفتين ، الا أن أنف صوفيا وشفتيها كانت أكثر غلظاً ، وتميل الى الجانب الأيمن اذا ما ابتسمت ، في حين أنها في حالة الأميرة تميل الى

الجانب الأيسر • وواضح أن صوفيا ايفانوفنا حاولت أن تحافظ على هيئتها فتية ، اذا حكمنا بثوبها وتصفيف شعرها واخفائها لخصلات شعرها الرمادية ان وجد منها شيء • وخيل الي أن الطريقة التي كانت تنظر بها الي ، وهيئتها كانتا تدلان على أقصى حدود التعالي ، وقد امتعضت في بادىء الأمر ، في حين أنني شعرت من ناحية أخرى مع الأميرة أنني على سجيتي تماما • ويحتمل أن يكون مالفت نظري هو بدانتها ، ثم تشابه معين بين وجهها وصورة كاترين العظيمة وهو الذي أضفي عليها مسحة التعاظم • ولكنني خجلت تماماً حين قالت لي وهي تتفرس في بامعان طوال الوقت : « ان أصدقاء أصدقائنا أصدقاؤنا أيضا » واستعدت هدوئي وغيرت رأيي فيها كلية ! غير أنها بعد أن نطقت بهذه الكلمات تريثت برهة ثم فتحت فمها وتنهدت بعمق • ولا بد أن تكون بسبب بدانتها قد اعتادت التنهد بعمق بعد كل مرة تنطق فيها بكلمات قليلة ، وأن تفتح فمها قليلا ، وتقلب عينيها الواسعتين الزرقاوين • ان جزءاً كبيراً من دماثة الأخلاق المحببة كانت تفصح عنه هذه العادة لسبب أو لآخر ، اذ كان يزول عني كل خوف بعد ذلك التنهد ، وأعجبتني الى أقصى حد • كانت عيناها فاتنتين ، وكان صوتها رخيماً مقبولا ، بل ان خطوط تكوينها البالغة الاستدارة كانت تبدو لي في تلك المرحلة من الشباب غير عاطلة كلها من الجمال •

أما ليوبوف سرجيفنا ، بوصفها صديقة صديقي ، فكان لا بد

أن تقول لي شيئاً ودياً وخاصاً للغاية ، (وهذا ما كنت أظنه) ، بل انها تفرست في وجهي مدة طويلة في صمت ، كأنها لم تجزم بأن ما قصدت أن تقوله لي كان ودياً للغاية ، ولكنها قطعت الصمت لكي تستفسر مني عن القسم الذي دخلته ، ثم تفرست في وجهي لحظة بامعان للمرة الثانية ، ومن الواضح أنها كانت مترددة في أن تنطق بشيء خاص وودي أو لا تنطق ؟ واذ لاحظت هذا الشك ، فقد رجوتها معبراً بتقاسيم وجهي أن تخبرني عن كل شيء ، ولكنها قالت : « يقولون ان العناية التي تبذل في الجامعة للعلوم الطبيعية قليلة جداً في هذه الأيام » ثم نادت كلبتها الصغيرة سوزيت .

تحدثت ليوبوف سرجيفنا طوال المساء في هذا النوع من الكلام المتنافر غير الملائم أو غير المتصل ، ولكني كنت أعتقد في دمتري اعتقاداً راسخاً ، وكان ينظر الى في بادىء الأمر بقلق شديد ، ثم اليها طوال المساء وكان تعبير وجهه يتساءل : « حسن ، وما رأيك؟ » ـ وذلك هو ما يحدث في معظم الأحيان ، ومع أنني كنت مقتنعاً في دخيلة نفسي بعدم وجود شيء خاص جداً عن ليوبوف سرجيفنا ، فقد كنت أبعد ما أكون عن التعبير عن فكري حتى لنفسي .

وأخيراً كانت فرنكا آخر عضو في هذه الأسرة ؟ فتاة سمينة نوعاً في السادسة عشرة .

كانت الأشياء الوحيدة الجميلة فيها ، عيناها الرماديتان القاتمتان الواسعتان ، وكانتا تبتسمان بمزيج من المرح واليقظة الهادئة ،

وتشبهان الى حد بعيد جداً عيني عمتها ، وضفيرة شعرها الشقراء البالغة الضخامة ، ثم يداها الجميلتان الناعمتان الى أقصى حد .

قالت صوفيا ايفانوفنا بتنهدها الرقيق وهي تقلب بعض قطع من الملابس كانت تخيطها : « أظنك قد تضايقت يا سيد نيكولاس لأنك لم تسمع البداية ، وكانت القراءة قد توقفت لحظة لأن دمتري كان قد ذهب الى مكان ما .

« أو لعلك قرأت « روب روى » من قبل ؟ » .

وفي ذلك الوقت كنت أعتبر من واجبي ، ولو لمجرد أنني أرتدي الزي الرسمي للطلبة ، أن أجيب في شيء كثير من الذكاء والصدق ولو اجابة بسيطة عن كل سؤال ، يوجهه الى أناس لم أعرفهم تمام المعرفة ، ممن يعتبرون الاجابات القصيرة الواضحة مثل « نعم » ولا » وحقاً انها لشاقة » ولماذا » انها سارة » وما اليها ، أشياء يخجل منها المرء . ونظرت في سراويلي الجديدة العصرية ، والى الأزرار اللامعة على سترتي وأجبت بأنني لم أقرأ « روب روى » ولكن يسليني كثيراً الاستماع اليه ، لأنني أفضل قراءة الكتب من وسطها على قراءتها من أولها .

وأضفت بابتسامة الرضاء عن النفس قائلا : « انها لتسلية مضاعفة ، فأنت تبدأ بالتساؤل عما حدث ، ثم عما سيحدث » .

وأخذت الأميرة تضحك نوعاً من الضحك غير الطبيعي .

(لاحظت فيما بعد أن الأميرة لا تعرف نوعاً آخر من الضحك) .

وقالت : « من المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً ، وهل ستبقى هنا طويلا يا نيكولاس ؟ ولعلك لا تجد جرحاً لكرامتك ان أسقطت لقب السيد ؟ متى سترحل ؟ » .

فأجبت : « لا أعرف ، ربما غداً » ، ولكن قد نمكث وقتاً طويلا جداً ، مع أننى كنت أعرف تماماً أننا سنسافر فى اليوم التالى ، أتمنى على السواء مدة أطول ان استطعت ، اكراما لنا ولدمترى معاً . ثم قالت الأميرة وهى تتطلع الى المدى البعيد : « ان الصداقة شىء مدهش فى سنك » .

وشعرت أنهم جميعاً ينظرون الى ينتظرون ماذا سأقول، بالرغم من أن فارنكا تظاهرت بأنها تفحص شغل عمتها ، وشعرت أنهن جميعا يختبرننى بنوع من الامتحان ، وأننى يجب أن أظهر على أحسن ما أستطيع .

فقلت : « حقا ، ان صداقة دمترى لى مفيدة ، ولكن صداقتى ليس فيها أى نفع له ، انه خير منى ألف مرة (لم يكن دمترى يسمع ما أقوله ، والا لخشيت أن يكتشف ما فى كلماتى من رياء) .

وضحكت الأميرة للمرة الثانية ضحكتها غير الطبيعية ، التى كانت طبيعية بالنسبة لها .

وقالت : « فلتسمعوه يتكلم انك أنت المارد الصغير الكامل الخلق » .

وقلت لنفسى : « مارد كامل الخلق ، انه لشىء هام فيجب أن أتذكر ذلك » .

ومضت تقول وقد خفضت صوتها (وهذا شىء كان يعجبنى بنوع خاص) : « بصرف النظر عنك أنت فهو بارع فى هذا » . ثم أشارت بعينيها الى لوبوف سرجيفنا قائلة : « لقد اكتشف فى عمتنا المسكينة (وهذا هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على ليوبوف سرجيفنا) التى عرفتها مع كلبتها سوزيت لمدة عشرين عاماً ، صفات من الكمال لم أكن حتى أتوهمها » . ثم أضافت : « أطلبى منهم يافاريا أن يحضروا لى كوباً من الماء والثلج » ، وراحت تنظر الى المدى البعيد مرة أخرى ، ربما حين وجدت أن الوقت مبكر نوعاً ، أو أنه ليس من الضرورى أن تطلعنى على شئون عائلية : « أو أن الأفضل أن تدعه (هو) يذهب، فليس (لديه) شىء يعمله ، واستمرى أنت فى القراءة » .

وقالت لى : « اذهب من هذا الباب مباشرة يا صديقى ، وسر نحو خمس عشرة خطوة فى الممر وقل بصوت مرتفع : « بيوتر ، أحضر لماريا ايفانوفنا كوبا من الماء والثلج » ثم ضحكت مرة أخرى باستخفاف ضحكتها غير الطبيعية .

وقلت في نفسي بينما كنت أغادر الحجرة : « انها تريد بالتأكيد محاورتي ، ولربما تريد أن تقول انها لاحظت أنني شاب ذكي جداً جداً » . ولكنني لم أكد أقطع الخمس عشرة خطوة حتى لحقت بي صوفيا ايفانوفنا ، السمينة اللاهثة بخطوات خفيفة سريعة .

وقالت : « أشكرك يا عزيزي ، انني ذاهبة بنفسي الى هناك وسأخبره » .

(٧٩)

الحب

كانت صوفيا ايفانوفنا ، كما علمت فيما بعد ، احدى أولئك النسوة الكبيرات السن النادرات اللائي وان كن قد ولدن للحياة العائلية الا أنهن ينكرن هذه السعادة ، ونتيجة لذلك يصببن فجأة على اغدادق كل كنز الحب الذي اختزن طوال الزمن ، نما وقوى في قلوبهن ، على أحبابهن المختارين . والمخزن غير قابل للنفاد بين العوانس من هذا الطراز الى حد كبير ، بالرغم من أن الأشخاص المختارين كثيرون . ولا يزال يوجد كثير من الحب الذي يسكبنه على جميع المحيطين بهن ، من جميع الناس ، أخياراً وأشراراً ، ممن يتصادف أن يقابلنهم .

هناك ثلاثة أنواع من الحب :

١ — حب الجمال .

٢ — حب التضحية بالذات .

٣ — الحب الذاتي .

ولا أتحدث عن حب شاب لفتاة ، أو حبها له ؟ فأنا أخاف هذه العواطف ، وقد كنت سيىء الحظ للغاية في الحياة من حيث انى لم أشهد شرارة واحدة من الصدق في هذا النوع من الحب ، بل الكذب دون سواه ، الذي تغشى فيه الشهوات والعلاقات الزوجية والمال والرغبة في ربط يدي الانسان أو حلهما ، على الشعور نفسه ، فيصبح من المتعذر عليه كثيراً الوصول الى صميمه . انني أتحدث عن الحب الموجه للجنس البشري الذي يتركز وفقاً لقوة الروح شدة وضعفاً ، على شخص واحد أو على أشخاص عديدين ، أو ينهمر على الكثيرين ، وعن حب الأم أو الأب والأخ ، والأبناء ، حب الزميل والأصدقاء وابن الوطن ، وعن حب الانسان .

ويتطوى حب الجمال على حب العاطفة نفسها والافصاح عنها ، لأن الناس الذين يحبون على هذا الوجه يكون هدف ميلهم محبوباً بقدر ما يثيره وحسب ، ذلك الشعور السار في الوجدان الذي يلذ لهم التعبير عنه . والناس الذين يحبون مع حب الجمال لا يهتمون الا قليلاً جداً بالمبادلة الا بوصفها شيئاً لا أثر له على جمال

الاحساس ولذته ، وكثيراً ما يغيرون أهداف حبهم ، اذ أن غرضهم الأساسى ليس الا استثارة شعورهم السار بالحب . وللمحافظة على هذا الاحساس السار فى نفوسهم، يتحدثون دون انقطاع عن عاطفتهم بألطف العبارات ، وعن الشخص المقصود بهذا الحب ، وعن أولئك الذين لا صلة لهم بهذا الحب بوجه من الوجوه .

وفى بلادنا أناس ينتمون الى طبقة معينة ممن يحبون حباً « جمالياً » ولا يقتصرون على التحدث عن حبهم الى كل شخص ، بل لا بد لهم من التحدث عنه باللغة الفرنسية ، ومن المريب والغريب أن أقول ذلك ، ولكنى مقتنع أن أناساً كثيرين من الطبقة الممتازة وبخاصة من النساء اللائى كان ولايزال حبهن لأصدقائهن ولأطفالهن ولأزواجهن يفنى سريعاً اذا ما حرمن من التحدث عنه بالفرنسية.

والنوع الثانى من الحب — حب التضحية بالذات — ويتضمن عملية تضحية الشخص بنفسه من أجل الهدف الذى أحبه دون أى اعتبار لكون الشخص المحبوب سيصبح أحسن أو أسوأ . ودستور هذا النوع من الحب هو « ليس هناك شىء مكروه لا أفعله لاثبات اخلاصى للعالم كله و « له » أو « لها » » . والناس الذين يحبون على هذا الوجه لا يعتقدون مطلقاً فى المبادلة (لأن تضحية الشخص بنفسه فى سبيل شخص لا يفهمه أجدر بالتقدير) ، وهم دائماً فى حالة مرضية ترفع دائماً من قدر التضحية ، وهم ثابتون فى معظمهم لأنه من العسير عليهم فقدان تلك التضحيات التى بذلوها فى سبيل

هدف حبهم . وهم مستعدون دائماً للموت لكى يثبتوا له أو لها مدى اخلاصهم ، ولكنهم يستهينون بمظاهر الحب اليومية الصغيرة التى لا تحتاج الى ظهور تضحية بالنفس من نوع خاص . وهم لا يهتمون بما اذا كنت قد أكلت أو نمت على مايرام ، وبما اذا كنت فرحاً أو أنك بصحة ، ولا يفعلون شيئاً ليدبروا لك تلك الوسائل من الراحة اذا كانت فى نطاق قدرتهم ، ولكنهم يواجهون الرصاص ويلقون بأنفسهم فى الماء أو فى النار لكى يذوبوا أسى من أجل الحب — فهم مستعدون دائماً لكل هذا اذا ما عرضت المناسبة وحسب. وفوق هذا، فان الناس الذين يميلون الى حب التضحية بالنفس يزهون دائماً بحبهم ، وهم حريصون غيورون مرتابون ؛ وعجيب أن أقول انهم يتمنون الخطر من أجل هدفه حتى يمكنهم انقاذه من شقائه ، ولكى يهيئوا له الراحة — بل يتشدون له الرذائل لكى يقوموه .

انك تعيش وحيداً فى الريف مع زوجتك التى تحبك حباً ينطوى على التضحية بالنفس ، وأنت شخص طبيب عادى ، ولديك مشاغل تحبها ، وزوجتك الودود ، يبلغ بها الضعف بحيث لا تستطيع أن تشغل نفسها بادارة شئون المنزل التى عهد بها الى أيدى الخدم ، ولا بالأطفال الذين تتولهم أيدى المربيات ، ولا بأى شىء تحبه ، لأنها لا تحب شيئاً الا أنت. فمن الواضح أنها مريضة ولكنها لا تريد أن تؤلمك ، ولا تذكر لك هذا ، وهى بادية الضيق ، ولكنها مستعدة لتحمل هذا الضيق طوال حياتها من أجلك . ولكونك سمعتاً فى

انشغالك بأعمالك الى حد بعيد (كيفما كانت هذه الأعمال ـ صيد ، كتب ، فلاحة ، خدمة) فان ذلك يقتلها ، وهي متأكدة أن هذه المشاغل ستدمرك ، ولكنها تلتزم هدوءها وتقاسي . ولكنك الآن تصاب بمرض ، وتنسى زوجتك المحبة مرضها من أجلك ، وبالرغم من توسلاتك ألا تعذب نفسها للاشيء ، فانها تجلس الى جوار فراشك ولا تتحول عنه ، وتشعر بنظرتها الحانية عليك في كل ثانية ، وتقول لك : « هذا أنت ! لقد قلت لك . ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة الى ، فلن أتركك » وتتحسن قليلا في الصباح ، وتذهب الى حجرة أخرى ، ولكن الحجرة غير دافئة أو مرتبة ، ولم يطلب من الطباخ عمل الحساء وهو الشيء الوحيد الذي تستطيع تناوله ، ولم يطلب الدواء بعد ، ولكن زوجتك المسكينة المحبة تنظر اليك بنفس تلك النظرة الحانية التي أضناها السهر ، وتمشي على أطراف أصابعها ، وتصدر الى الخدم أوامر متضاربة هامسة لم يكن لهم بها عهد . وأنت تريد أن تقرأ ؟ فتخبرك زوجتك الودود وهي تتنهد ، أنها تعرف عدم اصغائك لنصحها وأنك ستغضب منها ، وأنها قد اعتادت هذا ـ ولكن من الأفضل لك ألا تقرأ ـ وأنت تريد أن تمشي في الحجرة ، فالأفضل ألا تفعل . وتريد التحدث الى صديق وصل لتوه ـ فالكلام ليس ملائما لك . وتعاودك الحمى مرة أخرى في الليل ، وتطلب أن تترك وحيدا ؟ ولكن زوجتك الودود تجلس شاحبة اللون منهوكة القوى تتنهد من وقت الى آخر على المقعد المواجه لك في ضوء مصباح ليلي خافت ، وتثير فيك الشعور بالهياج ونفاد الصبر لأقل صوت أو حركة تصدر منها ، ولديك خادم عاش معك عشرين عاما وقد ألفته ، وهو يخدمك بطريقة منشرحة ومرضية لأنه نام في أثناء النهار نوما كافيا بالاضافة الى أنه يتناول أجرا في مقابل خدمته ، ولكنها لا تؤمله بالقيام على خدمتك . انها ستقوم بكل شيء بأصابعها الهزيلة غير المدربة ، التي لا تستطيع تحاشي مراقبتها بضيق مكبوت عندما تجاهد هذه الأصابع البيضاء عبثا في انتزاع سدادة قارورة أو اطفاء شمعة أو صب الدواء لك . وان كنت رجلا ملولا حاد الطبع ، ورجوتها أن تبتعد ، فان أذنك المتهيجة ، أذن الشخص المريض ستسمع التنهد والنشيج خارج الباب ، والهمس بشيء من الهراء الى خادمك ؟ وأخيرا ، اذا لم تمت ، فان زوجتك المحبة التي لم تنم طوال العشرين ليلة التي رقدتها مريضا (كما تكرر هذا على أذنيك دون انقطاع) تمرض هي الأخرى وتنهار وتتألم ، وتصبح أقل قدرة على أي عمل ، وفي الوقت الذي تعود فيه الى حالتك الطبيعية ، تعبر هي عن حبها للتضحية بالذات ، بأن تبعث حولك نوعا من الكآبة الرقيقة التي تصل اليك ، والى كل مايحيط بك دون قصد .

والنوع الثالث ـ الحب الذاتي ـ يتضمن محاولة اشباع جميع الحاجات والرغبات ، بل وجميع الرذائل الخاصة بالشيء المحبوب . والناس الذين يحبون على هذه الصورة انما يحبون دائما من أجل الحياة ، لأنهم كلما يزداد حبهم ، تزداد معرفتهم بهدف حبهم ، ويسهل عليهم أن يحبوا ـ أي اشباع رغباته أو رغباتها . وقلما

يكون الافصاح عن حبهم بكلمات ، واذا أمكن الافصاح عنه بالكلمات ، فلا يكون الافصاح بليغاً مع حالة الرضاء عن النفس ، ولكنه يكون على استحياء وقلة لباقة لأنهم يخشون دائما أن يكون حبهم غير كاف، بل ان هؤلاء الناس يحبون رذائل الشخص المحبوب لأنها تمنحهم فرصة أخرى لارضاء رغباته أو رغباتها. وهم يبحثون عن المبادلة بل يخدعون أنفسهم عامدين ، معتقدين فيها ، سعداء اذا ماحصلوا عليها ، ولكن الجميع على السواء يحبون حتى تحت ظروف متناقضة ، وهم لا يكتفون بالرغبة في سعادة الشخص المحبوب ، ولكنهم يجاهدون على الدوام في تحصيلها له أو لها بكل الوسائل المعنوية والمادية ، كبيرها وصغيرها ، التي تكون في نطاق قدرتهم .

وكان هذا هو الحب الذاتي الموجه لابن أخيها ولأختها ولليوبوف سرجيفنا ، بل ولي أنا ، لأن دمترى أحبنى . هو الحب الذي يشع من العيون ، في كل كلمة وكل حركة تصدر من صوفيا ايفانوفنا .

ولم أقدر صوفيا ايفانوفنا تقديرا كاملا الا أخيرا ، ولكن حتى آنئذ كان السؤال الذي طرأ على ذهني هو : « لماذا راح دمترى الذي كان يحاول فهم الحب على وجه مختلف تماماً عن فهم الشبان المعتاد، والذي كانت أمام عينيه دائما هذه الصوفيا ايفانوفنا الحلوة المحبة ، راح فجأة يحب تلك الليوبوف سرجيفنا الغامضة ، ويسلم فقط بأن عمته أيضا تتصف بصفات حميدة ؟ حقاً ، ما أصدق المثل القائل : « لا يقام وزن لنبي في بلده » : واذن لا يوجد غير أحد أمرين ، اما أن يكون في كل انسان في الواقع قدر من الشر أوفر من الخير ، واما أن يكون الانسان أكثر تقبلا منه للخير . ولم يكن دمترى قد عرف ليوبوف منذ أمد طويل ، بينما كان قد خبر حب عمته منذ ولادته .

(٨٠)

اصبحت أكثر تعارفا

عندما عدت الى الشرفة وجدتهم لا يتحدثون عني كما ظننت : ومع ذلك لم تكن فارنكا تقرأ ، ووضعت كتابها جانباً وشغلت في جدل حام مع دمترى الذي كان يذرع الحجرة ذهابا وايابا ويسوى ربطة عنقه في رقبته ويزر عينيه . ويظهر أن موضوع النقاش كان يدور حول ايفان ياكوفليفتش والخرافة ، ولكنه كان نقاشـا حاميا جدا ، بالنسبة لسببه الذي وإن كان حقيقيا الا أنه تافه لا يهم الأسرة كلها عن قرب . وقد جلست الأميرة وليوبوف سرجيفنا صامتتين تصغيان الى كل كلمة ، ومن الواضح أنهما كانتا تريدان من وقت لآخر الاشتراك في المناقشة ولكنهما تكبحان هذه الرغبة وتسمحان بأن تمثل فارنكا احديهما ويمثل دمترى الأخرى . وعندما دخلت نظرت الى فارنكا نظرة تدل على عدم الاهتمام ، حتى لقد كان من الواضح أنها مهتمة اهتماما عميقا بالنقاش فلم تهتم اذا كنت قد سمعت

أو لم أسمع ماقالته . أما الأميرة التي كانت فيما يظهر في صف فارنكا ، فكان على وجهها نفس التعبير ، ولكن دمترى أخذ يناقش حتى في حضوري نقاشاً أشد حرارة من ذي قبل ، وبدا على ليوبوف سرجيفنا أنها ذعرت الى حد بعيد لدى ظهوري ، وقالت لغير شخص معين : « ان الأقدمين محقون اذ يقولون : « لو كان الشباب يعلم ، ولو كانت الشيخوخة تستطيع » .

ولكن هذا القول المأثور لم يضع حداً للجدل ، ولكنه حثني على التفكير في أن ليوبوف سرجيفنا وصديقي كانا على خطأ . وبالرغم من أنني شعرت بالضيق نوعاً ما لوجودي أثناء مشاحنة عائلية صغيرة ، فقد كان يلذ لي أن ألاحظ العلاقات الحقيقية في هذه الأسرة تتكشف من خلال تقدمها وأشعر أن وجودي لم يمنعهم من الحديث بحرية .

وكثيرا مايحدث أن ترى أسرة تختفي تحت نفس ستار الحشمة لعدة سنوات ، وتظل العلاقات الحقيقية بين أعضائها سراً غامضا عليك (لقد لاحظت حتى أنه كلما تعذر النفاذ في هذا الستار وازداد زخرفاً ازدادت لغلظة العلاقات الحقيقية التي يخفيها عنك) . ثم يتصادف أن يمضى يوم واحد ، ثم تظهر دون أي توقع مشكلة ما في محيط هذه الأسرة ، يغلب أن تكون تافهة ، تتصل بسيدة شقراء أو زيارة بخيول الزوج ؟ وبدون أي سبب ظاهر قد يثور العراك ويشتد عنفه حتى يتعذر تصفية الموقف تحت غطاء هذا

الستار ، ثم على حين فجأة ، تتكشف جميع العلاقات الفظة مما يفزع المتشاجرين أنفسهم ويحير الحاضرين . ويرفرف الستار الذي لم يعد يغطي شيئا بين الجانبين المتشاجرين دون جدوى ، ولكنه يفيد في تذكيرك وحسب بمدى الزمن الذي ظللت فيه مخدوعا فيها . وكثيرا مايكون ارتطام رأس شخص ارتطاما شديدا بالسقف أقل ايلاما من لمسة مهما كانت خفيفة ، وتوجد مثل هذه القرحة والنقطة الحساسة في حب دمترى الغريب لليوبوف سرجيفنا ؟ الذي أثار في أمه وأخته ، ان لم يكن شعورا بالحقد فهو على الأقل عاطفة أسرة جرح شعورها ، وكان هذا هو السبب في أن النقاش حول ايفان ياكوفليفتش والخرافة ذا أهمية كبرى عندهم جميعا .

وقالت فارنكا بصوتها الرخيم وهي تنطق كل حرف بجلاء : « انك تحاول أن تفحص مايسخر منه الآخرون ويزدرونه ؟ فيجب أن تحاول دائما الكشف عن شيء لطيف وجدير بالاعتبار »

ورد دمترى قائلا بحركة عصبية من رأسه وهو يبتعد عن أخته : « أولا ، ان أكثر الناس طيشا دون غيره هو الذي يستطيع الاستهانة برجل مثل ايفان ياكوفليفتش ، وثانيا أنك « أنت » التي تحاولين عامدة عدم رؤية الخير الموجود تحت نظرك بالفعل » .

وعندما انضمت الينا صوفيا ايفانوفنا نظرت الينا مرات عدة بصورة مفزعة ؟ مرة الى ابن أخيها ثم الى ابنة أخيها ثم الى ؟ وفتحت فمها مرتين كأنها تنوي الكلام ، ثم تنهدت بتثاقل .

وقالت : « والآن تفضلي يافاريا فاستأنفي القراءة ، فأنا مشتاقة جداً الى معرفة ما اذا كان قد وجدها ثانية (والواقع أن الكتاب لا يبدو أنه يحتوي على كلمة عن أي شخص يجد أي شخص آخر) ثم قالت لابن أخيها برغم نظرة الاستياء التي رمقها بها لأنها قطعت حبل حديثه على الأرجح : « أما بالنسبة لك ياميتيا العزيز فخير لك أن تغطي خدك لأن الهواء رطب وقد تصاب بألم في أسنانك مرة أخرى » • واستؤنفت القراءة •

-

ان هذه المشاحنة الصغيرة لم تعكر هدوء الأسرة أقل تعكير ولا ذلك الوئام الواعي الذي يغطي الدائرة النسائية في الأسرة •

وهذه الدائرة التي كان من الواضح أن الأميرة ايفانوفنا قد أعطتها صفتها ووجهتها ، كانت بالنسبة الى نغمة جديدة جذابة وذات منطق من نوع معين ، وفي نفس الوقت ذات بساطة وانسجام ؟ وقد وضح لي هذه النغمة جمال الأشياء ونقاؤها وبساطتها ـ الجرس ، وغلاف الكتاب والمقعد ذو المساند ، والمنضدة ، وجلسة الأميرة المعتدلة في مشدها المحكم ، وخصلاتها الرمادية الظاهرة للعيان ، وفي طريقة مناداتها لي في أول مقابلة لنا باسمي المجرد ، نيكولاس ، وبالضمير « هو » ، وفي مشاغلهم ، كالقراءة بصوت مرتفع والخياطة ، وفي بياض أيدي النساء الملحوظ (كانت فيهم علامة عائلية مشتركة على اليد هي جزء ناعم من راحة اليد لونه وردي قاتم ، يختلف اختلافاً قوياً عن البياض غير العادي في الجزء الأعلى من اليد) ، ولكن

هذه الصفة كانت تتمثل على أبرز مايكون في الطريقة الممتازة التي يتحدث بها الثلاث اللغتين الفرنسية والروسية ، والنطق بكل حرف على حدة ، واختتام كل كلمة وعبارة بدقة متحذلقة ـ كل هذا وبخاصة معاملتهم لي في بساطة واهتمام في هذه الجماعة كشخص راشد ، والادلاء الي بأفكارهم الخاصة والاصغاء الى آرائي (لم أكن قد تعودت ذلك الا قليلا ، وبالرغم من أزراري اللامعة وحواشي الأكمام الزرقاء فقد كنت لا أزال خائفا من أن يوجه الي سؤال على حين فجأة : « هل تظن الناس سيتحدثون معك حديثا جديا ؟ أذهب وادرس ! ») • وقد نجم عن كل هذا عدم شعوري بأقل ضيق في جماعتهم • فنهضت من على مقعدي وتنقلت من مكان الى مكان وتحدثت مع الجميع ماعدا فارنكا ، التي كنت لا أزال أرى من غير اللائق لسبب ما ، التحدث اليها أولا •

وفي أثناء القراءة ، وبينما كنت أستمع الى صوتها اللطيف ، كنت أتفرس مرة اليها ومرة الى الممر الرملي بحديقة الأزهار التي كانت تتكون فيه بقع مستديرة قاتمة من المطر ، والى أشجار الزيزفون التي كانت لا تزال قطرات المطر تقطر على أوراقها بين حين وآخر من حافة السحابة المرعدة الزرقاء الباهتة الآخذة في الضمور ، ثم أتفرس فيهـا ثانية ، ثم أخيراً في أشعة الشمس القرمزية الغاربة التي كانت تفلق بالضوء أشجار البتولا العتيقة المتقطرة بالمطر ، ثم الى فارنكا ثانية ، وقررت أنهـا لم تكن ساذجة البتة كما توهمتها في أول الأمر •

وقلت فى نفسى : « يا للأسف لقد وقعت فى الحب » ، وفارنكا ليست سوتشكا ، كم يروق لى أن أصبح عضواً فى هذه الأسرة ! سأظفر بأم وعمة وزوجة ، كل ذلك على الفور » ، وبينما أتأمل على هذا الوجه تطلعت الى فارنكا وهى تقرأ ، وفكرت فى أننى يجب أن أجتذبها وأجعلها تنظر الى . ورفعت فارنكا رأسها من كتابها ، وتطلعت الى ، وقابلت عينى ، ثم استدارت .

وقالت : « لم يتوقف المطر بعد » .

وعانيت فى الحال شعوراً غريباً ... تذكرت فجأة أن ما كان يحدث لى آنئذ كان تكراراً بالضبط لما حدث مرة من قبل ، وكان المطر آنئذ يتساقط خفيفا ، وكانت الشمس تغــرب وراء أشجار البتولا ، وكنت أنظر (اليهــا) وكانت تقرأ ، واجتذبتها ورفعت رأسها ونظرت الى ، بل اننى تذكرت أن هذا قد حدث من قبل .

وقلت فى نفسى : « أتكون هى ؟ هى ؟ هل هى بداية » ، ولكنى قررت بسرعة أنها لم تكن (هى) ، وأنها لم تكن البداية بعد ، فهى أولا ليست جميلة المنظر ، وثانيا هى ليست الا سيدة شابة ، وقد تعرفت بها تعرفاً عــاديا الى أبعد حد ، بينما (هى) ستكون مشهورة وسأقابلها فى مكان ما غير عادى ، بالاضافة الى أن هذه الأسرة تروق لى كثيرا لأننى لم أشاهد شيئا حتى الآن ، وقلت فى تصميم : « ولكن هنالك أخريات مثلها بطبيعة الحال ، وسأقابل كثيرات منهن فى مجرى حياتى » .

(٨١)

ظهرت على أحسن حال

وانتهت القراءة فى وقت تناول الشــاى ، وشغلت السيدات بالحديث عن الأشخاص والأحداث ، التى لم أكن ملما بها ، وتعمدن فيما أظن أن يجعلننى أشعر بالرغم من استقبالى الودى بالفرق فى السن والمركز بينهن وبينى . ومع ذلك ففى الحــديث العام لذت بصمتى السابق وبحثت عن عرض ذكائى المشهود وأصالتى ، وهو الشىء الذى أعتبر أن حلتى الرسمية بنــوع خاص تضطرنى الى عمله . وعندما دار الحديث حول المنازل الريفية ، رويت فجأة كيف كان للأمير ايفان ايفانتش « فيلا » رائعة بالقرب من موسكو حتى ان الناس كانوا يفدون من لندن وباريس لرؤيتها ؟ وعن وجود سياج من القضبان الحديدية يساوى ثلاثمائة وثمانين روبل ، وأن الأمير ايفان ايفانتش أحد أقاربى الأقربين ، حتى انى تناولت معه الغداء فى ذلك اليوم ، وقال لى اننى يجب أن أؤكد له حضورى لقضاء كل الصيف معه فى (الفيلا) ولكنى رفضت ذلك لأننى كنت أعرف الـبيت جيدا منـــذ أن زرته عدة مرات ، وأن جميع هذه الأسيجة والقناطر لا تهمنى البتة لأننى لا أتحمل الترف وخاصة فى الريف ، وأننى أحب أن يكون كل شىء فى الريف مثل الريف نفسه . وما أن نطقت بهذا الكذب الفظيع المعقد حتى ارتبكت واحمر وجهى

احمراراً شديداً ، ولاشك أن كل واحد أدرك أنني كنت أكذب ، وتحولت عنى فارنكا التى كانت تناولنى فى تلك اللحظة فنجانا من الشاى ، وصوفيا ايفانوفنا التى كانت تتأملنى أثناء حديثى ، وأخذتا تتحدثان عن شىء آخر بأسلوب كثيرا مالاحظته منذ ذلك الحين لدى المهذبين من الناس عندما يبدأ أحد الشبان الصغار فى الكذب صراحة فى وجوههم ، وهم يعنون بذلك : « اننا نعرف بطبيعة الحال أنه يكذب ، فلماذا يكذب الزميل المسكين !! »

ان سبب قولى ان الأمير ايڤان ايڤانتش يملك (فيلا) هو أننى لم أجد مبرراً أفضل من ذلك لذكر علاقتى بالأمير ايڤان ايڤانتش ، وتناولى معه الطعام فى ذلك اليوم ، ولكن لماذا ذكرت أن البساتين يساوى ثلاثمائة وثمانين ألف روبل ، وأننى زرت بيته مرات كثيرة فى حين أننى لم أزره حتى مرة واحدة ، ولم يكن هذا مستطاعاً مادام الأمير ايڤان ايڤانتش كان يعيش فقط فى موسكو أو نابلى ، وهذا ماكان يعرفه آل نخليودوف جد المعرفة ؟ اننى لا أستطيع فى الحقيقة تعليل ذلك لنفسى ؟ ولم ألاحظ أبدا فى نفسى ، لا فى الطفولة ولا فى الصبا ولا فى مرحلة النضج ولا فيما بعد رذيلة الكذب ، بل على العكس ، كنت صريحا ومستقيماً جدا على الأصح ! ولكن تملكتنى ابان هذه الفترة الأولى من المراهقة رغبة غريبة فى الكذب لدرجة التهور دون سبب ظاهر ، وأقول « لدرجة التهور » عامداً ، لأننى كنت أكذب فى أشياء كان من اليسير الى أقصى حد

الكشف عن كذبى فيها . ويبدو لى أن الرغبة فى التفاخر واظهار نفسى كأننى رجل مختلف تماما عمـــا كنت ، مقترنة بأمل يتعذر تحقيقه فى حياة الكاذب ، بشرط ألا ينكشف كذبه ، كانت هى السبب الجوهرى فى هذا الميل الغريب .

وبعد أن تناولنا الشاى ، وتوقف سقوط المطر ، صفت السماء وهدأت ، واقترحت الأميرة أن نذهب فى نزهة على الأقدام بالحديقة السفلية والاعجاب ببقعتها المحبوبة ، فأجبت جريا على طريقتى فى أن أكون دائما مبتكرا ، ولاعتبارى أن أناسا أذكياء مثل الأميرة ومثلى يجب أن يرتفعوا فوق الآداب الاجتماعية المألوفة ، أجبت أننى أكره المشى العشوائى ، واذا اهتممت بالمشى على الاطلاق ، فأكون وحيدا تماماً . ولم أدرك أن هذه وقاحة صريحة ، بل خيل الى آنئذ أن ليس هناك شىء أدعى الى الخزى من الثناء المبتذل ، وليس هناك أكثر ظرفا وجدة من قليل من الصراحة الوقحة . ومع ذلك فقد ذهبت الى النزهة مع بقية المجموعة راضيا كل الرضى عن اجابتى .

كانت بقعة الأميرة المفضلة بأقصى الحديقة ، فى أعماقها ، على جسر صـــغير فوق أرض عميقة ليست بالفسيحة ؟ وكان المنظر محدوداً الى أقصى حد ، ولكنه غاية فى الكآبة والبهجة معا . ولقد ألفنا كثيراً الفن والطبيعة مختلطين حتى ان تلك الظواهر الطبيعية التى لا نقابلها البتة فى الصـــور لا تلفت نظرنا فى كثير جدا من الأحيان كما هو الحال فى الطبيعة الحقيقية ـ وان كانت من الطبيعة

الحقيقة ـ والعكس بالعكس ، فان هذه الظواهر الطبيعية التي تتكرر في الفن أكثر مما ينبغي تبدو لنا مبتذلة ، أو أنها في بعض الأحوال، حين تكون متغلغلة تماما في الفكر والعاطفة وحدهما ، تبدو خيالية .
وكان المنظر من بقعة الأميرة المفضلة من هذا النوع ، ويتكون من بركة صغيرة ذات شواطىء كثيفة النماء ، من ورائها تل منحدر تغطيه أشجار وأحراج عتيقة متشابكة ، تكثر فيها التغيرات ذات الخضرة المتفاوتة الألوان ، وعند سفح التل شجرة بتولا معمرة متهدلة فوق البركة ، يتشبث بعضها بشاطىء البركة الرطب بجذورها السميكة ، ويرتكز تاجها على شجرة دردار طويلة قوية ، وتتأرجح أغصانها الملتوية على سطح البركة الصقيل الذي يعكس صورة هذه الفروع المتدلية والنباتات الخضراء المحيطة بها .

وقالت الأميرة وهي تهز رأسها دون أن توجه حديثها لشخص بعينه : « ياله من منظر ساحر !! » .

فقلت : « حقا انه مدهش ، ولكنه يبدو مخيفا جدا بصورة ما كمناظر المسرح ، وذلك لرغبتي في التظاهر بأن لي رأياً خاصاً في كل شيء » .

واستمرت الأميرة في الاعجاب بالمنظر كأنها لم تسمع ملاحظتي ، والتفتت الى أختها وليوبوف سرجيفنا ، وأشارت الى بعض التفاصيل المتفرقة ـ القرمة المعوجة الناتئة ، وانعكاس الصورة التي كانت تروقها كثيراً . وقالت صوفيا ايفانوفنا ان كل شيء جميل

جداً ، وأن أختها اعتادت أن تقضي هنا ساعات عدة في كل مرة ، ولكن كان من الواضح أنها قالت ذلك لارضاء الأميرة فقط . ولاحظت أن الناس الذين وهبوا الاستعداد لما أسميه الحب الذاتي ، قلما يدركون جمال الطبيعة . وكان يبدو على ليوبوف سرجيفنا أنها مفتونة اللب ، وكان من بين ما وجهته من أسئلة عن أشياء أخرى : « بماذا تتشبث شجرة البتولا تلك ؟ وهل ستبقى طويلا ؟ » وكانت تنظر باستمرار الى كلبتها سوزيت التي كانت تجري الى خلفنا والى أمام عبر الجسر على سيقانها المعوجة تبصبص بذنبها معبرة عن القلق كأنها وجدت نفسها مصادفة ولأول مرة في حياتها في غير حجرتها . وبدأ دمتري مع أمه حديثاً منطقياً في موضوع أن المنظر لا يبلغ حد الجمال حين يكون الأفق محدوداً . ولم تقل فارنكا شيئاً . وعندما درت أتلفت نحوها كانت واقفة منحنية على سياج الجسر ، وجانب وجهها الى ناحيتي ، تنظر أمامها مباشرة ، ويغلب على الظن أنها كانت مهتمة اهتماماً عميقاً بشيء ما ، بل بشيء أثر فيها ، اذ كان من الواضح أنها غارقة في حلم يقظة ، ولم تكن تفكر في نفسها ، ولا في أن أحداً ينظر اليها . وكانت عيناها الواسعتان مملوءتين بالملاحظة المقصودة ، من فكر هادىء صاف ! وكانت وقفتها غير مصطنعة ! وبالرغم من قصر قامتها كان فيها شيء كثير من المهابة ، حتى لقد خطر لي مرة أخرى ما تخيلته ذكراها ؟ وسألت نفسي مرة أخرى : « أهي البداية ؟ » ، وأجبت ثانية بأنني وقعت فعلا في حب سونتشكا ، وأن فارنكا ليست الا سيدة شابة ، وأخت صديقي . ولكنني أحببتها

فى تلك اللحظة ، وشعرت نتيجة لذلك برغبة غامضة فى أن أقول لها شيئا يكدرها قليلا .

قلت صديقى وأنا أقترب من فارنكا لكى تسمع ماكنت أوشكت أن أقوله : « أتعرف يا دمترى ، أنه حتى لو لم يوجد بعوض ، لما كان فى هذا المكان شيء جميل ، ثم أضفت وأنا أضرب جبينى ، وكنت فى الحقيقة أسحق بعوضة : « وهو الآن مكان عجيب تماما » .

وقالت لى فارنكا دون أن تلتفت الى : « واذن ، فأنت لا تهتم بالطبيعة ؟ » .

وأجبت وأنا راض كل الرضى لقولى هذا الكلام المكدر ، وظهورى بمظهر الشخص الشاذ الأطوار :

« ان الأعجاب بالطبيعة عمل عقيم لا نفع فيه » ورفعت فارنكا حاجبيها وظلت لحظة غير مدركة تقريبا وعليها سمة من الاشفاق ، ثم استمرت فى نظرتها الى الأمام مباشرة برصانتها المعهودة دائما .

وتضايقت منها ، ولكن بالرغم من هذا ، فان سياج الجسر الضارب الى الرمادى ، بلونه الحائل ، الذى تنحنى فوقه ، وانعكاس القرمة المتدلية من شجرة البتولا المتهاوية حتى لكأنها مشتاقة الى اللحاق بأغصانها المتهدلة ورائحة المستنقع ، وشعورى بالبعوضة المسحوقة على جبينى ، ونظرتها الواعية ووقفتها المهيبة ، بالرغم من كل هذا ، كثيراً ما كان يقفز الى خيالى فيما بعد على غير توقع كلمة .

(٨٢)

دمترى

عندما عدنا الى البيت بعد نزهتنا لم ترغب فارنكا فى الغناء كما كانت تفعل عادة فى المساء ؛ وكنت واثقا من أننى المسئول عن ذلك، وتوهمت أن ماقلته لها على الجسر كان هو السبب . ولم يتناول آل نخليودوف العشاء ، وذهبوا الى الفراش فى ساعة مبكرة ، وكان دمترى فى ذلك اليوم يتألم من أسنانه كما تنبأت صوفيا ايفانوفنا ، فذهبنا الى حجرته ، مبكرين ، بل أكثر تبكيراً من المعتاد . ولظنى أننى قد فعلت كل ما تطلبته منى بنيقتى الزرقاء وأزرارى ، وأننى أعجبت الجميع ، فقد كنت فى حالة عقلية لطيفة راضية . وكان دمترى على العكس قليل الكلام مكتئبا بسبب المشاجرة وألم أسنانه، وجلس الى المائدة وتناول كراساته ـــ مذكراته اليومية ، والكتاب الذى تعود أن يسجل فيه كل مساء واجباته الماضية والمستقبلة ـــ وظل يكتب فيهما وقتا طويلا جدا وهو متجهم الوجه دوما ، يدلك خده بيده .

وصاح بالخادمة التى أرسلتها صوفيا ايفانوفنا للاستفسار عن حالة أسنانه وعما اذا كان لا يريد وضع كمادة : « آه ، أتركينى وحدى ! » ثم أخبرتنى أن فراشى سيكون معداً فى الحال ، وأستطيع أن آوى اليه مباشرة ، ثم عادت الى ليوبوف سرجيفنا .

أخذت أفكر حين تركوني وحدي بالحجرة ، وأقول لنفسي : « يالأسف ، ان فارنكا ليست جيلة ، وكذلك سونتشكا ! كم يكون مبهجاً لو تقدمت اليهم ومنحتها يدى عندما أترك الجامعة !! سأقول : « أيتها الأميرة ، بما أنني لم أعد بعد صغيراً ، ولذلك لا أستطيع أن أحب حباً حاراً ، فستكونين موضع رعايتي كأخت عزيزة ، وسأقول لأمها : « وأنت ، فأنا أبجلك الآن ، أما فيما يتعلق بك ياصوفيا ايفانوفنا فأتوسل اليك أن تصدقي أنني أقدرك تقديراً عالياً » ، ثم أسألها في بساطة وصراحة : « أتقبلين أن تكوني زوجتي ؟ » ، « نعم » ثم تناولني يدها ، فأضغط عليها وأقول : ليس حبي كلاماً يا حبيبتي ، ولكنه بالأعمال . ثم خطرت لي فكرة : ماذا تكون الحال لو أن دمترى وقع في حب ليوبتشكا فجأة ؟ » وذلك لأن ليوبتشكا تحبه ـ وترغب في أن يتزوجهــا ؟ واذن ، فواحد منا ســوف لا يستطيع أن يتزوج ، وهذا أمر هام ، لأن هذا ماينبغي أن أفعله . وسأراقب كيف تجرى الأمور ولا أقول شيئا . ولكني سأذهب الى دمترى وأقول له : « عبثا نحاول ياصديقي أن يكتم أحدنا أسراره عن الآخر ، انك تعرف أن حبي لأختك لن ينتهي الا بانتهاء حياتي فقط ـ ومع ذلك فأنا أعــرف كل شيء ـ لقد حــرمتني من أجمل أمل ، لقد صيرتني تعيساً ، ولكن هذه هي الطريقة التي يثأر بهـا نيكولاي ارتنيـف من تعاسة حياته كلها ـ اليك أختي ، ويبقى لي أن أمنحه يد ليوبتشكا . وسيقول : « لا ، لن يكون ! » وأقول له : « لا فائدة أيها الأمير نخليودوف من محاولة التفوق على في كرم الأخلاق ، لا يوجد في العالم كله رجل أكثر نخوة من نيكولاي ارتنيف ، ثم أنحني لـه وأنسحب . وسيجرى خلفي دمترى وليوبتشكا دامعي العينين ، ويتوسلان الى أن أقبل تضحيتهما ـ وقد كنت أوافق ، وأكون سعيدا جدا لو كنت أحب فارنكا ، هذه الأحلام كانت سارة جداً ، حتى لقد أحببت كثيراً جدا أن أنقلها الى صديقي ، ولكن بالرغم من تعاهدنا المتبادل على الصراحة ، شعرت لسبب ما ، أن عمل ذلك متعذر من الناحية المادية .

عـاد دمترى من عند ليـوبوف سرجيفنـا ببعض قطرات على ضرسه كانت قد أعطتها له وكان لا يزال يقاسي ألماً شديداً وبالتالي ظل مكتئباً ، ولم يكن فراشي قد أعد بعد ، وجاء صبي صغير ، وهو خادم دمترى يسألني عن المكان الذى سأنام فيه .

وصاح دمترى وهو يدق بقدمه : « آه ، اذهب الى الشيطان ؟ فاسكا ، فاسكا ، ثم صرخ قائلا حـالما خرج الخادم ، وكان يزداد ارتفاع صوته في كل صرخة : « فاسكا ، ضع لي فراشا على الأرض » .

وقلت : « لا ، دعني أنام أنا على الأرض » .

وراح دمترى يقول بنفس لهجته الغاضبة : « حسن ، هذا لا يهم ، رتبه في أى مكان ، ولماذا لا تجعله هنا ؟ » .

ولكن ، من الواضح أن فاسكا لم يعرف ماهو المطلوب منه ، فوقف دون حراك .

وصاح دمترى فجأة وقد ثارت ثائرته : « حسن ، ماذا تريد؟ أتسمع ، اذهب فى الحال ، ونفذ ما أقوله لك ! » .

ولكن فاسكا وقف خائفا دون حركة اذ لم يفهم .

واذن ، فأنت مصر على قتلى ، على اخراجى عن صوابى ؟ ثم قفز دمترى من على مقعده وانقض على فاسكا ، وانهال على رأسه بعدة لكمات من قبضته ، وهو يندفع الى خارج الحجرة ، وتوقف دمترى عند الباب ونظر الى ، واستحالت مسحة الغيظ والقسوة التى اكتسى بها وجهه برهة الى تعبير صبيانى ودود لطيف خجول ، حتى لقد أسفت له ، وبقدر ما وددت كثيراً أن أنصرف عنه لم أستطع حمل نفسى على ذلك . لم يقل شيئا ، ولكنه أخذ يذرع الحجرة وقتا طويلا ، وينظر الى من وقت لآخر بنفس النظرة الضارعة ، ثم تناول كراسة مذكرات من على المنضدة وكتب فيها شيئا ما وخلع سترته وطواها بعناية ، وذهب الى المثنى حيث الأيقونات معلقة ، وشبك يديه الكبيرتين البيضاوين على صدره ، وأخذ يصلى ؛ ظل يصلى وقتاً طويلا ، حتى لقد اتسع الوقت أمام فاسكا لاحضار الحشية وفرشها على الأرض ، كما أمرته همساً أن يفعل . وخلعت ملابسى ورقدت فى فراشى الذى أعد هنالك على الأرض ، ولكن دمترى كان لايزال مستمراً فى صلاته . وبينما كنت أنظر الى ظهر دمترى المحنى نوعا ما ، والى نعلى قدميه اللتين كانتا تمثلان أمامى نوعا من الخضوع عندما انبطح على الأرض ، أحببت دمترى أكثر من ذى

قبل ، وظللت أفكر : « هل أخبره ، أو لا أخبره بما كنت أحلم بأختنا ؟ وعندما فرغ دمترى من صلاته ، رقد بجانبى على الفراش متكئا على مرفقه ، وتفرس فى طويلا وفى صمت بنظرة ثابتة ودودة ومن الواضح أنه كان متألما ، ولكنه كان يبدو كمن يعاقب نفسه . وابتسمت عندما نظرت اليه ، كما ابتسم لى هو أيضا .

وقال : « لماذا لم تخبرنى أننى تصرفت بطريقة مكروهة ؟ لقد فكرت فى ذلك مباشرة بطبيعة الحال » .

فأجبت « نعم » ــ وبالرغم من أننى كنت أفكر فى شىء آخر ، الا أنه خيل الى حقيقة أننى فكرت فيها ــ فقد أجبت : « نعم ، لم تكن طريقة لطيفة كلية ؛ ولم أكن انتظر ذلك منك » . وقد جربت نوعاً خاصاً من الترضية فى تلك اللحظة حين خاطبته بضمير المفرد . ثم أضفت : « حسنا ، والآن كيف حال أسنانك ؟ » .

وانفجر دمترى فى ود عميق جدا حتى خيل الى أن الدموع تقف فى عينيه اللامعتين فقال ، « أحسن كثيرا . آه ، ياصديقى نيكولنكا ؟ لقد عرفت ، أنا أشعر انى شرير ، والله يعلم كم أحاول أن أتحسن ، وكم أتوسل اليه تعالى أن يجعلنى أحسن حالا ؛ ولكن ماذا أفعل مادام مزاجى شرساً وفظيعاً الى هذا الحد ؟ ماذا أفعل ؟ انى أحاول كبح جماح نفسى واصلاح ذاتى ؛ ولكن كل شىء

يصبح مستحيلا على حين فجأة ، انه ليتعـــذر على ذلك فى جميع الأحوال عندما أكون وحدى ، فأنا بحاجة الى مساعدة شخص ما ومعونته ، وأصبحت تفهمنى الآن ليوبوف سرجيفنا ، وقد ساعدتنى فى هذا كثيرا ، وأعرف من مذكراتى اليومية أننى تحسنت كثيراً ابان العام الماضى • آه ، باتيكولنكا ، ياعزيزى ! » ثم تابع حديثه فى حب غريب غير مألوف وفى لهجة أهدأ ، بعد هذا الاعتراف ، فقال : « ما أكثر مايعنيه تأثير امرأة مثلها ! يا الهى ! فكر فى مدى الفائدة التى أجنيها حين يكون لى صـديقة مثلها بعد أن أصبح مستقلا !! اننى رجل مختلف كل الاختلاف حين أكون معها » •

وأخذ دمترى آنئذ يكشف لى عن آرائه فى الزواج ، وحياة الريف ، واصلاح الذات المستمر •

قال : « سأعيش فى الريف ، ولربما تزورنى ، وستتزوج من سونتشكا ، وسيلعب أطفالنا معاً • ان هذا يبدو هزلا كله ، ولكن قد يصدق أيضا كل الصدق » •

وقلت مبتسماً وأنا أفكر فى نفس الوقت انه من الأفضل لى لو تزوجت أخته : « بطبيعة الحال ، ولم لا ؟ » •

وقال بعد صمت قصير : « أخبرك عما يجول فقط بخيالك من حيث حبك لسونتشكا ، ولكنى أرى أن هذا ليس حبا جاداً : انك لا تعرف بعد ماهو شعورك الحقيقى » •

ولم أحر جواباً ، لأننى كنت متفقاً معه تقريباً ، وبقينا صامتين برهة •

لا بد أنك لاحظت أن مزاجى عاد اليوم شرساً مرة أخرى ، وشببت مشاحنة بذيئة بينى وبين فاريا • وساءت حالتى كثيرا بعد ذلك وخاصة أنها حدثت فى حضورك • وبالرغم من أنها تفكر فى كثير من الأشياء بطريقة ينبغى ألا تفكر بها ، فهى فتاة رقيقة ، وتكون على أحسن حال اذا ماعرفتها عن كثب » •

ان تحول حديثه من اثبات عدم حبى لأخته ، الى مدحها ، أبهجنى كثيرا وأخجلنى ؟ ومع ذلك لم أقل له شيئا عن أخته ، ورحت أتحدث عن شىء آخر •

ومن ثمة أخذنا نتحدث حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وكان الفجر الباهت يتراءى فى النافذة عندما ذهب دمترى الى فراشه وأطفأ النور •

وقال : « والآن هيا الى النوم » •

« وأجبت : « نعم ، ولكن بعد كلمة واحدة فقط » •

« حسن وماهى ؟ »

« ان الحياة شىء عظيم ، أليس كذلك ؟ » •

وأجاب فى صوت خجل الى أنتى ، حتى فى الظلام ، أستطيع أن أرى معه ملامحه المرحة وعينيه المحبتين ، وابتسامته الصبيانية .

(٨٣)

فى الريف

وفى اليوم التالى ، رحلنا ، فولوديا وأنا ، فى عربة بريد الى الريف . واستعرضت فى ذهنى أثناء الطريق ذكريات موسكو . . وتذكرت سونتشكا فالاخينا ، على أن ذلك لم يحدث حتى حل المساء وكنا قد قطعنا خمس مراحل . وقلت فى نفسى : « انه لمن الغريب أننى أحب ، ومع ذلك نسيت تماما كل شىء عن الحب ، يجب أن أفكر فيها » . وبدأت أفكر فيها بالفعل كما يفكر المرء أثناء السفر ، تفكيراً متقطعا ولكنه واضح ؛ ومن ثمة رددت نفسى الى حالة اعتبرتها الى حد ما ضرورية لظهورى حزينا مفكراً أمام جميع أهل المنزل لمدة يومين بعد وصولنا ، وبخاصة فى حضور كاتنكا التى أعتبرها خبيرة كبرى فى مثل هذه الشئون ، والتى ألمحت اليها باشارة عن الحالة التى وجدت عليها قلبى . ولكن بالرغم من جميع محاولاتى فى التصنع أمام الآخرين ، وأمام نفسى ، وبالرغم من اتخاذى جميع دلائل الرصانة المصطنعة التى لاحظتها خلال هذين اليومين على آخرين فى حالة هيام ، فاننى لم أحمل فى ذهنى بصورة دائمة أننى

أحب ، بل كنت أتذكر ذلك خاصة فى المساء . وأخيرا استغرقتنى دائرة الحياة الريفية الجديدة ومشاغلها ، بسرعة كبرى حتى أننى نسيت كل شىء عن حبى لسونتشكا نسيانا تاما .

وصلنا بتروفسكوى فى الليل ، وكنت مستغرقا تماما فى النوم حتى أننى لم أر المنزل ولا طريق البتولا ولا أى شخص من أهل المنزل الذين آووا الى فراشهم وناموا منذ وقت طويل . وانحنى فوكا العجوز ، وكان عارى القدمين ، ملفوفاً بثوب نسائى فضفاض ، وفى يده شمعة ، وفتح لنا الباب . كان يهتز فرحا لدى رؤيته لنا ، وقبل أكتافنا ، وأسرع بجمع بساطه اللبادى ثم أخذ يرتدى ملابسه . واجتزت الدهليز وصعدت السلم دون أن أستفيق تماما ؛ ولكن فى حجرة الانتظار ، كان قفل الباب والمزلاج ، والألواح المقوسة ، وخزانة الملابس ، والشمعدان القديم المرقط بالشحم من قديم ، وشبح البرد ، والشمعة المعوجة التى أشعلت أخيرا فى مصباح الصورة ، والنافذة المزدوجة المتربة على الدوام التى لم ينفض ترابها البتة ، والتى كان ينمو خلفها ، فيما أذكر ، الدردار الجبلى — كان هذا كله مألوفاً لدى عامراً بالذكريات ، متسقاً مع نفسه كأنه متحد فى فكرة واحدة ، حتى لقد شعرت فجأة بهذا المنزل القديم العزيز يربت على . وتساءلت : « كيف استطعنا ، المنزل وأنا ، أن يستغنى أحدنا عن الآخر كل هذه المدة الطويلة ؟ » وجريت مسرعاً لأرى ما اذا كانت الحجرات على هذا المنوال . كان كل شىء كما هو ،

غير أن كل شيء بدا أصغر حجماً وأكثر انخفاضاً ، بينما أنا أطول وأكثر وزناً وأشد غلظة . ولكن المنزل استقبلني في حضنه فرحاً كما كنت تماماً . وكل طابق ، وكل نافذة ، وكل درجة من السلم ، وكل صوت أيقظ في عالماً من الأشكال والمشاعر والأحداث من الماضي الهانيء الذي لن يعود أبداً . وذهبنا الى حجرة نوم في طفولتنا ، كل مخاوفي الصبيانية كانت تتربص مرة أخرى في ظلام الأركان . والأبواب . وذهبنا الى حجرة المائدة : كان نفس الحب الأموي الرقيق يشع فوق كل شيء في الحجرة . وذهبنا الى البهو : كان يبدو كأن طرب الطفولة العاصف المهمل قد تريث في هذه الغرفة ، وكان ينتظر فقط أن تعاد اليه الحياة . وفي حجرة الجلوس ، حيث قادنا فوكا ، وحيث أعد لنا الفراش ، خيل الى كأن كل شيء — المرآة والستار ، والأيقونة الخشبية العتيقة ، وكل نتوء في الجدران مغطى بالورق الأبيض — كان يتحدث عن آلام تلك التي لن توجد ثانية وعن موتها .

ورقدنا ، وتركنا فوكا بعد أن تمنى لنا ليلة سعيدة .

وقال فولوديا : « في هذه الحجرة ماتت أمنا ، أليس كذلك؟»

ولم أجبه وتصنعت النوم ، فلو كنت قد نطقت بكلمة واحدة لانفجرت بالبكاء . وعندما استيقظت صباح اليوم التالي رأيت أبي لايزال في عباءته المنزلية ، وخفه المزخرف جالساً على فراش فولوديا

يثرثر معه ويضحك ، وقفز بسرعة في وثبة مرحة ، وتقدم نحوي ، وقدم لي خده وضغطه على شفتي .

وقال ملاطفاً بلهجته الخاصة وهو يرمقني بعينيه الصغيرتين المتألقين : « لقد أحسنت أيها الدبلوماسي فشكراً .. يقول فولوديا انك اجتزت الامتحان على مايرام ، وهذا أمر هام ، فأنت شخص صغير لطيف حينما تضع في رأسك ألا تكون غبيا .. شكراً لك ياولدي العزيز . سيكون الوقت متسعا لنا هنا ، وقد ننتقل في الشتاء الى سان بترسبورج ، الا أنه من المؤسف أن موسم الصيد قد انتهى ، وكان بودي أن أعيىء لكما شيئاً من التسلية بهذه الوسيلة . هل تتقن القنص يافالديمار ؟ هنالك أي عدد من الحيوانات ، وسأذهب بنفسي معكما في أحد الأيام . ولذلك سننتقل بمشيئة الله الى سان بترسبورج في فصل الشتاء ، وستقابلون أناساً وتنشئون علاقات .. لقد كبرتم الآن يا أولادي ، وكنت أقول حالا لفالديمار أنكما الآن تقفان على أقدامكما ولقد انتهى واجبي ، فأنتما تستطيعان السير وحدكما . ولكن اذا رغبتما في نصيحة فأرجو أن تفعلا — فأنا لم أصبح بعد (بابا) بل صديقكما وزميلكما وناصحكما حيثما أكون ذا نفع لكما ، ولا شيء أكثر من هذا . فما مدى مطابقة ذلك لفلسفتكما ياكوكو ؟ أهو خير أم شر ؟ »

وأجبت بطبيعة الحال أنه مطابق لفلسفتنا تماما ، وانني في الواقع أعتقد ذلك . كانت على وجه بابا في ذلك اليوم سمة ساحرة

مرحة ونضيدة ، وتلك العلاقات الجديدة التي أنشأها معي ، كأنني صنوه وزميله ، جعلتني أحبه أكثر ، من ذي قبل .

والآن ، أخبرني ، هل زرت جميع أقاربنا ، وآل ايفن ؟ وهل رأيت الرجل العجوز ؟ وماذا قال لك ؟ » ثم تابع حديثه مستفسراً : « هل ذهبت لزيارة الأمير ايفان ايفانتش ؟ » .

وتحادثنا كثيرا قبل ارتداء ملابسنا حتى بدأت الشمس تهجر نوافذ حجرة الجلوس . ودخل الى الحجرة ياكوف العجوز على عهدنا به دائما ، يفتل أصابعه من وراء ظهره ويكرر على الدوام كلمة : « وأيضا ـــ » وأبلغ أبي أن العربة قد أعدت .

وسألت بابا : « الى أين تذهب ؟ » .

وقال أبي ، بهزة كتفه المعتادة ، وسعال الغيظ : « لقد وعدت أن أذهب اليـــوم الى أسرة ايفانوف . هل تذكـر الايفانوفا ، الفلمنكية الحسناء ؟ لقد اعتادت زيارة أمك . انهم أناس ظرفاء » وبهزة من كتفه مقصودة (هكذا بدت لي) غادر أبي الحجرة .

كانت لوبتشكا قد جاءت الى الباب مرات عدة أثناء محادثتنا ونادت : « هل أستطيع الدخول » ولكن بابا كان يصيح في كل مرة من خلال الباب : « لا تستطيعين في الحقيقة لأننا لم نلبس ثيابنا بعد .

« وما الضرر ؟ لقد رأيتك في عباءتك المنزلية من قبل » .

فصاح بها : « لا تستطيعين رؤية أخويك دون « سراويل » ... أترضي أن واحدا منهما يطرق بابك ، فهل هذا يكافئ لك ؟ والآن ، اذهبا واطرقا ، أيها الولدان ، انه لا يليق بهما حتى التحدث معك وهما على هذه الهيئة المهملة » .

وصـاحت ليوبتشـــكا من الخـارج : « آه ، كم يشـق على احتمـالكم ! مهمـا كانت الحـال ، أسرعوا بالنزول الى حجـــرة الاستقبال ، ان ميمي تموت شوقاً الى رؤيتكم ! » .

وحالما ذهب بابا ، ارتديت سترة الطالب بأسرع ما استطعت وذهبت الى حجـرة الاســـتقبال ، وكان فولوديا على العكس ، غير متعجل ومكث في الطابق العلوي وقتاً طويلا يتحدث الى ياكوف عن أحسن أماكن البكاشين ودجـاج الأرض . لم يكن في هذا العالم شيء يخافه كما قلت ، أكثر من خوفه من ابداء العواطف كما كان يسببها نحو أخيه أو أخته أو بابا ، ويتحاشى كل تعبير عن الشعور يحس به وينحـرف الى النقيض ـ البرود ـ الذي يجـرح غالبـاً شعور الناس الذين لا يعرفون له سبباً . وقابلت بابا بحجرة الانتظار وهو يسرع الى العربة في خطوات قصـيرة رشيقة ، وكان يرتدي معطف موسكو التقليدي الجـديد وتنسمت رائحـة عطر ! وعندما رآني أومأ برأسه مبتهجاً كأنه يريد أن يقـول : « أترى ، ألست لطيفاً ؟ » ولفت نظري مرة أخرى تعبير الســعادة الذي لاحظته في عينيه في ذلك الصباح .

كانت حجرة الطعام تفتن الحجرة المتألقة الراقية ذات « البيانو » الانجليزى الأصفر الفاخر ، ونوافذها الضخمة المفتوحة التى ترى من خلالها الأشجار الخضراء ، وممشى الحديقة البرتقالية اللون تلوح للنظر فى حبور . وبعد أن قبلت ميمى وليوبتشكا ، وكنت فى طريقى الى كاتنكا خطر لى فجأة أنه ليس من الملائم أن أقبلها ؟ فوقفت عاجزاً صامتا خجلا . وقدمت لى كاتنكا التى لم تكن مرتبكة بالمرة ، يدها البيضاء وهنأتنى على دخولى الجامعة . وعندما دخل فولوديا حدث له نفس الشىء حين رأى كاتنكا . من العسير فى الواقع بعد أن كبرنا معاً وأصبح كل منا يرى الآخر كل يوم وفى كل وقت أن نقرر كيف ينبغى الآن أن يحيى أحدنا الآخر بعد افتراقنا الأول . لقد خجلت كاتنكا منا أكثر من الأخريات ، لم يعان فولوديا أى ارتباك ، بل انحنى أمامها قليلا ثم تقدم من ليوبتشكا التى تحدث اليها حديثاً موجزاً ولكنه غير جاد ، ثم ذهب الى مكان ما للنزهة .

« ٨٤ »

موقفنا من الفتيات

كانت آراء فولوديا عن الفتيات غريبة جداً حتى لقد كان يسلى نفسه بأسئلة مثل : « هل كن جائعات ؟ هل نمن نوماً هادئاً ؟ هل كن يرتدين ملابس ملائمة ؟ هل ارتكبن أخطاء فى اللغة الفرنسية

تخجله أمام الغرباء ؟ ولكنه لم يسلم مطلقاً بفكرة أنهن يستطعن أن يفكرن أو يشعرن بأى شىء انسانى ، وأكثر من هذا أنه لم يسلم بفكرة أن المرء يستطيع مناقشة أى شىء معهن ، وعندما كان يتصادف أن يتقدمن له بأى سؤال جدى (وهو شىء كن يحاولن تحاشيه دائماً) ، واذا سألته رأيه عن قصة أو عن دراساته بالجامعة ، قطب وجهه وابتعد عنهن فى صمت أو أجاب فى لهجة فرنسية مشوهة(١)، أو يتظاهر بوجه جاد عليه مسحة من التبلد المقصود ، وكان يتفوه بكلمات لا معنى لها ولا ترابط بينها وبين السؤال كلية ، ويكسو عينيه فى الحال بالكآبة ، ويقول : ملف ، أو لقد انصرفوا ، أو كرنب ، أو ما يشبه هذا . وحين يتصادف أن أكرر على سمعه هذه الكلمات التى تكون قد نقلتها الى ليوبتشكا أو كاتنكا كان يقول دائماً :

« واذن ، فأنت لا تزال تبحث معهن المسائل ؟ حقاً ، أرى أنك لا تزال أخرق » .

ولا بد للمرء أن يسمعه لكى يقدر الاحتقار العميق الراسخ الذى يتمثل فى هذه الملاحظة .

لقد أصبح فولوديا راشداً منذ سنتين ، وكان يقع على الدوام فى حب كل امرأة حسناء يقابلها ، ومع أنه رأى كاتنكا كل يوم (وهى ترتدى الملابس الطويلة منذ عامين ، وتزداد حسناً يوماً بعد

---

(١) كان يقول مثلا « Comme ci tri joli » بدلا من Comme c'est très joli

يوم) ولكن احتمال وقوعه في حبها لم يطرأ على ذهنه مطلقاً ، وسواء كان منشأ هذا أن ذكريات الطفولة العادية - المسيطرة وتبايبها وزواياها ، لا تزال حية في ذاكرته ، أو أن منشأه النفور الذى يشعر به الشبان الصغار نحو كل شيء مألوف ، أو من الضعف البشرى عامة الذى يؤدى بالمرء حين يقابل شيئاً طيباً أو جميلاً جداً في بدء حياته ، الى أن يقول لنفسه : « آه ! سأقابل مثل هذا كثيراً » - ومهما كانت الحال ، فان فولوديا لم ينظر الى كاتنكا بعينى الرجل .

كان واضحاً أن فولوديا كان ثقيل الظل الى حد بعيد طوال ذلك الصيف ، وكان سبب ثقل ظله احتقاره لنا ، الذى لم يحاول أن يخفيه عنا كما سبق أن قلت ، وكان تعبير وجهه يقول على الدوام : « آه ! يا للضيق ! لا يوجد من أتحدث اليه » . وكان يذهب في الصباح الى الصيد ، أو يقرأ كتاباً في حجرته دون أن يرتدى ملابسه حتى وقت الغداء ، فاذا لم يكن أبى بالمنزل ، فانه يصحب كتابه حتى الى ذلك الغداء ويروح يقرأ دون أن يتبادل كلمة مع أى شخص منا ، مما جعلنا نشعر بالذنب ازاءه على نحو ما . وكان يتمدد مع المساء أيضاً على الأريكة في حجرة الجلوس ، فاما أن يروح في سبات ورأسه متكئ على مرفقه ، واما أن يقص علينا حكايات لا يمكن حدوثها - وقلما يكون محتشما في بعض الأحيان ، مما كان يغضب ميمى فيحمر وجهها خجلاً ، ونستلقى نحن من الضحك ، ولكنه لم يتلطف مطلقاً بالتحدث مع أى فرد من أفراد

الأسرة حديثاً جاداً فيما عدا بابا ، ومعى من وقت لآخر ، ولم أحاول تقليد أخى عن رغبة في آرائه نحو الفتيات ، وان لم أكن شديد الخوف من العاطفة كما كان هو ، وكان احتقارى للفتيات أبعد من أن يكون عميقاً راسخ الجذور ، بل اننى حاولت عدة مرات في ذلك الصيف ، لحاجتى الى التسلية ، توثيق علاقاتى مع ليوبتشكا وكاتنكا والحديث معهما ، ولكنى في كل مناسبة كنت أجد فيهن عجزاً عن التفكير المنطقى ، والجهل بأبسط الأشياء العادية مثل : ما هو المال ، وماذا يدرس في الجامعة ، وما هى الحرب وما الى ذلك ، وعدم الاهتمام بتفسيرات كل هذه الأشياء هو الذى عقد رأيى في غير صالحهن .

أذكر كيف ظلت ليوبتشكا في احدى الأمسيات تكرر عزف مقطوعة على « البيان » مطولة الى درجة الاملال ، وكان فولوديا مضطجعاً على الأريكة بحجرة الاستقبال مغفياً يتمتم في فترات بتهكم خبيث معين ، ولكن دون أن يوجهه الى شخص معين : « يا الهى ! ما هى ذى تشتغل بكد - يا لها من موسيقية ، بتهوفن !! (وتعلق هذا الاسم بتهكم خاص) هذه براعة - والآن ، مرة أخرى : هو ذلك بالضبط » . وهكذا كنا ، كاتنكا وأنا ، لا نزال حول مائدة الشاى ، ولا أذكر كيف حولت كاتنكا الحديث الى موضوعها المفضل - الحب ! وكنت في حالة تسمح بالتفلسف ، وبدأت أحدد معنى الحب في تعال ، بأنه الرغبة في الحصول على شيء لا يملكه الشخص ،

وما الى ذلك • ولكن كاتنكا أجابت بأن الأمر على العكس ، فان الحب لا يكون حباً اذا كانت الفتاة تؤمل الزواج من رجل ناله ، وأن الملكية في أنها أقل الأشياء قيمة ، ولكن الحب الصادق الوحيد هو الذي يستطيع تحمل الفراق (أدركت من هذا أنها تشير الى حبها لدوبكوف) • ونهض فولوديا الذي ترامى اليه حديثنا بالضرورة ، مستنداً الى مرفقه وصاح مستفسراً : « كاتنكا ، ألا يوجد روسيون ؟ » •

وقالت كاتنكا : « يا لحديثك الفارغ الذي لا ينتهي ! » •

وراح فولوديا يقول وهو يشدد كل كلمة : « هذا ؟ في غاية الفلفل ؟ » وشعرت أن له كل الحق •

وبصرف النظر عن الصفات العامة للذكاء ودرجة الحساسية ، والاحساس الفني ، توجد صفة خاصة تظهر بدرجات متفاوتة في دوائر المجتمع المتفاوتة وبخاصة في العائلات ، وهي الصفة التي أطلق عليها « الادراك » • والنقطة الجوهرية في هذه الصفة تكون من شعور تقليدي بالتناسب ، ومن وجهة نظر مقبولة لجانب واحد للأشياء • ويستطيع شخصان من نفس الوسط أو من نفس العائلة يتمتعان بنفس الصفة أن يسمحا لتعبيرهما عن الشعور بالوصول الى نقطة معينة ، يدرك كلاهما فيما وراءها التعبير اللفظي وحسب • ويحس كلاهما على وجه الدقة أين ينتهي المدح ويبدأ التهكم ، وأين تنتهي الحماسة ويبدأ التظاهر ، في حين أنه عند أناس لهم

نوع آخر من الفهم قد يبدو الأمر مختلفاً تماماً • ويرى أناس يتمتعون بنفس الفهم كل شيء في نفس الضوء الساخر أو الجميل أو المنفر • ولتيسير هوية هذا الفهم تظهر بين أناس من دائرة أو أسرة معينة لغة خاصة به ، وتعبيرات معينة من الكلام ، بل كلمات معينة تعبر عن ظلال من معنى لا يوجد عند أناس آخرين • وهذا الفهم في عائلتنا نما الى أقصى درجات النمو بين بابا وبيننا نحن الأخوين • وكان دوبكوف أيضاً مطابقاً لدائرتنا الصغيرة بدرجة كافية ، ومفهومة ، مع أن دمترى وان كان يفوقه براعة فقد كان مغلق العقل في هذه الناحية ، ولكن هذه المقدرة لم ترتفع في حالة من الحالات الى هذه الذروة من التهذيب ، كما ارتفعت بين فولوديا وبيني ، اذ نشأنا في ظروف متماثلة • وكان بابا متخلفاً عنا وبقدر ما كان من الواضح لنا أن العدد اثنين مضروباً في اثنين يساوي أربعة ، بقدر ، كان ذلك عسير الفهم عليه • فمثلا ، حدث أن اتفقنا ، فولوديا وأنا – لسبب يعلمه الله – على الكلمات الآتية وما يقابلها من معان : كلمة عنب تدل على رغبة في التفاخر لأظهر أن لدى نقوداً ، وكلمة ضربة (يجب أن تتشابك الأصابع ، مع تشديد خاص على الحرفين الساكنين في نفس الوقت) تدل على شيء جديد ، صحي ، لطيف ولكنه غير متحذلق ؟ والاسم المستعمل في حالة الجمع يدل على التحيز غير المقبول لذلك الشخص وهكذا • وفوق هذا كان المعنى يتوقف على تعبير الوجه ، وعلى الحديث بوجه عام ، ولذلك فمهما كان التعبير الجديد الذي يخترعه أحدنا لظل جديد من المعنى ،

فإن الآخر يفهمه فهماً دقيقاً بهذا المعنى عند أول تلميح . ولم يكن للفتيات هذا الفهم ، وكان هـذا هو السبب الجوهرى فى عزلتنا النفسية والاحتقار الذى كنا نشعر به نحوهن .

ربمـا كان لهـن نوع من « الفهم » خاص بهن ولكنه فهم يختلف عن فهمنا كل الاختلاف ، حتى أنه حيث كنا ننظر الى التعبير اللفظى كن ينظرن الى الشعور الحقيقى ، وكان تهكمنا فى نظرهن حقيقة ، وهكذا . ولم أفهم آنئذ أنهن غير ملومات على هذا ، وأن هذا العجز عن الفهم لا يمنع أن يكن فتيات طيبات وبارعات جداً ، وقد احتقرتهن بناء على ذلك .

وفوق هـذا ، فعندما انكشفت أمامى فكرة الصراحة وسرت فى تطبيقها على حالتى الى أقصى الحدود اتهمت طبيعة ليوبتشكا الهادئة الحييـة المنطوية على السرية ، لأنها لم تجد ضرورة للتنقيب عن أفكارها وغرائزها الروحيـة وفحصها . فمثلا خيل الى حين كانت ليوبتشكا تشير بعـلامة الصليب فوق أبى كل ليلة ، وحين كانت كاتنكا تبكى فى الكنيسـة الصغيرة وهى تستمع الى القداس الذى أقيم لأمى ، وحين كانت تتأوه كاتنكا وتزور عينيها أثناء عزفها على «البيان» كان يخيل الى أن كل هذا محض ادعـاء : فمتى تعلمن التظاهر كالكبار ، ولماذا كن يخجلن من أنفسهن ؟

أشغالى

على أن ذلك الصيف قرب بين نسائنا الصغيرات وبينى أكثر مما كانت الحال فى السنوات الأخرى بسبب عشقى الموسيقى الذى أنميته ، وفى ذلك الربيع قدم جار شاب لزيارتنا فما أن دخل حجرة الجلوس حتى أخذ يتفرس فى «البيانو» وعكف على تفرسه مقعداً منه ، وهو يتحدث من وقت لآخر مع ميمى وكاتنكا . وبعد أن تكلموا برهة عن الطقس ومباهج الحياة الريفية ، وجه الحديث بمهارة الى مدوزنى (١) البيانو ، والى الموسيقى ، والى البيانو ، وختم الحديث بأنه يعرف العزف ! والواقع أنه عزف موسيقى ثلاث رقصات من « الفالس » وكانت ليوبتشكا وميمى وكاتنكا واقفات حول البيانو يشاهدنه ، ولم يأت هذا الشاب مرة أخرى ، ولكن عزفه راق لى الى أقصى حد كما أن جلسته الى البيانو وعادته فى ازاحة شعره ، وبخاصة أسلوبه فى تناول الثمانيات بيده اليسرى ومده ابهام يده وأصبعه الصغيرة بسرعة فوق المسافة الثمانية ، ثم سحبهما معاً ببطء ، ومدهما مرة أخرى بخفـة ، فحركة هذه الرشيقة ، وجلسته المتوانية ، وطريقة ازاحة شعره ، والالتفات الذى وجهته

---

(١) المدوزن هو الشخص الذى يقوم باصلاح الآلات الموسيقية وضبط اوتارها (المترجم)

سيداتنا الى نبوغه ، انتهت بأن ألهبت فى فكرة الانكباب على البيانو
وما أن اقنعت نفسى نتيجة لهذه الفكرة ، بأننى أملك الموهبة والشغف
بالموسيقى فقد قررت تعلمها ؟ وقد تصرفت فى هذه الناحية كما
يتصرف ملايين الذكور ، وبخاصة الاناث اللاتى يدرسن بدون معلم
ماهر ، ودون اختبار حقيقى ، وبلا أقل فهم لما يستطيع أن يضفيه
الفن ، وكيف تأهب له لتحصل على هذه الهبة . ان العزف ،
وبالأحرى العزف على البيانو كان بالنسبة الى وسيلة لسلب لب
الفتيات عن طريق مشاعرهن . وبمساعدة كاتنكا التى علمتنى
العلامات الموسيقية ، روضت أصابعى الغليظة قليلاً ، وفى هذه
العملية استنفدت ضمناً شهرين بحماسة شديدة حتى دربت أصبعى
الرابعة العنيدة على ركبتى فى وقت الغداء ، وعلى وسادتى وأنا فى
الفراش ، وبدأت على التو عزف « مقطوعات » عزفتها بطبيعة الحال
بدافع نقصانى ، كما اعترفت بذلك حتى كاتنكا ، ولكن بسرعة تامة.

كان اختيار المعزوفات مألوفاً ـ الفالس ، ورقصات الجالوب ،
وأغانى الحب (مقتبسات) وما الى ذلك ـ وجميعها من أكوام الأشياء
البالغة الجمال الموجودة فى حوانيت الموسيقى ويقول لك : « هذه
هى التى يجب ألا تعزفها ، لأنه ليس هناك أسوأ ولا أكثر مجافاة
للذوق ، ولا أكثر تفاهة منها سبق أن كتب على ورقة موسيقى
ومن المرجح أنك لنفس هذا السبب تجدها على كل بيانو لسيدة
روسية صغيرة حقيقة كان لسيدتنا « السوناتا الشجية » و « سوناتا

بتهوفن الصغرى » ، اللتان تذيعهما على الدوام النساء الصغيرات ،
وقد عزفتهما ليوبتشكا فى ذكرى أمى ، وأشياء أخرى كان قد
أعطاها لها مدرس موسكو ، ولكن كانت هناك مؤلفات لهذا المعلم ،
ألحان عسكرية وموسيقى رقصة الجالوب السخيفة التى كانت تعزفها
ليوبتشكا كذلك . ان كاتنكا وأنا لم نكن نحب الأشياء الجادة، وكانت
الأشياء المفضلة على كل شىء عندنا هى : « الهرج » و « العندليب »
وكانت كاتنكا تعزفهما بمهارة بحيث لا ترى أصابعها ، وقد بدأت
العزف بهمة وبشىء من المثابرة . واقتبست حركات الرجل الشاب ،
وكان يؤسفنى عدم وجود غريب لسماع عزفى ، ولكن سرعان
ما تحققت أن « ليست » و « كلكبرنر » كانا فوق مقدورى ، وتحققت
من أننى لا أستطيع اللحاق بكاتنكا ، وتوهمت نتيجة لهذا أن
الموسيقى الكلاسيكية أيسر مثلا ، ومن ناحية أخرى لأجل الابتكار
بنوع ما ، واتجهت فجأة الى الرغبة فى تعلم الموسيقى الألمانية ،
وبدأت أستغرق فى نشوة روحية عندما عزفت ليوبتشكا « السوناتا
الشجية » وان كانت هذه السوناتا ـ اذا التزمت الصدق ـ تمل على
منذ زمن طويل . وبدأت أعزف بتهوفن بنفسى ، وأنطق الاسم
بالطريقة الألمانية . ولكن برغم كل هذا الخلط والادعاء ـ كم
أذكر الآن ـ ربما كان يوجد فى شىء من طبيعة الموهبة ، لأن
الموسيقى كثيراً ما كانت تؤثر فى الى حد البكاء ، وكنت أحاول
التقاط الأشياء التى تلذ لى فأعزفها على البيانو دون أن أستعين بالنوتة،
ولذلك ، فلو كان قد وجد من يعلمنى أن أنظر الى الموسيقى كغاية

في ذاتها ، وليست وسيلة لسحر الفتيات ، فلربما كنت أصبح بالفعل موسيقياً بارعاً تماماً .

كانت مطالعة الروايات الفرنسية التي كان فولوديا قد يخصها حقها كثيراً جداً ، مشغلة أخرى من مشاغلي في ذلك الصيف ، ففي ذلك الصيف كانت «مونت كريستو» والتشكيلات الذيئة قد بدأت في الظهور ، وانغمست في قراءة سو ، ودوماس ، وبول دي كوك ، وكانت أكثر الشخصيات والحوادث شذوذاً حية تماماً كالحقيقة ، ولم أقتصر على عدم التجاسر على الشك في كذب المؤلف ، ولكن المؤلف نفسه لم يكن حتى موجوداً بالنسبة لي — بل كان الناس الأحياء الذين يعملون والمغامرون يظهرون أمامي من خلال الكتاب المطبوع ، وبالرغم من أنني لم أقابل قط في أي مكان ، أناساً مثل أولئكم الذين قرأت عنهم ، فإنني لم أشك لحظة في أنهم سوف « يوجدون » في يوم ما .

وكشفت في نفسي كل العواطف التي وصفت ، والشبه بيني وبين جميع الشخصيات والأبطال والأوغاد في كل رواية ، كما يجد كل رجل حساس في نفسه جميع أعراض الأمراض الممكنة حين يقرأ كتاباً طبياً ، ومما سرني في هذه القصص ، الأفكار الماكرة والعواطف المشبوبة والشخصيات الطبيعية ، فالرجل الطيب كان طيباً تماماً ، كما أن الرجل الخبيث كان خبيثاً تماماً — بالضبط كما تخيلت الناس في مستهل شبابي ، وقد سرني كثيراً جداً أن كل ذلك كان

باللغة الفرنسية ، وأنني أستطيع أن أتذكر الكلمات الفخمة التي ينطق بها الأبطال النبلاء ، وأستخدمها يوماً ما حين أشتغل في عمل نبيل ، وكم من عبارات فرنسية مختلفة لقفتها بمساعدة تلك الكتب لكوليكوف اذا ما لقيته مرة أخرى ، ولها ، هي ، حين أقابلها وأصرح لها بحبي ! لقد أعددت أشياء لأقولها لهما تقتلهما على الفور . وعلى هذه الروايات أيضاً أسست مثلا عليا جديدة في القيمة الأخلاقية التي أردت الحصول عليها ، وأهم من كل ذلك رغبت في أن أكون «نبيلاً» في كل أعمالي وسلوكي ، لا بما تعنيه الكلمة الفرنسية التي تنطوي على معنى آخر كما فهمه الألمان عندما استعملوا هذه الكلمة ، فلم يخلطوه بالشرف والصدق والاستقامة والصراحة ، ثم بعد ذلك أكون «عاطفياً» ، وأن أتصف أخيراً بالصفة التي شعرت بالميل اليها وهي أن أكون ، كما ينبغي ، بقدر ما أستطيع ، بل انني حاولت أن أكون شبيهاً ، في مظهري الشخصي وعاداتي بالأبطال ممن يتصفون بواحدة من هذه الصفات ، وأذكر أنه كان في واحدة من مئات الروايات التي قرأتها في ذلك الصيف بطل شحوذ العاطفة الى أقصى حد ، ذو حاجبين غزيرين ، فرغبت رغبة قوية في أن أكون على غراره شكلا (شعرت أنني مثله تماماً من الناحية الروحية) ، وذلك أنه حدث حين كنت أختبر حاجبي في المرآة أن قصصتهما قليلا لكي ينموا بغزارة ، ولكن تصادف أنني جززت أكثر من اللازم في موضع واحد ، وكان لا بد لي من تسويتهما ، وعندما انتهيت من ذلك نظرت في المرآة وشاهدت شكلي ، وكم كان هلعي

اذ وجدتني بدون حاجبين ، وبالتالي شديد القبح حقيقة . ومع ذلك عزيت نفسي بأن حاجبي سيكونان غزيرين بعد مدة وجيزة كحاجبي الرجل الملتهب العاطفة ، والشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو ما ستقوله أسرتنا عندما يروني عاطلا من الحاجبين . وأحضرت مسحوقاً من فولوديا ، ودعكته في حاجبي ، وأشعلت فيه النار . وبالرغم من أن المسحوق لم يومض الا أنني أصبحت تماماً كرجل أصيب بالحرق . ولم يشك أحد في حيلتي ، ونما حاجباي في الحقيقة بأغزر مما كانا ، وذلك بعد أن نسيت كل شيء عن الرجل العاطفي .

(٨٦)

كما ينبغي

أشرت عدة مرات خلال هذا السرد الى الفكرة المطابقة لهذا العنوان الفرنسي (١) ، وأشعر الآن بضرورة افراد فصل كامل لها ، لأنها كانت من أكثر الأفكار التي غرسها في التعليم والمجتمع زيفاً ووبالاً .

يمكن تقسيم المجتمع الى فئات عدة : أغنياء وفقراء ، صالحون وطالحون ، عسكريون ومدنيون ، أذكياء وأغبياء وهكذا . ومع ذلك فكل انسان له مبدأه المفضل في التقسيم الذي يرتب بمقتضاه تلقائياً كل شخص جديد . أما تقسيمي الأساسي المفضل في الوقت الذي اكتب فيه ، فقد كان الى أناس كانوا « كما ينبغي أن يكونوا » ، وأناس « لم يكونوا كما ينبغي أن يكونوا » . والفئة الثانية كانت تنقسم مرة أخرى الى قسمين ثانويين : الى أناس « لم يكونوا كما ينبغي أن يكونوا » وحسب ، وعامة الناس . أما الناس الذين كانوا « كما ينبغي أن يكونوا » فقد اعتبرتهم جديرين بالاختلاط معي على قدم المساواة : أما بالنسبة الى الفئة الثانية فقد تظاهرت باحتقارهم ، ولكني في حقيقة الأمر كنت أبغضهم ، ويخالجني نحوهم شعور معين بالتأذي الشخصي ، أما الفئة الثالثة فلم يكن لها وجود بالنسبة الى — كنت احتقرهم كل الاحتقار . أما فئتي هذه التي كانت « كما ينبغي أن تكون » فتتألف أولا وأساساً ممن يعرفون اللغة الفرنسية معرفة ممتازة ، وينطقونها نطقاً صحيحاً بنوع خاص . فالشخص الذي لم يكن ينطق الفرنسية نطقاً سليماً ، كان يوقظ في نفسي على الفور شعوراً بالكراهية ، وأسأله في عقلي بتهكم لاذع : « لماذا تريد أن تتكلم مثلنا في حين أنك لا تعرف كيف تتكلم ؟ » والحالة الثانية لفئة « كما ينبغي أن يكونوا » هي أن يمتازوا بالطول والنظافة وأظافر الأصابع المصقولة ، والحالة الثالثة أن يكونوا على معرفة بالانحناء والرقص والحديث ، والرابعة هامة جداً ، وهي عدم الاهتمام بكل شيء ، والتعبير الدائم عن كآبة معينة ، وضيق ينطوي على الاحتقار .

(١) وضع هذا العنوان باللغة الفرنسية في الترجمة الانجليزية .

وبالاضافة الى هذه الصفات كانت لى دلائل عامة أستطيع بها أن أقرر دون أن أتحدث الى الرجل ، الى أى فئة ينتسب ، وأهم هذه الدلائل ، بالاضافة الى تنظيم حجرته ، وتوقيعه ، وكتابته وعربته وخيوله ، هما قدماه ، وتناسق حذائه مع سرواله تحدد مباشرة فى نظرى منزلة الرجل الاجتماعية . فالحذاء الخالى من الكعب ، ذو الطرف المدبب والسراويل ذات النهايات الضيقة الخالية من أربطة القدم — وكان هذا هو « الشائع » ، والحذاء ذو القدم والكعب المستديرين الضيقين ، والسروال الضيق من أسفل ذو الأربطة التى تلتف حول القدمين ، أو الواسع ذو الأربطة المقوسة فوق أصابع القدمين كالخيمة — فإن مثل هذا الرجل يكون من « النوع الردىء » وهكذا .

ومن العجيب أن هذه الفكرة قد تملكتنى أنا الذى كنت عاطلا قطعاً من الصفات التى ينبغى أن تكون ، ولكن ربما يكون السبب الذى أدى الى تأصل هذه الفكرة فى نفسى بمثل هذا العمق هو مابذلته من جهود لأظفر بصفة « كما ينبغى أن أكون » . ويفزعنى أن أتذكر كم أضعت من وقتى الذى لا يقدر بثمن ، وفى أحلى مرحلة من الحياة — سن السادسة عشرة لكى أنال هذه الصفة . وخيل الى أنها وصلت بسهولة الى كل شخص ممن قلدتهم — فولوديا ، ودوبكوف ومعظم معارفى . كنت أتطلع اليهم حاسداً ، وكنت أشقى سراً فى اللغة الفرنسية وفن الانحناء دون أن أنظر الى

الشخص الذى أنحنى له ، وفى المحادثة والرقص ، وفى تنمية عدم الاهتمام والضيق ، وفى تشذيب أظافر يدى — وكنت آتلف أقص قطعاً من اللحم بالمقص — وأشعر طوال الوقت أن هناك الكثير مما يجب عمله قبل الوصول الى هدفى . ولكن بالنسبة الى حجرتى ، ومنضدة الكتابة ، وعربتى — فلم أكن أعرف على الأقل كيف أرتبها بطريقة تصبح معها « كما ينبغى أن تكون » مع أننى كافحت فى سبيل العناية بها بالرغم من نفورى من الأشياء العملية ، ومع ذلك فإن كل هذه الأشياء تبدو لأناس « آخرين » شيئاً طبيعياً ، تماما كما لو كانت الأمور لا يمكن أن تكون على وجه غير هذا . أذكر مرة بعد جهد شاق غير مثمر فى أظافرى أن سألت دوبكوف الذى كانت أظافره متشذبة تشذيبا مدهشا ، عما اذا كانت بهذه الهيئة منذ وقت طويل ، وكيف استطاع أن يجعلها كذلك ، فأجاب دوبكوف : « لم أفعل شيئا قط فيما أذكر لكى أجعلها هكذا ، ولا أتخيل أن أظافر سيد مايمكن أن تختلف عن هذه » وجرحت هذه الاجابة كبريائى جرحاً عميقا ، ولم أعرف آنئذ أن أحد شروط « كما ينبغى أن يكون » هو الكتمان ، فيما يتعلق بالمشاق التى تبذل للوصول الى « كما ينبغى أن أكون » . وفى رأيى أن « كما ينبغى أن تكون » لم تكن فقط فضلا كبيراً ، وصفة لطيفة وكمالا رغبت فى بلوغها ، ولكنها كانت الحالة الضرورية فى الحياة التى لا تكون بدونها سعادة ولا مجد ولا أى شىء طيب فى العالم . فما احترمت فنانا شهيرا ولا عالما ولا شخصا مفيداً للجنس البشرى اذا لم يكن « كما ينبغى

أن يكون » والرجل الذى « يكون كما ينبغى أن يكون » يقف فى مستوى أسمى من مستواهم بما لا يقاس ، فهو يدعهم يرسمون الصور ، ويؤلفون فى الموسيقى ، ويكتبون الكتب ، أو يفعلون الخير ، بل ويمتدحهم على هذا العمل ؛ ولماذا لا يمتدح العمل الطيب مهما كان مضمونه ؟ ولكنه لا يقف معهم فى مستوى واحد : فهو « كما ينبغى أن يكون » ، وهم ليسوا كذلك ، وهذا يكفى ، بل يخيل الى أنه لو كان لنا أخ أو أم أو أب ولم يكن « كما ينبغى أن يكون » لقلت انه من سوء طالعنا ، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شىء مشترك بينهم وبينى ، ولكن ليس ضياع الوقت الذهبى الذى استنفد فى القلق المستمر للاحتفاظ بجميع شروط « كما ينبغى أن تكون » التى كانت عسيرة جداً على ، وحرمتنى من كل مسعى جدى ، ولا البغض والاحتقار لتسعة أعشار الجنس البشرى ، ولا عدم الالتفات الى أى شىء جميل خارج دائرة « كما ينبغى أن يكون » — لم يكن شىء من هذا هو الضرر الرئيسى الذى ألحقته بى هذه الفكرة ، كان الضرر الجوهرى يتضمن الاقتناع بأن « كما ينبغى أن تكون » فى ذاتها ليست الا منزلة فى مجتمع ، وأن الانسان ليس بحاجة الى اجهاد نفسه لكى يصبح موظفاً أو صانع مركبات أو جنديا أو عالما اذا كان « كما ينبغى أن يكون » ؛ فاذا مابلغ هذه المنزلة فقد أنجز مهمته ، بل ووضع نفسه فوق معظم الجنس البشرى .

فى مرحلة معينة من المراهقة ، وبعد كثير من الأخطاء والانحرافات ، يشعر كل شخص عادة بضرورة القيام بدور ايجابى فى الحياة الاجتماعية ، ويتخير فرعاً من فروع الصناعة ، يكرس نفسه لها ، ولكن ندر مايحدث هذا مع رجل ممن « كما ينبغى أن يكونوا » . ولقد عرفت ولا أزال أعرف كثيرين ، بل كثيرين جدا من الناس المسنين ، ذوى كبرياء وثقة بأنفسهم ، صارمين فى أحكامهم ، اذا ماسئلوا فى العالم الآخر : « من أنتم ؟ وماذا صنعتم هنالك فى الدنيا ؟ » فانهم لا يملكون رداً آخر غير : « لقد كنت سيداً كاملا تماماً » (١) .

ان هذا المصير كان ينتظرنى .

(٨٧)
الشباب

بالرغم من اختلاط الأفكار المدونة فى رأسى فى ذلك الصيف ، الا أننى كنت صغيرا بريئا طليقا ، ولذلك كنت سعيدا تقريبا . كيف أستيقظ مبكراً أحياناً بل غالبا أيضا بشىء من التسامح (كنت أنام بالشرفة فى الهواء الطلق وتوقظنى شمس الصباح الساطعة المائلة) فأرتدى ملابسى بسرعة ، وأتناول منشفة وقصة

---

(١) لقد كنت سيدا كاملا

« Je fus un homme très comme il faut.

فرنسية تحت ذراعي ، وأذهب لأستحم في النهر في ظل غيضة من أشجار البتولا على مسافة فرسخ من البيت ؟ ثم استلقى على الحشائش في الظل ، وأرفع عيني من وقت لآخر عن كتابي لأتفرس في سطح النهر الذي كان يبدو أزرق في ظل الأشجار ، ثم يبدأ في التموج تحت نسائم الصباح ، وفي حقل الجاودار الآخذ في الاصفرار ، على الشاطىء المقابل ، تحت أشعة ضوء الصباح اللامعة الحمراء ، وهي تخضب جذوع أشجار الزان المكتئبة ، والمكتئبة دائما ، التي تتراجع الى أعماق الغابة الرطبة ، مختفية الواحدة خلف الأخرى . وكنت أحس بالبهجة اذ أشعر في أعماقي بنفس قوة الحياة الجديدة الفتية التي كانت تتنفس من الطبيعة فيما حولي . وعندما كانت تملأ السماء سحب الصباح الرمادية الصغيرة ، ويرتجف جسمي بعد أن أستحم ، أبدأ في كثير من الأحيان في المشي كيفما اتفق ، في الغابات والمروج ، أبلل حذائي من أوله لآخره في الندى الرطب . وأنساق طوال الوقت الى أحلام زاهية عن أبطال آخر قصة قرأتها ، فأتخيل نفسي تارة جنديا عظيما ، وتارة أخرى وزيرا ، ثم رجلا ذا قوة هائلة ، ثم رجل عواطف مشبوبة ، وأعكف على التطلع دون انقطاع فيما حولي مرتجفا على أمل ، مقابلتها ، فجأة في بعض المروج أو وراء شجرة . وعندما كان يسوقني بعض هذا التطواف بالقرب من بعض الفلاحين وهم يعملون لا يمنعني كل تجاهل ، لعامة الشعب ، من معاناة ارتباك شديد غير ارادي ، ومحاولة تجنب رؤيتهم لي ، وعندما كانت تشتد الحرارة ، ولا تظهر سيداتنا لتناول الشاي ،

فكثيرا ما كنت أذهب الى البستان أو الحديقة لآكل أي شيء من الخضر أو الفاكهة الناضجة ، وكان هذا من مباهجي الأساسية ، فأنا أذهب الى بستان التفاح ، وربما أوغل في صميم حرجة من أشجار توت العليق الطويلة الضخمة الغزيرة النماء ، وفوق رأسي سماء صافية حارة ، ومن حولي أغصان شجيرات توت العليق ذات الخضرة الشائكة متشابكة مع أعواد الحشائش الضارة ؟ وحشيشة القريص الداكنة الخضرة بشواشيها الرفيعة المزدهرة تمتد مصعدة في رشاقة ، ونبات الأرقطيون الشبيه بالمخلب ، بأزهاره ذات اللون الأرجواني والأشواك غير العادية ، تنمو غزيرة فوق شجيرات توت العليق ، ويزيد ارتفاعها على قامتك . هنا وهنالك مصحوبة بحشيشة القريص ، حتى لتصل في ارتفاعها أغصان شجرة التفاح العتيقة ذات اللون الأخضر الباهت المتهدلة في غزارة ، والتي تعلوها ثمار التفاح المستديرة لامعة كالعاج ، ولكنها لم تنضج بعد ، رطبة في حرارة الشمس . والى أسفل ، شجيرة من حشيشة القريص عارية من الأوراق . تكاد أن تكون جافة ، مفتولة ، وملتوية تتطاول نحو الشمس ، ونصال ابرية الشكل من الحشائش تشق طريقها بين أوراق السنوات الأخيرة ، وكلها مخضلة بقطرات الندى ، تنمو مخضرة كثيفة في الظلال الخالدة كأنها لم تعرف كيف تداعب شمس التفاح المبهجة .

الجو رطب دائما في هذه الغابة ، وهي عبقة بالظل الغزير

الدائم ، وبنسيج العناكب ، والتفاح المتساقط الآخذ في السواد على التربة المتعفنة ، وبأشجار حشيشة القريص ، وأحياناً بحشرة ذناقية الأذن ، التي تبتلعها دون التفات الى ماتأكل من التوت — وبعد ذلك تأكل أخرى بأسرع ماتستطيع . وعندما تسير قدما ، تفزع العصافير الدورية التي تعيش دائما في هذه الغابة ، وتسمع زقزقتها ورفيف أجنحتها الدقيقة الرشيقة في الأغصان ، وتسمع في بقعة واحدة طنين الدبور ، ووقع أقدام البستاني في مكان ما بالممرات ، و « آكيم » الأبله الصغير وقرقرته المستمرة لنفسه ، وتقول في سرك : « لا ! لا هو ولا أي شخص آخر في الدنيـــا يستطيع العثور علي هنا . وتقطف بكلتا يديك ثمــار التوت المليء بالعصــارة من يمين ومن شمال ، من على سيقانها البيضاء المخروطية وتلتهمها بانشراح الواحدة بعد الأخرى . وتبتل ساقاك حتى الركبة ؛ ويظل يجري في عقلك بعض هراء سخيف أو غيره (وتكرر في ذهنك ألف مرة على التوالي ، و — و — س — س — بعة ، و — و — عش — ر ، رين) ؛ وتلسعك حشيشة القريص في ذراعيك ، بل في ســاقيك من خلال سروالك المبتل ، وتأخذ أشعة الشمس المائلة تنفذ الى الغابة وتلفح رأسك ، وتكون رغبتك في الأكل قد اختفت منذ وقت طويل ، وتظل جالسا في الغابة الموحشة تصغي وتنظر وتفكر ، ثم تروح تقطف التوت وتأكله دون تفكير .

وفي نحو الساعة الحــادية عشرة في الوقت الذي تتناول فيه

السيدات الشاي عادة ويستقر قرارهن في العمل ، أذهب الى حجرة الاستقبال ، والى جوار النافذة الأولى المعلق عليها ستار أصم من تيل ميفي ، ترسل الشمس من خلال ثقوبه دوائر شديدة اللمعان فتسقط على أي شيء تقــابله في طريقها حتى ليؤذي العين النظر اليها ، ويقوم نول للتطريز يتنزه الذباب فوق نسيجه الكتاني الأبيض في سلام ، وتجلس ميمي الى النول تهز رأسها دون توقف وفي غضب ، وتنتقل من مكان الى آخر لتتفادى الشمس التي تنفذ فجأة من موضع أو آخر ، وتنقض شعاعة محرقة من الضوء مرة على يدها ومرة على وجهها . وتسقط من النوافذ الثلاث الأخرى مع ظلال الاطارات رقعاً متألقة كاملة التربيع ، وترقد « ملكا » في احدى هذه الرقع على أرض حجرة الجلوس العاطلة من الطلاء . وتجلس كاتنكا على الأريكة تشتغل بالحياكة أو القراءة ، وتلوح في ضجر بيدها البيضاء التي تكاد أن تكون شفافة في الضوء الباهر ، أو تهز رأسها عابسة لكي تهش الذباب الذي يزحف على جدائلها السميكة الذهبية ويطن فيها . وكانت ليوبتشكا اما تذرع الحجرة جيئة وذهابا عاقدة يديها وراء ظهرها تنتظر ذهابهن الى الحديقة ، أو عازفة قطعة بكل الأنغام التي ألفتها منذ زمن طويل . وكنت أجلس في مكان ما أستمع الى الموسيقى أو أقــرأ وأنتظر حتى أستطيع أنا نفسي الجلوس الى البيانو ، وبعد الغداء أرتضي أحيانا امتطاء صهوة جواد مع الفتيات (كنت أعتبر المشي تدريبا غير ملائم لسني ولا لمركزي في الهيئة الاجتماعية) وكانت رحلتنا التي أقودهم

فيها الى الأماكن غير العادية والوهاد ممتعة للغاية . وكانت لنا مغامرات أحيانا أظهر فيها شجاعة كبرى فتثني النساء على مهارتي في الركوب وجسارتي ، ويعتبرنني حاميهن . أما في المساء ، اذا لم يكن هنا زائرون ، وعقب الشاي الذي كنا نتناوله في الشرفة الظليلة ، وبعد مسيرة قصيرة مع بابا ، الى شئون الأملاك ، أرقد في مكاني القديم بالشرفة ، أقرأ أو أحلم ، كما كنت من قبل أصغي الى موسيقى كاتنكا وليوبتشكا . وأحيانا أترك وحيداً في حجرة الجلوس مع ليوبتشكا وهي تعزف بعض الموسيقى القديمة ، فألقي بكتابي وأتطلع من خلال باب الشرفة المفتوح الى أشجار الزان العالية ذات الأغصان الملتوية المتهدلة التي هبطت عليها ظلال المساء ، والى السماء الصافية التي لو تأملتها بنظرة ثابتة لظهرت لك بقعة ضاربة الى الصفرة ثم لا تلبث أن تختفي لتوها مرة أخرى ، وأصغي الى أصوات الموسيقى من القاعة ، والى صريف البوابة ، وأصوات النسوة والقطيع عند العودة الى القرية ، وأتذكر على حين فجأة في كثير من الجلاء ناتاليا سافتشنا وأمي وكارل ايفانتش ، فأشعر بالحزن لحظة . ولكن روحي كانت مليئة بالحياة والأمل في هذه الفترة حتى أن هذه الذكريات كانت تمسني فقط بأجنحتها ثم تبتعد مرفرفة .

وبعد العشاء ، وأحيانا بعد النزهة الليلية في الحديقة مع واحد من الناس — كنت أخاف السير وحيداً في المماشي المظلمة — كنت أذهب لأنام على أرض الشرفة ، مما كان يمدني بلذة كبرى بالرغم من ملايين البعوض التي كانت تهاجمني . وعندما كان يكتمل القمر فطالما كنت أقضي ليالي برمتها جالساً فوق حشيتي أتأمل الأضواء والظلال مصغيا الى الصمت والضوضاء ، أحلم بموضوعات شتى وخاصة بالهناءة الشاعرية والشهوانية ، التي كان يخيل الى آنئذ أنها قمة السعادة في الحياة ، وأحزن لكونها حتى ذلك الوقت منحتني فقط فرصة تخيلها . وفي بعض الأحيان ، سرعان ماياوى الجميع الى فراشهم ، وأرى الأضواء في حجرة الاستقبال وقد انتقلت الى الحجرات العليا حيث تسمع في الحال أصوات نسائية ، وصوت فتح النوافذ وغلقها ، حتى أذهب الى الشرفة فأذرعها مصغياً في اشتياق لجميع أصوات البيت وهي تغط في النوم . وطالما كان هناك أقل أمل ولو قام على غير أساس لتحقيق قسط من السعادة التي أحلم به . فلا أستطيع أن أتخيل هناءة لنفسي وأنا هادىء البال .

عند كل صوت لقدم حافية ، ولدى كل سعال وكل آهة ، وكل قعقعة منخفضة لنافذة ، أو حفيف ثوب ، كنت أقفز من فراشي ، وأقف أتبصبص خلسة فيما حولي ، وأشعر باضطراب دون أي سبب ظاهر ، ولكن تختفي الأضواء في الحال من النوافذ العليا ، وتفسح الأصوات ووقع الأقدام والحديث الطريق للغطيط ، ويبدأ الحارس الليلي في الدق على لوحته ، وتزداد ظلمة الحديقة ، ومع ذلك تصبح أكثر بهاء عندما تختفي أشعة الضوء الحمراء من النوافذ ، وتنتقل آخر شمعة من حجرة المؤن الى حجرة الانتظار ملقية شريطاً

من الضوء على الحديقة المنداة ، ومن خلال النافذة كنت أستطيع رؤية شكل فوكا المقوس في طريقه الى القرانين ، ملتفاً بدثار وبيده شمعة . وكثيراً ماكنت أشعر بسرور عظيم مثير في الزحف على الحشائش الندية في ظلال البيت السوداء ، والاقتراب من نافذة حجرة الانتظار والاصغاء بأنفاس خفيضة الى غطيط الصبي وتأوهات فوكا الذي كان يظن أن أحداً لا يستطيع سماعه ، وسماع صوته العجوز وهو يتلو صلواته وقتا طويلا ، طويلا جدا . وأخيرا تنطفىء آخر شمعة ، وتصفق النافذة ، وأبقى أنا وحيداً تماما ، وأتطلع حولي لأرى ما اذا كانت هناك امرأة بيضاء في أي مكان بالقرب من الدغل المشجر أو بجوار فراشي ، وكنت أسرع الى الشرفة جريا ، ثم أرقد في فراشي ، وأولى وجهي ناحية الحديقة ، وأغطي نفسي ماوسعني أن أفعل خوفا من البعوض والخفافيش ، وأتفرس في الحديقة وأتسمع الى أصوات الليل ، وأحلم بالحب والسعادة .

وحينئذ كان ينطوي كل شيء على معنى آخر في نظري : فمنظر أشجار البتولا العتيقة تتراءى أغصانها على أحد الجانبين لامعة في ضوء القمر ، وتعتم الشجيرات والطريق على الجانب الآخر ، ويزداد هدوء البركة واشعاعها الغزير لمانا كالصوت المرتفع ، ويتلألأ ضوء القمر من قطرات الندى على الأزهار أمام الشرفة ، وتلقى بظلالها الرشيقة عبر أحواض الزرع الرمادية ، ونصيحات طيور الشنقب من وراء البركة ، وصوت رجل في الطريق ، وصوت

احتكاك هادىء لا يكاد يسمع بين شجرتي بتولا عتيقتين ، وطنين البعوض فوق أذني وتحت دثاري ، وصوت سقوط تفاحة تلقفها فرع يابس ثم الأوراق الجافة ، وقفزات الضفادع التي تصل حتى الى درج الشرفة ، وتبدو عجيبة تحت ضوء القمر بظهورها الخضراء ـ كل هذا اتخذ في نظري مغزى غريباً ، مغزى جمال عظيم للغاية ينطوي على سعادة لا حد لها . وحينئذ ظهرت « هي » بضفيرة من الشعر طويلة سوداء ، وصدر نافر ، حزينة دائما وبارعة الجمال ، وبذراعين عاريتين وأحضان داعرة ... أحبتني ، وفي مقابل لحظة واحدة من حبها ضحيت بحياتي كلها . ولكن القمر ارتفع وارتفع سامقاً وتلألأ وتلألأ في كبد السماء ، واشعاع البركة البهي المرتفع كالصوت ، أصبح أوضح فأوضح ، وتزايد سواد الظلال وتزايد ، وشف الضوء وشف : وبينما أتطلع وأصغي الى كل هذا قال لي شيء ما ، انها ، بذراعيها العاريتين وحضنها الناري بعيدة ، أبعد كثيراً من أن تكون كل السعادة ، وأن حبها بعيد ، أبعد من أن يكون كل الهناءة : وكلما تطلعت الى القمر العالي المكتمل ، كنت أكثر سمواً ، وأنقى فأنقى ، وأقرب فأقرب « اليه تعالى » ، الى منبع كل جمال وهناءة . وتجلى أمامي الجمال الحقيقي والهناءة الحقيقية ، واندفعت الى عيني دموع فرح غير قانع ولكنه مزعزع .

كنت لا أزال وحيدا ، ولا أزال أتخيل أن هذه الطبيعة الخفية الرائعة التي يبدو أنها تجتذب اليها قرص القمر اللامع ، وتمسك

به لنبي ما ، في بقعة عالية وان كانت غير محددة في السموات الزرقاء الباهتة ، وفي نفس الوقت تملأ كل الفضاء غير المحدود ، وتملأني أنا ، تلك الدودة التافهة التي وصمت بكل شهوات الحياة الأرضية الحقيرة ، ولكن وهب أيضا قدرة غير محدودة على التخيل والحب ـ وخيل الى في لحظات كهذه كأن الطبيعة والقمر وأنا جميعا أصبحنا واحداً .

(٨٨)

الجيران

في اليوم الأول لوصولنا الى الريف ، دهشت لأن بابا وصف آل ايفانوف بأنهم أناس على خلق ممتاز ؛ ومما زاد من دهشتي انه كان يذهب الى منزلهم . لقد كانت هناك قضية قديمة بيننا وبين آل ايفانوف منذ وقت طويل ، وقد سمعت بابا يثور غضباً على هذه القضية مرات كثيرة حين كنت طفلا ويهاجم آل ايفانوف ، ويستدعي مختلف الناس ليدافعوا عنه ضدهم كما فهمت ، وسمعت ياكوف يسميهم أعداءنا « أناس أشرار » ؛ وأذكر كيف طلبت أمي ألا يذكر أحد هؤلاء الناس في بيتها أو في حضورها .

ومن هذه المعلومات كونت بنفسي ابان طفولتي فكرة قاطعة واضحة وهي أن آل ايفانوف كانوا « أعداءنا » ، مستعدين لا لقطع

رقبة بابا فقط أو خنقه ، ولكنهم يفعلون ذلك بابنه أيضاً لو ظفروا به وأنهم « أناس أشرار » بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى حرفي ؛ وأنني عندما شاهدت أفدوتيا فاسيلفنا ايفانوفنا « الفلمنكية الحسناء » تقوم على خدمة أمي في السنة التي ماتت فيها كان من العسير على أن أصدق أنها واحدة من تلك الأسرة ، أسرة الناس الأشرار ، وظللت محتفظاً بأسوأ فكرة عن هذه الأسرة . وبالرغم من أنني كثيراً ما كنت أقابلهم خلال ذلك الصيف فقد استمر تحاملي قاسياً على كل الأسرة ؛ والحقيقة أن آل ايفانوف كانوا كذلك ، وكانت الأسرة مكونة من أم أرملة تناهز الخمسين ولكنها بقيت عجوزاً مرحة ومتجددة ، ومن ابنتها الجميلة أفدوتيا فاسيلفنا ايفانوفنا ، وابنها المتلعثم اللسان بيوتر فاسيليفتش الذي كان نقيباً (يوزباشي) عزبا ذا نزعة جادة للغاية .

وعاشت أنا دمتريفنا ايفانوفنا منفصلة عن زوجها لمدة عشرين عاماً قبل وفاته ، أحياناً في بطرسبرج حيث كان لها هناك بعض الأقارب ، ولكنها كانت تقضي معظم الأوقات في قريتها « ميتشي » الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ منا . وكانت تروى فظائع كهذه في الجيرة عن طريقة حياتها ، وأن « ماليتا » تعد طفلة بريئة اذا قورنت بها . وطلبت أمي نتيجة لذلك ألا يذكر حتى اسم ايفانوفنا في بيتها . ولكن لو تحدثنا دون أي سخرية لقلنا ان من المحال تصديق حتى عشر الفضائح المشينة ـ فضائح الجيرة في الريف .

ولكنني حين عرفت أنا دمتريفنا ، كانت رغم كل شيء بمنزل فلاح ناظر أشغال يسمى « ميوشا » يدهن شعره ويجعده دواماً ويرتدي سترة على الطراز القوقازي ويقف وراء مقعد أنا دمتريفنا وقت الغداء ، وبينما كثيراً ما كانت تغري ضيوفها بالفرنسية أثناء وجوده بالاعجاب بعينيه الجميلتين وفمه ، فان ما كانت تتحدث عنه أمثال هذه الشائعة باستمرار لم يكن له وجود . ويبدو في الحقيقة أنه في السنوات العشر الأخيرة – أي منذ الوقت الذي استدعت فيه أنا دمتريفنا ابنها المطواع « بتروشا » من الخدمة العسكرية – قد غيرت نمط حياتها تغيراً تاماً .

كانت أملاك أنا دمتريفنا صغيرة الرقعة كل من فوقها مائة نسمة ، وكانت نفقاتها كبيرة ابان حياتها المرحة ، ولذلك فان الرهون ومضاعفات الرهون السابقة على هذا بطبيعة الحال كانت قد حلت على أملاكها ، ولم يكن هناك مناص من بيعها بالمزاد العلني ، وخيل لها ازاء هذه الضرورات الملحة أن الوصاية وجرد الأملاك ، ووصول القاضي ، وأمثال هذه الأشياء المؤلمة لم تنشأ من عجزها عن دفع الفائدة بقدر مانشأت عن كونها امرأة ؟ فكتبت أنا دمتريفنا الى ابنها الذي كان يعمل آنئذ في فرقته العسكرية ، لكي يأتي وينقذ أمه من هذه الضائقات .

وبالرغم من أن بيوتر فاسيليفتش كان يقوم بعمله في الخدمة العسكرية على خير وجه ، ويأمل أن يكون مستقلا في القريب ،

فانه توقف عن كل شيء ، وتحول الى قائمة المتقاعدين ، وقدم الى القرية بوصفه الابن المحترم الذي يعتبر أن أول واجباته مواساة أمه في سنها المتقدمة (كما كتب عن ذلك بمنتهى الاخلاص في رسائله) .

كان بيوتر فاسيليفتش ، بالرغم من تقاسيم وجهه الساذجة ، وارتباكه ، وتلعثمه ، رجلا ذا مبادىء ثابتة جدا وحاسة عملية جديرة بالاعتبار ، وقد حافظ على الأملاك الى حد ما بواسطة قروض صغيرة ومسايرة الظروف ، والرجاء والوعود ، واضطلع بيوتر فاسيليفتش بادارة الأملاك ؛ وارتدى سترة والده المبطنة بالفراء التي كانت متروكة بالمخزن ، وتخلص من جياده وعرباته ، ولم يشجع الضيوف على زيارة ميتشتشي ، وحفر المصارف ، وزاد من رقعة الأرض الصالحة للزرع ، وخفض حصص الفلاحين ، وقطع أخشابه وباعها بطريقة تجارية ، ونظم شئونه وأقسم بيوتر فاسيليفتش ، وحافظ على قسمه ، أنه لن يرتدي ثياباً أخرى سوى « بكيشه » والده ، وسترة من الجيش صنعها بنفسه ، وألا يركب أية وسيلة أخرى للمواصلات غير العربة العادية مع الفلاحين التي تجرها خيول النقل حتى تسدد جميع الديون ، وحاول أن يفرض هذا الأسلوب من عدم المبالاة في الحياة على جميع الأسرة بقدر ما يسمح به احترامه لأمه ، الذي يعتبره واجبه . كان يتلعثم في حجرة الجلوس ويتصرف تصرفاً ذليلا الى أقصى حد ازاء أمه ،

فينجز كل رغباتها ويزجر الناس اذا لم يفعلوا ما تأمر به أنا دمتريفنا ، ولكنه في مكتبه الخاص كان يدعو الجميع الى الحساب الدقيق اذا ما قدمت بطة على المائدة بدون أمر منه ، أو اذا أرسلت أنا دمتريفنا فلاحاً (موزيك) ليسأل عن صحة أحد الجيران ، أو أرسلت فتاة فلاحة الى الغابات لجمع توت العليق بدلا من استئصال الحشائش من الحديقة .

وفي مدى ثلاث سنوات دفعت جميع الديون ، وعاد بيوتر فاسيليفتش من رحلة الى موسكو ، في ملابس جديدة وعربة (تارانتاس) . ولكن بالرغم من ازدهار الحال في أعماله ، ظل محتفظاً بنفس ميله الى عدم المبالاة الذي كان يفاخر به دائماً فيما يظهر ، أسرته والأغراب . وكثيراً ما كان يقول متلعثماً : ان أي شخص يريد حقيقة أن يزورني ، فأكون سعيداً لو رآني في معطف من جلد الشاة ، ويأكل أيضاً من حساء الكرنب ، ، ثم يضيف - ، فأنا آكلها أيضاً ، كانت كل كلمة وكل حركة معبرة عن كبريائه تقوم على ادراكه بأنه ضحى بنفسه لأمه ، واسترد الأملاك ، وأنه يحتقر الآخرين لأنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا .

ان أخلاق الأم والابنة كانت تختلف عن أخلاقه اختلافاً تاماً ، وكل منهما تختلف عن الأخرى من وجوه عدة ، فالأم كانت من خيرة نساء المجتمع لطفاً ومرحاً ، وكانت كلتاهما دمثتي الأخلاق، وكانت تبتهج ابتهاجاً حقيقياً لكل شيء مفرح سار ، بل كانت تملك

الى أقصى حد ، القدرة على الاستمتاع برؤية الشباب يمرح ، وهذه سمة توجد فقط في ذوي الطباع الدمثة من المسنين . أما ابنتها ألدوتيا فاسيليفنا ، فعلى العكس ، كانت شخصية جادة، أو بالأحرى، تملك بصورة غريبة تلك النزعة الحالمة غير المكترثة ، متعالية الى حد ما دون أية مبررات من تلك التي تملكها الجميلات غير المتزوجات بوجه عام ! وكلما حاولت أن تكون مرحة فان مرحها يكون غريباً بنوع ما كما لو كانت تضحك من نفسها أو من أولئك الذين تتحدث معهم أو من كل المجتمع ! ومن المحتمل أنها لم تكن تقصد أن تفعله . وكثيراً ما كنت أتساءل عما تقصده بمثل هذه الملاحظات: ، نعم ، انني جميلة الى حد فظيع ، أو ، ان الجميع بطبيعة الحال يحبونني ، وهكذا وكانت أنا دمتريفنا دائمة النشاط ، مغرمة بادارة شئون المنزل وتنسيق الحدائق ، وبالأزهار وطيور الكناريا والأشياء الجميلة . كانت حجراتها وحديقتها لا بالفسيحة ولا بالفاخرة ، بل كان كل شيء بالغ النظافة منسق بعناية كبرى ، ويحمل كل شيء طابعاً عاماً من ذلك الطرب الخفيف في اطار أنيق مما يسمعه المرء واضحاً في موسيقى الفالس أو البولكا الجميلة ، حتى ان كلمة ، لعبة ، التي كثيراً ما كان يستعملها ضيوفها في المدح كانت ملائمة بنوع خاص لحديقة أنا دمتريفنا ومسكنها الأنيقين ، وأنا دمتريفنا نفسها كانت لعبة - فهي صغيرة نحيلة ذات وجه مشرق ، ويدين صغيرتين جميلتين ، مرحة على الدوام ، تتحرى اللياقة في ملبسها

دائما ، ولم يكن هناك شيء يعكر هذه السمة غير العروق الضاربة الى اللون الأرجوانى ، النافرة على يديها الصغيرتين .

أما أفدوتيا فاسيليفنا فعلى العكس ، قلما كانت تفعل أى شيء ، فهى لم تقتصر على عدم شغفها بالانهماك فى الأزهار والأشياء الصغيرة الأنيقة ، بل كانت قليلة العناية بمظهرها ، فكانت تسرع دائما بارتداء ملابسها عندما يصل الزائرون . ولكنها عندما كانت تعود الى الحجرة وقد ارتدت ملابسها كانت تبدو جميلة جمالا فائقاً ، باستثناء تعبير عينيها وابتسامها الفاتر الجامد ، الغريب بالنسبة للوجوه المليحة ، ووجهها البالغ الجمال الدقيق التناسق ، وهيئتها الجليلة ، كانت كأنها تقول لك على الدوام « انظر الى ان تكرمت » .

ولكن كل خفة روح الأم ، وعدم اكتراث الابنة وخلقها الحالم ، قد حدثنا عنهما شيء ما ، فقال ان الأولى لم تحب شيئاً قط ، لا الآن ولا فى أوقات مضت الا كل جميل مفرح ، وأن أفدوتيا فاسيليفنا واحدة من ذوات الطبائع اللائى لو أحببن مرة ، لضحين بحياتهن كلها للشخص الذى أحببنه .

« ٨٩ »

زواج أبى

كان أبى فى الثامنة والأربعين عندما اتخذ أفدوتيا فاسيليفنا ايبفانوفا زوجة ثانية له .

وأظن أن بابا عندما قدم وحده الى الريف مع الفتيات فى الربيع ، كان فى تلك الحالة النفسية العصبية السعيدة التى تميل الى الاجتماع ، والتى يكون فيها المقامرون عادة عندما يتوقفون عن اللعب بعد المكاسب الوفيرة . وكان يشعر أنه لا يزال يختزن الكثير من الحظ غير المستنفد الذى اذا لم يبدده فى المقامرة ، فقد يصرفه على النجاح العام فى الحياة . وفوق هذا كان الوقت ربيعاً ، وأصبح يملك قدراً كبيراً من المال غير المنتظر ، وكان وحيداً تماماً ، ويشعر بالضجر . وفى أثناء مناقشته شئونه مع ياكوف ، وتذكره القضية التى لا تنتهى مع آل ايبفانوف ، والحسناء أفدوتيا فاسيليفنا التى لم يرها منذ وقت طويل ، يمكننى أن أتخيله يقول لياكوف : « أنت تعرف ياياكوف خارلامتش ما هو رأيى ، فأنا أرى من الخير أن أترك هذه القطعة الملعونة من الأرض تذهب عنى ، أتوافق ؟ ما رأيك ؟ » .

واستطيع أن أتخيل أصابع ياكوف تدور بالنفى على هذا

السؤال من وراء ظهره ، وكيف أبتسم : « أنا على حق قبل كل شيء يا بيوتر الكسندروفتش » .

ولكن بابا أمر باعداد العربة ، وارتدى معطفه الزيتوني الحديث الطراز ، وصفف البقية الباقية من شعره ، ورش منديله بالعطر . وركب الى منزل جاره وهو فى أحسن حالات المرح التي أوحى بها اليه اقتناعه بأنه يتعامل مع وجيه أرستقراطي ، وبخاصة أنه كان يأمل فى رؤية امرأة حسناء .

أعرف فقط أن أبي في زيارته هذه لم يقابل بيوتر فاسليفتش الذي كان فى الحقول ، وأنه قضى ساعة أو ساعتين مع السيدات . وأستطيع أن أتخيله يعيض ظرفاً ويسحرهن وهو يدق الأرض بنعله الرقيق ويهمس ويرنو بنظرات الغرام ، وأستطيع أن أتخيل أيضاً ، كيف شعرت المرأة العجوز الصغيرة نحوه بميل رقيق مفاجيء ، وكيف أصبحت ابنتها الفاترة الجميلة منتعشة .

وعندما جرت الخادمة تلهث لتعلن الى بيوتر فاسليفتش أن ارتيف العجوز نفسه قد حضر ، أستطيع أن أتخيله يجيب غاضباً : « حسن ، وماذا فى ذلك ؟ وما سبب حضوره ؟ » وكيف رجع الى بيته نتيجة لذلك متباطئاً قدر ما استطاع ، ولعله أوى الى مكتبه ، وارتدى سترته القذرة متعمداً ، وبعث بعبارة الى الطباخ ألا

يتجاسر ، لأية مناسبة مهما كانت أن يضم اضافات على الغداء حتى اذا أمرت السيدات بذلك .

كثيراً ما رأيت أبي فى صحبة آل ايفانوف فيما بعد ، ولذلك أستطيع تكوين فكرة جلية عن ذلك اللقاء الأول . أستطيع أن أتخيل أنه بالرغم من أن أبي عرض انهاء هذه القضية بسلام ، فان بيوتر فاسليفتش كان مشاكساً حانقاً لأنه ضحى أعماله فى سبيل أمه ، وأن والدي لم يفعل شيئاً مثل هذا ، وكيف بوغت دون سبب ، وكيف أن والدي الذى تظاهر بعدم ملاحظة كآبته ، كان مرحاً مازحاً ، وعامله كأنه مهرج مدهش ، وهو شيء كان يضايق بيوتر فاسليفتش نوعا ما فى بعض الأوقات وان كان لا يملك الا أن يذعن له أحيانا رغم ارادته . ولسبب ما أو لآخر ، بالاضافة الى ميل أبي الى تحويل كل شيء الى مزاح ، وأطلق على بيوتر فاسليفتش لقب عقيد (أميرالاى) ، وبالرغم من أن ايفانوف الذى احمر وجهه تجهما ، بل أخذ يتلعثم أكثر من ذى قبل ، قد أبدى مرة ملاحظة فى حضوري هي أنه « ليس عـ ـ ـ قـ ـ يداً ، بل ـ نـ ـ قـ ـ يباً » وناداه أبي مرة أخرى بعد خمس دقائق فقط بلقب عقيد .

لقد أخبرتني ليوبتشكا أنه كانت هناك قبل وصولنا الى القرية مقابلات يومية مع آل ايفانوف ، وأن الأمور كانت تجرى على قدم وساق . وأعد أبي ، بقدرته على تنظيم كل شيء بلمسة من الأصالة والفطنة ، وفى نفس الوقت بطريقة بسيطة أنيقة ، أفواجاً للقنص

وصيد السمك والألعاب النارية كان يحضرها آل ايفانوف . وقالت ليوبتشكا أن الأمور كانت تجرى أيضاً بصورة أجمل لو لم يكن هناك بيوتر فاسيليفتش المتزمت ، الذى كان يتجهم ويتلعثم ، ويشوش كل شىء .

بعد وصولنا جاء آل ايفانوف لزيارتنا مرتين فقط ، وزرناهم مرة واحدة ؛ ولكن بعد عيد القديس بطرس ، وهو عيد والدى ، الذى زارنا فيه آل ايفانوف وعدد كبير غيرهم ، توقفت كل علاقاتنا بآل ايفانوف ، وكان أبى يزورهم وحده .

خلال الفترة القصيرة ، عندما كانت تسنح الفرص لرؤية بابا ودوتشكا ـ كما كانت تناديها أمها ، كان هذا ما لاحظته عنهم : كان بابا باستمرار فى تلك الحالة النفسية السعيدة التى لفتت نظرى يوم وصولنا . لقد كان مرحاً للغاية ، فتياً ممتلئاً حيوية وسعادة ، حتى ان سعادته كانت تشع على جميع من حوله ، وتنقل اليهم نفس المزاج ، ولم يكن يتنقل خطوة قط بعيداً عن أفدوتيا فاسيلفنا عندما تكون بالحجرة ، وكان يقدم لها دون انقطاع من الثناء العذب ماكنت أشعر معه بالخجل له ، أو يجلس يتأملها فى صمت ، وينتفض كتفاه بصورة عاطفية ورضاء ذاتى ، ثم يسعل ؛ بل يهمس أحياناً اليها مبتسماً ، ولكنه يفعل كل هذا بتلك السمة الشبيهة بالمزاح الخاصة به فى أكثر الأمور وقاراً .

كان يبدو أن أفدوتيا فاسيليفنا قد أصابتها من بابا عدوى السعادة التى كانت فى هذه الفترة تشع دون انقطاع تقريبا من عينيها الواسعتين الزرقاوين ، باستثناء اللحظات التى تتملكها فيها نوبات من الخجل المفاجئة حتى لأتألم من أجلها أنا الذى ألفت هذا الشعور ، ويؤذينى النظر اليها . ومن الواضح أنها فى مثل هذه اللحظات تخشى كل نظرة وكل حركة ، ويخيل اليها كأن كل شخص يتأملها ولا يفكر فى سواها ، ويستنكر كل شىء عنها . ونظرت الى الجميع على استحياء ، وكان اللون يظهر على وجهها ثم يغيب ، وبدأت تتحدث فى شجاعة وبصوت مرتفع ، ولكنه حديث لغو فى معظمه ، وهى مدركة لهذا ، مدركة أن الجميع ومن بينهم بابا ، كان مصغياً ، ثم احمر وجهها مرة أخرى . ولم يكن أبى حتى فى مثل هذه الأحوال يلاحظ هذا اللغو ، ولكنه يروح يسعل بحماسة كالمعتاد ، ويتفرس فيها فرحاً طروباً . كنت ألاحظ أن نوبات الخجل وان كانت تتملك أفدوتيا دون أى سبب ، فانها فى بعض الأحيان كانت تحدث مباشرة بعد ذكر امرأة صغيرة جميلة فى حضرة بابا . ان التحولات المستمرة من الأشياء الجديرة بالتأمل ، الى انبساطها الغريب المحرج الذى تحدثت عنه من قبل ، وتكرار بابا لكلمته المفضلة ، ودورات الحديث ، وطريقتها فى مواصلة الجدل الذى كان يبدأه بابا ـ كل هذا كان يمكن أن يفسر لى العلاقات التى نشأت بين بابا وأفدوتيا فاسيلفنا ، لو كان موضوع الحديث أى شخص آخر غير بابا ، ولو كنت أنا أكبر قليلا ، ولكننى لم أشك فى شىء قط ،

حتى حين تسلم أبي في حضوري رسالة من بوتر فاسليفتش وتكدر كثيراً ، ثم أوقف زياراته الى منزل آل ايفانوف حتى نهاية أغسطس .

في آخر أغسطس بدأ بابا يزور جيرانه مرة أخرى ؛ وفي اليوم السابق على رحيلنا ، فولوديا وأنا الى موسكو أعلن لنا أنه سيتزوج من أفدوتيا فاسليفنا .

(٩٠)

كيف تلقينا الخبر

عرف كل من في البيت الحقيقة في اليوم السابق على اعلانها وكانوا يناقشونها ، ولم تفارق ميمي حجرتها طوال اليوم وكانت تبكي ، وجلست معها كاتنكا ؛ وخرجت فقط للغداء ، وعليها سيمات استياء من الواضح أنها استعارتها من أمها ؛ وكانت ليوبتشكا متهللة للغاية وقالت أثناء الغداء انها عرفت سراً ممتازاً لن تفشيه لأحد .

وقال فولوديا الذي لم يشاركها رضاءها : « لا يوجد في سرك شيء هام ، بل على العكس إن كنت قادرة على أي تفكير جاد لفهمت أنه من سوء الطالع الى حد كبير » ، وتفرست فيه ليوبتشكا في غيظ ولم تقل شيئاً .

أراد فولوديا بعد الغداء أن يتأبط ذراعي ، ولكنه خشي أن يكون هذا تصرفاً عاطفياً أكثر مما ينبغي ، فلمس مرفقي فقط ، واتجه بي الى القاعة بايماءة منه .

وسألني عندما اقتنع بنفسه أننا وحيدان : « هل تعرف السر الذي أشارت اليه ليوبتشكا ؟ »

ندر ماكنا نتحدث ، فولوديا وأنا ، أحدنا الى الآخر وجهاً لوجه عن أي شيء هام ؛ ولذلك عندما حدث هذا شعرنا بشيء من الحرج المتبادل ، وأخذت مقلتانا ترقصان في أعيننا أثناء شرح فولوديا للموضوع ، ولكنه راح الآن يحدق في عيني بامعان مجيباً على الدهشة البادية فيهما : « ليس هناك مايخيفك ، ولكنا أخوان لا فرق بيننا ، ويجب أن نتشاور معاً في موضوع عائلي خطير » ففهمت مايريد ، وتابع قوله :

« بابا سيتزوج ايفانوفا ، أتعرف ؟ »

فأومأت بالايجاب لأني كنت قد سمعت عن ذلك .

وراح فولوديا يقول : « وهذا شيء غير كريم » .

« لماذا ؟ »

فأجاب منزعجاً : « لماذا ؟ سيكون شيئاً مبهجاً جداً أن يكون لك خال متلعثم اللسان ، عقيد (أميرالاي) ، وكل هؤلاء الأقارب . حقاً انها تبدو طيبة الآن فقط ، ليست سيئة ، ولكن من يدري كيف

ستصير ؟ ولنسلم جدلا بأن هذا لا يحدث تغيراً في حياتنا ، فلابد أن تظهر ليوبشكا بسرعة في المجتمع ، وليس هذا بالشيء المستحب مع زوجة أب كهذه ، فهي حتى لا تجيد التحدث بالفرنسية ، وأي آداب يمكن أن تعلمها اياها !! انها بائعة سمك ، ولا شيء أكثر من هذا : وحتى لو كانت طيبة ، فهي بائعة سمك ، لا فرق بينهما » وختم فولوديا حديثه ، وكان فيما يظهر مسروراً جدا بهذا الوصف « بائعة سمك » •

وكان من العجيب أن أسمع فولوديا آنئذ يصدر حكمه في هدوء على اختيار بابا ، وقد صدمت لأنه كان صائباً •

واستفسرت : « ولماذا يتزوج بابا ؟ »

انها قصة غريبة ، يعرفها الله وحده ؟ وكل ما أعرفه أن بوبتر فاسيليتش أغراه بالزواج وطالبه به ؟ وأن بابا لم يكن يريده ، ثم مال اليه بسبب نوع من الشهامة ، انها قصة عجيبة • لقد بدأت الآن فقط أفهم « أبي » » وراح فولوديا يقول : (وهو يطلق عليه « أبي » بدلا من بابا فسبب لي ذلك جرحاً عميقا) : انه رجل لطيف طيب وذكي ، ولكنه هوائي متردد ، وهذا شيء محير ! انه لا يستطيع أن ينظر الى امرأة بجنان ثابت ، فأنت تعرف أنه لا يتعرف بأية امرأة الا ويقع في حبها ، حتى مع ميمي ، كما تعرف » •

« ماذا تقصد ؟ »

« أخبرك أنني اكتشفت أخيراً أنه كان يحب ميمي عندما كانت صغيرة ، وكان يكتب لها الشعر ، وكان بينهما شيء ، ولاتزال ميمي تعاني حتى اليوم » ثم انفجر فولوديا ضاحكا •

وقلت في دهشة : « لا يمكن أن يحدث هذا ! »

وتابع فولوديا حديثه ، وعاودته روح الجد ، وأخذ يتكلم فجأة بالفرنسية : « ولكن الموضوع هو كيف يرضى مثل هذا الزواج جميع أقربائنا ! وهي لابد أن تنجب أطفالا » •

وأجفلت من رأي فولوديا المتعقل ومن بعد نظره اجفالا شديدا ، حتى أنني لم أعرف بماذا أجيب •

وفي هذه اللحظة اقتربت منا ليوبشكا •

وقال بوجه متهلل : « واذن ، فأنتما تعرفان ؟ »

وقال فولوديا : « نعم ، ولكنني مندهش يالوبشكا ، انك لم تعودي بعد طفلة ، فكيف تشعرين بالفرح لأن بابا سيتزوج قطعة نفاية ؟ » •

وبدا على لوبشكا الاهتمام فجأة وراحت تفكر •

آه ، فولوديا ! قطعة نفاية ؟ كيف تتجاسر أن تتحدث هكذا عن أفدوتيا فاسيليفنا ؟ فاذا كان بابا مزمعاً على الزواج منها ، فلا يمكن أن تكون قطعة نفاية » •

« حسنی ... » لا ــ لقد كانت هــذه فقط طريقتي في عــرض الموضوع » ولكن لا تزال ــ » وقاطعتني ليوبتشكا في حمية قائلة : « لا » (ولكن لا أزال) انك لم تسمعنى البتة أصف الفتــاة التى تحبها بأنها قطعة نفاية » فكيف تقول ذلك عن بابا وعن امرأة ممتازة ؟ لا تقل لى ذلك حتى لو كنت أخى الأكبر ، يجب ألا تفعل » .

قد لا أستطيع حتى التعبير عن رأى عن ــ » .

واعترضته ليوبتشكا ثانية : « لا ! ليس عن أب كوالدنا ، ان ميمى تستطيع ، أما أنت ، يا أخى الأكبر فلا » .

وقال قولوديا فى غرور : « آه ، انك لا تفهمين شيئا بعد ... اضحى .. هل من المستحب أن واحدة مثل ابيغانوفا « دوتتشكا » تحتل مكان أمك الراحلة ؟ » .

وظلت ليوبتشكا صامتة لحظة ، ثم فاضت عيناه فجأة بالدموع .

وقالت : « عرفت أنك كنت مغرورا ، ولكنى لم أعرف أنك خبيث الى هذا الحد » ثم تركتنا .

وقال قولوديا ، وقد انطبع وجهه بطابع الوقار الساخر ، وألقى نظرة كئيبة بليدة : « مضيعة للوقت » ثم مضى يقول كأنه يؤنب نفسه على نسيانه نفسه الى حد التنازل بالحديث مع ليوبتشكا .

كان الطقس رديئا فى اليوم التــالى ، ولم يكن قد نزل بابا ولا السيدات لتناول الشاى حين دلفت الى حجرة الاستقبال ، وكانت

هناك أمطار خريفية باردة هطلت أثناء الليل ، وبقايا السحب التى أفرغت حمتها أثناء الليل لاتزال متفرقة فى السماء مع قرص الشمس المكفهر الذى كان فى أعلى ارتفاعه ، يظهر من خلالها خافتا . كان الجو عاصفاً رطبا باردا ، وكان الباب المؤدى الى الحديقة مفتوحاً ، وقد جفت البرك التى خلفتها أمطار الليل من على ألواح السقيفة التى اسودت من الرطوبة ، والريح تؤرجح الباب المفتوح الى خلف وأمام على مفصلتيه ، والممرات مبللة موحلة ، وأشــجار البتولا العتيقة بأغصانها البيضاء العارية ، والشجيرات والحشائش ، ونبات حشيشة القريص وأشجار الزبيب (البستانى) ، الكبيرة منهــا التى انقلبت أوراقها الشاحبة تكافح كل منها فى نفس مكانها ، كأنها تريد أن تنفصل عن جذورها ، تتطاير من حولها أوراق صفراء مستديرة ، يطارد بعضها البعض من ممشى أشــجار الزيزفون ، وبينما كان يخضلها البلل ، تناثر على الطريق الرطبة ، وعلى « الخضة الثانية » فى المرعى الرطب الداكن الخضرة . كان يشغل أفكارى زواج أبى الثانى ، من وجهــة النظر التى ارتآها قولوديا : فمستقبل أختى ، ومستقبلنا ، بل ومستقبل والدى نفسه ، لا يبشر بخير بالنسبة الى . كانت تعذبنى فكرة أن امرأة غريبة ، أجنبية ، بل أهم من كل هذا أنها امرأة « صغيرة » لم يكن لها حق فى كثير من الوجوه ، فى أن تحتل المكان فجأة ــ ومكان من ؟ كانت مجرد سيدة « صغيرة » ستحتل مكان أمى الميتة ! كان قلبى مثقلا ، وكان يتراءى لى أبى مذنبا أكثر

فأكثر . وفى تلك اللحظة سمعت صوته وصوت فولوديا يتحدثان فى مخزن رئيس الخدم ، لم أكن أريد فى تلك اللحظة بالذات رؤية أبى ، فابتعدت عن الباب ، ولكن ليوبتشكا تقدمت منى وقالت ان بابا يسأل عنى .

كان واقفا فى حجرة الاستقبال مسندا احدى يديه على البيان ، يتطلع ناحيتى بصبر نافد ، ولكن عليه سمات الظفر . لقد فارقه ذلك التعبير عن الشباب والسعادة الذى لاحظته على وجهه ابان هذه الفترة ، كان يبدو مهموماً. وكان فولوديا متجهاً الى الحجرة وغليونه فى يده . واتجهت الى أبى وقلت له صباح الخير .

وقال فى تصميم وهو يرفع رأسه ، فى تلك اللهجة الغريبة الفاترة التى يتكلم بها المرء عن الأشياء الكريهة فى ظاهرها ، والتى لا يتسع الوقت للحكم عليها : « حسن يا أصدقائى ، أظنكم تعرفون أنى أفكر فى الزواج من أفدوتيا فاسليفنا » (ثم صمت لحظة) « ولم أكن أفكر مطلقا فى الزواج بعـــد أمكم ، ولكن ـــ » (وتوقف لحظة) ـ « ولكن ـ ولكن ، من الواضـــح أنه النصيب ... ان دونتشكا فتاة عزيزة لطيفة ، ولم تعد صغيرة جداً ، وآمل أن تحبوها يا أطفالى ، وقد أحبتكم من قبل بكل قلبها ، وهى امرأة طيبة » ثم قال وهو يلتفت الى فولوديا والى حتى لا يترك لنا فسحة من الوقت للاعتراض عليه : « والآن ، قد حان الوقت لمغادرة المنزل ، ولكنى سأبقى حتى العام الجديد فأذهب الى موسكو » (وتردد مرة أخرى)

« مع زوجتى وليوبتشكا » . وقد آلمنى أن أرى أبى يبدو خيابا مذنبا أمامنا ، واقتربت منه ؟ ولكن فولوديا استمر فى التدخين وأخذ يذرع الحجرة مطأطئا الرأس .

وختم والدى حديثه قائلا : « وهكذا يا أصدقائى مدبرة والدكم الرجل العجوز » . واحمر وجهه وسعل ، وضغط على يد فولوديا ويدى . وكانت الدموع تترقـــرق فى عينيه وهو يتكلم ، ولاحظت أن اليد التى مدها الى فولوديا الذى كان فى الجانب الآخر من الحجرة فى تلك اللحظة ، ترتجف قليلا ؟ وأثر فى منظر هذه اليد المرتجفة تأثيرا مؤلماً ، وخطرت على ذهنى فكرة لا تزال تقلقنى : كانت الفكـــرة التى خطرت لى ، هى أن بابا كان فى الجيش سنة ١٨١٢ ، وكان ضـابطا شـجاعاً ، كما كان مشهورا . واستبقيت يده الضخمة القوية ، وقبلتها ؟ وضغط هو على يدى . وما أن كبح دموعه حتى تناول فجأة رأس ليوبتشـــكا الأسود بين يديه وأخذ يقبلها فى عينيها . وتظاهر فولوديا بأن غليونه قد سقط ، فانحنى ومسح عينيه بقبضة يده ثم غادر الحجرة محاولا ألا يلاحظه أحد .

(٩١)
الجامعة

كان الزواج سيتم فى مدى أسبوعين ، ولكن محاضراتنا كانت قد بدأت ، وعدنا ، فولوديا وأنا الى موسكو فى مستهل شـــهر

سبتمبر ، وعاد آل نخليودوف أيضا من الريف ، وجــاء دمترى لزيارتى مباشرة (كنا قد وعدناه أن يكتب كل منا للآخر عند رحيلنا ، ولكن لم نكتب بطبيعة الحال مرة واحدة) وصممنا على أن يصحبنى فى اليوم التالى الى الجامعة الى المحاضرة الأولى .

كان يوما صحواً مشمساً .

وحالما دخلت القاعة العامة شعرت بشخصيتى تختفى فى زحام الزملاء الصغار المرحين الذى تموج بضجته جميع الأبواب والدهاليز فى ضوء الشمس الساطع . وكان شعورى بأننى عضــو فى هذه الجماعة الكبرى سار للغاية ، ولكن عدد من كنت أعرفهم بين هؤلاء الأشخاص كان قليلا وكان التعارف مقصورا على الايماءة بالرأس وكلمات : « كيف حالك يا ارتينيف » . ولكن جميع من حولى كانوا يحيون بالأيدى وبالحديث ـ عبارات الصداقة ، والابتسامات ، والتمنيات الطيبة ، والاشارات كانت كالمطر فى كل الأركان ! وفى كل مكان كنت أشعر بالرابطة التى تشدنى الى هذه الجماعة الفتية . وشعرت بالأسف لأن هذه الرابطة قد فاتتنى بطريقة ما ، ولكن هذا لم يكن الا انطباعاً مؤقتا . ونتيجة لهذا وللكدر الذى تسبب فيه اكتشفت بسرعة أنه كان من الخير لى عدم انتسابى لهذا المجتمع ، وأنه يجب أن تكون لى دائرتى من الناس الظرفاء . وجلست فى الصف الثـــالث حيث كان يجلس الكونت (ب) والبسادابون (ز) والأمير (ر) ايفن وسادة آخرون من تلك الطبقة التى عرفت منهما

فقط ايفن والكونت . ونظر الى هؤلاء السادة عرضاً ، وشعرت أننى لا أنتسب الى هذه الطبقة كذلك . وأخـــذت أراقب كل مايجرى حولى . سمنوف بشعره الرمادى المجعد وأسنانه البيضاء ، وسترته المفكوكة الأزرار ، يجلس على مسافة ليست بعيدة عنى ، يتكىء على مرفقيه يقرض ريشـته ، والجمنازى الذى كان الأول فى الامتحان ، وكان يجلس فى الصف الأول بعنقه الملفوف بربطة الرقبة السوداء ، ويلعب بمفتاح ساعة فضى على صدريته الحريرية . وكان ايكونين الذى كافح فى سبيل دخول الجامعة يجلس فى أعلى صف فى سرواله الأزرق الذى يغطى كل حذائه تماما ، يضحك ويصيح بأنه على جبل برناسوس (١) . واشد ما أدهشنى ، أن النكا الذى لم يحيني فقط ببرود ، بل باحتقار كأنه يريد أن يذكرنى باننا هنا سواء ، كان يجلس أمامى ويضع ساقيه النحيلتين على المقعد بطريقة خاصة طابقة عنه (وكان هذا لصالحى فيما كنت أظن) ، يتحدث الى طالب آخر ويلقى نظرات عارضــة ناحيتى . — كانت جماعة ايفن بجوارى يتحدثون بالفرنسية وخيل الى أن هؤلاء السادة كانوا على غباء مطلق ، فلم تكن كل كلمة ترامت الى من حديثهم لا معنى لها وحسب ، بل كانت خاطئة كذلك ، فهى ببساطة لم تكن لغة فرنسية بحال ، كما قلت فى سرى ، فى حين أن جماعة سمنوف والنكا وغيرهم ؛

---

(١) جبل فى وسط بلاد الاغريق كان مكرسا فى الزمن القديم للالهات التسع بنات زيوس ، ويستوحى منهن الشعر والموسيقى ، ويقصد أنه يجلس فى أعلى مكان (المترجم)

وأحاديثهم وسلوكهم كانت تبدو كلها خسيسة وليست شريفة الخصال ، أى « ليست كما ينبغى أن تكون » •

لم أتبع أية جماعة ، واستولى على الامتعاض لشعورى بالعزلة وعجزى عن تكوين أصدقاء • كان أحد الطلبة فى الصف الذى أمامى يقضم أظافره التى احمرت كل أذيناتها بسبب الالتهاب ؛ وقد أثارنى هذا فيما يخيل الى ، حتى لقد ابتعدت عنه ، وأذكر فى أعماق روحى أن هذا اليوم الأول كان يوماً محزناً جداً لنفسى •

أذكر حين دخل الأستاذ ، وحدث هرج عام ، ثم أعقبه صمت ، أننى ألقيت على الأستاذ نظرتى الناقدة للأشياء ؛ وقد دهشت اذ بدأ الأستاذ محاضرته بعبارة تمهيدية ليست فى رأيى ، ذات معنى • كنت أحب أن تكون المحاضرة منطوية على الفطنة من أولها الى آخرها ، بحيث لا يقتطع منها شىء ولا تضاف اليها كلمة واحدة • وما كنت غير مخدوع من هذه الناحية ، فقد خططت بسرعة ثمانية عشر وجهاً جانبياً متلاصقة فى دائرة على شكل صغيرة وضعتها تحت عنوان « المحاضرة الأولى » ، فى كراسة مذكرات مجلدة تجليداً جميلاً ، كنت قد أحضرتها معى ، وكنت أحرك يدى فقط عبر الورقة بين حين وآخر لكى يظن الأستاذ أننى أكتب (كنت واثقاً من أنه كان يوليّنى قسطاً وافراً من الالتفات) وما أن قررت فى هذه المحاضرة نفسها أنه ليس من الضرورى كتابة كل شىء يقوله الأستاذ ، بل

انه لمن الغباء عمل هذا ، حتى حافظت على هذه القاعدة طوال فترة الدراسة •

لم أشعر فى المحاضرات التالية شعوراً قوياً بعزلتى ، فقد كونت معارف كثيرين ، أحييهم باليد وأتحدث معهم ، ومع ذلك فلسبب أو لآخر لم تنشأ بينى وبين رفاقى ألفة حقيقية ، وكثيراً ماكنت أجد نفسى منقبضاً وأتصنع الابتهاج فقط • ولم أكن أستطيع الانضمام الى جماعة ايفن والأشراف ، كما كان يطلق عليهم ، لأننى أذكر الآن أننى كنت خشناً فظاً معهم ، ولا أنحنى لهم الا بعد أن ينحنوا الى ، وواضح أن حاجتهم الى معرفتى كانت ضئيلة جداً • ومع ذلك فان هذا الموقف بالنسبة للآخرين ، قد نشأ من سبب مختلف كل الاختلاف • وسرعان ماكنت أشعر بأن أحد الزملاء قد بدأ يميل الى بدرجة مشجعة حتى أجعله يفهم أننى أتناول الطعام بمنزل الأمير ايفان ايفانتش ، وأننى أملك دروشكى ، وكنت أقول كل هذا لأضع نفسى فى مكانة أكثر تشجيعاً ، ولكى يزداد زميلى حباً لى ، ولكن كان يحدث العكس تقريباً فى كل مرة ، وكان يحيرنى أن أرى زميلى يتصنع تحوى الفتور والتعالى حالما يسمع عن علاقتى بالأمير ايفان ايفانتش •

كان بيننا طالب تكفله الدولة على نفقتها ، هو أوبيروف ، الشاب المتواضع ، الحاذق المثقال الى أقصى حد ، والذى كان يقدم لكل شخص يده جامدة مثل لوح الخشب دون أن يثنى أصابعه ، أو يحدث

بها أية حركة ، ولذلك فإن المازحين من بين أقرانه كانوا يصافحونه باليد أحيانا بنفس الطريقة ، ويطلقون عليها « طريقة اللوح » في المصافحة . كنت أجلس باستمرار تقريبا بجانبه وكنا نتجاذب الحديث غالبا ، وكان أوبيروف يعجبني بنوع خاص لآرائه الحرة فيما يتصل بالأساتذة ؛ فهو يحدد بطريقة غاية في الوضوح والسداد مزايا تدريس كل أستاذ ونقائصه ، بل انه كان يسخر منهم في بعض الأحيان ، مما كان يترك في نفسي بنوع خاص أثرا غريبا مفزعا ، لصدوره من فمه البالغ الصغر ، وبصوته الهادىء . ومع ذلك فانه كان يسجل بعناية جميع المحاضرات دون استثناء بخطه الصغير .

وكنا قد بدأنا نصبح صديقين ، وقررنا المذاكرة سويا ، وأخذت عيناه تلتقتان الى بابتهاج عندما كنت أذهب لأحتل مكاني المعتاد الى جانبه ، ولكنني وجدت من الضروري أن أوضح له مرة في مجرى المحادثة أن أمي وهي على وشك الموت التمست من أبي ألا يلحقني بأي معهد من معاهد الدولة ، وأن جميع طلبة معاهد الدولة ، وان كانوا على جانب كبير من العلم الا أنهم ليسوا الناس اللائقين . وقلت متلعثما اذ شعرت بحمرة الخجل لسبب أو لآخر : « ليسوا كما ينبغي أن يكونوا » . ولم يقل لي أوبيروف شيئا ولكنه في المحاضرات التالية لم يحيني أولا ، ولم يصافحني بيده الصغيرة الشبيهة باللوح ، ولم يخاطبني . وعندما كنت أجلس في مكاني ، كان يحني رأسه حتى لتكاد تلمس كتبه ؛ ويتظاهر بالانشغال فيها . ودهشت لفتور

أوبيروف المفاجىء ، ولكنني اعتبرت أن ملاطفة شاب كريم المحتد لطالب تعوله الدولة شيء لا يليق ، فتركته في سلام ؛ بالرغم من أن فتوره كان يؤلمني ، ويجب أن أعترف بهذا . ووصلت مرة مبكرا عنه ، ولما كان الأستاذ المحاضر مشهورا ؛ فقد احتشد الطلبة الذين لم يتعودوا حضور محاضرات ، وتقاطروا الى هذه المحاضرة وشغلت كل المقاعد ، فجلست في مكان أوبيروف ، ووضعت كراسة مذكراتي على الدرج ثم خرجت . ولدى عودتي الى قاعة المحاضرات أدهشني أن كراسة مذكراتي قد نقلت الى المقعد الخلفي ، وجلس أوبيروف في مقعده ، فنبهته الى أنني كنت قد وضعت كتبي هناك .

فأجاب فجأة في غضب ، بل دون أن ينظر الى : « لا أعرف شيئا عن ذلك » .

وقلت في تعال : « أقول لك انني وضعت كتبي هناك » ثم أضفت وأنا أتطلع الى الطلبة من حولي : « الجميع رأوني وأنا أفعل هذا » . وبالرغم من أن كثيرين تطلعوا الى في فضول الا أن أحدا منهم لم يحر جوابا .

وقال أوبيروف وهو يستقر في مكانه غاضبا ، ويحدق في النظر حانقا : « ان المقاعد هنا ليست بالبطاقات ، ويحتلها الذين يأتون أولا » .

فقلت : « معنى ذلك أنك عديم التربية » .

وخيل الى أن أوبيروف غمغم بشيء ما ، بل خيل الى أنه قال متمتماً : « انك جرو غبي » ولكني لم أسمعه بالتأكيد . وماذا كان يفيدني اذا سمعته؟ هل كان ينبغي أن نتشاجر مثل اثنين من المتشردين (كنت مغرما جدا بكلمة متشرد ، وقد استخدمتها كاجابة وحل في كثير من الشئون المعقدة) ولربما أكون قلت شيئا أكثر من ذلك ، ولكن في تلك اللحظة صفق الباب ، ودخل الأستاذ الحجرة مرتديا سترته الرسمية وهو يحك الأرض بقدمه ، واجتازها الى مكتبه .

ومع ذلك فحين احتجت الى كراسات المذكرات قبل الامتحان تذكر أوبيروف وعده فمنحني كراساته ودعاني الى المذاكرة معه

(٩٢)

شئون القلب

استوعبت شئون القلب انتباهي شطرا كبيرا في غضون الشتاء . لقد أحببت ثلاث مرات ، مرة وقعت في حب حار مع سيدة موسرة كانت تركب الخيل بمدرسة فريتاج لركوب الخيل ، وكنت أذهب نتيجة لذلك الى المدرسة كل ثلاثاء وجمعة ـ وهما اليومان اللذان كانت تركب فيهما ـ لكي أتطلع اليها ، ولكني في كل مناسبة كنت

أخاف كثيرا أن تراني ، حتى أنني كنت أقف بعيدا عنها على الدوام ، ثم أهرب على الفور متغافلا اذا مارأيت احتمال قربها من البقعة التي أقف فيها ، وأتحول جانباً اذا ما نظرت ناحيتي ، حتى أنني لم أتأمل وجهها جيداً ، ولا أعرف حتى هذا اليوم اذا كانت جميلة حقيقة أم لا .

وفاجأني دوبكوف الذي كان يعرف هذه السيدة مرة في مدرسة ركوب الخيل مختبئا وراء الخدم وعباءات الفراء التي كانوا يحملونها ، وما أن عرف من دمتري عن هيامي حتى أفزعني باقتراح تقديمي الى هذه السيدة المسترجلة وأسرعت بالابتعاد ، وكانت فكرة حديثه اليها بشأني هي نفسها التي حالت دون اجترائي على دخول المدرسة مرة أخرى ، حتى الى مكان وقوف الخدم خشية أن أقابلها .

عندما كنت أقع في حب امرأة لا أعرفها ، وبخاصة المتزوجات منهن ، كان يكتنفني خجل أعنف ألف مرة من الخجل الذي كابدته في حالة سونتشكا ، وكنت أخاف أكثر من أي شيء آخر في العالم أن يكتشف هدف حبي هذا الخجل ، أو حتى مجرد وجودي ؟ وخيل الى أنها اذا فعلت ذلك مرة ، فانها ستشعر بالمهانة الى الحد الذي لا تستطيع معه أن تغفر لي . والواقع أن هذه المرأة المسترجلة لو عرفت بالتفصيل كيف فكرت حين اختلست النظر اليها من وراء الخدم ، في القبض عليها وحملها بعيداً الى الريف ، وكيف كنت سأعيش معها هناك ، وماذا كنت سأفعل ، لساغ لها أن تشعر بشدة

اهانتها ، ولكنني لا أستطيع أن أدرك بوضوح انها حتى اذا عرفتني بالفعل ، فسوف لا تعرف كل أفكاري عنها ، وأن ليس هناك شيء يشينني اذن لمجرد تعرفي بها .

ووقعت في حب سونتشكا مرة أخرى حين رأيتها مع أختي . وقد ذبل حبي الثاني لها منذ أمد طويل ، ولكني وقعت في حبها للمرة الثالثة عندما أعطتني ليوبتشكا مجلدا من الشعر كانت سونتشكا قد نسخته ، وكان يضم كثيراً من فقرات العشق الحزين من قصة « الشيطان » للرمنتوف ، موضوع تحتها خطوط بالحبر الأحمر ، وفيه أزهار وضعت لتشير اليها . وعندما تذكرت كيف قبل فولوديا كيس حبيبته الصغير في العام السابق ، حاولت أن أفعل مثله ، والواقع أنني حين أكون وحيداً بحجرتي في المساء ، كنت أهيم في هواجسي ، وأضم شفتي على الأزهار عندما أتفرس فيها ، وأشعر بعاطفة معينة ، دامعة سارة ، ويعاودني الحب مرة أخرى ، أو أتخيل على الأقل لعدة أيام أنني أحب .

وأخيراً وقعت في الحب لثالث مرة في ذلك الشتاء مع المرأة الصغيرة التي كان يحبها فولوديا ، والتي زارت بيتنا . وعندما أتذكر الآن تلك السيدة ، لا أجد فيها شيئا جميلا ولا شيء من ذلك الجمال المعين الذي يروقني عادة . كانت ابنة سيدة من موسكو واسعة الشهرة ؟ راجحة العقل ؟ متضلعة في العلم ؟ كانت صغيرة نحيلة ، ذات شعر أشقر أجعد طويل على الطراز الانجليزي ، وخد شفيف .

كان الجميع يقولون ان هذه السيدة الشابة أذكى من أمها وأكثر علما ، ولكن لا يسعني أن أصدر حكما في هذه النقطة أيا كان نوعه ، ولشعوري بنوع من الاستخذاء المتسلم عند تفكيري في ذكائها
علما ، ولكن لا يسعني أن أصدر حكما في هذه النقطة أيا كان نوعه ،
لا توصف . ولكن هيام فولوديا الذي لم يكبحه قط في التعبير عن طربه بوجود الآخرين ، قد انتقل الى بقوة شعرت معها بوقوعي في حب السيدة الصغيرة حباً جباراً ولما شعرت بأن أخبار ، أخوين كانا واقعين في حب سيدة صغيرة بعينها ، لن تكون مرضية لفولوديا ، لم أذكر له شيئا عن حبي . ومن ناحية أخرى حصلت على أقصى حد من الرضا ، عن طريق هذه العاطفة على أساس أن حبنا كان نقيا حتى أنه بالرغم من أن هدفه واحد وهو نفس الكائن الفاتن ، فينبغي أن نظل أصدقاء ، متأهبين لتضحية ذواتنا بعضنا لبعض اذا ماعرضت الضرورة . ومع ذلك ظهر أن فولوديا لم يشاطرني شعوري البتة فيما يتصل باستعداده للتضحية ، لأن حبه بلغ من العنف حداً جعله يعزم على أن يلطم ــ الرجل الذي قيل انه سيتزوجها ــ وهو دبلوماسي أصيل ــ على وجهه ويتحداه للمبارزة . كان مما يلذ لي كثيراً تضحية مشاعري ، ولربما كان السبب هو أن ذلك لا يكلفني جهداً ، ولذلك وجهت مرة واحدة فقط الى السيدة الصغيرة ملاحظة متسامية جدا في قيمة الموسيقى الكلاسيكية ، ورغم بذل كل جهدي للمحافظة على حبي حبا فقد انطفأت جذوته في الأسبوع التالي .

المجتمع

ان المباهج التقليدية التى كنت أحلم بأن أهب لها نفسى عندما أدخل الجامعة تقليداً لأخى الأكبر ، تركتنى فى غاية خيبة الأمل فى ذلك الشتاء . كان فولوديا يرقص كثيراً ، وكذلك كان بابا يذهب الى الحفلات الراقصة مع زوجته الصغيرة ، ولا بد أنهما كانا يعتبراننى أصغر من أن تلائمنى هذه المباهج ، ولم يقدمنى أحد الى تلك البيوت التى كانت تقام فيها الحفلات الراقصة . وبالرغم من وعدى لدمترى بالتزام الصراحة ، لم أتحدث الى أى شخص ، بل اليه هو نفسه عن رغبتى فى الذهاب الى حفلات الرقص ، وعن مدى ما كان يضايقنى من اغفالى ، واعتبارى على ما يظهر فيلسوفا ، وهو ما كنت أتظاهر به نتيجة لذلك .

ومع ذلك ، فان الأميرة كورناكوفا أقامت حفلة مسائية ، ودعتنا بنفسها جميعاً ، ودعتنى أنا من بين الباقين ، فكانت هذه أول حفلة راقصة أذهب اليها . وجاء فولوديا الى حجرتى قبل ذهابه ، يريد أن يرى هندامى . وقد أدهشنى منه وحيرنى كثيراً تصرفه هذا ، وخيل الى أن رغبته فى حسن هندامى تدعو الى الخجل ، وكان يجب أن يخفيها ، وهو من ناحية أخرى اعتبر هذه الرغبة طبيعية ولا مفر منها ، الى حد أنه قال بصراحة تامة انه كان يخشى

أن أسبب له خزياً ، وأمرنى أن أتأكد من انتقاء الحذاء ذى الجلد اللامع ، وفزع حين رآنى ألبس قفازاً من جلد الغزال (شاموا) ، ونظم لى وضع ساعتى بطريقة خاصة ، واصطحبنى الى محل حلاق فى « كوزنتسكي موست » حيث جعدوا لى شعرى ، وتراجع فولوديا الى الخلف وتأمل شعرى من مسافة بعيدة .

وقال للحلاق : « حسن ، على ما يرام ، ولكن ألا تستطيع فقط تسوية هذه الخصلات القليلة ؟ » .

ولكن بالرغم من تسوية السيد شارل كثيراً لهذه الخصلات الصغيرة بمادة صمغية ، فقد كانت تنفر وتعود كما كانت عندما أضع قبعتى ، بل كنت أبدو جملة بهذه التجعيدات أسوأ حالا مما كنت ! وكان عزائى الوحيد هو تظاهرى بالاهمال ، وذلك وحده يمكن أن يضفى على نوعاً من المظهر .

يبدو أن فولوديا كان يرى نفس الرأى ، لأنه رجانى أن أفك التجعيدات ، فلما فعلت ذلك ولم يتحسن منظره ، لم يتأملنى مرة أخرى وظل صامتاً مغموماً طوال الطريق الى منزل آل كورناكوف .

دخلت مسكن آل كورناكوف بشجاعة مع فولوديا ، ولكن عندما دعتنى الأميرة الى الرقص ، وقلت لسبب أو لآخر ، اننى سوف لا أرقص ، بالرغم من أننى جئت بفكرة وحيدة هى أن أرقص وقتاً طويلا جدا ، فقد اعترانى الخجل ، وتركت وحدى مع

أناس لا أعرفهم ، ترديت فى خجلى الكؤود المعتاد ، والمتزايد دائماً . وبقيت صامتاً فى تلك البقعة طوال المساء .

وجاءتنى احدى الأميرات فى رقصة « فالس » وسألتنى بالطريقة الودية التقليدية الشائعة فى أسرتها عن السبب فى احجامى عن الرقص ، وأذكر كم كان خجلى من هذا السؤال ، ولكنى أذكر أيضا كيف تملت وجهى فى نفس الوقت ابتسامة لا ارادية تنطوى على الرضاء الذاتى ، وأخذت أتكلم لغواً ، فى لغة فرنسية بالغة الفخامة مليئة بالعبارات الاعتراضية ، حتى لأشعر بالخجل حتى الآن كلما تذكرت هذا ، بالرغم من انقضاء عشرات السنين . ومن ثمة فلا بد أن تكون الموسيقى قد أثرت فى نفسى وأثارت أعصابى ، وكنت أؤمل أيضاً أن تخفى ما قلته من أشياء أقل وضوحاً . تكلمت عن المجتمع ، وعن غرور الناس وبخاصة النساء ، وأخيراً أوجدت نفسى فى ورطة معقدة حتى أننى عجزت عن اتمام عبارة فى منتصفها .

حتى الأميرة الدمثة الأخلاق أصابها الارتباك ونظرت الى نظرة لوم ، فابتسمت . وفى هذه اللحظة الحرجة جاء فولوديا الذى لاحظ أننى كنت أتكلم بحماسة ، ولعله أراد أن يعرف كيف فضلت الحديث عن الرقص ، فاقترب منا مع دوبكوف . وعندما رأى وجهى الباسم وسحنة الأميرة المذعورة ، وترامت الى سمعه مادة الحديث الذى أتناوله ، أحمر وجهه وعاد أدراجه . ونهضت الأميرة

وتركتنى ، ورحت ابتسم ولكن فى محنة من عذاب الضمير لغبائى ، حتى لقد تمنيت لو ابتلعتنى الأرض ، وشعرت أنه لا بد لى من القيام بحركة ما مهما كان الثمن ، وأقول شيئاً يحسن موقفى بعض الشىء . ذهبت الى دوبكوف وسألته عما اذا كان قد رقص « معها » رقصة الفالس عدة مرات ، وفعلت ذلك ممازحاً وفى مزاج طروب ، ولكنى فى الحقيقة كنت ألتمس فى ذلك عون دوبكوف نفسه الذى صحت به أثناء الغداء بمطعم « يار » قائلا : « أمسك لسانك !! » وتظاهر دوبكوف أنه لم يسمعنى واتنحى جانباً ، فاقتربت من فولوديا وقلت له بمشقة محاولا أن أضفى على صوتى لهجة مرحة : « حسن ، يا فولوديا !! ألم تتعب بعد ؟ » . ولكن فولوديا تطلع الى كأنه يقول : « انك لا تتحدث الى هكذا عندما نكون وحيدين » ثم سار مبتعداً فى صمت ، وواضح أنه كان يخشى أن أستمر فى ملازمته .

وقلت فى نفسى : « يا الهى !! حتى أخى أيضاً يتخلى عنى !! »

ومع ذلك ، فلسبب ما لم أعد أقوى على الانصراف ، فوقفت مكتئباً حيث كنت حتى آخر المساء ، وعندما أخذ الجميع يغادرون الحجرة واحتشدوا فى القاعة ، وأخذ الخادم يساعدنى فى ارتداء سترتى بطريقة جعلت قبعتى تميل ، وأضحك ضحكة مغمومة ، قلت دون توجيه عبارتى الى شخص معين : « ياله من جمال ! »

(٩٤)

مجالس الشرب

بالرغم من أن تأثير دمترى كان لا يزال يمنعنى من الاستسلام للهو الطلبة المألوف الذى يطلق عليه المنادمة ، فان ذلك الشتاء شهد مرة مشاركتى فى مثل هذا الترويح عن النفس ، وحملت منه انطباعا غير مقبول كل القبول . وهذا ما حدث :

ذات يوم فى مستهل العام ، وأثناء المحاضرة ، دعانا جميعا الى بيته البارون (ز) لقضاء سهرة جماعية معه . وهو شاب طويل أشقر يمتاز بملامح جادة للغاية وتقاسيم عادية . وكلمة جميعنا كانت تعنى بطبيعة الحال كل أعضاء فصلنا الذين كانوا الى حد كبير أو صغير ، كما ينبغى أن يكونوا ، ولا تشمل بالطبيعة ، جراب ، ولا سيمنوف ولا أوبروف ، ولا أى زميل من الزملاء العاديين . وضحك فولوديا بازدراء عندما سمع أنى ذاهب الى وليمة طلبة السنة الأولى ، ولكنى توقعت منها مسرة كبرى جديدة بالاعتبار ، فهى بالنسبة الى وسيلة جديدة تماما لتزجية الوقت ، فبلغت بيت البارون (ز) فى موعدى ، فى الثامنة وهى الساعة الموضحة .

واستقبل البارون (ز) ضيوفه وهو فى صدريته البيضاء وسترته المفكوكة الأزرار بالقاعة الباهرة الضوء وحجرة الاستقبال ، فى

بيت صغير يسكنه والداه ؛ وقد سمحا له باستخدام حجرات الاستقبال لتلك الوليمة المسائية . وكانت تظهر فى الدهليز رءوس الخادمات الفضوليات وثيابهن ، وفى مخزن المؤن ثوب سيدة خطر بذهنى أنها البارونة .

كان عدد الضيوف عشرين ، وكانوا جميعاً من الطلبة فيما عدا هر فروست الذى جاء مع ايفن ، وسيد طويل القامة أحمر الوجه يرتدى الملابس المدنية ، حضر الوليمة وكان الجميع يعرفونه بوصفه أحد أقارب البارون ، وطالب سابق بجامعة دوربات . وأحدثت الأنوار الباهرة الضوء ، والزينة التقليدية المعتادة بحجرات الاستقبال فى أول الأمر أثراً غير مشجع فى هذه الجماعة من الشباب التى أحتشد أعضاؤها قسراً عند الجدران ، باستثناء قليلين من ذوى الجرأة وطالب جامعة دوربات السابق الذى كان يبدو بصدريته المفكوكة الأزرار كأنه فى كل حجرة ، وفى كل ركن من كل حجرة ، فى نفس الوقت ، ويملأ كل المسكن بضوضاء صوته الصداح الفكه المجلجل الذى لا يصمت . ولكن الزملاء اما بقوا صامتين ، واما مكثوا يتحدثون فى حياء فيما يتصل بالأساتذة والعلوم والامتحانات ، والموضوعات الجدية الهامة بوجه عام . وكان الجميع يتطلعون الى باب حجرة العشاء دون استثناء ، وقد اتسموا جميعاً بطابع لا ارادى يقول : « حان وقت البدء ! » وشعرت أنا أيضاً أن وقت البدء قد حان ، وانتظرت « البداية » فرحاً نافد الصبر .

وبعد أن دار الخادم بالشاى على الضيوف ، قال طالب جامعة دوربات لفروست باللغة الروسية :

« هل تعرف كيف تصنع البنش (١) يا فروست ؟ » .

وأجاب فروست وهو يهز ساقيه : « آوه ، بالتأكيد ! » ولكن طالب دوربات عاد فوجه اليه الحديث بالروسية قائلا :

« واذن ، فعليك به » (وقد خاطبه بضمير المفرد كأنه طالب من زملائه بجامعة دوربات) وبدأ فروست يذهب من حجرة الاستقبال الى حجرة العشاء ثم يعود ، بخطوات واسعة ، بساقيه المعوجتين المضلعتين ، وبعد قليل من الذهاب والاياب وضع على المائدة سلطانية حساء ضخمة بها قمع من السكر يزن عشرة أرطال تسنده ثلاثة من خناجر الطلبة موضوعة متصالبة . وفى نفس الوقت لم يكف البارون (ز) عن التقرب الى ضيوفه الذين تجمعوا فى حجرة الاستقبال ، ويقول للجميع وعلى وجهه سمات الجد الجامدة ، وبنفس الكلمات : « هيا يا سادة ، فلنشرب كالرفاق الطيبين الأوفياء ، على طريقة الطلبة ، فمن العار ألا تسود الصداقة دائماً بين أعضاء قسمنا .. فكوا أزرار صدرياتكم اذا سمحتم ، أو اخلعوها — كالآخرين » والواقع أن طالب دوربات اشعل النار فى شراب « الروم » بسلطانية

(١) مشروب يصنع عادة من خليط النبيذ وماء الساخن أو الليمون والسكر والتوابل وغيرها .
(المترجم)

الحساء بعد أن خلع سترته وطوى كمى قميصه الأبيض ورمح قدميه متباعدتين فى اصرار .

وصاح طالب دوربات فجأة بصوت مرح مرتفع كأننا نحن الذين صحنا مجتمعين ! « أطفئوا الأنوار يا سادة » ونظرنا جميعاً فى صمت الى سلطانية الحساء والى قميص طالب دوربات الأبيض وشعرنا جميعاً أن اللحظة المهيبة قد حانت .

وصاح طالب دوربات ثانية ، وكان واضحاً أنه شعر بالحرارة نعوداً تحدياً . وشرع فروست وبعضنا فى اطفاء الشموع . ساد الظلام الحجرة ، ولم يعد هنالك غير الأكمام والأيدى البيضاء التى ترفع قمع السكر على الخناجر ، وحدها ، التى يضيئها اللهب الضارب الى الزرقة ولم يعد صوت طالب دوربات وحده هو الصداح لأن الحديث والضحك تراميا من كل ركن بالحجرة . وخلع كثيرون ستراتهم (وبخاصة أولئك الذين كانوا يرتدون قمصاناً فاخرة بالغة النظافة) وفعلت نفس الشيء وفهمت أنه قد « بدأ » ومع أنه لم يحدث شيء مطرب حتى الساعة ، فقد كنت مقتنعاً تماماً ، بأن شرب كأس من الشراب الذى تم اعداده سيكون شيئاً عظيماً .

لقد أعد المزيج ، وصب طالب دوربات «البنش» فى الأكواب ، وانسكب قدر كبير منه على المائدة أثناء العمل فصاح : « والآن هيا تعالوا أيها السادة ! » وكنا فى كل مرة نتناول كوباً مليئاً لزجاً يستهلها كل من طالب دوربات وفروست بأغنية ألمانية ، كان يتكرر

فيها كثيراً الهتاف بكلمة « جوتشي » (١) . واشتركنا فيه بنغمات غير متساوقة ، وأخذنا نخشخش بأكوابنا ، أو نصيح بشيء ما ، أو نمتدح « البنش » ، أو نحتسي الشراب الحلو القوي ، وكل يحز بذراعه ذراع الآخر ، أو نقتصر على مجرد الوقوف . ولم يعد هناك شيء ينتظره أحد ، ومجلس الشراب في ابان المعمعة ، وقد احتسبت كوباً مليئاً من البنش ، وملأوا لي آخر ، وأخذ صدغاي يختلجان ، وبدت النار حمراء قرمزية ، كل واحد من حولي يصيح ويضحك ، ولكن شيئاً ما لم يبد لي مبهجاً وحسب ، بل كنت مقتنعاً بأنني أنا نفسي ، وكل شخص غيري يشعر بالضجر ، ولكننا جميعاً اعتبرنا من الضروري لسبب أو لآخر أن نتظاهر بأنه مجلس مبهج للغاية ؛ والشخص الوحيد الذي لم ينافق هو طالب دوربات ، ظل وجهه يزداد احمراراً ، وكثر كلامه وكان يملأ كل كأس فارغة ، ويريق أكثر وأكثر على المائدة التي أصبحت محلاة لزجة . ولا يحضرني على أي نظام جرت الأمور ، ولكن أذكر أنني أغرمت كثيراً بفروست وطالب دوربات في تلك الأمسية ، حتى أنني حفظت أغنية ألمانية عن ظهر قلب ، وقبلت كلا منهما على شفتيه الحلوتين ، وأذكر أيضاً أنني كرهت طالب دوربات في نفس ذلك المساء ، وأردت أن أقذف عليه مقعداً ، ولكني أمسكت عن هذا ؛ ويحضرني بالاضافة

---

(١) كلمة ألمانية تدل عن المزاج — المترجم

الى الشعور بتمرد جميع أطراف الذي عانيته في مطعم « البار » ؛ فإن رأسي أصيب بصداع ودوار حتى لقد خفت في ذلك المساء خوفاً شديداً أن أموت للحظتي ، وأذكر أيضاً أننا جلسنا جميعاً على الأرض لسبب أو لآخر ، ولوحنا بأذرعنا مقلدين المجاذيف ، وأنشدنا أغنية « انزلوا الى أمنا الفلجا » وانني كنت في نفس الوقت أفكر في عدم ضرورة عمل ذلك ؛ وأبعد من هذا أذكر أنني عندما كنت راقداً على الأرض كانت احدى ساقي مشبوكة في الأخرى ؛ وأخذنا دوراً في المصارعة على طريقة الغجر ، وتسببت في تشنج عضلة بعنق شخص ما ، وقلت في نفسي ان هذا لم يكن ليحدث لو لم نكن سكارى ، وأذكر كذلك أننا تناولنا طعام العشاء وشربنا شيئاً آخر ، وأنني خرجت الى الفناء لأروح عن نفسي ، وشعرت بالبرد في رأسي ، وأنني لاحظت عندما انصرفت أن الظلام دامس ، وأن طريق الدروشكي أصبح منحدراً زلقاً ، وكان من المتعذر الابقاء على كوزما لأنه أصبح واهناً يهتز كالخرقة . ولكني أذكر بنوع خاص أنني خلال المساء كنت أشعر باستمرار أنني كنت أتصرف بغباء كبير لتظاهري بالفرح الشديد ، وبأنني أحب الشرب بوفرة . ولم أفكر في أنني ثمل . وكنت أشعر طوال الوقت أن الجميع كانوا يتصرفون تصرفاً فيه حمق كبير بتظاهرهم كذلك . وخيل الى ان هذا لم يكن من اللائق لكل فرد على حده ، وكذلك بالنسبة لشخصي ؛ ولكن لما كان كل منا قد افترض أنه هو وحده الذي قاسى من هذا الشعور غير السار ، فقد شعرت أنه ينبغي أن

أستمر في هذا الادعاء ، لا لشيء الا لأن ثلاث زجاجات من الشمبانيا ثمن الواحدة عشرة روبلات ، وعشر زجاجات من الروم بأربعة روبلات لكل منها قد أفرغت في سلطانية الحساء فبلغت جملتها سبعين روبل ، وهذا الى العشاء . كنت مقتنعاً تماما بكل هذا ، حتى أنني دهشت كثيراً في اليوم التالي أثناء المحاضرة من أن زملائي الذين كانوا عند البارون (ز) ، لم يقتصروا على عدم الخجل من ذكر انهم كانوا هناك ، بل تحدثوا عن الوليمة حتى يسمع الطلبة الآخرون . قالوا انه كان مجلس شراب فاخر ، وأن طلبة دوربات كانت لهم اليد الطولى في هذه الأشياء ، وأن عشرين رجلا شربوا أربعين زجاجة من الروم فيما بينهم ، وأن كثيرين قد تركوا كالأموات تحت الموائد . ولا أستطيع أن أفهم لماذا تحدثوا عن ذلك ، بل انهم كذبوا في الحديث عنهم .

« ٩٥ »

صداقتي مع آل نخليودوف

رأيت الكثير في غضون الشتاء لا من دمتري وحده الذي كان يتردد كثيراً جداً على بيتنا ، ولكن من جميع أسرته التي بدأت أعقد معهم أواصر الصداقة .

كان آل نخليودوف ـ الأم والعمة والابنة يقضين الأمسيات دائما في منزلهن ، وكانت الأميرة تحب أن يأتي الشباب لزيارتها في المساء ، رجال من النوع الذي وصفته بأنه قادر على قضاء المساء بدون لعب الورق أو الرقص . ولكن لابد أن يكون أمثال هؤلاء الرجال قليلين لأنني ندر ماكنت أقابل أي زائرين هناك مع أنني كنت أزورهم كل مساء تقريبا . وقد ألفت أعضاء هذه الأسرة وطباعهم وكونت فكرة واضحة عن علاقاتهم المتبادلة ، وألفت حجراتهم وأثاثهم . وعندما لا يكون هناك ضيوف ، كنت أشعر بغاية الراحة فيما عدا المناسبات التي أترك فيها الحجرة وحدي مع فارنكا . لم أكن أستطيع التخلص من التفكير في أنها مادامت فتاة ليست وافرة الجمال فانها ستكون سعيدة لو أنني وقعت في حبها ، ولكن حتى هذه المضايقة بدأت تتبدد ، فقد كان في مظهرها الطبيعي الذي ينطوي على عدم الاهتمام اذا ماتحدثت الى أو الى أخيها أو ليوبوف سرجيفنا ماجعلني أنظر اليها على أنها ليست شخصا مهما أو خطيراً وأظهر السرور الذي أحظى به في الاجتماع بها . وطوال فترة معرفتي به كانت تبدو لي أحيانا فتاة قبيحة جداً ثم مرة أخرى ليست بالغة القبح ، ولكني لم أسأل نفسي مرة واحدة مطلقاً فيما يتصل بها ، هل وقعت في حبها أم لا ؟ ، كان يتصادف أحيانا أن أتحدث اليها مباشرة ، ولكني كثيرا ماكنت أوجه ملاحظاتي أثناء وجودها الى ليوبوف سرجيفنا أو الى دمتري ، ووجدت في هذه الوسيلة الأخيرة لذة معينة . وكنت أشعر برضاء كبير في التحدث أمامها والاستماع الى غنائها والاحساس

بوجه عام بوجودها في الحجرة التي أكون فيهـا ، ولكن التفكير فيما ستصير اليه علاقاتي مع فارنكا آخر الأمر، وأحلامي بشأن تضحية نفسي في سبيل صديقي فيما اذا وقع في حب أختي ، فقلما كان آنئذ يجول بخاطري . واذا حـدث أن خطر لي شيء من هذه الأفكار والأحلام ، فانني كنت أدفع عني أي تفكير في المستقبل مادمت راضيا عن الحاضر .

ومع ذلك فبالرغم من هذه الصداقة ظللت أشعر بأن واجبي الحتمي هو أن أخفي عن مجتمع نخليودوف كليـة ، وعن فارنكا بخاصة عواطفي وميولي الحقيقية ، وأحاول دائما أن أبدو مختلفا كل الاختلاف عن حقيقتي ، وفي صورة لم يكن من المحتمل في الواقع أن أكون عليها . لقد تصنعت أن أكون روحانيا ، وأن أفرط في الطرب واظهار العجب ، والمزاح عندما يستحقني الفرح لأي شيء ، وأحاول في نفس الوقت اظهار عدم الاهتمام لكل حدث غير عادي أراه أو يقال لي عنه . وحاولت أن أبدو مزدريا حقودا لا يحافظ على قدسية شيء ، وهو حاد الملاحظة في نفس الوقت ، وحـاولت أن أكون منطقيا في جميع أعمالي ، مهذبا مدققا في حياتي ، وفي نفس الوقت شخصا يزدري كل الأشياء المادية وأستطيع القول آمنا أنني كنت في حقيقتي أفضل كثيرا من الكائن العجيب الذي اصطنعته ، ولكني مع تعبيري عن نفسي على هذا الوجه ، أحبني آل نخليودوف ، وكانت النتيجة لحسن الحظ أنهم لم يصدقوا نفاقي ، ولكن ليوبوف سرجيفنا ،

التي كانت تعتبرني أنانيا كبيرا وملحدا وساخرا ، كانت هي وحدها فيما يظهر التي لم تحبني ، وكثيرا ما كانت تتشـاجر معي وتثور ثائرتها ، وتحيرني بألفاظها الخارجة عن الموضوع والمفككة . ولكن دمتري ظل محافظا معها على العلاقات الغريبة التي تزيد على علاقات الصداقة ، وقال ان أحدا لم يفهمها وأنهـا قدمت له خيرا كثيرا ، واستمرت صداقته معها تسبب الغم لأسرته .

كانت فارنكا مرة تناقش معي هذه العلاقة التي لا يفهمها الجميع فسرتها لي على هذا الوجه : « دمتري شخص أناني ، وهو متكبر جدا ، وبالرغم من كل مهارته فهو مغـرم جدا بأن يكون موضع المديح والاعجاب ــ يجب أن يكون الأول دائما ــ وتجد « عمتي » نفسها ببراءة روحها معجبة به ، ولا تملك الحصافة الكافية لاخفاء هذا الاعجاب عنه ، وهكذا تطريه ــ لا نفاقا ، ولكن بخلوص نية . »

تذكرت هذا الحكم ، وعند فحصه فيما بعد لم يسعني الا أن أظن فارنكا كانت ماهرة جدا فأطريتها نتيجة لذلك عن اقتناع برأيي الشخصي ، وكان هذا النوع من الاطراء ناجما عما كشفته فيها من ذكاء ومن صفات أخلاقية أخرى ، وقمت بهذا الاطراء باعتدال شديد وان كان عن اقتناع ، ولم أبلغ الى أقصى حد من الاغراق في ذلك الاطراء . ومن ثمة ، فعندما أخبرتني صوفيا ايفانوفنا التي لم تتعب أبدا من الكلام عن ابنة أخيها ، كيف أن فارنكا أعطت حين كانت طفلة في الريف منذ أربع سنوات ، جميع ملابسها وأحذيتها لأطفال

الفلاحين دون اذن فكان لابد من استرجاعها فيما بعد ، ولم أستطع اقناعي بأن هذا العمل يستحق الاطراء في رأيي ؛ بل انه يستوجب السخرية من الناحية العقلية ، من هذه النظرة تهيم العملية الى الأمور .

عندما يكون لدى آل تخليودوف ضيوف آخرون ، ومن بين الآخرين فولوديا ودوبكوف ، أنسحب بعيدا عن الأنظار راضيا عن نفسي ، وبشعور معين هادئ بالقوة ، كشعور أحد أفراد الأسرة ، لا أتحدث ، بل أكتفي بالاصغاء الى ماكان يقوله الآخرون . وكان يخيل الى أن كل ماكان يقوله الآخرون ينطوى على غباء لا يمكن تصديقه حتى لقد كنت أتساءل كيف أن امرأة في مثل ذكاء الأميرة ومنطقها ، وكذلك كل أسرتها العاقلة يمكن أن يصغوا الى مثل هذه التفاهة ويجيبوا عليها . ولو حدث أن قارنت آنذ ماقاله الآخرون بما قلته أنا حين كنت وحيداً لما شعرت بالتأكيد بأقل دهشة ؛ كان لابد أن أشعر بدهشة أقل لو أنني آمنت بأن أعضاء أسرتي ـ أفدوتيا فاسيليفنا ، وليوبتشكا وكاتنكا ـ كن كغيرهن من النساء الأخريات جميعا ، ولسن أسوأ من غيرهن ، ولو كنت قد تذكرت أن دوبكوف وكاتنكا وأفدوتيا فاسيليفنا كانوا يتحدثون معاً أمسيات برمتها ، ويضحكون في حبور ، وأن هذا كان يحدث في كل مناسبة تقريبا ، فيقبض دوبكوف على أول كلمة مناسبة كتكأة ، وينشد بحماس أشعار : «ضيف تعس على مائدة الحياة» أو مقتبسات من «الشيطان» .

كم كان هراء ذلك الذى كانوا يتحدثون فيه اجمالا !! وبأى قدر من اللذة ولمدة ساعات دون انقطاع كانوا يتحدثون !!

عندما يكون هناك زائرون ، فان فارنكا بطبيعة الحال كانت توليني اهتماما أقل مما لو كنا وحيدين ؛ وآنئذ لا تكون هناك موسيقى ولا قراءة ؛ وكنت مغرماً جدا بالاستماع اليهما . وكانت أثناء حديثها مع الزائرين تفقد الشيء الذى كان في نظرى قيمتها الأساسية ـ حصافتها الهادئة وبساطتها . وأذكر كم كان حديثها مع أخي فولوديا عن المسرح والطقس مفاجأة غريبة لى . كنت أعرف أن فولوديا كان يتجنب الأماكن العامة وينفر منها أكثر من أى شيء آخر في العالم ! وكانت فارنكا كذلك تسخر دائما من المناقشات المبتذلة المصطنعة عن الطقس وما اليه ، فلماذا اذن حين يجتمعان سويا ينطقان على الدوام بما لا يمكن احتماله من سخافات ، وأنهما يكونان أيضا كأن أحدهما يخجل من الآخر ؟ وكنت أثور على فارنكا في الخفاء عقب كل حديث وأهزأ بالزائرين في اليوم التالى ، ولكنني كنت أجد سروراً عظيما في بقائي وحدى في دائرة أسرة نخليودوف .

ومهما كانت الأحوال ، فقد بدأت أظفر بلذة في وجودى مع دمترى في حجرة الاستقبال مع أمه أكثر من وجودى معه وجها لوجه .

(٩٦)

صداقتي مع نخيلودوف

كانت صداقتي لدمتري حتى هذا الوقت معلقة على شعرة ، وكنت أنتقده منذ وقت طويل لعدم كشفه عن سقطاته ، وكنا في شبابنا الأول نحب بالعاطفة فقط ، ولذلك كنا نحب أناساً كاملين وحسب ، ولكن حالما يأخذ ضباب العاطفة في الذوبان ، فتنفذ فيه بالضرورة أشعة التمييز العقلي الصافية ، وتميط اللثام عن هدف عاطفتنا على وجهه الحقيقي ، بما فيه من استحقاق وقصور ، فان القصور وحده هو الذي يلفت نظرنا بوصفه شيئاً غير متوقع ، وفي صورة جلية مبالغ فيها ، والشعور بالجاذبية نحو الجدة والأمل في وجودها غير مستحيل تماما في رجل آخر يشجعنا لا على الفتور وحسب ، ولكن على النفور من الهدف السابق لعاطفتنا ، فنهجره دون ندم ونسرع قدما للبحث عن كمال جديد ، فان كان لم يحدث لي هذا بالضبط في علاقتي مع دمتري ، فالسبب فقط هو أنني كنت مرتبطا به بانعطاف عقلي عنيد متحذلق أكثر منه انعطافا قلبيا ، الأمر الذي كنت أخجل من خرقه ؟ وفوق هذا كانت تربطنا قاعدة الصراحة الغريبة ، وكنا نخشى كثيرا جدا اذا ما افترقنا فان كلا منا سيترك تحت سلطان الآخر كل الأسرار الخاصة التي أسرها كل منا الى الآخر ، والتي يخجل منها كل منا ، هذا بالاضافة الى أننا منذ وقت طويل لم نطبق

قاعدتنا في الصراحة كما كانت واضحة أمامنا ، وقد أربكنا ذلك وأوجد بيننا علاقات غريبة ،

كنت في كل مرة تقريبا أذهب فيها الى دمتري في ذلك الشتاء ، أجد معه زميله الجامعي ، وهو طالب اسمه بيزوبيدوف الذي كان يذاكر معه ، كان بيزوبيدوف صغيرا نحيلا ، به آثار مرض الجدري ، يداه صغيرتان جدا يكسوهما النمش ، وكتلة كبيرة من الشعر الأحمر المشعث ، وكان دائما مهلهل الملابس قذرا ، غير مهذب بل لا يحسن المذاكرة ، وكانت علاقات دمتري به مثل علاقاته بليوبوف سرجيفنا ، غير واضحة في ذهني ، والسبب الوحيد الذي من أجله اختاره من جميع زملائه فأصبح صديقه الحميم هو عدم وجود طالب في كل الجامعة أقبح من بيزوبيدوف مظهراً ؟ ولابد أن يكون ذلك السبب على وجه التحديد هو الذي وجده دمتري ملائما لاظهار صداقته له متحديا الجميع ، وكان الشعور بالتعالي يظهر في كل علاقته بهذا الطالب — « لا يهم من تكون ، فهذا سواء عندي ، فان أحببته فهو الشخص الملائم » ،

ومن المدهش أنه لم يجد صعوبة في أن يضغط على نفسه باستمرار ، وأن يحتمل بيزوبيدوف التعس موقفه الثقيل ، ولم تعجبني هذه الصداقة البتة ،

ذهبت مرة لقضاء أمسية مع دمتري في حجرة استقبال أمه في الحديث والاستماع الى غناء فارنكا أو قراءتها ، ولكن بيزوبيدوف كان

جالساً في الطابق العلوى • وأجـابني دمترى في لهجة عنيفة أنه
لا يستطيع النزول لأن لديه زميلا كما أستطيع رؤية ذلك بنفسي •

ثم أضاف قائلا : « وزيادة على ذلك ، فماذا يوجد في الجلوس
هنالك من لهو ؟ فالبقاء هنا والثرثرة أفضل كثيراً » وبالرغم من أن
فكرة الجلوس والتحدث مع بيزوبيدوف لمدة ساعتين لم ترقني ، فاني
لم أستطع أن أحمل نفسي على دخول حجـرة الاستقبال وحدى ،
وتكدرت لغرابة أطوار صديقي فجلست على كرسي هزاز وأخذت
أتأرجح في صمت • لقـد أثارني دمترى وبيزوبيدوف كثيرا جدا
لأنهما حرماني لذة الذهاب الى الطابق السـفلى • واستمعت منفعلا
في صمت الى حديثهـما منتظراً انصراف بيزوبيدوف • وقلت في
نفسي : « انه ضيف ممتع جدا يلذ الجلوس معه » وذلك حين أحضر
الخادم الشاي ، وكان على دمترى أن يرجو بيزوبيدوف خمس مرات
على الأقل ليتناول كوباً ، لأن الضيف الخجول اعتبر نفسه مضطرا
الى رفضه أولا ، والى أن يقول : « أرجوك لا تهتم بي » وبذل دمترى
مجهودا واضحاً فشغل زائره بمناقشة ، وبذل عدة محاولات فاشلة
ليجرني اليها ولكني التزمت صمتا مقبضا •

وقلت في عقلي لديمترى بينما كنت أتأرجح في رتابة وصمت
في مقعدي : « لماذا تحاول ، فتتظاهر بسمات من لا يتجاسر على التفكير
بأنه متضايق ؟ » وأحسست لهيب البغضاء الكامنة في دخيلة نفسي أكثر
فأكثر نحو صديقي ، وقلت في نفسي : « ياله من أبله !! كان يمكن

أن يقضي أمسية مرحة مع أقاربه الأعزاء ، ومع ذلك يجلس هنا مع
هذا الحيوان ، وسيبقى كذلك الى أن يتأخر الوقت كثيرا فلا يسمح
بالنزول الى حجرة الاستقبال » ثم ألقيت نظرة على صديقي من وراء
ظهر مقعدي ، فخيل الى أن يديه وهيئته ورقبته وبخـاصة قفاه ،
وركبتيه ، كريهة مقبضة الى حد أنني لو فعلت به شيئا حتى لو كان
مؤذيا له الى أقصى حد لشعرت في تلك اللحظة بسرور عظيم •

وأخيرا نهض بيزوبيدوف ، ولكن دمترى لم يستطع أن يفترق
بسرعة عن ضيفه المبهج وطلب منه قضاء الليلة معه ، ولكن لحسن
الحظ أن بيزوبيدوف لم يوافقه وانصرف •

وعاد دمترى بعد أن ودعه ، وهو يبتسم باشراق في هيئة المعجب
بنفسه ، ويفرك يديه ؟ ولعل ذلك يرجع الى اصراره على غرضه ،
ولأنه استطاع أخـيراً التخلص من ضيق • وأخذ يذرع الحجرة
ويرمقني بنظراته الفينة بعد الفينة • كان لايزال بغيضا على نفسي :
وقلت في سرى : « كيف يستطيع أن يستمر في المشي وتقطيب الوجه
على هذه الصورة ؟ » •

وقال لي فجأة وقد وقف أمامي : « لماذا أنت غاضب ؟ »

فأجبت الاجابة الوحيدة التي يلجأ اليهـا المرء في مثل هذه
المناسبات : « لست غاضبا أقل الغضب ، انني متضايق وحسب ، لأنك
نحوه على وعلى بيزوبيدوف وعلى نفسك » •

يالقهراء !! انني لا أموه على أحد مطلقا » •

انني لم أنس قاعدة الصراحة ، وأقول لك دون مواربة ، انني مقتنع أن ذلك اليزوبيدوف لا يطاق بالنسبة اليك وكذلك بالنسبة الى ، لأنه غبي ، والله يعلم ماذا غير ذلك ؟ ولكنك تريد أن تبدو في عينه عظيما » •

« ليس هذا بصحيح ؟ بالاضافة الى أن بيزوبيدوف رجل لطيف جدا ، ولنبدأ بـــ » •

« ولكني أقول لك ، انه لكذلك ؟ بل أذهب الى أبعد من ذلك فأقول لك ان صداقتك مع ليوبوف سرجيفنا قائمة كذلك على أنها تظنك الها » •

« وأنا أقول لك انه ليس كذلك » •

فأجبت في حرارة الكدر المكبوت رغبة في تجريده من سلاحه بصراحتي : « وأنا أقول لك انه هذا ، لأنني أعـــرفه من تجربتي الخاصة •لقد قلت لك ، وأكرره انه يبدو لي دائما أنني أحب الناس الذين يذكرون لي أشياء طيبة ، ثم عندما أختبر الأمر بدقة ، أرى أنه ليس هناك ود حقيقي » •

وراح دمترى يصلح من ربطة عنقه في حركة غاضبة : « لا ، فأنا عندما أحب ، لا يستطيع مدح ولا تأنيب تغيير مشاعري » •

« هذا ليس صحيحا ، وقد اعترفت لك أنني كرهت بابا بزهة وتمنيت له الموت حين وصفني بأنني لا أصلح لشيء ، تماما كما ــ »

« تكلم عن نفسك ، فانك لو كنت مع مزيد الأسف مثل ـــ »

وصحت وأنا أقفز من مقعدي وأحـــدق في عينيه بشجاعة اليائس : « على العكس ، ان ماتقوله ليس كريماً ! ألم تحدثني الا عن أخي ؟ لن أذكرك بما قلت لأنه لا يشرفك ! ألم تتحدث الى ــ سأقول لك كيف أفهمك الآن ـــ »

ولرغبتي في ايلامه حتى بأقوى مما آلمني ، بدأت أثبت له أنه لم يحب أحداً ، وأذكر له كل شيء خيل الى أنه يعطيني الحق في تأنيبه • وشعرت بسرور كبير جدا لذكر كل شيء له ، متناسياً تماما أن الغرض الوحيد المحتمل لما قلته ، والذي جعله يعترف بقصوره الذي اتهمته به ، لا يمكن بلوغه في اللحظة الراهنة عندما يكون منفعلا ، ولكني لم أقل له هذا مطلقا وهو رابط الجأش ويستطيع أن يعقله •

وأنذرنا النقاش بالتطور الى مشاحنة عندما صمت دمترى فجأة وذهب الى الحجرة الأخرى ؟ وكنت على وشك أن أتبعه للتحدث طوال الوقت ، ولكنه لم يجبني • وعرفت أن هذا الانفعال العنيف كان في قائمة نقائصه ، وأنه كان يحاول أشد التغلب عليه • ولعنت كل أفكاري •

كانت هذه هى نتيجة قاعدتنا (أن يقول كل منا لصاحبه كل شئ يفكر فيه ، ولا يقول مطلقا أى شئ عن صاحبه لأى شخص ثالث) . وقد جرفتنا الصراحة فى بعض الأحيان الى أوقح الاعترافات ! فكان من المخجل أن كشفنا عن أحلام وأمنيات غامضة كأنها رغبات وعواطف محددة ، تماما كما أوضحت له على سبيل المثال . ولم تقتصر هذه الاعترافات على عدم احكام الرباط الذى وحد بيننا ، بل انها جمدت شعورنا نفسه وفرقت بيننا . والآن ، لم نسمح له الآن بأى تسليم . وفى حرارة نقاشنا استخدمنا نفس الأسلحة التى تزود بها أحدنا الآخر من قبل ، والتى كانت ضربات مؤلمة أفظع الألم .

(٩٧)

زوجة الأب

بالرغم من أن بابا لم يقصد الحضور الى موسكو مع زوجته الا بعد العام الجديد ، فانه وصل مع الكلاب فى أكتوبر ، فى موسم الصيد الخريفى الممتاز . وقال بابا انه غير فكرته لأن قضيته ستعرض على مجلس الشيوخ ، ولكن ميمى قالت لنا ان أفدوتيا فاسيليفنا قد ضاق صدرها بالريف ، وأنها كثيرا ما كانت تتحدث عن موسكو ، وتتمارض ، حتى أن بابا صمم على الاستجابة الى رغباتها — وقالت ميمى وهى تشير وتفكر تفكيراً عميقا ، كأنها تريد أن تقول : « انها لم تحبه مطلقاً ، ولكنها عكفت على ترديد الحب على آذان كل شخص ، لأنها كانت تريد الزواج من رجل غنى ، وتصور ماذا كانت تفعل له « واحدة معينة » لو أنه فقط عرف كيف يقدرها حق قدرها » .

ومع ذلك فان هذه « الواحدة المعينة » لم تنصف أفدوتيا فاسيليفنا . فان حبها لبابا — وهو حب حار غيور — وتضحيتها لذاتها كانا ظاهرين فى كل كلمة وكل نظرة وكل حركة . ولكن هذا الحب لم يمنعها على الأقل ، بالاضافة الى رغبتها فى عدم ترك زوجها ، من التعلق برغبتها فى شراء قبعة فاخرة تصنعها « مدام أنيت » صانعة القبعات ؟ بها ريش نعام عجيب أزرق ، وفى ثياب من قطيفة البندقية الزرقاء ، التى تكشف فى ذوق فنى عن ذراعيها وصدرها البيض الناعمة التى لم تكشف من قبل لشخص ما غير زوجها ووصيفات ثيابها . وانحازت كاتنكا بطبيعة الحال الى صف والدتها ، فى حين توطدت علاقات غريبة مازحة بيننا وبين زوجة والدنا منذ اليوم الأول لوصولنا . وحالما هبطت من العربة ، تقدم فولوديا يعسرف بقدميه ، ويميل الى خلف والى أمام ليقبل يدها ، بوجه وقور ونظرة مكتئبة متبلدة ، ثم قال كمن يقدم لها شخصاً ما :

« لى الشرف أن أقدم لك تهانى بوصول أم عزيزة وأن أقبل يدها » .

وقالت أفدوتيا فاسيليفنا بابتسامتها الجميلة الرتيبة : « آه ، ابنى العزيز !! » .

وقلت أنا أيضا وأنا أقترب منها لأقبل يدها محاولا اصطناع هيئة فولوديا ولهجته عن غير قصد : « ولا تنسى ابنك العزيز الثانى » .

لو كانت زوجة أبى ونحن واثقين من تبادلنا الود ، فربما دل هذا التعبير على احتقار لعرض أية علامات للود ، واذا كانت علاقتنا بعضنا ببعض غير سليمة فربما دلت على السخرية أو الاحتقار أو المداهنة أو الرغبة فى اخفاء علاقاتنا الحقيقية عن والدنا الذى كان موجودا ، وكذلك اخفاء كثير من الأفكار والمشاعر ، ولكن فى هذه الحالة لم يكن هذا التعبير ، الذى يلائم ذوق أفدوتيا فاسليفنا الى ابعد حد ، يدل على شىء مطلقا وانما كان يشير وحسب الى عدم وجود أية علاقات مطلقا . وكثيرا ماكنت ألاحظ هذه العلاقات الزائفة المصطنعة منذئذ بين عائلات أخرى أدرك أعضاؤها أن العلاقات الحقيقية لن تكون سارة تماما ، ثم توطدت هذه العلاقات بطريقة تلقائية بيننا وبين أفدوتيا فاسليفنا . ولم نكد نحيد عن هذه العلاقات أبداً ، وكنا على الدوام نتأنق فى تأدبنا معها ، ونتكلم الفرنسية ، ونحك قدمنا وننحنى ، وننادبها « بأمنا العزيزة » وتجيب هى بمزاح دائما وبنفس الطريقة ، وبابتسامتها الرتيبة . وكانت ليوبتشكا الباكية بساقيها المقوستين وثرثرتها البريئة قد أخذت هى وحدها تميل الى زوجة أبينا ، وكافحت بسذاجة كبرى وأحيانا فى غلظة لكى تقربها من كل أفراد أسرتنا ، ولقاء ذلك كانت ليوبتشكا هى المخلوقة الوحيدة فى العالم التى تحمل لها أفدوتيا فاسليفنا قطرة من الحب باستثناء

حبها الحار لبابا ، بل كانت أفدوتيا فاسليفنا تظهر نحوها اعجاباً خاصاً مدهشا واحتراما مترددا مما سبب لى غيظاً شديداً .

كانت أفدوتيا مغرمة جدا فى أول الأمر بتسمية نفسها « زوجة أب » ، وتومىء الى الطريقة السيئة المجحفة التى ينظر بها الأطفال وأهل البيت دائما الى زوجة الأب ، وما يترتب على هذا من حرج موقفها . ولكن بالرغم من ادراكها لكل متاعب هذا الموقف ، لم تفعل شيئا لتحاشيه ، مثل ملاطفتها لشخص أو تقديم هدايا لآخر ، أو تحمل التذمر ، وكان هذا من أيسر الأمور عليها ، مادامت محبوبة جداً ، ولا يسلبها طبعها . ومع ذلك ، فانها لم تقتصر على الامتناع عن عمل شىء من هذه الأعمال ، بل على العكس ، كانت تدرك مركزها ، وأعدت نفسها للدفاع دون أن تهاجم ، وهى تسلم بأن جميع أعضاء المنزل يرغبون فى استخدام كل الوسائل التى فى متناولهم لاهانتها ، وترى فى كل شىء غرضاً ، وتعتبر أن أكرم طريقة هى أن تقاسى فى صمت ، فهذا الميل الى السلبية فى كسب الود أورثها العداوة . وفوق ذلك كان ينقصها الى حد كبير صفة تفهم بعضهم البعض بدون كلام تقريباً ، وكانت هذه قد تقدمت كثيراً فى منزلنا ، وقد سبق أن أشرت اليها ، وكانت عاداتها تتعارض كثيرا مع العادات التى أصبحت متأصلة فى بيتنا حتى أن هذه الحالة وحدها جعلت الناس يتحاملون عليها . وكانت تعيش دائما فى بيتنا النظيف المرتب كما لو كانت قد وصلت فى هذه اللحظة ! كانت تستيقظ

وتذهب للنوم آونة مبكرة ، وآونة متأخرة ، ومرة تخرج لتناول الغداء ، ومرة أخرى لا تخرج ؛ تتناول العشاء في بعض الأحيان ثم تعود فلاتتناوله أحياناً أخرى. وتتجول في البيت معظم الوقت نصف كاسية حين لا يكون لدينا ضيوف ولا تخجل من الظهور أمامنا ، بل أمام الخدم في منطق(١) أبيض مع شال حول جسمها ، وذراعين عاريتين . وكان عدم المبالاة بالعرف ، يروقني أول الأمر ، ولكن كانت نتيجته أنني سرعان مافقدت كل احترام كنت أضمره لها . وأهم مالفت نظري ، بل كان أشد غرابة أنها كانت تجمع في شخصها امرأتين مختلفتين كل الاختلاف ، وفقاً لوجود الضيوف أو عدم وجودهم : واحدة سليمة في حضرة الضيوف ، جميلة صغيرة فاترة ، أنيقة الملبس ، لا بالذكية ولا بالغبية ، ولكنها مرحة ؛ أما الأخرى فحين لا يكون هناك ضيوف ، امرأة مكتئبة مهمومة ، لم تعد بعد صغيرة ، مهملة الهندام متضايقة ، وان كانت ودودا .. وكثيرا ماكنت أفكر حين أنظر اليها بعد عودتها باسمة من زياراتها ، موردة الوجه من برودة الشتاء سعيدة لشعورها بجمـــالها ، وتذهب الى المرآة لتعاين شكلها وهي تنزع قبعتها ، أو وهي ذاهبة الى العربة تخشخش في ثوب الرقص الثمين ذي النحر العاري ، شاعرة بقليل من الخجل ولكن في كبرياء ، أمام الخدم ؛ أو في البيت ؛ في الاجتماعات المسائية الصغيرة ، مرتدية ثوبا حريريا ضيقا ، حول عنقها الناعم شريط من

(١) ماترتديه النساء تحت الثوب كالوزرة أو الكمبينزون .

المخرم الرقيق ؛ وتشرق في كل انحاءة بابتسامتها المطردة ، الجميلة مع ذلك - كثيرا مافكرت فيما يمكن أن يقوله أولئك الذين يعرفون ضدها لو أنهم رأوها كما رأيتها في الأمسيات وهي باقية في بيتها ، وهي تائهة في الحجرات الخافتة الضوء كالشبح ، في انتظار عودة زوجها من النادي ، في نوع من الدثار وشعر مشعث ؟ كانت تذهب أحيانا الى البيان فتعزف مقطوعتها الوحيـــدة في « الفالس » ضجرة بالجهد الذي تبذله ، ثم تتناول رواية ، وبعد أن تقرأ سطورا قليلة من وسطها تلقي بها جانبا ، ثم لكي لا توقظ الخدم ، تذهب بنفسها الى مخزن المؤن فتحضر خيارة وقطعة من لحم العجل البارد ، فتأكلهما وهي واقفة بالقـــرب من نافذة المخزن ، أو تطوف من حجرة الى حجرة على غير هدف ، قلقة مهمومة . ولكن الأهم من جميع الأشياء الأخرى التي سببت التباعد بيننا كان عدم فهمها الذي تجلى بنوع خاص في طريقة التفاتها الغريبة عندما يتحدث الناس اليها عن أشياء لا تعرف عنها شيئا . ولا لوم عليها في أنها اكتسبت دون وعي عادة الابتسام الخفيف بشفتيها وحدهما ، واحناء رأسها حين تقال لها أشياء لا تهمها (وهي لا تهتم بشيء سوى نفسها وزوجها) ؛ ولكن تلك الابتسامة واحناءة رأسها التي كانت تتكرر كثيراً كانتا مستقبحتين لسبب غير واضح .

وكذلك مرحها الذي كان يبدو كأنه سخرية من نفسها ومنا ومن المجتمع كله ، كان سخيفا ولا ينتقل الى أحد . ولكن أهم شيء

على الاطلاق انها لم تكن تخجل من الحديث المستمر لكل شخص عن حبها لبابا . وبالرغم من أنها لم تكذب أقل كذب في قولها بأن حياتها كلها تتألف من حبها لزوجها ؛ وبالرغم من أنها أثبتت ذلك في حياتها برمتها ، فمع ذلك ، ووفقاً لآرائها الخاصة ؛ فإن تأكيدها المستمر وفي غير تحفظ لحبها كان شيئا بغيضاً ، وتخجل لها حين تتحدث عنه أمام الغرباء ، بل كان يخجلنا أكثر مما لو أخطأت في اللغة الفرنسية .

لقد أحبت زوجها أكثر من أي شيء في العالم ، وقد أحبها زوجها ، وبخاصة في أول الأمر ؛ وحين رأى أنه لم يكن الوحيد الذي تروق له وأن الهـــدف الوحيد من وجودها كان الظفر بحب زوجها ، ولكن كان يبدو عليها كما لو كانت تفعل عن عمد كل شيء لا يروق له أن يعمله ، وذلك لـــكي تظهر له قوة حبهـــا كاملة واستعدادها للتضحية ذاتيا .

كانت مغرمة بالتمنيق ، وكان والدي يحب أن يراها جميلة في المجتمع ، تثير المديح والاعجاب ، وقد ضحت بحبها للولائم من أجل والدي ، وتعودت شيئا فشيئا البقاء في البيت ، مرتدية قميصا تحتيا (بلوزة) رمادي اللون وكان بابا الذي يعتبر الحرية والمساواة حالتين لابد منهما في العلاقات المنزلية ، يأمل في أن تسير محبوبته ليوبتشكا مع زوجته الصغيرة الطيبة معاً بطريقة مخلصة ودية ؛ ومادامت أفدوتيا فاسيليفنا هي التي تضحي بنفسها ، فقد أخذت على عاتقها أن تبدى احتراما في غير موضعه ، لسيدة البيت الحقيقية ، وهو اللقب الذي

كانت تطلقه على ليوبتشكا ، وكان ذلك يؤلم بابا ألما عميقا . وقامر أبي كثيراً في ذلك الشتاء ؛ وفي نحو نهاية الشتاء خسر قسطا كبيراً من المال ، وأخفى شئون مقامرته عن جميع أهل البيت كما كان يفعل دائما ، اذ لم يكن يحب الخلط بين لعبه وبين حياته العائلية . وضحت أفدوتيا فاسيليفنا بنفسها برغم مرضها في بعض الأحيان بل انها قرابة نهاية الشتاء ، وهي حبلى كانت ترى من واجبها الذهاب لمقابلة بابا بمشيتها المتأرجحة و « بلوزتها » الرمادية وشعرها المشعث في الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً عند عودته من ناديه ، متعبا خجلانا بعد خسائره في بعض الأحيان .

كانت تستفسر منه بفكر شارد عما اذا كان موفقاً في اللعب ، ثم تصغي اليه بالتفاتتها الملطفة وايماءات رأسها ، وهو يقص عليهـا أعماله في النادي ، ويلتمس منها ويكرر مائة مرة ألا تظل ساهرة في انتظاره . ولكن بالرغم من أن مكاسبه وخسائره والتي تتوقف عليها كل ممتلكات بابا ، لا تهتم لها أقل اهتمام ، وكانت أول من تقابله كل ليلة عندما يعود من النادي . وفوق هذا كانت مضطرة الى الذهاب لمقابلته لا بدافع شغفها بتضحية ذاتها وحدها ، ولكن بدافع من الغيرة الخفية التي كانت تقاسي منها الى أبعد حد . ولم يستطع أحد البتة اقناعها بأن بابا كان يرجع متأخراً من النادي وليس من عند احدى العشيقات . كانت تحاول قراءة أسرار حب بابا في وجهه ، ولما كانت لا تستطيع أن ترى فيه شيئا ، كانت تتنهد في كثير من الأسى ، وتستسلم الى التفكير في تعاستها .

ونتيجة لهذه التضحيات الكثيرة المستمرة نشأ في موقف بابا ازاء زوجته في نحو الأشهر الأخيرة من الشتاء ، التي خسر فيها قدراً كبيراً ، مما ترتب عليه انقباضه النفسي معظم الوقت ، نشأ شعور واضح ومختلط من « الكراهية الصامتة » ومن ذلك النفور المكبوت من الهدف الذي تدور حوله عواطف المرء التي تعبر عن نفسها بالرغبة غير الارادية في الحاق كل نوع مستطاع من المضايقات الأدبية الحقيرة بذلك الهدف .

(٩٨)

زملاء جدد

كان الشتاء قد انقضى دون أن نشعر به ، وبدأ ذوبان الجليد ، وفي الجامعة علقت قوائم الامتحان ، فتذكرت فجأة أنني يجب أن أجيب على ثمانية عشر موضوعاً حضرت محاضرات فيها ، ولكنني لم أصغ الى واحد منها أو أكتبها أو أعدها . ومن العجيب أن سؤالا مثل : «كيف أستطيع اجتياز الامتحان ؟» لم يدر بذهني مرة واحدة ، ولكني كنت في حالة مبهمة للغاية طوال ذلك الشتاء ترجع الى سروري لكوني أصبحت « كما ينبغي أن أكون » وأنني حين كان يتصادف أن أقارن نفسي بزملائي وأقول لنفسي : « انهم سيجتازون الامتحان ، ولكنهم ليسوا « كما ينبغي أن يكونوا » حتى الآن ؟ ومن ثمة فلدي ميزة فائقة عليهم ، ويجب أن أنجح ، وكنت أذهب الى المحاضرات لمجرد أنني اعتدتها وحسب ، ولأن بابا أخرجني من البيت ، هذا بالاضافة الى معارفي الكثيرين الذين كثيرا ما كنت ألقاهم وأقضي وقتا سعيدا معهم بالجامعة .. كنت أحب الضوضاء والثرثرة والضحك في القاعة الكبرى ، وأصبحت آنئذ أحب الجلوس في المقاعد الخلفية أثناء المحاضرات فأحلم بشيء أو بالآخر لرتابة صوت الأستاذ ، وأراقب زملائي ، وكنت أحب الهرب أحيانا مع شخص ما الى حانة « ماترن » لشرب الفودكا ، وتناول وجبة خفيفة . ولما كنت أعرف أن الأستاذ سيعنفني على دخولي القاعة بعد الأستاذ ، واحداث صريف مخجل بالباب ، أحببت أن أشترك في عراك لعبة « شوط مقابل شوط » التي نظمت في كثير من الضحك في الدهاليز . وكان كل ذلك مدعاة لكثرة الفكاهة .

ومع ذلك ، ففي الوقت الذي بدأ فيه الجميع حضور المحاضرات بانتظام أكثر من ذي قبل ، وبعد أن أتم أستاذ الطبيعيات مقرره ، وانصرفنا حتى يحين وقت الامتحانات ، أنشغل الطلبة في مذكراتهم واعداد أنفسهم ، وبدأت أنا أيضاً أفكر في اعداد نفسي . ولم يقتصر أوبروف الذي لم أكف عن الانحناء له ، برغم أن علاقاتنا فيما عدا ذلك كانت فاترة كما سبق أن قلت ، لم يقتصر على منحي مذكراته ، بل دعاني الى الاستعداد معه ومع طلبة آخرين من هذه المذكرات . فوافقته شاكرا مؤملا أنني بهذا الكرم أن أخفف تماما اختلافي

السابق معه ، وكان كل ماطلبته أن تعقد الاجتماعات دائما فى منزلى لأن لدى مسكنا لطيفا .

وقد أجابوا على هذا بأنهم يقصـــدون عقد هذه الاجتماعات بالمناوبة ـ فأحيانا يكون الاجتماع فى مسكن زميل وأحيانا لدى زميل آخر بحسب القرب . وتم الاجتماع الأول بمسكن زوخين ، وكان غرفة صغيرة خلف فاصل فى بيت واسع فى تروبنى بوليفار . وتأخرت فى الاجتماع الأول وحضرت بعد أن بدأت القراءة ؛ وكانت الحجرة الصغيرة ملأى بدخان التبغ الخشن الذى يستعمله زوخين . وكانت على المائدة زجاجة فودكا وأكواب وخبز وملح وعظمة ضأن .

ودعانى زوخين دون أن ينهض من مكانه لأتناول جرعة من الفودكا وأن أخلع سترتى .

وأضاف قائلا : « أتوقع أنك لم تتعود مثل هذه المنادمة ؟ » .

كان كل منهم يرتدى صـدراً قذراً لقميص من البفتـة (١) وحاولت ألا أظهر لهم ازدرائى ، فخلعت سـترتى ووضعتها على الأريكة بروح الزمالة . وراح زوخين يقرأ بصوت مرتفع مشيراً بين حـين وآخر الى كراسـات المذكرات ، بينما كان الآخـرون يستوقفونه ليوجهوا اليه الأسئلة ، فكان يجيب عنها باختصار وذكاء ودقـة .. واستمعت برهـة ، ولما كنت لم أفهم كثيراً لعـدم المامى بما سبق ، وجهت سؤالا .

(١) يكتفى بعض الفقراء بلبس صدر قميص ، وهو الجزء الذى يظهر من السترة فيظهر كأنه قميص كامل وذلك للاقتصاد وحسب .

فقال زوخين : « ليس من الخير أيها الزميل القديم أن تستمع اذا لم تعرف ذلك ، وسأعطيك كراسـات المذكرات لكى تقرأها حتى الغد » .

وخجلت لجهلى ، وأدركت فى نفس الوقت ما تنطوى عليـه ملاحظة زوخين من عـدالة تامة . فتوقفت عن الاسـتماع وشـغلت نفسى بملاحظة رفاقى الجدد ؛ ووفقاً لتقسيم الرجـال الى فئة الذين « كما ينبغى أن يكونوا » وفئة من « ليـسوا كما ينبغى أن يكونوا » ، فمن الواضح أنهم كانوا يتبعون الفئة الثانية وبالتالى أثاروا فى نفسى ، لا الشعور بالاحتقار وحسب ، بل كراهيـة شخصـية معينـة كنت أحملها لهم ، اذ بالرغم من أنهم لم يكونوا « كما ينبغى أن يكونوا » ، لم يبد لى أنهم يعتبروننى مساويا لهم وحسب ، بل كانوا يشجعوننى بطريقة لطيفة . ومما أثار فى نفسى هذا الشعور ، أقدامهم وايديهم القذرة بأظافرها المقضومة ، وكان لأبيروف ظفر واحد طويل بأصبعه الخنصر ، وصدور القمصان الوردية ، والسباب الذى اعتادوا توجيهه بعضهم الى البعض ، والحجرة القذرة ، وعادة زوخين من الشمشمة باستمرار وضغطه على احدى فتحتى أنفه بأصبعه ، وطريقة حديثهم بنوع خاص ، حيث يشـددون النبرة على كلمـات معينة فكانت تبدو لى شكلية ومنافية جداً للرقة . ولكن الشىء الذى أثار كراهيتى ، كما ينبغى أن تثور ، تلك النبرة يشددونها على كلمات روسيـة معينة ، وعلى الكلمات الأجنبية خاصة .

ولكن بالرغم من ظاهرهم الذى كنت أنفر منه فى ذلك الوقت نفوراً لا يقاوم ، استطعت الكشف عن شىء طيب فى هؤلاء الناس ؛ فقد شعرت بجاذبية نحوهم مدفوعاً بحسـدى لرفقتهم الفكهـة التى ربطت بينهم ، وأردت أن أوثق تعارفى بهم ، ولم يكن هذا بالشىء العسير على ، وكنت قد عـرفت أوبروف الرقيق المستقيم ، وقد أعجبنى كثيراً زوخين المقـدام ، ذا الذكاء الفـائق الذى كان من الواضح أنه يسيطر على كل الحلقة . كان رجلا صغيراً قوى البنية أسمر البشرة ؟ ذا وجه منتفخ الى حد ما ، ومشرق دائماً ، ولكنه ذكى نشيط مستقل الى أقصى حد . وترجع هذه السمة بنوع خاص الى جبينـه الذى لم يكن عاليـاً ، بل مقوسـاً فوق عينين عميقتين سوداوين ، وشعره القصير الخشن ، ولحيته الكثة السوداء التى يدل مظهرها على أنها لم تحلق أبداً ، ويبدو أنه لم يكن يفكر فى نفسه (وهو الشىء الذى كان يعجبنى دائماً فى الناس) ، ولكن كان من الواضح أن عقله لم يكن عقيماً بحال ، وكانت ملامحه المعبرة من تلك التى تتعرض فى نظرك الى تغير تام ومفاجىء بعد ساعات قلائل من رؤيتها لأول مرة . وهذا ما حدث لزوخين قرب نهاية السهرة ، فقد ظهرت على وجهه فجأة تجعدات جديدة ، وازداد غور عينيه ، واختلفت ابتسامته ، بل تغير كل وجهه حتى لقد أصبح من العسير أن أعرفه .

وعندما انتهى الاجتماع ، شربنا ، زوخين والطلبة الآخرون

وأنا ، زجاجة من الفودكا لكل منا ، اظهاراً لرغبتنا فى أن نكون أصدقاء أوفياء ولم يبق شىء يذكر فى الزجاجة . واستفسر زوخين عمن لديه ربع روبل حتى يمكن ارسال المرأة العجوز القائمة على خدمته لشراء بعض الفودكا ، فقدمت نقودى ، ولكن زوخين التفت الى أوبيروف كأنه لم يسمعنى ، فسحب أوبيروف كيساً صغيراً من الخرز وأعطاه النقود المطلوبة .

وقال أوبيروف الذى لم يكن قد شرب هو نفسـه شيئاً قط : « لاحظ ألا تأخذ سلفاً أكثر من اللازم » .

وأجاب زوخين وهو يمتص النخـاع من عظمـة الضـأن : « لا أظن ذلك » (وتذكرت أننى فكرت آنئذ أنه لا بد أن يكون سبب ذكائه هو أكله النخاع) ، ثم كرر عبارته « لا أظن ذلك » وهو يبتسم ابتسـامة خفيفة وكانت ابتسـامته كتلك التى يلاحظها الانسان قسراً ، ويشعر له بالامتنان من أجلها : « ولكن ما الضرر اذا فعلت ؟ أراهن على أننى أستطيع الآن مواجهـة أى واحـد من أصحابنا الذين يتطايرون كالغبار ، كل شىء هنا على أهبة الاستعداد » ثم أضاف وهو يربت رأسه فى زهو : « ولكن سيمنوف يجازف الى حد الاخفاق بطريقته فى شرب الخمر » .

الحقيقة أن نفس هذا السيمنوف الرمادى الشعر الذى سرنى كثيراً فى الامتحان الأول أن ثيابه كانت أسوأ منى ، والذى عكف بعد أن أصبح الثانى فى امتحانات دخول الجامعة على حضور المحاضرات

بانتظام ابان الشهر الأول كطالب ، قد أدمن الشراب ادماناً شديداً ، ثم لم يظهر في الجامعة مطلقاً قرابة آخر العام الدراسى .

وسأل عنه شخص ما : « أين هو ؟ » .

فراح زوخين يقول : « لقد غاب عنى ، وفى آخر مرة كنا معا ، قضينا ليلة في « ليون » ، وانتهت نهاية بديعة . ويقال ان فضيحة ما حدثت بعد ذلك ، فهذا رجل أمامك ! أى حرارة تتأجج فيه ! وأى عقل ! ومن المؤسف أنه سينتهي الى النوم ، ولكن لا شك في هذا . انه ليس من النوع الذي يجلس هادئاً بالجامعة مع نورانه هذا » .

وبعد قليل من الحديث نهضنا لكى ننصرف ، وقد اتفقنا على الاجتماع عند زوخين في الأيام التالية لأن بيته كان أقرب لجميع الباقين . وعندما خرجنا الى الفناء ، كان ضميرى يعذبنى نوعاً ما لأنهم سيذهبون جميعاً سيراً على الأقدام بينما أركب أنا وحدى الدروشكي ، فاقترحت على أوبيروف فى استحياء أن آخذه الى بيته . وخرج زوخين معنا وبعد أن اقترض قطعة فضية من فئة الروبل من أوبيروف ، ثم ذهب ليقيم بها ليلة مع أصدقائه . وبينما كنا راكبين في طريقنا حدثنى أوبيروف كثيراً عن أخلاق زوخين وطريقة حياته؛ وعندما وصلت الى البيت لم أنم الا بعد وقت طويل ، اذ أخذت أفكر فى الناس الجدد الذين تعرفت بهم ، وظللت برهة طويلة راقداً متيقظاً ، مترددا بين الاحترام الذى أثاره فى نفسى علمهم وبساطتهم وأمانتهم وشاعرية شبابهم وجسارتهم ، وبين النفور الذى شعرت به نحو مظهرهم غير الكريم . وبالرغم من كل شوقى كان من المحال تماماً فى ذلك الوقت أن أعاشرهم . لقد كانت آراؤنا مختلفة اختلافاً تاماً ، كانت هناك ظلال لا حصر لها تشكل لى كل سحر الحياة ومعناها ليس لديهم منها أية اشارة ، والعكس بالعكس . والسبب الجوهرى فى عدم معاشرتهم هو العشرون روبل ثمن قماش سترتى ، وعربتى ، وقمصانى الفاخرة ، وكان لهذا السبب اعتبار خاص عندى : وخيل الى أننى أهنتهم بدلائل رخائى ، وشعرت بذنبى أمامهم ، فلم يكن من المستطاع بحال الارتباط معهم بعلاقات من المساواة والصداقة الخالصة ، لأننى أهنت نفسى أولاً ثم ثرت ضد الاذلال الذى لا أستحقه ، وأصبحت واثقاً من نفسى . ومع ذلك فان تلك الشجاعة ذات القوة الشاعرية التى أحسستها فى زوخين فى ذلك الوقت قد طغت الى حد كبير على الجانب الخشن المعيب من أخلاقه بحيث لم تؤثر فى نفسى مطلقاً تأثيراً غير سار .

ظللت أسبوعين تقريباً أذهب كل مساء للمذاكرة عند زوخين ، وكانت مذاكرتى قليلة جداً لأننى كما سبق أن قلت فقدت الأساس منذ البداية ولم يكن لدى الصلابة الكافية للمذاكرة وحدى لكى ألحق بهم ، ولكنى ادعيت فقط أننى أصغى لما يقرأونه وأفهمه . ويخيل الى أن زملائى قد تكهنوا بادعائى ، ولاحظت أنهم كثيراً ما تخطوا فقرات كانوا هم يعرفونها ، ولم يسألونى عنها مطلقاً .

وكان تساهلي يتزايد كل يوم شيئاً فشيئاً ازاء قلة النظام في هذه الحلقة ، وشعرت بالانجذاب اليها ، وجدت فيها كثيراً من الشاعرية • وكانت كلمة الشرق وحدها التي عاهدت بها دمترى على ألا أذهب الى أي مكان من مجالس الشرب هي التي قمعت رغبتي في مشاطرتهم لهوهم •

فكرت مرة في استعراض معلوماتي في الأدب وبخاصة الأدب الفرنسي، ولذلك وجهت الحديث الى ذلك الموضوع ؟ ولشد ما كانت دهشتي ، أنهم بالرغم من نطقهم عناوين الكتب الأجنبية بالطريقة الروسية ، فقد قرأوا عدداً من الكتب أكثر مما قرأت ، وأنهم يعرفون ويقدرون الكتاب الانجليز بل والاسبانيين ، وكذلك ليساج الذي لم أكن حتى قد سمعت عنه • أما بوشكين وتشيكوفسكي فكانا أدباً بالنسبة اليهم (وليس كما كانت الحال بالنسبة الى ، كتب صغيرة ذات أغلفة صفراء كنت أقرأها وأدرسها كطفل) ، واحتقروا دوماس وسو وفيفا على السواء ، وأصدروا حكماً ، وبخاصة زوخين، على الأدب خيراً من حكمي عليه ، وأكثر وضوحاً مما أستطيع ، بحيث لم يسعني الا أن أسلم ؟ ولم يكن لى ميزة عليهم في معلوماتي الموسيقية ، وأكثر ما أدهشني أن وجدت أوبيروف يعزف على الكمنجة ، وواحداً آخر من المجموعة يعزف على الفيولونسلو والبيان ، وكلاهما كانا يعزفان في فرقة الموسيقى الجامعية، ويعرفان الموسيقى جد المعرفة ويقدرانها أسمى التقدير • وقصارى القول،

فانهما باستثناء النطق بالفرنسية والألمانية كانا يعرفان كل شيء حاولت أن أفاخر به أمامهم ، خيراً مني ، ولم يكونوا على الأقل فخورين به • كان يمكن أن أفاخر بأنني رجل مجتمع ، ولكني لم أكن كذلك ، واختلف عن فولوديا ، فما هو اذن هذا التعالي الذي كنت أنظر به اليهم ؟ - هل هو معرفتي بالأمير ايفان ايفانتش ؟ أم نطقي للغة الفرنسية ؟ أم الدروشكي ؟ أهو قمصاني الفاخرة ؟ أم أظافر يدي ؟ أليست كل هذه الأشياء عبثاً وهراء ؟ وكان يتبدل هذا التفكير في ذهني تحت تأثير الحسد لبهجة الزمالة اللطيفة الناضرة التي أراها أمامي • كانوا ينادون بعضهم البعض بضمير المفرد «أنت» وكانت بساطة معاملتهم تقرب من الخشونة ، ولكن حتى هذا المظهر الخشن لم يستطع اخفاء خوفهم من أن يجرح أحدهم شعور الآخر • وكانت كلمتا « نصاب » و« خنزير » اللتان يستعملانهما في معنى ودي يجعلانني أتراجع وألتمس لنفسي سبباً للتهكم الباطن ، ولكن هاتين الكلمتين لا تسيئان اليهم أقل اساءة ، ولا تحولان دون استنادهم الى أقوى أساس من الصداقة كل ازاء الآخر • كانوا يتصفون بالحرص والرقة في معاملاتهم بعضهم مع البعض ، كما هو الحال فقط لدى الفقراء جداً والصغار جداً من الناس • ولكن النقطة الأساسية هي أنني شممت رائحة شيء جرىء وهمجي في أخلاق زوخين ومغامراته في مشرب « لسبون » وساورني الشك في أن هذه المشارب لا بد أن تكون شيئاً مختلفاً تماماً عن التمويه بالروم المشتعل والشمبانيا التي اشتركت فيه عند البارون (ز) •

« ٩٩ »

زوخين وسيمنوف

لست أعرف الى أى طبقة من المجتمع كان ينتمى زوخين ، ولكنى أعرف أنه من طلبة مدرسة الجمنازيوم ، ولم يكن لديه مال كيفما كان ، ومن الواضح أنه لم يكن كريم المحتد ، كان فى الثامنة عشرة فى ذلك الوقت وان كان يبدو أكبر كثيراً من ذلك ، وهو بارز الذكاء ، سريع الادراك للفكرة بنوع خاص ؛ وكان تسلطه بموضوع برمته متعدد الجوانب، وادراك جميع فروعه والاستنتاجات المستمدة منه ، أيسر عليه من الفحص الدقيق للقوانين التى أدت للوصول الى هذه الاستنتاجات عن طريق المعرفة ، وكان يعرف أنه ذكى ، وكان مزهواً بذلك ، وترتب على هذا الزهو أنه كان بسيطاً ودمث الخلق فى معاملة كل شخص على نسق واحد ؛ ولا بد أنه قاسى كثيراً فى مجرى حياته ، وقد تجحت كثيراً طبيعته المتوقدة الهياسة فى الظهور بذاتها فى الحب والصداقة والمال ، والى حد محدود ، وفى الطبقات الدنيا من المجتمع ، لم يكن هناك شىء بالرغم من ذلك لم يشعر نحوه بعد أن يتحقق منه ، اما بالاحتقار واما بنوع من عدم الاهتمام أو الالتفات ، الناشىء عن السهولة الكبرى التى كان يحصل بها على كل شىء ، وواضح أنه كان يتشبث فقط بكل جديد من أجل ازدراء ما يحصل عليه بعد الظفر بغايته ، وكانت طبيعته الموهوبة تدرك هدفها دائماً ، فمن حقه أن يكون مزدريا ، وكان هذا هو موقفه تماماً من العلوم : كان يدرس قليلا ، ولا يكتب مذكرات ، ومع ذلك كانت معلوماته كاملة فى الرياضيات ، ولم يكن تفاخره غروراً حين قال انه يستطيع التفوق على الأستاذ ، ولقد فكر كثيراً فى أن ما يتعلمونه لا معنى له ، ولكنه بطبيعته النوعية ، العملية الجادة الماكرة دون وعى ، سرعان ما توافق مع مايحتاجه الأستاذ ، وأحبه جميع الأساتذة ، كان صريحاً مع السلطات ومع ذلك كانت السلطات تحترمه ، ولم يقتصر على عدم تقديره أو حبه للعلوم وحسب، بل كان يزدرى حتى أولئكم الذين أجهدوا أنفسهم فى تحصيل ماحصله هو بغاية السهولة ، ان العلوم ، كما يراها هو ، لا تحتاج الى أكثر من جزء من عشرة من مواهبه ؛ والحياة بالنسبة اليه كطالب، لم تمنحه أى شىء يستطيع أن يكرس له نفسه تكريساً كاملا ، ولكن طبيعته الثائرة النشطة ، تطلبت الحياة ، كما قال فاستسلم للانغماس فى شىء ما بقدر ما سمحت له امكانياته ، وأذعن بحماسة ورغبة لكى يستنزفه بقدر ما بقى فيه من قوة ، والآن ، قبل الامتحانات ، تحت نبوءة أوبيروف ، فقد اختفى أسبوعين لكى تستعد أثناء الشطر الأخير من الوقت فى مسكن أحد الطلبة ، ولكنه ظهر فى القاعة عند الامتحان الأول ، شاحباً هزيلا ، مرتجف اليدين ، واجتاز الامتحان بتفوق الى المرحلة الثانية ،

وفى بداية هذه المرحلة كان هناك ثمانية رجال فى جماعة

المتمرين ، وعلى رأسهم زوخين ، وكان اكوتين وسيميوف بين هذا العدد في أول الأمر ، وترك الأول هذه الجماعة لأنه لم يستطع تحمل الانغماس الطائش الذى أسرفوا فيه فى بداية ذلك العام ، بينما هجرهم الثانى لأنه وجد عربدتهم تعبث به عبثاً شديداً ، وكان كل رجال فرقتنا ينظرون اليهم فى أول الأمر بنوع من الخوف ويقص بعضهم على بعض أخبار لهوهم .

كان زوخين هو أهم الأبطال ، وقرابة نهاية العام أصبح سيميوف هو البطل ، فكان ينظر الى سيميوف بنوع معين من الخوف ، فاذا ما ظهر فى محاضرة ، وهو ما كان يحدث فى القليل النادر ، يسود الشعور بالحماس .

كان سيميوف ينتهى من أعمال الانغماس في الملذات قبل الامتحانات مباشرة بطريقة على أعظم جانب من الابداع وقوة العزيمة، اذ تهيأت لى فرصة مشاهدتها بفضل معرفتي بزوخين. وهذا ما حدث : فى مساء أحد الأيام ، وكنا قد اجتمعنا عند زوخين ، وبعد أن وضع أوبيروف بالاضافة الى الشمعة الدهنية الموضوعة فى الشمعدان ، شمعة أخرى فى زجاجة ، وأخذ يقرأ ، وقد مال برأسه فوق كراسات المذكرات ، بصوته الحاد من مذكراته الخرساء المكتوبة فى العلوم الطبيعية ، دخلت صاحبة المنزل الحجرة وأخبرت زوخين أن شخصا أحضر له رسالة مختصرة .

وترك زوخين الحجرة ولكنه عاد بسرعة ، وكان يبدو عليه الاهتمام وقد أحنى رأسه . كان ممسكاً بمذكرة مكتوبة على ورقة تغليف رمادية اللون وورقتين من فئة العشرة روبلات .

وقال وهو يرفع رأسه وهو ينظر الينا فى رزانة بل فى مهابة، وقال : « يا سادة !! هذا جزء من خبر غير عادى » وسأله أوبيروف وهو يقلب صفحات مذكراته : « هل دفعوا لك أجر قيامك بتقيتنا » واقترح شخص آخر قائلا : « فلنستمر » ولكن زوخين تابع حديثه بنفس اللهجة : « لا يا سادة ، ليس لأجلى ، لقد قلت لكم ــ جزء من خبر لا يصدق ! لقد أرسل سيميوف جنديا يحمل الى هذه الروبلات العشرين التى كان قد اقترضها منى مرة ، ويكتب لى أن أذهب الى الثكنات العسكرية ان كنت أرغب فى رؤيته ... ثم أضاف وهو يتفرس فى كل منا بدوره : هل تدركون معنى ذلك ؟ » ولم يقل أحدنا شيئاً .. وتابع زوخين حديثه : « اننى ذاهب اليه الآن مباشرة ، فهيا ان شئتم » . وارتدى كل منا سترته بسرعة ، استعداداً للذهاب الى سيميوف ، وسأل أوبيروف بصوته المصرصر : « أليس من السماجة أن نذهب اليه جميعاً بكامل عددنا ، ونتفرس فيه كما لو كان تحفة نادرة ، وكان شعورى أقرب ما يكون الى شعور أوبيروف ، وبخاصة أن معرفتى بسيميوف كانت ضئيلة ، ولكنى كنت شديد الرغبة فى أن أشعر بأننى عضو فى الجماعة العامة ، وأن أرى سيميوف حتى أننى لم أعلق على هذه الملاحظة .

وقال زوخين : « هذا لغو !! أية سماجة فى أن تذهب جميعاً لتوديع زميل لنا ؟ وماذا يهم المكان الموجود فيه ؟ انه هراء فى الحقيقة، فلماذا لا تأتون ان أردتم ذلك » •

استأجرنا عربات قليلة واصطحبنا معنا الجندى وذهبنا • لم يرض ضابط الصف القائم بالعمل أن يدعنا ندخل الى الثكنات ، ولكن زوخين استماله بطريقة ما ، وقادنا نفس الجندى الذى أحضر المذكرة الى حجرة كبيرة تضيئها عدة مصابيح ليلية صغيرة اضاءة خافتة ، وكان يجلس أو يرقد على الأسرة الموضوعة الى الجانبين المجندون فى معاطف خارجية رمادية ضخمة ، وجميعهم محلوقى مقدم الرأس • وأغرب ما لفت نظرى عند دخولنا الثكنات هو الجو الذى يكتم الأنفاس ، وصوت عدة مئات من الأشخاص المحبوسين يغطون • وتبعنا دليلنا وزوخين الذى سار بخطوات واسعة واثقة أمامنا بين الأسرة ، وعرتنى قشعريرة باطنة وأنا أتفحص كل راقد، أحاول أن أطابق بينه وبين الصورة العقلية التى تخيلتها لوجه سيميونوف المكتئب القوى بشعره الطويل المشعث الذى يغلب عليه اللون الرمادى ، وشفتيه الباهتتين ونظرة عينيه اللامعتين الرصينة • وعندما بلغنا أبعد ركن فى الثكنة حيث كان الطرف المتدلى من ذبالة منصهرة تخفق فى آخر وعاء خزفى صغير ملىء بالزيت الأسود • وأسرع زوخين الخطا ، وحينئذ وقفنا فجأة •

وقال لأحد المجندين ، وكان حليقاً كالباقين ، يجلس على سريره فى ثياب الجندى الداخلية ، ومعطف خارجى رمادى ملقى على كتفيه ، وكان يتحدث مع مجند آخر ويأكل شيئاً ما • لقد كان « هو » برأسه ذى الشعر الرمادى المجزوز حديثاً ، ومقدم رأسه الضارب الى الزرقة من أثر الحلاقة • وكان وجهه يتسم كالمعتاد بتعبير رصين قوى العزم ، كنت أخشى أن تضايقه رؤيتى ولذلك انتحيت جانباً • ويبدو أن أوبيروف شعر بنفس الشعور ، ولذلك بقى فى المؤخرة • ومع ذلك فان صوت سيميونوف وهو يحيى زوخين والآخرين بطريقته المقتضبة هدأت من روعنا ، فأسرعنا بالتقدم نحوه ، وقدمت له يدى ، وقدم له أوبيروف يده الشبيهة بلوح الخشب ، ولكن سيميونوف بادرنا فمد يده السمراء الضخمة ليوفر علينا الشعور البغيض بأننا نقدم له فضلا • وتكلم كالمعتاد ، فى هدوء وتردد قائلا : « هالو ، زوخين ، شكراً لحضوركم • • • اجلسوا يا سادة » ، ثم قال وهو يلتفت الى المجند الذى كان يؤاكله ويتحدث معه : « اذهب أنت يا كودرياشكا ، سوف نتم حديثنا فيما بعد • • • هيا اجلسوا ، حسنا ؟ هل دهشت يا زوخين ؟ ام ؟ » • فأجابه زوخين ، وهو يجلس بجانبه على السرير ، وعليه « سمات الطبيب وهو يجلس بجوار سرير أحد مرضاه » : « لا شىء يدهشنى منك البتة ، ولربما كانت دهشتى أكثر لو أنك حضرت لأداء امتحاناتك • • • حسن ، قل لنا أين كنت وكيف حدث كل

هذا ؟ فقال بصوته المليء القوى : « فى الحانات والكهوف وأمثال هذه الأماكن ، يوجد مكان للجميع هيا اجلسوا ياسادة » ثم صاح فى لهجة آمرة ، وومضة خاطفة من أسنانه البيضاء ، بالمجند الراقد الى يساره مسند رأسه على ذراعه موجهاً نظره نحونا فى فضول بليد : « أبعد قدميك عن الطريق » ثم استمر فى تعبير وجهه المضسم المتغير مع كل جملة محكية العبارة « أسمعتم تلك القصة الخاصة بالتاجر ؟ لقد مات الوغد ... لقد أرادوا طردى ، وبددت كل ما كان عندى من مال ، وليس هذا أسوأ ما فى الأمر ، سوف لا أنتهى من ديونى - انهم قذرون أيضاً ، ليس لدى شيء أسدده لهم ... حسن ، هذا كل شيء » ، وسأل زوخين : « ولكن كيف تدخل فكرة كهذه فى رأسك ؟ » ، « بكل بساطة ... لقد كنت فى ياروسلافل ، فى ستوزنكا ، كما تعرف ، وكنت مع تاجر سابق ، وهو الآن متعهد تجنيد ، وقلت له : أعطنى ألف روبل فأسجل نفسى ، وقد فعلت » وقال زوخين : « ولكن لاحظ ، أنك سيد محترم » ، « هذا لا يهم فى شيء ، لقد اهتم كيريل ايفانوف بذلك » ، « ومن هو كيريل ايفانوف ؟ » ، « هو نفس المتعهد الذى اشترانى (ولمعت عيناه بصورة غريبة جداً - بمرح وتهكم - وبدا كأنه يبتسم وهو يقول هذا) ، وقد حصلنا على اذن من (السناتو) المجلس التشريعى ، وذهبت الى نوع آخر من اللهو ، وسددت ديونى ، وها أنا ذا هنا ، وهذا كل شيء ... حسن ، لا بأس من هذا ، ليس لهم الحق فى تأديبى فالباقى على خمسة روبلات ثم من يدريني فقد تنشب الحرب » .

ثم راح يقص على زوخين مغامراته الغريبة التى لا تصدق ، وكان تعبير وجهه المضسم المتغير على الدوام وعيناه تومضان بقوة .

ولما كنا لم نستطع البقاء مدة أطول من ذلك فى الثكنات ، فقد ودعناه وانصرفنا ، وصافح كلا منا ، وقال لنا دون أن يصحبنا الى الخارج : « تعالوا من وقت لآخر أيها السادة ، فهم يقولون اننا سنرحل فى مدى شهر فقط » ثم أومأ الينا مرة أخرى بما يشبه تلك الابتسامة الخاصة به . ومع ذلك فبعد أن خطا زوخين عدة خطوات دار الى الخلف ثانية . ولما كنت أريد أن أرى كيف سيودع أحدهما الآخر فقد وقفت أنا كذلك . ورأيت زوخين يخرج نقوداً من جيبه ، ويقدمها لسيمنوف ، ولكن الأخير دفع يده جانباً ، ثم رأيتهما يقبل أحدهما الآخر ، وسمعت زوخين يصيح بصوت مرتفع نوعاً ما وهو يقترب منا : « مع السلامة أيها المغفل ! أراهن أنك ستصبح ضابطاً قبل اتمام دراستى » ، وأجابه سيمنوف الذى لا يضحك أبداً ، بضحكة عالية مجلجلة غير عادية آلمتنى ألماً شديداً . وخرجنا .

وسرنا على الأقدام طوال الطريق الى البيت . وظل زوخين صامتاً ، وهو يتشمم باستمرار ويضع أصبعاً مرة فى أحد منخاريه ومرة فى الآخر . ثم تركنا عندما وصلنا الى البيت ، وراح يأخذ دورة من الشرب حتى يحين موعد الامتحانات .

(١٠٠)

رسبت

وأخيراً جاء يوم الامتحان الأول — في حساب التفاضل والتكامل — ولكنني كنت لا أزال على حالتي المكفهرة ، ولم تكن لدي فكرة واضحة عما ينتظرني ؛ وخطر ببالي أثناء الليل بعد استمتاعي بصحبة زوخين وزملائه أنه لابد من احداث تغيير في اعتقاداتي ؛ وأن فيها شيئاً غير كريم وغير عادل فيما يجب أن تكون عليه ، ولكن في الصباح ، في ضوء الشمس ، أصبحت مرة أخرى ، كما ينبغي أن أكون ، وكنت راضيا جداً عن ذلك ، ولم أرغب في احداث أي تغيير في نفسي .

وذهبت وأنا على هذه الحال النفسية الى الامتحان الأول ، وجلست على مقعد جانبي حيث يجلس الأمراء والكونتات والبارونات ، وأخذت أتحدث معهم بالفرنسية ؛ وقد يبدو من الغريب أنه لم تطرأ على ذهني فكرة أنني سأطلب حالا للاجابة عن أسئلة في الموضوع الذي لا أعرف عنه شيئا مطلقا . وأخذت أتفرس بفتور في أولئك الذين ذهبوا للامتحان ، بل وسمحت لنفسي أن أسخر من بعضهم .

قلت لالنكا وهو عائد من منضدة الامتحان : « حسن ، جراب ؟ هل خفت ؟ » .

وقال النكا الذي تمرد تماماً على نفوذي منذ اليوم الذي دخل فيه الجامعة : « سنرى كيف ستدبر أمورك » ولم يبتسم عندما تحدثت اليه ، وأظهر نفورا مني .

وابتسمت في احتقار لاجابة النكا ، وان كان الشك الذي عبر عنه قد هزني هزة مؤقتة ، ولكن الضباب غطى هذا الشعور مرة أخرى ، وبقيت غير مكترث شارد العقل ، حتى لقد وعدت أن أتناول الغداء مع البارون (ز) بمحل ماتزن حالما أنتهي من الامتحان (كما لو كان هذا أتفه الأمور شأنا) . وعندما استدعيت مع اكوينن ، أصلحت من قميص زيي الرسمي وتقدمت الى منضدة الامتحان دون أي اكتراث .

وعرتني رعدة خفيفة من الخوف هبطت على ظهري عندما تفرس في وجهي مباشرة الأستاذ الشاب ، وهو نفس الأستاذ الذي سبق أن سألني في امتحان الدخول — ولمست ورقة المذكرة التي كتبت عليها الأسئلة . وبالرغم من أن اكوينن أخذ بطاقته بانحناءة بكل جسمه كما فعل في الامتحانات السابقة ، فانه أجاب الى حد محدود ، وان كانت اجابته سيئة جداً ، وفعلت أنا ما فعله هو في الامتحانات السابقة ، بل فعلت ماهو أسوأ ؛ لأنني أخذت بطاقة ثانية ، ولم أجب بالمرة . ونظر الأستاذ في وجهي باشفاق وقال لي بصوت ثابت ، وان كان هادئاً : —

« لن تنجح الى المرحلة التالية ياسيد ارتنيف ، وخير لك

ألا تتقدم الى أى امتحان بعد ... ان هذه المرحلة يجب أن تصفى ..
ثم أضاف : « وأنت كذلك ياسيد ايكونين » .

والتمس اكونين السماح له باعادة الامتحان كما لو كان يستجدى احسانا ، ولكن الاستاذ أجاب بأنه لا يستطيع أن يعمل فى يومين ماعجز عن عمله على مدى عام ، وأنه بالضرورة لا يستطيع أن ينجح . والتمس اكونين ثانية بطريقة مهينة يرثى لها ، ولكن الاستاذ رفض للمرة الثانية .

وقال بنفس الصوت الخفيض ، الثابت : « يمكنكما أن تنصرفا ياسادة » .

ولم أفكر فى مبارحة المنضدة الا فى تلك اللحظة ، وأخجلنى أننى اشتركت بواسطة صمتى بنصيب فى توسلات اكونين المهينة ، و لاأتذكر كيف سلكت طريقى فى القاعة بين الطلبة ؟ وأية اجابات أديتها عن أسئلتهم ، وكيف اجتزت حجرة الانتظار وعدت الى البيت . لقد كنت مغتاظا مهينا تعيساً فى غير تصنع .

وبقيت ثلاثة أيام لا أفارق حجرتى ولم أقابل أحداً ؟ ووجدت عزائى فى الدموع كما كنت فى طفولتى ، وبكيت كثيرا . بحثت عن غدارة لكى أقتل نفسى لو اشتدت بى الرغبة كثيرا الى هذا العمل ، وفكرت فى أن التكا جراب سوف يبصق على وجهى حين يقابلنى ، وأنه ان فعل فسيكون محقــاً تماما ، وأن أوبيروف سوف يبتهـــج

لمصيبتى ويخبر كل شخص عن ذلك ، وأن كولبيكوف كان على حق تماما حين أهاننى فى مشرب « اليار » ، وأن أحاديثى السخيفة مع الأميرة كورناكوفا لم يكن ينتظر لها نتيجة أخرى ، وهكذا وهكذا، ان جميع لحظات حياتى التى كانت عذابا لحبى الذاتى ، وكانت أقسى من أن تحتمل ، مرت بذهنى الواحدة بعد الأخرى ، وحاولت أن ألوم شخصاً سواى على مصائبى . وفكرت فى أن شخصا ما قد فعل هذا عامداً ، وتذمرت من الأساتذة ؟ ومن زملائى ؟ ومن فولوديا ؟ ومن بابا لأنه أرسلنى الى الجامعة ؟ بل شكوت من « العناية الالهية » لأنها سمحت بأن أحيا لأرى مهانة كهذه . وأخيراً ؟ بعد أن شعرت بمهانتى التامة فى أعين جميع من عرفونى ، رجوت بابا أن يدعنى ألتحق بفرقة الخيالة (الهوسار) أو أذهب الى القوقاز . كان بابا مستاء منى ، ولكنه حين رأى حزنى الفظيع ، واسانى بقوله ان الأمر لم يبلغ الى هذا الحد من السوء ، وأن الأمور يمكن أن تنظم بنقلى الى قسم آخر . وكذلك قال فولوديا الذى لم يجد فى مصيبتى الفظيعة أى شىء ، اننى يجب ألا أشعر على الأقل بالخجل أمام زملائى الطلبة فى الدراسات الأخرى .

لم تفهم سيداتنا شيئا مما كان يدور ، وما كن ليفهمن أو يستطعن فهم ماهو الامتحان ـ وما معنى الرسوب ، وانما أشفقن على اذ رأيننى حزينا .

كان دمترى يأتى لزيارتى كل يوم ، وكان لطيفا ودوداً الى

أقضي حد إبان هذه الفترة كلها ؛ ولكن لنفس هذا السبب خيل الى أنه أصبح فاترا نحوى ، وكان يؤلمني دائما ، ويبدو مهيناً لي حضوره وصعوده الى حجرتي وجلوسه بالقرب مني صامتا ؛ وعلى وجهه شيء من مسحة الطبيب التى يتخذها حين يجلس عند فراش مريض اشتدت به العلة . كانت صوفيا إيفانوفنا وفارنكا ترسلان الى معه كتبا كنت أرغب في قراءتها من قبل ، وأرادتا أن أذهب لأراهما . ولكني أدركت في هذه الالتفاتة نفسها تلطفاً متعالياً ومهيناً لشخصي الذى هبط الى الحضيض . وفي نهاية الأيام الثلاثة أصبحت رابط الجأش قليلا ، ولكني لم أبارح المنزل الى يوم رحيلنا الى الريف ، وكنت أفكر فقط في حزني ، وأتنقل متكاسلا من حجرة الى حجرة محاولا تجنب جميع أفراد المنزل .

فكرت ، وفكرت ؛ وأخيراً ، في ساعة متأخرة من المساء ، بينما كنت جالسا في الطابق السفلي أستمع الى عزف أفدوتيا فاسيليفنا موسيقى الفالس ، قفزت على حين فجأة وجريت الى الطابق العلوى ؛ وتناولت كراسة المذكرات التي كتبت عليها « قواعد الحياة » ؛ وفتحتها ؛ وساورتني لحظة ندم وموجة نفسية ، فبكيت ، ولكن لم تكن دموع يأس . وعندما أفقت صممت على كتابة قواعد للحياة من جديد ، وكنت مقتنعاً اقتناعا راسخاً بأنني من الآن فصاعدا لن أرتكب خطأ ، ولا أبدد دقيقة واحدة في تكاسل ؛ بل ولا أحيد عن قواعدي .

. ومهما كان من استمرار هذه القوة الأخلاقية الدافعة وقتا طويلا بما تحتويه ، وبما فيها من قوانين جديدة فرضت على نموى الأخلاقي ، فسأقص ذلك في الشطر التالي السعيد من شبابي .

ياسنايا بوليانا

في ٢٤ من سبتمبر

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣٣٩/١٩٧٣